الدرة العثيمينية

بشرح فتح رب البرية بتلخيص الحموية

لفضيلة الشيخ
محمد بن صالح العثيمين
رحمه الله

أعده

أبو سفيان
غزاي بن حمدان الأسلمي

أبو أنس
فهد بن أحمد بن مبارك الغامدي



مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

الدُّرَّةُ العُثَيْمِينِيَّةُ

بِشَرْحِ فَتْحِ رَبِّ البَرِيَّةِ بِتَلْخِيصِ الحَمَوِيَّةِ

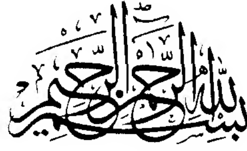
لِفَضِيلَةِ الشَّيْخ
مُحَمَّد بن صَالِح العُثَيْمِين
رَحِمَهُ الله

أعَدَّهُ

أبو سُفيان
غزاي بن حمدان الأسلمي

أبو أنس
فهد بن أحمد بن مبارك الغامدي

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت



الطبعة الثانية
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

مكتبة الإمام الذهبي

الكويت - حولي - شارع المثنى

ص .ب : ١٠٧٥ - الرمز البريدي : 32011

ت : ٢٦٥٧٨٠٦ - ف : ٢٦١٢٠٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ (آل عمران) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ (النساء) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾ (الأحزاب) .

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة .

فإن من أهم ما يبادر به اللبيب في شرخ شبابه ، ويدئب نفسه في تحصيله واكتسابه ، حسن الأدب الذي شهد الشرع والعقل بفضله واتفقت الآراء والألسنة على شكر أهله ، وإن أحق الناس بهذه الخصلة الجميلة وأولاهم بحيازة هذه المرتبة الجليلة ، أهل العلم الذين جلوا به ذروة المجد والسناء ، وأحرزوا به قصبات السبق إلى وراثة الأنبياء ، لعلمهم بمكارم أخلاق النبي ﷺ وآدابه ، وحسن سيرة الأئمة الأطهار من أهل بيته وأصحابه ، وبما كان عليه أئمة السلف ، واقتدى بهديهم فيه مشايخ الخلف .

قال ابن سيرين :كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم .

وقال الحسن : وإن كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنتين ثم السنين .

وقال سفيان بن عيينة : إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر ، وعليه تعرض الأشياء على خلقه وسيرته وهديه فما وافقها فهو الحق وما خالفها فهو الباطل .

قال الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ (الأحقاف) .

وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضي الله عنهم هو بدعة ، لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها . أهـ[1] .

واعلم أنه لا رتبة فوق رتبة من تشتغل الملائكة وغيرهم بالاستغفار والدعاء له ، وتضع له أجنحتها ، وإنه لينافس في دعاء الرجل الصالح أو من يظن صلاحه فكيف بدعاء الملائكة .

وقد اختلف في معنى وضع أجنحتها ، فقيل : التوقير والتعظيم له ، وقيل النزول عنده والحضور معه ، وقيل معناه تحمله عليها فتعينه على بلوغ مقصده .

قال علي رضي الله عنه :كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ، ويفرح به إذا نسب إليه ، وكفى بالجهل ذما أن يتبرأ منه من هو فيه .أهـ .

قال أبو الأسود الدؤلي : ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك .أهـ .

واعلم أن جميع ما ذكر من فضيلة العلم والعلماء إنما هو في حق العلماء

(١) تفسير ابن كثير ، سورة الأحقاف ، آية : ٤ .

العاملين الأبرار المتقين الذين قصدوا به وجه الله الكريم ، والزلفى لديه في جنات النعيم ، لا من طلبه لسوء نية أو خبث طوية أو لأغراض دنيوية من جاه أو مال أو مكاثرة في الأتباع والطلاب قال ﷺ :«**من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار**»(١) . وقال ﷺ: «**من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»(٢) .

ومن المهم دوام الحرص على الازدياد بملازمة الجد والاجتهاد ، والمواظبة على وظائف الأوراد من العبادة والاشتغال ولا يضيع شيئا من أوقات عمره في غير ما هو بصدده من العلم والعمل إلا بقدر الضرورة من أكل أو شرب أو نوم أو استراحة لملل أو أداء حق زوجة أو زائر أو تحصيل قوت وغيره مما يحتاج إليه .

وعليه أن يبادر شبابه وأوقات عمره إلى التحصيل ولا يغتر بخدع التسويف والتأميل ، فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها ، ولذلك استحب السلف التغرب عن الأهل والبعد عن الوطن ، ويقال :العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك .

نقل الخطيب البغدادي في الجامع عن بعضهم قال :لا ينال هذا العلم إلا

---

(١) الترمذي (٢٦٥٤) كتاب العلم ، باب ماجاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا ، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه ، وقال الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٢٥٣) حسن ، وانظر المشكاة ١/ ٧٧ (٢٢٥) (٢٢٨) .

(٢) أبو داود (٣٥١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، كتاب العلم ، باب من طلب العلم لغير الله تعالى قال الألباني وإسناده صحيح ، انظر المشكاة ١/ ٧٨ ح (٢٢٧) (٣٠) ، وصحيح ابن ماجه (٢٥٢) .

من عطل دكانه وخرب بستانه وهجر إخوانه ومات أقرب أهله إليه ولم يشهد جنازته .

وهذا كله وإن كانت فيه مبالغة ، فالمقصود به أنه لا بد فيه من جمع القلب واجتماع الفكرة .

ثم القناعة بما تيسر من القوت ، عن ابن القاسم قال :نزل بربيعة من الفقر في طلب العلم حتى باع خشب سقف في بيته في طلب العلم ، وحتى كان يأكل ما يلقى على مزابل المدينة من الزبيب وعصارة التمر .

قال الشافعي رحمه اللّه : لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح .

وعليه تنظيم الأوقات للتعليم والتعلم ، بأن يقسم أوقات ليله ونهاره ، ويغتنم ما بقي من عمره ، فإن بقية العمر لا قيمة له .

وأجود الأوقات للحفظ الأسحار ، وللبحث الأبكار ، وللكتابة وسط النهار ، وللمطالعة والمذاكرة الليل .

قال الخطيب : وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار ، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع .

قال : وأجود أماكن الحفظ الغرف ، وكل موضع بعيد عن الملهيات .

قال : وليس بحمود الحفظ بحضرة النبات والأنهار وقوارع الطرق وضجيج الأصوات ، لأنها تمنع من خلو القلب غالبا .

ثم إن من أعظم الأسباب المعينة على الاشتغال والفهم وعدم الملال ؛ أكل القدر اليسير من الحلال .

قال الشافعي رحمه الله : «ما شبعت منذ ست عشرة سنة» ، وذلك أن كثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب ، وكثرته جالبة للنوم والبلادة وقصور الذهن وفتور الحواس وكسل الجسم ، هذا مع ما فيه من الكراهية الشرعية والتعرض لخطر الأسقام البدنية ، كما قيل :

فإن الداء أكثر ما تراه
يكون من الطعام أو الشراب

ولم ير أحد من الألباء والأئمة الأعلام يصف شاكرا أو يتصف بكثرة الأكل ولا حمد به ، وإنما يحمد بكثرة الأكل من الدواب التي لا تعقل ، ولو لم يكن من آفات كثرة الطعام والشراب إلا الحاجة إلى دخول الخلاء ؛ لكان ينبغي للعاقل اللبيب أن يصون نفسه عنه ، ومن رام الفلاح في العلم وتحصيل البغية فيه مع كثرة الأكل والشرب والنوم ؛ فقد رام مستحيلا في العادة .

وأن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه ، ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة على ثمان ساعات ، وهو ثلث الزمان ، فإن احتمل حالة أقل منها فعل .

ولا بأس بمعاناة المشي ، ولا بأس بالوطأ الحلال إذا احتاج إليه ، فقد قال الأطباء بأنه يجفف الفضول ، وينشط ويصفي الذهن إذا كان عند الحاجة باعتدال ، ويحذر كثرته حذر العدو .

والذي ينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيده أو يستفيد منه ، فإن شرع أو تعرض لصحبة من يضيع عمره معه ولا يفيده ولا يستفيد منه ولا يعينه على ما هو بصدده ؛ فليتلطف في قطع عشرته من أول الأمر قبل تمكنها ، فإن الأمور إذا تمكنت عسرت إزالتها .

فإن احتاج إلى من يصحبه فليكن صاحبا صالحا دينا تقيا ورعا ذكيا كثير الخير قليل الشر حسن المداراة قليل المماراة ، إن نسي ذكّره وإن ذكر أعانه وإن احتاج واساه وإن ضجر صبّره كما قال بعضهم :

إن أخاك الصدق من كان معك

ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب زمان صدعك

شتت شمل نفسه ليجمعك

ثم إنه ينبغي للطالب أن يقدم النظر ويستخير الله فيمن يأخذ العلم عنه ، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه ، وليكن إن أمكن ممن كملت أهليته وتحققت شفقته وظهرت مروءته وعرفت عفته ، وكان أحسن تعليما وأجود تفهيما ، ولا يرغب الطالب في زيادة من العلم مع نقص في ورع أو دين أو عدم خلق جميل .

وعلى الطالب إجلال الشيخ ، قال الشافعي رحمه الله :كنت أصفح الورقة بين يدي مالك صفحا رفيقا هيبة له لئلا يسمع وقعه .

وقال الربيع :والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة له .

ويقال إنما ينتفع المتعلم بكلام المعلم إذا كان في المتعلم ثلاث خصال :التواضع ، والحرص على التعلم ، والتعظيم للعالم .

فبتواضعه ينجح في العلم ، وبحرصه يستخرج العلم ، وبتعظيمه يستعطف العالم[١] .

---

(١) مقتطفات من كتاب تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة الكناني .

قال الله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (طه) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر :٢٨) ، وقال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر :٩) ، وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ المجادلة :١١) .

وقال رسول الله ﷺ : «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»[١] .

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : تعلم العلم حسنة وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة[٢] .

فلا يخفى فضل العلم ببداهة العقل ، لأنه الوسيلة إلى معرفة الخالق وسبب الخلود في النعيم الدائم ، ولا يعرف المتقرب إلى المعبود إلا به ، فهو سبب لمصالح الدارين .

وقال بعض الحكماء :ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم ، وأي شيء فات من أدرك العلم .

وقد قيل :لا يثبط عن العلم إلا جاهل . وإذا استرذل الله عبدا زهده في العلم .

فيا أيها الشاب : عليك بالاجتهاد في طلب العلم فإنه سلم الخيرات ومفتاح السعادات ، فلا يفتح باب خير ويرتقى إلى أوج مكرمة إلا بالعلم

(١) البخاري (٧١) كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، ومسلم (١٠٣٧) ، كتاب الزكاة ، باب النهي عن المسألة ، من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما .

(٢) تذكرة السامع والمتكلم ٣٥ ، الباب الأول ـ في فضل العلم والعلماء ، وابن عبدالبر في كتاب العلم «المختصر» ٢٧ .

لأنه الطريق المستقيم والسراج المنير ، فمن اقتبسه نجا ، ومن ضله هوى في مهاوي الهوى .

ولا تسأم في طلبه تعلما وتعليما وحفظا ومطالعة وكتابة لأجل أن تناله وتعطاه ، فإنه لا يدرك بالراحة والأشر بل بالطلب والسهر ، فمن ألف السهاد بترك الوساد والمهاد وجاب البلاد نال منه المراد ، ومن طلب وجدّ وجد ، ومن قرع الباب ولجّ ولج ، ومن ألف السآمة والنوم لم ينل ما نال القوم .

فإذا رأيت نفسك لا تنهض لنيل العلوم ، ولا تدأب في إدراك المنطوق منها والمفهوم ، فاعلم أنك ممن استرذله الله وأبعده واستحوذ عليه الشيطان وأقعده :

ولله در الحريري حيث قال :

واقتبس العلم لكيما تكرما

وعاص أسباب الهوى لتسلما

واعلم أن الناس في هذا الباب على أربعة أقسام :

الأول : من رزق علما وأعين بقوة العزيمة على العمل به ، وهم خلاصة الخلق ومراد الحق جل شأنه في قوله : ﴿ **والذين آمنوا وعَملُوا الصالحات** ﴾ .

الثاني :من حرمهما معا ، وهم شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون .

الثالث :من فتح عليه باب العلم وأغلق عنه باب العمل والعزم ، فهو في رتبة الجاهل بل شر منه .

الرابع :من رزق حظا من العلم والإرادة ولكن قل نصيبه من العلم والمعرفة ، فهذا إذا وفق له الاقتداء بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم :

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ﴾ (النساء) .

وذكر الله العلم والعمل به في أكثر من ألفي آية لشرفه .

قال الألبيري في قصيدة يعظ فيها ابنه ويوصيه بطلب العلم :

أبا بكر دعوتك لو أجبتا

إلى ما فيه حظك لو عقلتا

إلى علم تكون به إماما

مطاعا إن نهيت وإن أمرتا

ويجلو ما بعينك من غشاها

ويهديك الطريق إذا ضللتا

وتحمل منه في ناديك تاجا

ويكسوك الجمال إذا عريتا

ينالك نفعه ما دمت حيا

ويبقى ذكره لك إن ذهبتا

هو العضب المهند ليس ينبو

تصيب به مقاتل من أردتا

وكنز لا تخاف عليه لصا
خفيف الحمل يوجد حيث كنتا
يزيد بكثرة الإنفاق منه
وينقص إن به كفا شددتا
فلو قد ذقت من حلواه طعما
لآثرت التعلم واجتهدتا
ولم يشغلك عنه هوى مطاع
ولا دنيا بزخرفها فتنتا
ولا ألهاك عنه أنيق روض
ولا دنيا بزينتها كلفتا
فقوت الروح أرواح المعاني
وليس بأن طعمت ولا شربتا
فواظبه وخذ بالجد فيه
فإن أعطاكه الله انتفعتا
وإن أعطيت فيه طويل باع
وقال الناس إنك قد علمتا
فلا تأمن سؤال الله عنه
بتوبيخ علمت فهل عملتا؟

فـــرأس الـــعـــلـــم تـــقـــوى الـــلـــه حـــقـــا
ولـــيـــس بـــأن يـــقـــال لـــقـــد رأســـتـــا
وأفـــضـــل ثـــوبـــك الإحـــســـان لـــكـــن
نـــرى ثـــوب الإســـاءة قـــد لـــبـــســـتـــا
إذا مـــا لـــم يـــفـــدك الـــعـــلـــم خـــيـــرا
فـــخـــيـــر مـــنـــه أن لـــو قـــد جـــهـــلـــتـــا
وإن ألـــقـــاك فـــهـــمـــك فـــي مـــهـــاو
فـــلـــيـــتـــك ثـــم لـــيـــتـــك مـــا فـــهـــمـــتـــا
ســـتـــجـــنـــي مـــن ثـــمـــار الـــعـــجـــز جـــهـــلا
وتـــصـــغـــر فـــي الـــعـــيـــون إذا كـــبـــرتـــا
وتـــفـــقـــد إن جـــهـــلـــت وأنـــت بـــاق
وتـــوجـــد إن عـــلـــمـــت ولـــو فـــقـــدتـــا
وتـــذكـــر قـــولـــتـــي لـــك بـــعـــد حـــيـــن
إذا حـــقـــا بـــهـــا يـــومـــا عـــمـــلـــتـــا
وإن أهـــمـــلـــتـــهـــا ونـــبـــذت نـــصـــحـــا
ومـــلـــت إلـــى حـــطـــام قـــد جـــمـــعـــتـــا
فـــســـوف تـــعـــض مـــن نـــدم عـــلـــيـــهـــا
ومـــا تـــغـــنـــي الـــنـــدامـــة إن نـــدمـــتـــا

إذا أبـصـرت صـحـبـك فـي سـمـاء
قـد ارتـفـعـوا عـلـيـك وقـد سـفـلـتـا

فـراجـعـهـا ودع عـنـك الـهـويـنـا
فـمـا بـالـبـطء تـدرك مـا طـلـبـتـا

ولا تـخـتـل بـمـالـك والـه عـنـه
فـلـيـس الـمـال إلا مـا عـلـمـتـا

ولـيـس لجـاهـل فـي الـنـاس مـغـن
ولـو مـلـك الـعـراق لـه تـأتـا

سـيـنـطـق عـنـك عـلـمـك فـي مـلاء
ويـكـتـب عـنـك يـومـا إن كـتـمـتـا

ومـا يـغـنـيـك تـشـيـيـد المـبـانـي
إذا بـالجـهـل نـفـسـك قـد هـدمـتـا

جـعـلـت المـال فـوق الـعـلـم جـهـلا
لـعـمـرك فـي الـقـضـيـة مـا عـدلـتـا

وبـيـنـهـمـا بـنـص الـوحـي بـون
سـتـعـلـمـه إذا طـه قـرأتـا[1]

لـئـن رفـع الـغـنـي لـواء مـال
لأنـت لـواء عـلـمـك قـد رفـعـتـا

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وقل ربي زدني علماً﴾ (طه: ١١٤).

لئن جلس الغني على الحشايا
لأنت على الكواكب قد جلستا
وإن ركب الجياد مسومات
لأنت مناهج التقوى ركبتا
ومهما افتض أبكار الغواني
فكم بكر من الحكم افتضضتا؟
وليس يضرك الإقتار شيئا
إذا ما أنت ربك قد عرفتا
فماذا عنده لك من جميل
إذا بفناء طاعته أنختا
فقابل بالقبول لنصح قولي
فإن أعرضت عنه فقد خسرتا
وإن راعيته قولا وفعلا
وتاجرت الإله به ربحتا

فهذه مقدمة يسيرة لمن أراد سلوك طريق طلب العلم على بصيرة ، اقتبستها مما دونه أهل العلم في كتبهم ، فمن رام الازدياد ، فليرجع إليها ففيها الخير والرشاد .

وكل خير في اتباع من سلف
وكل شر في ابتداع من خلف

وخـيـر الأمـور الـسـالـفـات عـلـى الـهـدى

وشـر الأمـور المحـدثـات الـبـدائـع

وبين أيدينا مؤلف عظيم صنفه داعية من دعاة الصراط المستقيم ، عالم الأمة والملة الرباني ، أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني ، وهو كتاب الفتوى الحموية ، قام باختصاره بألفاظ وجيزة ونوادر قيمة عزيزة ؛ جبل العلم وفقيه عنيزة ، علاّمة بلاد الحرمين ، أبو عبد الله محمد بن صالح العثيمين ، غفر لهما ذو الفضل والمنة ، وأسكنهما الفردوس الأعلى من الجنة .

أضفت إليها تعليقاته المفيدة ، رجاء أن نوفيه بعض ما له علينا من أيادي حميدة .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

كتبه وأعده

أبو سفيان غزاي بن حمدان الأسلمي

عنيزة ـ يوم الجمعة ٥ / ٥ / ١٤٢٤هـ

نبذة عن سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى

اسمه ونسبه :

قال الذهبي :الشيخ الإمام العالم المفسر الفقيه المجتهد الحافظ المحدث شيخ الإسلام نادرة العصر ذو التصانيف الباهرة والذكاء المفرط ، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن العالم المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام مؤلف « الأحكام» ابن عبد الله بن أبي القاسم الحراني ابن تيمية ، وهو لقب لجده الأعلى .

مولده :

في عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة بحران ، وتحول به أبوه وأقاربه إلى دمشق في سنة سبع وستين .

مشائخه :

سمع من :ابن عبد الدائم وابن أبي اليسر والكمال ابن عبد وابن أبي الخير والشيخ شمس الدين وابن الصيرفي والقاسم الأربيلي وابن علان وخلق كثير وأكثر وبالغ .

صفاته الخُلُقية والخَلقية وعلمه :

قرأ بنفسه على جماعة وانتخب ونسخ عدة أجزاء وسنن أبي داود ونظر في الرجال والعلل وصار من أئمة النقد ومن علماء الأثر مع التدين والنبالة والذكر والصيانة ، ثم أقبل على الفقه ودقائقه وقواعده وحججه والإجماع والاختلاف حتى كان يقضي منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف ، ثم يستدل ويرجح ويجتهد وحق له ذلك ، فإن شروط الاجتهاد كانت قد اجتمعت فيه ،

فإنني ما رأيت أحدا أسرع انتزاعا للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه ولا أشد استحضارا لمتون الأحاديث وعزوها إلى الصحيح أو إلى المسند أو إلى السنن منه ، كأن الكتاب والسنن نصب عينيه وعلى طرف لسانه بعبارة رشيقة وعين مفتوحة وإفحام للمخالف ، وكان آية من آيات الله تعالى في التفسير والتوسع فيه لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين .

وأما أصول الديانة ومعرفتها ومعرفة أحوال الخوارج والروافض والمعتزلة وأنواع المبتدعة فكان لا يشق فيه غباره ولا يلحق شأوه ، هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهد مثله قط والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل والفراغ من ملاذ النفس من اللباس الجميل والمأكل الطيب والراحة الدنيوية ، ولقد سارت بتصانيفه الركبان في فنون من العلم وألوان ، لعل تواليفه وفتاويه في الأصول والفروع والزهد والتفسير والتوكل والإخلاص وغير ذلك تبلغ ثلاثمائة مجلد ، لا بل أكثر ، وكان قوالا بالحق نهاء عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم ذا سطوة وإقدام وعدم مداراة الأغيار ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير في وصفه .

وأنا أقل من ينبه على قدره كلمي أو أن يوضح نبأه قلمي ، فأصحابه وأعداؤه خاضعون لعلمه مقرون بسرعة فهمه ، وأنه بحر لا ساحل له وكنز لا نظير له وأن جوده حاتمي وشجاعته خالدية .

كان الشيخ أبيض أسود الرأس واللحية قليل الشيب شعره إلى شحمة أذنه كأن عينيه لسانان ناطقان ربعة من الرجال بعيد ما بين المنكبين جهوري الصوت فصيحا سريع القراءة تعتريه حدة ثم يقهرها بحلم وصفح ، وإليه كان المنتهى في فرط الشجاعة والسماحة وقوة الذكاء ولم أر مثله في ابتهاله واستغاثته بالله تعالى وكثرة توجهه .(١)

---

(١) ذيل تاريخ الإسلام نقلاً من كتاب الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية .

تلاميذه الأعلام :

علم الدين البرزالي صاحب التاريخ والمعجم والمؤلفات الكثيرة ، وجمال الدين المزي صاحب تهذيب الكمال في الرجال ، ومحمد بن أحمد بن عبد الهادي صاحب الصارم المنكي والأجزاء المفيدة في الحديث وغيره ، وشمس الدين الذهبي صاحب تذكرة الحفاظ وميزان الاعتدال وغيرهما من الكتب النافعة ، وابن قيم الجوزية صاحب زاد المعاد وأعلام الموقعين وغيرهما من الكتب القيمة ، وأبو الفداء ابن كثير الدمشقي صاحب التفسير والبداية والنهاية وغيرهما من التآليف المفيدة ، وغيرهم من كبار علماء ذلك العصر رحمهم الله تعالى .

بعض ما قيل فيه :

قال شمس الدين ابن الحريري :إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن؟

وقال الحافظ الذهبي :وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي ، والله لو حلفت بين الركن والمقام أني ما رأيت بعيني مثله وأنه ما رأى مثل نفسه لما حنثت :

تقي الدين أضحى بحر علم
يجيب السائلين بلا قنوط

أحاط بكل علم فيه نفع
فقل ما شئت في البحر المحيط

قال الإمام الحافظ أحمد بن حجرالعسقلاني :لو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته .

وقال قاضي القضاة أبو المعالي محمد بن علي الزملكاني :كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحدا لا يعرف مثله وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يعرف أنه ناظر أحدا فانقطع معه ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه .

قال الحافظ ابن رجب :كانت العلماء والصلحاء والجنود والأمراء والتجار وسائر العامة تحبه لأنه ينتصب لنفعهم ليلا ونهارا بلسانه وعلمه .

قال القاضي أبو الفتح ابن دقيق العيد :لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلا كل العلوم بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريد .(١)

وفاته :

قد سجن غير مرة ليفتر عن خصومه ويقصر من بسط لسانه وقلمه وهو لا يرجع ولا يلوي على ناصح إلى أن توفي معتقلا بقلعة دمشق في ليلة الإثنين العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، وصلي عليه بجامع دمشق عقيب الظهر وامتلأ الجامع بالمصلين كهيئة يوم الجمعة حتى طلع الناس لتشييعه من أربع أبواب البلد ، وأقل ما قيل في عدد من شهده خمسون ألفا وقيل أكثر من ذلك ، وحمل على الرؤوس إلى مقابر الصوفية ، ودفن إلى جانب أخيه الإمام شرف الدين رحمهما الله تعالى وإيانا والمسلمين .(٢)

---

(١) نقلاً من كتاب : دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة .

(٢) نقلاً من كتاب الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية .

نبذة مختصرة عن السيرة الذاتية
لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين
رحمه الله تعالى
١٣٤٧هـ - ١٤٢١هـ

هو الشيخ محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن العثيمين الوهيبي التميمي العالم الجليل والمربي الفاضل والقدوة الصالحة في العلم والزهد والصدق والإخلاص والتواضع والورع والفتوى . هو شيخ التفسير والعقيدة والفقه والسيرة النبوية والأصول والنحو وسائر العلوم الشرعية . هو العالم الداعي إلى الله على بصيرة الذي انتفع بعلمه المسلمون في شتى أنحاء العالم الإسلامي .

ولد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٤٧هـ ، في مدينة عنيزة - إحدى مدن القصيم - بالمملكة العربية السعودية .

نشأته العلمية :

تعلم القران الكريم على جده من جهة أمه عبد الرحمن بن سليمان الدامغ - رحمه الله - ثم تعلم الكتابة وشيئاً من الأدب والحساب والتحق بإحدى المدارس وحفظ القرآن عن ظهر قلب في سن مبكرة ، وكذا مختصرات المتون في الحديث والفقه .

وكان فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله قد رتب من طلبته الكبار لتدريس المبتدئين من الطلبة وكان منهم الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع - رحمه الله - فانضم إليه فضيلة شيخنا .

ولما أدرك ما أدرك من العلم في التوحيد والفقه والنحو جلس في حلقة شيخه فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي فدرس عليه في التفسير والحديث والتوحيد والفقه وأصوله والفرائض والنحو .

ويعتبر الشيخ عبد الرحمن السعدي شيخه الأول الذي نهل من معين علمه وتأثر بمنهجه وتأصيله واتباعه للدليل وطريقة تدريسه ، وقد توسم فيه شيخه النجابة والذكاء وسرعة التحصيل فكان به حفياً ودفعه إلى التدريس وهو لا يزال طالباً في حلقته .

قرأ على الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان ـ رحمه الله ـ في علم الفرائض حال ولايته القضاء في عنيزة .

وقرأ على الشيخ عبد الرزاق عفيفي ـ رحمه الله ـ في النحو والبلاغة أثناء وجوده في عنيزة .

ولما فتح المعهد العلمي بالرياض أشار عليه بعض إخوانه أن يلتحق به فاستأذن شيخه عبد الرحمن السعدي فأذن له فالتحق بالمعهد العلمي في الرياض سنة ١٣٧٢هـ وانتظم في الدراسة سنتين انتفع فيهما بالعلماء الذين كانوا يدرسون في المعهد حينذاك ومنهم العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي والشيخ عبد العزيز بن ناصر بن رشيد والشيخ عبد الرحمن الأفريقي وغيرهم (رحمهم الله) .

واتصل بسماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز ـ رحمه الله ـ فقرأ عليه في المسجد من صحيح البخاري ومن رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية وانتفع منه في علم الحديث والنظر في آراء فقهاء المذاهب والمقارنة بينها ويعتبر سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز شيخه الثاني في التحصيل والتأثر به .

وتخرج من المعهد العلمي ثم تابع دراسته الجامعية انتساباً حتى نال الشهادة الجامعية من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض .

أعماله ونشاطه العلمي :

* بدأ التدريس منذ عام ١٣٧٠هـ في الجامع الكبير بعنيزة في عهد شيخه عبد الرحمن السعدي ، وبعد أن تخرج من المعهد العلمي في الرياض عين مدرساً في المعهد العلمي بعنيزة عام ١٣٧٤هـ .

* وفي سنه ١٣٧٦هـ توفي شيخه عبد الرحمن السعدي فتولى بعده إمامة المسجد بالجامع الكبير في عنيزة والخطابة فيه والتدريس بمكتبة عنيزة الوطنية التابعة للجامع والتي أسسها شيخه عام ١٣٥٩هـ .

* ولما كثر الطلبة وصارت المكتبة لا تكفيهم صار يدرس في المسجد الجامع نفسه ، واجتمع إليه طلاب كثيرون من داخل المملكة وخارجها حتى كانوا يبلغون المئات ، وهؤلاء يدرسون دراسة تحصيل لا لمجرد الاستماع ـ ولم يزل مدرساً في مسجده وإماماً وخطيباً حتى توفي ـ رحمه الله ـ .

* استمر مدرساً بالمعهد العلمي في عنيزة حتى عام ١٣٩٨هـ ، وشارك في آخر هذه الفترة في عضوية لجنة الخطط ومناهج المعاهد العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وألف بعض المناهج الدراسية .

* ثم لم يزل أستاذاً بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم بكلية الشريعة وأصول الدين منذ العام الدراسي ١٣٩٨ ـ ١٣٩٩هـ ، حتى توفي ـ رحمه الله ـ .

* درّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج وشهر رمضان والعطل الصيفية .

* شارك في عدة لجان علمية متخصصة عديدة داخل المملكة العربية السعودية .

* ألقى محاضرات علمية داخل المملكة وخارجها عن طريق الهاتف .

* تولى رئاسة جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية في عنيزة منذ تأسيسها عام ١٤٠٥هـ حتى وفاته ـ رحمه الله ـ

* كان عضواً في المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للعامين الدراسيين ١٣٩٨ ـ ١٣٩٩ هـ و ١٣٩٩ ـ ١٤٠٠ هـ .

* كان عضواً في مجلس كلية الشريعة وأصول الدين بفرع الجامعة بالقصيم ورئيساً لقسم العقيدة فيها .

* كان عضواً في هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية منذ عام ١٤٠٧هـ حتى وفاته ـ رحمه الله ـ وكان بالإضافة إلي أعماله الجليلة والمسؤوليات الكبيرة حريصاً على نفع الناس بالتعليم والفتوى وقضاء حوائجهم ليلاً ونهاراً حضراً وسفراً وفي أيام صحته ومرضه ـ رحمه الله تعالى رحمة واسعة ـ كما كان يلزم نفسه باللقاءات العلمية والاجتماعية النافعة المنتظمة المجدولة فكان يعقد اللقاءات المنتظمة الأسبوعية مع قضاة منطقة القصيم وأعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عنيزة ومع خطباء مدينة عنيزة ومع كبار طلابه ومع الطلبة المقيمين في السكن ومع أعضاء مجلس إدارة جمعية تحفيظ القران الكريم ومع منسوبي قسم العقيدة بفرع جامعة الإمام بالقصيم .

وكان يعقد اللقاءات العامة كاللقاء الأسبوعي في منزله واللقاء الشهري في مسجده واللقاءات الموسمية السنوية التي كان يجدولها خارج مدينته فكانت حياته زاخرة بالعطاء والنشاط والعمل الدؤوب وكان مباركا في علمه الواسع أينما توجه كالغيث من السماء أينما حل نفع .

أعلن فوزه بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام للعام الهجري ١٤١٤هـ وذكرت لجنة الاختيار في حيثيات فوز الشيخ بالجائزة ما يلي :

أولاً :تحليه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع ورحابة الصدر وقول الحق والعمل لمصلحة المسلمين والنصح لخاصتهم وعامتهم .

ثانياً : انتفاع الكثيرين بعلمه تدريساً وإفتاءً وتأليفاً .

ثالثاً : إلقاء المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة .

رابعاً : مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كبيرة .

خامساً : إتباعه أسلوباً متميزاً في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وتقديمه مثلاً حياً لمنهج السلف الصالح فكراً وسلوكاً .

كان ـ رحمه الله ـ على جانب عظيم من العلم بشريعة الله سبحانه وتعالى عمر حياته كلها في سبيل العلم وتحصيله ومن ثم تعليمه ونشره بين الناس ، يتمسك بصحة الدليل وصواب التعليل ، كما كان حريصاً أشد الحرص على التقيد بما كان عليه السلف الصالح في الاعتقاد علماً وعملاً ودعوة وسلوكاً ، فكانت أعماله العلمية ونهجه الدعوي كلاهما على ذلك النهج السليم .

لقد آتاه الله سبحانه وتعالى ملكة عظيمة لاستحضار الآيات والأحاديث لتعزيز الدليل واستنباط الأحكام والفوائد ، فهو في هذا المجال عالم لا يشق له غبار في غزارة علمه ودقة استنباطه للفوائد والأحكام وسعة فقهه ومعرفته بأسرار اللغة العربية وبلاغتها .

أمضى وقته في التعليم والتربية والإفتاء والبحث والتحقيق وله اجتهادات واختيارات موفقة ، لم يترك لنفسه وقتاً للراحة حتى إذا سار على قدميه من منزله إلى المسجد وعاد إلى منزله فإن الناس ينتظرونه ويسيرون معه يسألونه فيجيبهم ويسجلون إجاباته وفتاواه .

كان للشيخ ـ رحمه الله ـ أسلوب تعليمي رائع فريد ، فهو يسأل ويناقش ليزرع الثقة في نفوس طلابه ، ويلقي الدروس والمحاضرات في عزيمة ونشاط وهمة عالية ويمضي الساعات يلقي دروسه ومحاضراته وفتاواه بدون ملل ولا ضجر ، بل يجد في ذلك متعته وبغيته من أجل نشر العلم وتقريبه للناس .

وقد تركزت جهوده ومجالات نشاطه العلمي ـ رحمه الله ـ فيما يلي :ـ

باشر التعليم منذ عام ١٣٧٠هـ إلى آخر ليلة من شهر رمضان عام ١٤٢١هـ (أكثر من نصف قرن) رحمه الله رحمة واسعة ، فقد كان يدرس في مسجده بعنيزة كل يوم .

ويدرس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج ورمضان والعطل الصيفية .

ويدرس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

ويدرس باستخدام الهاتف داخل المملكة وخارجها عن طريق المراكز الإسلامية .

ويلقي المحاضرات العامة المباشرة والدروس في مساجد المملكة كلما ذهب لزيارة المناطق .

ويهتم بالجانب الوعظي الذي خصه بنصيب وافر من دروسه للعناية به وكان دائماً يكرر على الأسماع الآية الكريمة «واعلموا أنكم ملاقوه» ويقول «والله لو كانت قلوبنا حية لكان لهذه الكلمة وقع في نفوسنا» .

ويعتني بتوجيه طلبة العلم وإرشادهم واستقطابهم والصبر على تعليمهم وتحمل أسئلتهم المتعددة والاهتمام بأمورهم .

ويلقي خطبه من مسجده في عنيزة وقد تميزت خطبه ـ رحمه الله ـ بتوضيح أحكام العبادات والمعاملات ومناسباتها للأحداث والمواسم فجاءت كلها مثمرة مجدية محققة للهدف الشرعي منها .

ويعقد اللقاءات العلمية المنتظمة والمجدولة الأسبوعية منها والشهرية والسنوية .

ويحرر الفتاوى التي كتب الله قبولها عند الناس فاطمأنوا لها ولاختياراته الفقهية .

وينشر عبر وسائل الإعلام من إذاعة وصحافة ومن خلال الأشرطة دروسه ومحاضراته وبرامجه العلمية عبر البرنامج الإذاعي المشهور ـ نور على الدرب ـ وغيره من البرامج .

وأخيراً توجت جهوده العلمية وخدمته العظيمة التي قدمها للناس في مؤلفاته العديدة ذات القيمة العلمية من كتب ورسائل وشروح للمتون العلمية طبقت شهرتها الآفاق وأقبل عليها طلبة العلم في أنحاء العالم ، وقد بلغت مؤلفاته أكثر من تسعين كتاباً ورسالة ، ثم لا ننسى تلك الكنوز العلمية الثمينة المحفوظة في أشرطة الدروس والمحاضرات فإنها تقدر بآلاف الساعات ، فقد بارك الله تعالى في وقت هذا العالم الجليل وعمره ، نسأل الله تعالى أن يجعل كل خطوة خطاها في تلك الجهود الخيرة النافعة في ميزان حسناته يوم القيامة .

ملامح من مناقبه وصفاته الشخصية :

كان الشيخ رحمه الله تعالى قدوة صالحة ونموذجاً حياً ، فلم يكن علمه مجرد دروس ومحاضرات تلقى على أسماع الطلبة ، وإنما كان مثالاً يحتذى في علمه وتواضعه وحلمه وزهده ونبل أخلاقه .

تميز بالحلم والصبر والجلد والجدية في طلب العلم وتعليمه وتنظيم وقته والحفاظ على كل لحظة من عمره ، كان بعيداً عن التكلف وكان قمة في التواضع والأخلاق الكريمة والخصال الحميدة ، وكان بوجهه البشوش اجتماعياً يخالط الناس ويؤثر فيهم ويدخل السرور إلى قلوبهم ، ترى السعادة تعلو محياه وهو يلقي دروسه ومحاضراته ـ رحمه الله تعالى ـ .

كان رحمه الله عطوفاً مع الشباب يستمع إليهم ويناقشهم ويمنحهم الوعظ والتوجيه بالرفق واللين والإقناع .

كان حريصاً على تطبيق السنة في جميع أموره .

ومن ورعه أنه كان كثير التثبت فيما يفتي ولا يتسرع في الفتوى قبل أن يظهر له الدليل فكان إذا أشكل عليه أمر من أمور الفتوى يقول :انتظر حتى أتأمل المسألة ، وغير ذلك من العبارات التي توحي بورعه وحرصه على التحرير الدقيق للمسائل الفقهية .

كان رحمه الله يستمع إلى شكاوى الناس ويقضي حاجاتهم قدر استطاعته وقد خصص لهذا العمل الخيري وقتاً محدداً في كل يوم لاستقبال هذه الأمور ، وكان يدعم جمعيات البر وجمعيات تحفيظ القرآن ، بل قد من الله عليه ووفقه لجميع أبواب البر والخير ونفع الناس ، فكان شيخناً بحق مؤسسة خيرية اجتماعية وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

لم تفتر عزيمته في سبيل نشر العلم ، حتى أنه في رحلته العلاجية إلي الولايات المتحدة الأمريكية قبل ستة أشهر من وفاته نظم العديد من المحاضرات في المراكز الإسلامية والتقى بجموع المسلمين من الأمريكيين وغيرهم ووعظهم وأرشدهم كما أمهم في صلاة الجمعة .

وكان يحمل هم الأمة الإسلامية وقضاياها في مشارق الأرض ومغاربها ، وقد واصل ـ رحمه الله تعالى ـ مسيرته التعليمية والدعوية بعد عودته من رحلته العلاجية ، فلم تمنعه شدة المرض من الاهتمام بالتوجيه والتدريس في الحرم المكي حتى قبل وفاته بأيام .

أصابه المرض فتلقى قضاء الله بنفس صابرة راضية محتسبة ، وقدم للناس نموذجاً حياً صالحاً يقتدى به لتعامل المؤمن مع المرض المضني ، نسأل الله تعالى أن يكون في هذا رفعة لمنزلته عند رب العالمين .

وفاته رحمه الله تعالى :

اختاره الله لجواره يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٤٢١هـ بمدينة جدة وصلي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة العصر يوم الخميس السادس عشر من شهر شوال سنة ١٤٢١هـ ودفن بمكة المكرمة رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته[١] .

---

(١) أخذ من موقع مؤسسة الشيخ بتصرف .

المقدمة

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضلّ له ؛ ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فإن الله ـ تعالى ـ بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ؛ رحمة للعالمين ، وقدوة للعاملين ، وحجّة على العباد أجمعين ؛ فأدى الأمانة ، وبلّغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وبيّن للناس جميع ما يحتاجون إليه في أصول دينهم وفروعه ،

الشرح

لكن شيخ الإسلام رحمه الله أبطل هذا التقسيم وقال إنه لا دليل عليه لا من الكتاب ولا من السنة ، وأيضاً فإن الخلاف وارد حتى في الأمور العلمية العقدية ، وورد الخلاف بين الصحابة ومن بعدهم ، فمثلاً ابن عباس رضي الله عنه عنه ورد عنه أن النبي ﷺ رأى ربه(١) ، وعائشة أنكرت ذلك(٢) ، كذلك أيضاً ورد بل ثبت أن الرسول عليه الصلاة والسلام أسمع أهل بدر من الكفار ، أسمعهم الكلام وهم موتى(٣) ، وعائشة أنكرت ذلك(٤) ، وأيضاً فإن من المشهور عند أهل العلم ـ حتى حكي إجماعاً ـ أن النار لا تفنى وأن أهلها مخلدون فيها أبداً ، وثبت الخلاف في ذلك عن بعض

---

(١) الترمذي (٣٢٨٠ ، ٣٢٧٩ ، ٣٢٧٨) كتاب التفسير ، سورة النجم .

(٢) البخاري (٤٨٥٥) كتاب التفسير ، سورة النجم ، ومسلم (١٧٧) كتاب الإيمان ، معنى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ .

(٣) البخاري (٣٩٧٦) كتاب المغازي ، قتل أبي جهل ، عن أبي طلحة رضي الله عنه .

(٤) البخاري (٣٩٧٩) كتاب المغازي ، قتل أبي جهل .

السلف ، وكل هذه من الأمور العلمية العقدية ، ولو خالف أحد في أن الصلاة فرض فإنه لا يسعه الخلاف ، وهي من الأمور العملية ، لكن اعتقاد أنها واجبة هذا حقيقة علمية ، علمي وليس بعملي .

المهم أن شيخ الإسلام رحمه الله يقول : إن تقسيم الدين إلى هذا التقسيم ـ إلى أصول وفروع ـ لا دليل عليه ، وأن قولهم إن الأصول لا تجوز المخالفة فيها ولا يقر المخالف لا دليل عليه ، والمسألة ترجع إلى وضوح الدليل وعدم وضوحه ، فما كان واضحاً سواء في العمليات أو في العلميات فإن الخلاف فيه غير سائغ ، وما كان محتملاً للاجتهاد فإن الخلاف فيه سائغ ، إذ ليس قول مجتهد أو رأي مجتهد على آخر يكون دليلاً ملزماً للآخرين ، لأننا نقول إذا قلت إن هذا واجب بدليل هو واضح عندك ، ونحن نقول ليس بواجب بدليل هو واضح عندنا ، فأيّنا يجب عليه أن يتبع صاحبه ؟

إن قلت أنا يجب عليكم أن تتبعوني قلنا وأنت يجب عليك أن تتبعنا ، وحينئذ ندور في حلقة مفرغة ، إنما المشهور عند أهل العلم ما قلنا أولاً وهو ما ذكرناه هنا .

مع أن كلمة أصول الدين وفروعه يمكن أن تكون هذه الكلمة مقبولة لكن لا على أساس أن الأصول هي العلمية والفروع هي العملية ، بل نقول إن الأصول ما لا يقوم الدين إلا به ، والفروع ما يكون صفة في هذه الأصول ، أما الأصول التي تعتبر أركاناً في الإسلام فإننا نجعلها أصولاً ولو كانت من الأمور العمليات .

وأياً كان الأمر فالنبي عليه الصلاة والسلام بين للناس كل ما يحتاجون إليه في أمور الدين ، بينه بياناً واضحاً وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها .أهـ

* * *

فلم يدع خيراً إلا بيّنه وحثّ عليه ، ولم يترك شراً إلا حذّر الأمة عنه ،

الشرح

فلم يدع خيراً إلا بيّنه وحثّ عليه ، هذا صحيح ، لأن الخير مطلوب فعله فكان يبينه بعينه ويرغّب فيه .

وفي الشر قلنا ولم يدع شراً إلا حذر منه ولم نقل إلا بيّنه ، لأن من الشرور ما بينه وحذر منه ، ومنه مالم يبينه لكن حذر منه على سبيل العموم ، فمثلا الزنا والسرقة وقتل النفس وما أشبه ذلك هذا شر مُبَين ، والبدع شر لكن هل هو مبين منصوص على كل بدعة بعينها و إلا جاء على سبيل العموم ؟

جاء على سبيل العموم والتحذير .

والفرق بين ذلك وبين الخير ، أن الخير مطلوب فعله فيحتاج إلى بيانه بعينه ، يبين كل شيء حتى نفعله ، بخلاف الشر فإن الشر من باب التروك ومن باب التخلي ، فيُذكر أحيانا مفصلا وأحيانا مجملا .

وقد يقول قائل :أن المجمل مُبَين ، لأنه إذا ذكرت قاعدة عامة دخل فيه جميع الأفراد ، لكننا تحاشينا «إلا بينه» لأني كأني وجدت فيها ثقلاً من أن يقال أن الرسول بين الشر ، فهو حذر من الشر على سبيل العموم .أهـ



حتى ترك أمته على المحجّة البيضاء ، ليلها كنهارها ، فسار عليها أصحابه نيّرة مضيئة ، وتلقاها عنهم كذلك القرون المفضلة ، حتى تجهم الجو بظلمات البدع المتنوعة التي كاد بها مبتدعوها الإسلام وأهله ، وصاروا يتخبطون فيها خبط عشواء ، ويبنون معتقداتهم على نسج العنكبوت وأوهى .

الشرح

الظاهر أن هذا عليه اعتراض وهو قوله وأوهى ، لأن في القرآن : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ (العنكبوت :٤١) . فالأفضل حذفها ، وأنا في الحقيقة لا أحبها ، لأنه ما دام في القرآن : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ (العنكبوت : ٤١) ، فرأيي أننا نحذفها ما دام أن فيها شبهة .

العشواء التي لا تبصر تجد المتخبط ما يدري ، العين العشواء أو صاحبها ، المعنى أن العشواء هي التي لا تبصر فتجد صاحبها مثلا يتلمس فيقع بحية أو بشوك ، فإن كان وصفاً للناقة يمكن ولا أدري ما الأصل فيها ، لكن العشواء هي التي لا تبصر .أهـ

* * *

والربّ ـ تعالى ـ يحمي دينه بأوليائه الذين وهبهم من الإيمان والعلم والحكمة ما به يصدُّون هؤلاء الأعداء ، ويردون كيدهم في نحورهم ، فما قام أحد ببدعة إلا قيض الله ـ وله الحمد ـ من أهل السنة من يدحض بدعته ، ويبطلها .

وكان في مقدمة القائمين على هؤلاء المبتدعة :شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ، ثم الدمشقي ، المولود في حران يوم الاثنين الموافق ١٠ ربيع الأول سنة ٦٦١ هجرية ،

الشرح

يصح تيميّة وتيميَة فيكون فيها التخفيف والتشديد .أهـ

* * *

والمتوفى محبوساً ظلماً في قلعة دمشق في ذي القعدة سنة ٧٢٨ هجرية رحمه الله .

الشرح

يقولون :الأفصح في ذي الحِجة الكسر وفي ذي القَعدة الفتح هذا هو الأفصح .

ويخطؤنني إذا قلت تجارِب وتجرِبة يخطؤنني وهم يقولون تجرُبة وتجارُب حتى من طلبة العلم وهذا خطأ من ناحية اللغَة ، فالذي يقول تجارُب أو تجرُبة نقول له أخطأت ولست على لسان العرب ، بل أنت نصف عربي ، فالصواب تجرِبة وتجارِب .

قد جربوه فما زادت تجارِبهم
أبا قدامة إلا المجد والفنعا

هذا الرجل اختلف أهل النسب في نسبه هل هو عربي أو ليس عربياً ، فقيل إن آل تيمية ليسوا من العرب وأن أصلهم أكراد ، وقيل إنهم عرب وهذا هو الصحيح أنهم من العرب ، ونحن مهما كان الأمر سواء قلنا هذا هو الصحيح أو لا ، فنحن لا يضرنا أن يكون عربياً أو كردياً ، المهم أنه كان عالماً ربانياً .

إن الفتى من يقول ها أنا ذا
ليس الفتى من يقول كان أبي(١)

فالإنسان في الحقيقة نسبه هو علمه وعمله ، فهذا الرجل إن كان من العرب فلا شك أن العرب أفضل من غيرهم جنساً لا بالشخص ، فقد يكون بالشخص من هو من

---

(١) بيت شعر أوله :

كن ابن من شئت واكتسب أدباً ... يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول كان أبي

أشخاص الفرس أو الروم من هو أفضل من العرب بكثير ، لكن جنس العرب أفضل من غيرهم ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام :«خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»(١) .

وعندي أن النزاع في هذا الشيء ما هو بذات قيمة قوية ، فالرجل مهما كان ، سواء كان كرديا أو فارسيا أو غير ذلك ، الرجل قد نفع الله به الإسلام نفعاً عظيماً ، ولا نعتقد أن أحداً من علماء المسلمين ـ فيما نعلم ـ نفع مثلما نفع هذا الرجل في عصره ، بل ولا في قريب من عصره أيضاً ، وبعد عصره من باب أولى .أهـ

* * *

وله المؤلفات الكثيرة في بيان السنة ، وتوطيد أركانها ، وهدم البدع .

الشرح

من خير ما كتب منهاج السنة في الرد على الرافضة ، وكتاب العقل والنقل الذي يعبر عنه بدرء تعارض العقل والنقل ، وكلها مجموعة بطبعة واحدة ومفيدة جداً ، لكن فيهما شيء من الصعوبة ، لأنهن مبنيات على فلسفة تتعب طالب العلم المبتدىء ، ولهذا فإن تلميذه ابن القيم أسهل منه عبارة بكثير ، وإن كان دائماً تجد أن المعاني متفقة لكن تختلف الأساليب .

يقول ابن القيم أن كتاب العقل والنقل :ما في الوجود له نظير ثاني(٢) ، ما يوجد له نظير يعني في بابه ، وهو صحيح في الحقيقة إذا طالعته ، ونحن أكثره لا نعرفه ، لكن

(١) البخاري (٣٣٨٣) كتاب أحاديث الأنبياء / باب قول الله تعالى : ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ ومسلم (٢٥٢٦) كتاب فضائل الصحابة ، باب خيار الناس من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) النونية لابن القيم :

وله كتاب العقل والنقل الذي ... ما في الوجود له نظير ثاني

إذا طالعته رأيت أن الرجل عنده علم عظيم في العقل وفي النقل وفي استنباط الحجج ، وهو قال في مقدمة الكتاب :ما من صاحب بدعة يحتج بدليل إلا أنا ملتزم بأن أجعل دليله دليلاً عليه إذا كان من الكتاب والسنة .أهـ

* * *

ومما ألّفه في هذا الباب رسالة «الفتوى الحموية» التي كتبها جواباً لسؤال ورد عليه في سنة ٦٩٨ هجرية منْ «حماة» بلد في الشام ، يسأل فيه عما يقوله الفقهاء وأئمة الدين في آيات الصفات وأحاديثها؟ فأجاب بجواب يقع في حوالي ٨٣ صفحة ، وحصل له بذلك محنة وبلاء ، فجزاه الله ـ تعالى ـ عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء .

ولما كان فهم هذا الجواب والإحاطة به مما يشق على كثير ممن قرأه أحببت أن ألخص المهم منه مع زيادات تدعو الحاجة إليها وسميته «فتح رب البرية بتلخيص الحموية» .

وقد طبعته لأول مرة في سنة ١٣٨٠ هجرية ، وها أنا أعيد طبعه للمرة الثانية ، وربما غيّرت ما رأيت من المصلحة تغييره من زيادة أو حذف .

والله أسأل أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ونافعاً لعباده إنه جواد كريم .

المؤلف . .

الشرح

هذه الفتوى الحموية كتبها رحمه الله في قعدة واحدة بين الظهر والعصر ، لكن يقال إنها كانت أقل مما هي عليه الآن ، وأنه بعد ذلك زاد عليها نقولاً ، وليس هذا ببعيد ، فيكون أصل الكلام الذي في الفتوى من الشيخ رحمه الله ، وأما النقول فقد

ألحقها بها أخيراً ،لأنه ينقل عن بعضهم إلى ما يكون ثلاث صفحات أو أربع أو خمس من كتبهم ، وهو يقول إنما نقلت هذا لا لأني أقول بكل ما يقول ، لكن لما صار بعض الناس منتسباً إلى طائفة معينة ؛ صار لا يقبل الحق من غيرهم ، فرأيت أني آتي بشيء من كلامهم ليطمئن .

ولا شك أن من كان لا يقبل الحق إلا من طائفة معينة فإنه مشابه لليهود ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ (البقرة :١٤٥) ، إلى آخرها ، فالحاصل أن المؤلف رحمه الله كتب هذه الفتوى العظيمة في جلسة واحدة بين الظهر والعصر ، إلا أنه ألحقها نقولاً بعد ذلك ، ولهذا تسمى هذه الفتوى :الفتوى الحموية الكبرى ، وكلمة الكبرى فيه إشارة إلى أن هناك صغرى .أهـ

المناقشة

سؤال : يستدل بعض الناس من كلام شيخ الإسلام على أنه ليس عدوا للصوفية؟

الجواب :شيخ الإسلام ليس عدوا للصوفية ولا لغير الصوفية ، شيخ الإسلام عدو للباطل أينما كان ، فالصوفية في مذهبهم حق وفي مذهبهم باطل ، وليس كلهم على باطل ، ثم إن بعض الصوفية قد يُعذر لما قام في قلبه ، قد يعذر ولا تقوم عليه الحجة ، وقد يرد عليه شيء لا يستطيع دفعه ، ونحن سمعنا عن بعض الوعاظ أنه إذا ذكرت عنده النار يموت لأن قلبه لا يستطيع التحمل .

وأنا أقصد أنه قد يرد على قلوب هؤلاء مالا يستطيعون دفعه ، فلهذا شيخ الإسلام أحياناً يعتذر عن بعضهم ، وقد رأيت تعليقاً للشيخ محمد حامد الفقي ـ رحمه الله ـ مرة على كتاب ، وجه شيخ الإسلام العذر عن بعض الذين يتيهون في الصوفية بغير إرادة منهم ، فحمله على شيخ الإسلام حملة عنيفة وقال هذا ما يمكن أبداً .

والإنسان يجب أنه يرحم الخلق وينصر الحق ، ويعلم أن ما يرد على نفسه هو من الضعف يرد على غيره أيضاً ، وما يرد عليه من الجهل يرد على غيره .

سؤال : عبد القادر الجيلاني يستدل بأحاديث موضوعة وضعيفة ويجعله شيخ الإسلام من الأئمة ؟

الجواب :هم في الحقيقة أئمة في بعض الأمور ، وعندهم نقص وليسوا كاملين كلهم ، ولا سيما الإنسان الذي لا يعتمد على السنة يكون عنده خلل كثير ، وتجد الغزالي مثلاً يسمى الآن عند بعض الناس إمام الأئمة وحجة الإسلام ، وعنده في كتابه الذي يعتبر من أفضل الكتب عندهم «إحياء علوم الدين» عنده من الخرافات والأحاديث الباطلة والموضوعة شيء كثير .أهـ

سؤال : ابن القيم في مدارج السالكين يدافع عن الصوفية ؟

الجواب : هم مرادهم الصوفية المعتدلة الذين ليس عندهم إلا أشياء غير إرادية ينحرفون بها ، أما الصوفية البالغة غاية الصوفية ؛ فهؤلاء لا شك أن بعضهم ملحدون ، بعضهم يقول بوحدة الوجود .أهـ

* * *

الباب الأول

فيما يجب على العبد في دينه

الشرح

الدين هو العمل الذي يطلب العامل عليه الجزاء ، فكل عمل تطلب عليه الجزاء فإنه دين ، قال الله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ (الفاتحة :٤) ، المراد بالدين هنا «يوم الدين» يوم الجزاء ، ومثال أن الدين عمل من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (آل عمران :٢٤) ، وقال : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (آل عمران :١٩) ، وهذا هو المراد في هذا الباب .

في دينه : أي عمله الذي يريد الجزاء عليه .أهـ

* * *

الواجب على العبد في دينه هو اتباع ما قاله الله تعالى ، وقاله رسوله محمد ﷺ ،

الشرح

لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (النساء :٥٩) ، ثم بعد ذلك الخلفاء الراشدون ، ولهذا ما أتينا بقولنا :وقاله الخلفاء ، إيماء إلى أن طاعة الخلفاء تابعة لطاعة الله ورسوله ، على وزان قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء :٥٩) ، ولم يقل وأطيعوا أولي الأمر .أهـ

* * *

والخلفاء الراشدون المهديون

الشرح

الخلفاء جمع خليفة ، وهم الذين خلفوا النبي ﷺ في الولاية والهداية ، أما في الولاية فظاهر ومنهم الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وأما في الهداية فكل من قام بالعلم النافع والدعوة إلى الحق والعمل بالحق فإن هؤلاء خلفاء للرسول عليه الصلاة والسلام بالهداية .

وقوله الراشدون المهديون :اعلم أن الرشد هو سلوك طريق الرشاد ، بأن يعمل الإنسان بما هو رشد وصلاح وفلاح ، والهداية تكون بالعلم بالشيء ، فعليه يكون هؤلاء جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح ، العلم النافع في قوله المهديون ، والعمل الصالح في قوله الراشدون .أهـ

* * *

من بعده من الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

الشرح

هذا الواجب علينا في ديننا ، أن نتبع ما قاله الله ورسوله وما قاله الخلفاء الراشدون المهديون من بعده من الصحابة والتابعين ، وهذا هو مذهب السلف ، إذا قيل مذهب السلف فهذا مذهبهم ، أنك تتبع ما كان عليه هؤلاء ، ولا ريب أن الصحابة خير القرون كما سيأتي إن شاء الله تعالى ، التعليل قال : .أهـ

* * *

وذلك أن الله بعث محمداً ﷺ ، بالبينات والهدى ،

الشرح

البينات :الآيات البينة الدالة على نبوته ، والهدى :العلم ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ (الحديد :٢٥) ، ففي الكتاب العلم ، والبينات الآيات الدالة على أن هؤلاء من الرسل .أهـ

* * *

وأوجب على جميع الناس أن يؤمنوا به ، ويتّبعوه ظاهراً وباطناً ،

الشرح

الدليل .أهـ

* * *

فقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ (سورة الأعراف :١٥٨) .

الشرح

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ عامة ، أمر الله تعالى نبيه أن ينادي ويعلن لعموم الناس أن يقول ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ العرب والعجم ، بنو إسرائيل وغير بني إسرائيل ، كل الناس ﴿ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ ، من الله جل وعلا؟ ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فإذا كان له ملك السماوات والأرض وأنا رسوله وجب عليكم أن تتبعوه ، لأن المالك هو الذي له السيطرة والسلطان على المملوك : ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أي لا معبود حق إلا هو سبحانه وتعالى .

﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ «يحيي» هل يلاقي الحي في المعنى أم لا ؟ حي ويحيي هل معناها واحد ؟

لا ، الحي صفة بنفسه ، والمحيي صفته في غيره ، فهي من أفعاله ، ولهذا ما جاء في القرآن محيي ، لكن فيه الحي ، ولهذا لا نقول من أسماء الله المحيي ، إذ لا يشتق من أفعاله أسماء له ، كما لا نسميه الآخذ ولا الممسك ولا الباطش وما أشبه ذلك من أفعال ، ولهذا مر علينا في العقيدة أن الصفات أوسع من الأفعال لوجهين :

الأول : أنه ما من اسم إلا وهو مقرون بالصفة ، كل اسم فهو دال على صفة وليست كل صفة دالة على اسم .

الثاني : الصفات تابعة لأفعاله ، وأفعاله لا نهاية لها بخلاف الأسماء ، فالأسماء لا نقول أن لها نهاية أو لا نهاية لها لأنا لا نعرف ، لأن من أسمائه ما استأثر الله به ، وما استأثر الله بعلمه لا نقول فيه شيئاً .

إذاً «يحيي ويميت» أي يجعل الحياة في غيره ويميت غيره .أهـ

* * *

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ

الشرح

يعني قل لهم آمنوا أم خطاب من الله مستأنف ؟

الظاهر أنه خطاب مستأنف ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله النبي** ﴾ وصفه الله تعالى بالرسالة والنبوة وذلك أكمل وأبلغ ، وإلا فإن كل رسول من البشر فهو نبي .

وقوله ﴿ **الأمي** ﴾ هذا باعتبار النبي عليه الصلاة والسلام وصف مدح ، لأن هذا مما يؤكد صحة رسالته ، فهو إذاً صفة مدح في الرسول عليه الصلاة والسلام ، لكن في

غيره صفة نقص ، ولهذا قال العلماء :لا تصح إمامة الأمي ، والإنسان إذا سمع هذا قال إذاً الرسول ما تصح إمامته ـ والعياذ بالله؟

نقول : الرسول أمي لكن يقرأ القرآن ، ومراد الفقهاء أيضاً بالأمي الذي لا يحسن قراءة الفاتحة فقط .أهـ

* * *

الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ

الشرح

نعم هو أشد الناس إيمانا وأقواهم إيماناً وأخشاهم لله تعالى ﴿ **يؤمن بالله وكلماته** ﴾ كلماته جمع كلمة ، وكلماته الكونية والشرعية ، أما الكلمات الشرعية :فهي ما أوحاه الله إلى الرسل وهي الكتب المنزلة ، وأما الكلمات الكونية فهو ما يخلق بها جل وعلا : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)** ﴾ (يس :٨٢) ، فكل خلق فإنه مخلوق بكلمة ، والخلق لا نهاية له ، إذاً الرسول عليه الصلاة والسلام يؤمن بالله وكلماته ، فيكون مؤمنا بالشرع وبالقدر ﷺ ، وهكذا يجب على كل مؤمن أن يؤمن بشرع الله وبقدر الله .أهـ

* * *

﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف :١٥٨) .

الشرح

اتبعوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأمر بالإيمان به واتباعه ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه** ﴾ أي اتبعوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، فالإيمان بالله ورسوله والاتباع للرسول .

قوله : ﴿ **لعلكم تهتدون** ﴾ لعل هنا تعليل ، أي لأجل أن تصلوا إلى غاية الاهتداء .

الشاهد من هذه الآية قوله : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ ﴾ (الأعراف :١٥٨) فهذا واجب على كل مسلم .أهـ

* * *

وقال النبي ﷺ : «عليكم بسنتي»

الشرح

عليكم : بمعنى الزموا ، فهي اسم فعل أمر ، وقوله :بسنتي :أي طريقتي ، وليس المراد بالسنة هنا ما يقابل الواجب ، بل المراد به الطريقة .أهـ

* * *

وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي

الشرح

قوله «من بعدي» زمناً ومرتبة ، أما الزمن فواضح لأنهم بعده ، والمرتبة يعني إذا تعارضت سنة الرسول وسنة الخليفة فتقدم سنة الرسول عليها .

قلت لكم ذلك لأن بعض الإخوة نصح إنساناً في صلاة التراويح ، وقال له يا أخي لا تزد على إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة ولا تصل ثلاثا وعشرين فإنها ليست من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

فقال له هذا : هي من سنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام :«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين»(١) .

(١) أبوداود (٤٤٤٣) كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، والترمذي (٢٦٧٦) كتاب العلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه ، وصححه الألباني . انظر صحيح سنن ابن ماجه (١) ، باب اتباع سنة الخلفاء .

قال : الآن احتججت بما هو عليك ، قال «عليكم بسنتي» فقدم سنته «وسنة الخلفاء الراشدين» وكيف تحتج علي بسنة عمر وتدع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

فإذاً سنة الخلفاء الراشدين بعد سنة الرسول زمناً ورتبة .

على أن الذي صح عن عمر أنه أمر تميما الداري وأبي بن كعب أن يقوما بالناس بأحدى عشرة ركعة[1] ، وهذا هو المظنون بعمر رضي الله عنه لأن عمر ما يمكن أن يخالف سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأنا قلت لكم هذا على سبيل المثال ، لأن بعض الناس إذا رأى سنة الخلفاء الراشدين ولو كانت مخالفة لسنة الرسول عليه الصلاة والسلام أقامها دليلاً عليك ، وهذا ليس بصحيح ، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :«يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول قال رسول الله وتقولون قال أبو بكر وعمر»[2] فما بالكم بمن إذا قيل له قال رسول الله قال :قال فلان وفلان من العلماء ، فهذا أبعد وأبعد .

إذا كان أبو بكر وعمر الموفقان للصواب لا يحتج بقولهما على قول الرسول ﷺ فكيف بغيرهما ؟

بل إنهما هما رضي الله عنهما لا يرضيان أن أحداً يحتج بقولهما على قول الرسول ، وحينئذ يكون قولهما غير وارد أصلاً .

فنقول لمن احتج علينا بقول عالم من العلماء أو خليفة من الخلفاء على قول الرسول ؛ نقول هذا غير وارد أصلاً ، لأن هذا الذي احتججت بقوله لا يرى أن قوله يعارض به قول الرسول ، هم بأنفسهم يقولون إما بقلوبهم أو بألسنتهم يقولون إذا

(١) رواه مالك في الموطأ (٢٤٨) ، باب ما جاء في قيام رمضان عن السائب بن يزيد .

(٢) أحمد ، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه .

جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فخذوا به واضربوا بقولي عرض الحائط ، ومن ثم صاروا أئمة ، صاروا أئمة لهذا السبب ، لأنهم عرفوا قدر أنفسهم وعرفوا أنه لا مجال لهم أمام كتاب الله وسنة رسوله ، فلما عرفوا أنفسهم وتواضعوا لله رفعهم الله وصاروا أئمة بهذا .

أما الذي يريد أن يكون قوله أصلاً وقول الله ورسوله فرعاً ـ نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية ـ فهذا في الغالب يخذل ويرد ويكون كما قال الله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ فلم يأخذ بما أنزل الله من الأيات التي أعطاه أياها قال : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ (الأعراف :١٧٦) ، نسأل الله السلامة ـ ثم قال في الحديث .أهـ

* * *

تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ،

الشرح

وفي قوله تمسكوا بها ولم يقل امسكوها إشارة إلى أنها نجـــاة ، مثلما أتمسك بالحبل عند الغرق لأنجو به ، فسنة الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين نجاة .

«وعضـــوا عليها بالنواجـذ» حـتى إن انطلقــت أيديكـم بقيت أضراسكم وهذا من شدة التمسك ، فكأن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول تمسكــوا بها بكــل وســائل التعلق باليد وبالنواجذ ، وهذا يراد به شدة التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين .

واعلم أنك إذا فعلت ذلك انشرح صدرك للإسلام واطمئن قلبك بالإيمان وصار العمل لديك سهلاً ميسراً ، لكن كلما أعرضت صعب عليك العمل ، صعب عليك العمل بقدر إعراضك .

وسل الذين منّ الله عليهم بالهداية واتخذوا هذا الطريق سبيلاً ، سلهم عن مشقة العبادات عليهم ، سيقولون سهلة ، لكن سل المعرضين وقل لهم صلوا فريضة في المسجد يرون أنها من أثقل الأشياء عليهم .أهـ

* * *

وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة«[1]

الشرح

«إياكم» تحذير « محدثات الأمور» في الدين بدليل قوله :«عليكم بسنتي»

أما محدثات الأمور في الدنيا فإن كانت معينة على طاعة الله فهي سبب ووسيلة ، وإن أعانت على شر فهي سبب ووسيلة ، وهكذا .

وقول النبي عليه الصلاة والسلام « كل بدعة ضلالة» كل بدعة ، يفيد أن من قسم البدع إلى خمسة أقسام فإن تقسيمه مردود عليه ، فليس هناك بدعة حسنة ، كل البدع ضلالة ، وهذا كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونحن نشهد بالله أنه أعلم الخلق وأنه أنصح الخلق وأنه أفصح الخلق ، فلو كان هناك شيء يستثنى من البدع لم يكن الرسول جاهلا به أبداً ، ولو كان هناك شيء من البدع مستثنى لم يكتمه الرسول عن

(١) أبوداود (٤٤٤٣) كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، والترمذي (٢٦٧٦) كتاب العلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ، من حديث العرباض بن سارية ، وصححه الألباني . انظر صحيح سنن ابن ماجه (١) ، باب اتباع سنة الخلفاء .

الأمة أبداً ، ولو كتمه لكان هذا خلاف النصح ، ولو كان شيء من هذه البدع مستثنى لما كانت العبارة هكذا بهذا التعميم ، فهل الرسول لا يعرف أن يعبر؟

بل يعرف وهو أحسن تعبيراً من غيره ، فكل بدعة ضلالة ، فإذا جاءنا أولئك الذين يقسمون البدع إلى خمسة أقسام أو ثلاثة أقسام وما أشبه ذلك نقول :هذا غير صحيح ولا نقبل منكم صرفاً ولا عدلاً ، البدع كلها سيئة ، ونقول ما زعمتم أنه بدعة فليس ببدعة شرعا ، قد يكون بدعة من حيث اللغة ، لكن لا تجعلوها مورداً للتقسيم ، إذا جعلتموها مورداً للتقسيم فمعنى ذلك بل مضمون ذلك الاعتراض على كلام الرسول عليه الصلاة والسلام .

نحن نقول : إن سلمنا لكم التقسيم فإننا لا نسلم لكم أن هذا التقسيم وارد على البدعة الشرعية ، بل هو وارد على البدعة اللغوية ، فإن قصدتم أنه وارد على البدعة الشرعية فإننا لا نقبله منكم ، لعموم قول الرسول ﷺ «كل بدعة ضلالة» .

« وكل بدعة ضلالة» هل يلزم منه أن كل مبتدع ضال ؟

نقول : التضليل والتكفير والتفسيق هي في الحقيقة قسمان :قسم باعتبار الجنس وقسم باعتبار الشخص ، فباعتبار الجنس يصح أن نقول كل مبتدع ضال أو فاسق أو كافر حسب ما تقتضيه بدعته .

وباعتبار الشخص والتعيين لا ، نقول بدعته ضلالة لكن لا نصفه بالفسق أو الكفر حتى توجد شروط التكفير وتنتفي موانعه ، لكن ما ذهب إليه من البدعة نقول إنه كفر أو فسق أو ضلال حسب ما تقتضيه النصوص الشرعية ولا نبالي بهذا ، لأن الله يقول : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) ﴾ (يونس) ، فإذا قلنا مثلاً :تحريف آيات الصفات عن ظاهرها ضلال ، ربى علينا شخص وانتفخت أوداجه واحمرت عيناه وقال هل تقولون ابن حجر ضال؟ هل تقولون النووي ضال؟ هل تقولون السيوطي ضال؟ ماذا نقول؟

نقول :نعم ، أما قوله فهو قول ضلال ، وأما هو فإذا عرفنا منه النصح لله ولكتابه ولأئمة المسلمين فنحن نقول هو مخطيء لكن لا نقول هو ضال ، لأن الذي يُفهم من لفظ الضلال القدح والذم ، فنحن قد نتوقف في وصفه بالضلال ، لكننا لا نصوبه وإن حسنت نيته ، إذ لا يكفي في قبول العمل حسن النية ، لا يكفي حتى يكون موافقا للشرع «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»[1] .أهـ

* * *

والخلفاء الراشدون هم :الذين خلفوا النبي ﷺ في العلم النافع والعمل الصالح ،

الشرح

خلفوا الرسول في العلم النافع والدعوة والعمل ، هكذا ينبغي أن يكون ، لكن من الممكن أن نقول إن الدعوة من العمل الصالح ، إلا أن بيانها والنص عليها أحسن ، فهم الذين خلفوا النبي عليه الصلاة والسلام في العلم النافع والدعوة إلى الحق والعمل الصالح .أهـ

* * *

وأحق الناس بهذا الوصف هم الصحابة رضي الله عنهم ، فإن الله اختارهم لصحبة نبيه ﷺ ، وإقامة دينه ، ولم يكن الله ـ تعالى ـ ليختار ـ وهو العليم الحكيم ـ لصحبة نبيه إلا من هم أكمل الناس إيماناً ، وأرجحهم عقولاً ،

الشرح

خلافاً لمن قال إن هؤلاء بمنزلة السذج والعامة ، وأن العقلاء هم الذين أخذوا عن

(١) مسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور من حديث عائشة رضي الله عنها .

الفلاسفة ، فهؤلاء العقلاء الذين يعرفون المقدمات والنتائج ، وإذا حصل كذا صار كذا وما أشبه ذلك ، أما الذي يأخذ الدين بظاهره فهو من عامة الناس ، ولهذا يقولون إن الناس عامة وخاصة ، فالعوام هم الذين أخذوا دينهم على ظاهره ، والخاصة هم الذين أخذوه عن طريق العقل والجدال والخصومات . ،

والحقيقة أن الأمر بالعكس ، فالذين أخذوا الدين على ظاهره واستسلموا لله تعالى ظاهراً وباطناً هم أهل العقل ، أما أولئك فاسألهم عند الموت ، يقولون أكثر الناس شكاً عند الموت ـ والعياذ بالله ـ أهل الكلام[1] ، أهل الجدال هم أكثر الناس شكاً عند الموت ، لأنهم ـ والعياذ بالله ـ بنوا عقائدهم على غير شريعة .أهـ

* * *

وأقومهم عملاً

الشرح

الصحابة هم أقوم الناس عملاً لا شك في هذا .أهـ

* * *

وأمضاهم عزماً ،

الشرح

ما هناك أحد أمضى من الصحابة في العزيمة أبداً ، سيوف قاطعة باترة رضي الله عنهم ، ولهذا انظر لما رجعوا من الخندق متعبين من الجوع والحصار والأعمال والمجاهدة ، فجاء جبريل إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأمره أن يخرج إلى بني قريظة ، ندبهم إلى

---

(١) الصواعق المراسلة (٤/ ١٢٦١ ـ ١٢٦٢) .

الخروج وقال « لا يصل أحد العصر إلا في بني قريظة»(١) ذهبوا فورا في نفس اليوم وقالوا ما نصلي إلا في بني قريظة رضي الله عنهم ، ولما أصيبوا بما أصيبوا به يوم أحد وقيل لهم ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (آل عمران) ، واستجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح وانتدبوا للقتال ، فهذه في الحقيقة عزائم الرجال المؤمنين المخلصين ، ولا شك أن من بعدهم أقل منهم في هذا الأمر ، وإن كان قد حصل من التابعين جهاد في زمن الخلفاء الراشدين ، لكن أقل من الصحابة بكثير ، ولولا الصحابة ما مشى هؤلاء ولا تقدموا . أهـ

* * *

وأهداهم طريقاً ،

الشرح

أهدى الأمة طريقاً الصحابة رضي الله عنهم بلا منازع ، ولهذا أعطاهم النبي ﷺ الخيرية المطلقة فقال :«خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»(٢) .أهـ

* * *

فكانوا أحق الناس أن يُتَّبَعُوا بعد نبيهم ﷺ ، ومن بعدهم أئمة الدين ، الذين عُرفوا بالهدى والصلاح .

---

(١) البخاري (٤١١٩) كتاب المغازي ، باب مرجع النبي ﷺ ، من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ، ومسلم (١٧٧٠) كتاب الجهاد والسير ، باب المبادرة بالغزو وتقديم الأمرين المتعارضين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) البخاري (٣٦٥١) كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ من صحب النبي أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه ، ومسلم (٢٥٣٣) كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم من حديث عبيدة السلماني عن عبدالله .

الشرح

في عهد الصحابة رضي الله عنهم ما خرجت البدع التي انتشرت كبدع الجهمية وشبهها ، صحيح أنه خرج في عهد الصحابة بدعة الخوارج ، وخرج في عهد الصحابة بدعة القدرية ـ المعتزلة الذين يقولون الأمر أنف وأنكروا الكتابة ـ لكن البدع الكبيرة التي خرجت أخيراً كانت بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم ، ولهذا لا يعرف للصحابة كلام في كثير من مسائل الصفات التي حصل فيها الجدل أخيراً ، لأنه ما وجد سبب لأن يتكلموا ، فكانوا على مقتضى ظاهر القرآن والسنة ، يمشون على ظاهرها ، ولهذا لو قال لنا قائل مثلاً في بعض الأشياء التي ما حصلت إلا أخيراً ، أين كلام الصحابة فيها؟

نقول : نعتقد علم اليقين أنهم ماشون فيها على ظاهر الكتاب والسنة ، لأنه لو كان لهم ما يخالفه لنقل ، فهم ماشون أمامهم قرآن وأمامهم سنة مشوا عليها ، ولهذا فالذي أدركوه بزمنهم أخبروا بحكمه ، فإن ابن عمر لما أخبر عن الذين ينكرون القدر قال أخبرهم أنهم ليسوا بمؤمنين[1] لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال :«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»[2] ، لكن ـ ولله الحمد ـ الشريعة محفوظة ، فإنه لما مات الصحابة وانقرض عصرهم جاء زمن التابعين ومن بعدهم قيض الله ـ ولله الحمد ـ أئمة يهدون بأمر الله ، من الإمام أحمد وغيره وحفظ الله بهم السنة ، ثم تطورت الأمور وكثر الجدل وكثر النزاع ، ولكن والحمد لله ـ

(١) مسلم (١) كتاب الإيمان ، باب ما جاء في منكري القدر لكن بلفظ : «أخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني» .

(٢) البخاري (٥) كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم (١) كتاب الإيمان ، باب ما جاء في منكري القدر من حديث ابن عمر رضي الله عنهما واللفظ لمسلم .

مثلما قلنا في المقدمة ـ ما ابتدع بدعة إلا قيض الله لها من أهل السنة من يدحضها ويبينها غاية البيان ، ولا يمكن أن تنتشر البدع إلا عند خفاء السنن ، ولهذا يجب على الإخوة الذين يتمسكون بالسنن أن يظهروها ويبينوها ، ولا يقولوا هذا شيء يستنكر وينتقد علينا ، صحيح أن الناس سينتقدون أول ما يكون ، لكن إذا اطمأنوا إلى الأمر مشوا عليه ، وقد كان هناك أشياء كثيرة كانت في الأول منتقدة ولا يمكن أبداً أن تُفعل ، ولكن أصبحت الآن قد تمرن الناس عليها ، فمن يقول قبل عشرين سنة مثلاً أو أكثر من يقول أن أحداً يجرؤ على أن يصلي التراويح إحدى عشرة ركعة ؟ لو يصلي التراويح إحدى عشرة ركعة لقالوا هذا كفر بعد إسلامه ، وعند الناس أنه ثلاثة وعشرون كالفرض ، ومن يقول إن أحداً يجرؤ على أن يصلي في نعليه ؟ لا أحد يجرؤ على أن يصلي في نعليه ولا أنه يدخل المسجد بنعليه ، ومن يقول إن أحداً يجرؤ على أن يسجد للسهو بعد السلام؟

لكن السنن تفعل شيئاً فشيئاً ويُطَمأن الناس لها بالقول والبيان ، ثم البيان بالفعل وتثبت السنن وترسخ .أهـ

المناقشة

سؤال : ذكرنا من الفوائد في سورة الشعراء عند قول موسى : ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الشعراء) ، من فوائد هذه الآية أنه يوصف بالضلال من وقع في الضلال وإن كان معذورا في نفسه؟

الجواب : لم نذكر هذا إلا أن فعله فعل ضلال .أهـ

سؤال : بالنسبة للصحابة ، النظر بالعموم أم بالخصوص ؟

الجواب : بالعموم ، فليس كل الصحابة علماء .أهـ

سؤال : أثني على شيخ الإسلام فقال أحد الحاضرين : هل هو أعلم من الصحابة؟

الجواب : في العلوم التي نشأت بعدهم لا شك أنه أعلم منهم ، أما في علوم الشرع العامة فالفقهاء من الصحابة أعلم منه .

لكن الغريب وانظر المبالغة : فإن بعض الناس يقول :من قال إن شيخ الإسلام ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر ، وأنه ليس شيخاً للإسلام ، وبعض الناس يقول وإنه لو لم يبعث الرسول عليه الصلاة والسلام لبعث شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكلهن وقع والثاني سئلت عنه .

سبحان الله العظيم ، هذا تناقض عظيم ، والصواب لا هذا ولا هذا ، نحن لا نشك في شيخ الإسلام رحمه الله له قدم صدق في الإسلام وأن الله سبحانه وتعالى أنقذ به كثيراً من الناس بعده .أهـ

سؤال : ذكرنا أن الصحابة عندهم علوم حتى في الأمور المنطقية كالسبر والتقسيم وغير ذلك؟

الجواب : لكن العلوم الأخيرة التي حصلت بعد انفتاح الناس على اليونان

وغيرها ما كانوا يعرفونها ، إنما لو أدركوها لكانوا أعلم من شيخ الإسلام فيها ، فلا شك أنهم أصفى قريحة وأقوى فهماً .

وعندي في الحقيقة أن هذا السؤال ينبغي تركه ، لأنه حتى لو قلت أن شيخ الإسلام أعلم بما أدرك ، فقد يكون فيه ازدراء للصحابة أو أن أحدا يفهم من هذا تنقص الصحابة ، فكل شيء من هذا الباب يجب تركه ، ويقال الفضل عند الله تعالى ، والصحابة لا أحد يوازيهم في ميدان الصحبة أبداً .أهـ

سؤال : فيه كلام لابن المبارك أنه سئل أيهما أفضل عمر بن عبد العزيز أم معاوية ؟ فغضب غضباً شديداً لما قارنوا عمر بمعاوية ، يقول أن معاوية أفضل ! !

الجواب : يقال :غبار جهاد في أنف معاوية أفضل من عمر بن عبد العزيز ، إنما على كل حال ما دام أن الرسول قال :«خير الناس قرني» فدعها على ما هي عليه ، والفضل عند الله ، ولا شك أن شيخ الإسلام وأحمد بن حنبل وغيرهم من الأئمة لهم فضل كبير على الناس لكنه من فضل الله تعالى.أهـ

سؤال : يقول بعضهم :كيف نقول للصحابي أنه من رأى الرسول مرة ولو في طريق فكيف نجعله صحابيا ، نازع في هذا وقعد يبحث يقول ما الدليل على هذا؟ هذا اصطلاح محدثين ولا نسلم لهم ، حتى لغة ؟

الجواب : هذا هو الظاهر ، ولكن دعنا من اللغة ، فاللغة ما توافق على هذا ، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام لما قال :«ليت أننا نرى إخواننا» فقالوا : ألسنا إخوانك؟ قال :«أنتم أصحابي»(١) وهذا يشمل حتى من لم يكن معه إلا في تلك اللحظة ، قال :«أنتم أصحابي» فظاهر هذا العموم ، وكل من جلس معه فهو صاحب له .أهـ

(١) مسلم (٢٤٩) كتاب الطهارة ، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الباب الثاني

فيما تضمنته رسالة النبي ﷺ من بيان الحق في أصول الدين وفروعه

رسالة النبي ﷺ تتضمن شيئين هما :العلم النافع ، والعمل الصالح ، كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة :٣٣) ، فالهدى هو :العلم النافع .ودين الحق هو :العمل الصالح الذي اشتمل على الإخلاص لله ، والمتابعة لرسوله ﷺ

الشرح

أما الباب الأول فقد تقدم أن المقصود به بيان ما يجب على المرء في دينه ، وهو اتباع الكتاب والسنة وما قاله الخلفاء الراشدون بعد النبي ﷺ.

الباب الثاني : رسالة النبي ﷺ ، ماذا تضمنت هذه الرسالة العظيمة ؟

لا شك أن الرسول ﷺ جاء بإصلاح الخلق ، فلا بد أن تكون رسالته متضمنة لكل ما يصلح الخلق في دينهم ودنياهم ، فهي متضمنة لشيئين هما العلم النافع والعمل الصالح ، والدليل قوله تعالى : **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** (التوبة :٣٣) فهذا هو الذي جاء فيه الرسول عليه الصلاة والسلام ، الهدى ودين الحق .

إذا قلت لك : أرسلت إليك فلاناً بكتاب ، فما هو المرسل به الآن؟

الكتاب ، أُرسل محمد ﷺ بالهدى ودين الحق ، إذاً المرسَل به الهدى ودين الحق ، الهدى من الهداية وهي ضد الضلال ، فهو العلم النافع ، ولهذا كم في رسالة الرسول ﷺ من العلوم العظيمة؟

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢)﴾ (الجمعة) .

ثانياً : العمل الصالح الذي هو دين الحق ، لأن «دين» بمعنى عمل ، وهو من باب إضافة الموصوف إلى الصفة ، فدين الحق أي الدين الذي هو الحق ، مثلما يقال :مسجد الجامع أي المسجد الجامع ، فهو من باب إضافة الموصوف إلى الصفة ، إذاً «دين الحق» يعني العمل الذي هو الحق ، فرسالة الرسول ﷺ تضمنت هذين الأمرين :العلم النافع والعمل الصالح ، لأنها أخبار وقصص وأنباء عن أمور مستقبلة ، فكلها علوم نافعة ، وكذلك أعمال يقوم بها المكلف فعلاً وتركاً هي أعمال صالحة ، ولهذا قال المؤلف :فالهدى هو العلم النافع ، ودين الحق هو العمل الصالح .

والعمل الصالح لا بد أن يشتمل على أمرين :الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (البينة :٥) ، فـ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ هذا الإخلاص ، ﴿ حنفاء ﴾ ، هذه المتابعة .

وقال الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (الكهف) .

سئل الفضيل بن عياض رحمه الله عن العمل الصالح ما هو؟

قال :«ما كان خالصاً صواباً»[١] ، فخالصاً يعني مخلَصا لله وصواباً يعني موافقاً للسنة ، ويدل لذلك أيضاً قول الرسول ﷺ «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته . . إلخ[٢] ، وقوله «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[٣] هذا في المتابعة .

---

(١) حلية الأولياء ، ٨-٩٨ .

(٢) البخاري (١) كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ من حديث عمر رضي الله عنه .

(٣) مسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور من حديث عائشة رضي الله عنها .

قوله : المتابعة لرسوله ﷺ يشمل السنن والواجبات ، لكن السنن على سبيل الكمال ، والواجبات على سبيل الإلزام .أهـ

* * *

والعلم النافع يتضمن كل علم يكون للأمة فيه خير وصلاح في معاشها ومعادها ،

الشرح

في المعاش الحياة الدنيا ، والمعاد الآخرة .أهـ

* * *

وأول ما يدخل في ذلك العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله ؛

الشرح

هذا أول ما يدخل ، فإن أنفع شيء تعلم به هذه الأمور الثلاثة :أسماء الله وصفاته وأفعاله ، هذا أهم من أن تعلم الجنة والنار وما أشبه ذلك ، لأنه لا يمكن أن الإنسان يعبد الله وهو لا يعرف أسماءه ولاصفاته ، كيف يعبد ؟ يعبد شيئاً مجهولاً ؟ هذا شيء مستحيل .

والمؤلف ابن تيمية رحمه الله قدم هذه المقدمة لأجل أن يكون توطئة للرد على هؤلاء المعطلين الذين قالوا إن الرسول ﷺ ما بين الحق في أسماء الله وصفاته ، وأنه وكل ذلك إلى عقولنا ، ونحن الذين نقول هذا واجب لله وهذا ممتنع والرسول ما بين هذا .

فنقول : هذا غير صحيح ،«الهدى ودين الحق» أول ما يدخل بالهدى العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله ، هذا أول ما يدخل وأولى ما يدخل في العلم النافع الذي جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام .أهـ

* * *

فإن العلم بذلك أنفع العلوم ، وهو زبدة الرسالة الإلهية ، وخلاصة الدعوة النبوية ، وبه قوام الدين قولاً وعملاً واعتقاداً .

الشرح

هذه معروفة ، ولا يمكن أن يقوم الدين قولاً وعملاً واعتقاداً إلا بمعرفة أسماء الله وصفاته وأفعاله .

ولو قيل لك :أعبد شيئاً لكنك لا تدري ما اسم هذا الشيء ولا تعرف عن صفته شيئا ولا عن أخباره شيئاً ، فهل يمكن أن تعبده أم لا ؟ بيّن لي هذا المعبود ما أسماؤه وما صفاته وما أفعاله حتى أخافه وأرجوه ، أما شيء مجهول لا يعرف اسمه ولا صفته ولا فعله فكيف يمكن؟ .

ليس له آثار معروفة ، آيات تدل عليه وليس له صفات توجب التحبب إليه والتذلل له وليس له أسماء ، فإن هذا لا يمكن أن يعبد .

إذاً حقيقة الأمر أنه لا تكون العبادة إلا بهذا .أهـ

* * *

ومن أجل هذا كان من المستحيل أن يهمله النبي ﷺ ، ولا يبيّنه بياناً ظاهراً ينفي الشكّ ويدفع الشبهة

الشرح

علم الكلام أو علم العقائد فيه أشياء عقلية كثيرة ، والحقيقة أن الاعتماد على النقل في ذلك هو الأصل ، لكن الأمة الإسلامية ابتُليت بقوم يحاجون بشبهات يدعونها عقلية وهي وهمية إذا كانت تخالف الكتاب والسنة ، فلا بد إذاً من أن ندخل المجال معهم حتى نتمكن من المشي ، لأن هؤلاء إذا حاججتهم بالنصوص يقولون هذا

ظاهر يحتمل التأويل ، ثم يوقعون الناس في متاهات عظيمة ، وهم ـ والعياذ بالله ـ حيث أنهم يريدون الرئاسة فقط ، لا يريدون إلا أن تتبعهم العامة فقط ، لا يريدون إلا ذلك لا يريدون وجه الله وبيان الحق ، فيأتون بألفاظ طويلة غريبة عجيبة إذا سمعها الإنسان العامي اقشعر جلده وقال هذا هو الحق ، أين أنتم يا من تقولون قال أبو هريرة ، هذا العقل العظيم وهذا الذي قدر الله حق قدره ، ما نتبع إلا هذا ، ولذلك اغتر بهم عالم كثير حتى الخلفاء اغتروا بهم .

قال المؤلف : بياناً ظاهراً ينفي الشكّ ، والشك محله القلب .

ويدفع الشبهة ومحلها اللسان ، لأن المراد بالشبهة هنا الحجج والشبهات التي يلقيها هؤلاء ، فهم يلقون شبهات على الناس يغرونهم بها .أهـ

* * *

وبيان استحالته من وجوه :الأول ـ أن رسالة النبي ﷺ ، كانت مشتملة على النور والهدى ؛

الشرح

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) ﴾ (النساء :١٧٤) . فهي نور وهدى وبينات .أهـ

* * *

فإن الله بعثه بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ،

الشرح

ليس سراجا فقط ، بل سراج منير ينير كل ما يبلغه .أهـ

* * *

حتى ترك أمته على المحجة البيضاء

الشرح

المحجة بمعنى الطريق ، البيضاء :المنيرة التي لا ظلمة فيها .أهـ

* * *

ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ،

الشرح

ظهر لك من بعيد نور تظنه نورا ، فإن التفت لهذا وتركت الذي مع الرسول ﷺ ضللت ، وإن اتبعت الأول الذي هو النور الذي مع الرسول ﷺ فإنك تنجو ، لأن بعض الشبه التي يوردها أهل الإلحاد قد تبدو لأول وهلة حقا فيظنها الإنسان حقا ، كما سيأتي إن شاء الله في كلام المؤلف .

* * *

حجج تهافت كالزجاج تخالها
حقا وكلٌ كاسر مكسور .أهـ

* * *

وأعظم النور وأبلغه ما يحصل للقلب بمعرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فلا بد أن يكون النبي ﷺ ، قد بيّنه غاية البيان .

الشرح

وهذا صحيح ، لكن نحن بضاعتنا في هذا الأمر مزجاة ، فلا نتصور هذا النور العظيم الذي يحصل بمعرفة أسماء الله وصفاته ، وأن جميع ما يحصل في الكون فإنه من مقتضى أسمائه وصفاته ، وإذا أردت أن تستبين شيئا من هذا الأمر فعليك بمراجعة

كتاب مدارج السالكين لابن القيم رحمه الله ، تجد أمرا عظيما كيف أن الله فتح على هذا الرجل من معرفة مقتضيات أسمائه وصفاته ما يبهر العقل ، وتقول سبحان الله كل هذا كائن وأنا عنه نائم ، شيء عظيم يظهر لك من مقتضيات هذه الأسماء العظيمة وهذه الصفات الكاملة ما لا يخطر بالبال ، حتى كأن الإنسان إذا راجع هذا الكلام لابن القيم وشاهد الكون كأنه يسبح في أمواج من النور وينسى كل شيء في الواقع ، لأنه ينظر إلى هذا الكون بمقتضى أسماء الله وصفاته وأفعاله فيجد العجب العجاب ، وعلى هذا قال الشاعر :

وفـــــي كـــــل شـــــيء لـــــه آيـــــة

تـــــدل عـــــلـــــى أنـــــه واحـــــد

لكن فقط تحتاج إلى قلب واع متفكر ، ونسال الله أن يتوب علينا ، التفكر في أسماء الله وصفاته وأفعاله التي هي آياته الكونية ، هذا أمر نحن عنه محجوبون إلا أن يشاء الله .

إذاً فالرسول ﷺ رسالته مشتملة على النور والهدى ، وأعظم النور ما يحصل للقلب بمعرفة أسماء الله وصفاته وأفعاله .أهـ

* * *

الثاني - أن النبي ﷺ علّم أمته جميع ما تحتاج إليه من أمور الدين والدنيا ،

الشرح

علم أمته جميع ما تحتاج إليه حتى في المعاملات ، لكن هذا التعليم نوعان :

١- نوع تعليم خاص في مسألة معينة

٢- ونوع تعليم عام في قواعد كلية ، لأن حصر جزئيات المسائل أمر غير ممكن ،

ليس غير ممكن بالنسبة إلى الله تعالى ، فبالنسبة إلى الله ، الله بكل شيء عليم ، لكن غير ممكن بالنسبة لاستيعابه من قبل البشر .

وما ظنكم لو أنه ذكر في القرآن الكريم كل ما سيحدث في الدنيا من أمر وحكمه ، كم سيكون القرآن من مجلدات؟

مجلدات لا تحصى ولا يستطيع الإنسان أن يستوعبها ، لكن الله جل وعلا جعل الشريعة نوعين :نوعا نُص على حكمه بخصوصه ، وهذا الشيء الذي يحتاج الناس فيه إلى بيانه بعينه : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ (المائدة :٣) ، ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ ﴾ (النساء :٢٣) إلخ .

وقسم آخر عام ، قواعد عامة لا تختص بشيء معين ، فيدخل فيها من الجزئيات ما لا يعلمه إلا الله ، وهذه الأخيرة هي التي يختلف فيها الناس اختلافا عظيما ، لأنها تتركز على الفهم ، وعلى معرفة القواعد والأصول الشرعية ، قال أبو هريرة ﵁: «نهى النبي ﷺ عن بيع الغرر»[1] يدخل في هذه القاعدة من المسائل ما لا يحصيه إلا الله ، فتأتي مثلا إلى التأمينات الاجتماعية :نعرف الحكم من هذا الحديث .

وقال الله تعالى في القرآن : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ ﴾ (المائدة :٩٠) الميسر كلمة عامة ممكن أن نعرف بها كل ما يحدث من هذه المقامرات وما أشبهها ، وقال النبي ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات»[2] يدخل في هذا الحديث كل الأعمال ، حتى نية التحليل في النكاح وحتى نية إبطال الشفعة في إيقاف المشفوع وغيره مما لا تدرك جزئياته .

---

(١) مسلم (١٥١٣) كتاب البيوع ، باب بطلان بيع الحصاة والبيع الذي فيه غرر من حديث أبي هريرة ﵁ .

(٢) البخاري (١) كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ من حديث عمر ﵁ .

والمهم أن الرسول ﷺ علم أمته جميع ما تحتاج إليه من أمور الدين والدنيا .أهـ

* * *

حتى آداب الأكل ، والشرب ، والجلوس ، والمنام وغير ذلك .

الشرح

آداب الأكل موجودة في القرآن والسنة ، في القرآن : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ (الأعراف :٣١) ، ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ (الأنعام :١٢١) ، ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ (الأحزاب :٥٣) ، ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ (المائدة :٤) .

في آداب الجلوس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾ (المجادلة :١١) .

كذلك أيضاً في آداب الشرب ، في القرآن : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ (الأعراف :٣١) ، والسنة بينت ذلك أيضاً ، فزجر النبي ﷺ أن يشرب الرجل قائما»[١] «وشرب قائما»[٢] فالنبي ﷺ شرب مرة قائما من زمزم ومرة شرب قائما من شن معلق[٣] ، فالأول للحاجة والثاني للحاجة لكن الحاجة مختلفة ، الأول

(١) مسلم (٢٠٢٥) كتاب الأشربة ، باب في الشرب قائماً من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) البخاري (١٦٣٧) كتاب الحج ، باب ما جاء في زمزم ، ومسلم (٢٢٠٧) ، كتاب الأشربة ، باب في الشرب قائماً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) رواه الترمذي كتاب الأشربة ، باب النهي عن اختناث الأسقية والرخصة في ذلك من حديث عبدالله بن أنيس .

الحاجة فيه هو ضيق المكان ، والثاني الحاجة فيه عدم الوصول إلى الشرب ، فالشن المعلق لا يقدر أن يقعد ويشرب .

أما البرادات فننظر : إن كان لا يمكنك فلا حرج ، لكن بعضها فيه كأس مربوط بسلسلة قصيرة ، وعلى كل حال إن احتجت فلا حرج ، الأمر في هذا واسع .

المنام :علمنا آداب المنام قولية وفعلية ، فأمرنا أن ننام على الجنب الأيمن ، ولم يأمرنا أن ننام متجهين إلى القبلة ، فلو تعارض النوم على الجنب الأيمن أو استقبال القبلة فإننا نقدم الجنب الأيمن لأنه منصوص عليه .

كذلك آداب الاستيقاظ ، وآداب قضاء الحاجة ، ولهذا قال رجل من المشركين لسلمان الفارسي : علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة ، قال : أجل(١) .

علمنا أيضاً آداب معاشرة الزوجة ، إذاً لم يترك شيئا والحمد لله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النحل :٨٩) ، إما بنفس الكتاب أو بالسنة التي هي مكملة للكتاب .أهـ

* * *

قال أبو ذر رضي الله عنه :- «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علماً»(٢) .

---

(١) مسلم (٢٦٢) كتاب الطهارة ، باب الاستطابة من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه .

(٢) أحمد (٥/ ١٦٢ ، ١٥٣) ، والطبراني في الكبير (١٦٤٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٦٦) ، رواه أحمد والطبراني ورجال الطبراني رجال الصحيح غير محمد بن عبدالله بن يزيد المقري وهو ثقة وفي إسناد أحمد من لم يسم .أهـ ، وابن حبان كما في (الإحسان ١/ ٦٥) ، وقال إسناده صحيح ورواه الطبراني من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه كما ذكر الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٦٧) ، وقال : ورجاله رجال الصحيح .

الشرح

حتى الطيور في الجو بين الله تعالى حكمها وعلم الأمة إياها ، فإذا كانت الشريعة بهذه المثابة في العموم فلا يمكن أن يدع الله باب الأسماء والصفات مغلقا .أهـ

* * *

ولا ريب أن العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله داخل تحت هذه الجملة العامة ، بل هو أول ما يدخل فيه لشدة الحاجة إليه .

الشرح

إن النبي ﷺ ما ترك باب الأسماء والصفات ملتبسا مشتبها ، لأنه على رأي أهل البدع ، يلزم من آرائهم أن يكون باب الإيمان بالله وأسمائه ملتبسا مشتبها ، لأن من أهل البدع من سلك طريقة التفويض أي تفويض المعنى ، ليس تفويض الكيفية ولكن تفويض المعنى ، وهناك فرق بين تفويض المعنى وتفويض الكيفية ، فتفويض الكيفية أمر واجب ، وتفويض المعنى أمر محرم ، وهذه مسائل دقيقة فينتبه لها جيدا :

تفويض الكيفية : أن يقول لك قائل كيف استوى الله على العرش ؟

تقول : الله أعلم كيف استوى ، لأن الكيف مجهول .

تفويض المعنى : أن يقول لك ما معنى استوى الله على العرش ؟

فهنا لا يجوز أن تقول الله أعلم ، لأنك لو قلت الله أعلم في هذا فمعناه أنك لا تعلم ، ولا شك أن الله أعلم وما أحد يقول إن الله ليس بأعلم ، لكن إذا قلت الله أعلم فمعناه أنك لا تعلم معنى الاستواء ، والاستواء معلوم فنعرف أن استوى بمعنى علا على العرش علوا خاصا بالعرش ، لأن عندنا علوا عاما على جميع المخلوقات ، وهذا ثابت لله سبحانه وتعالى على جميع المخلوقات ، وهو من الصفات الذاتية الثابتة بالنقل

والعقل ، لكن الاستواء على العرش من الصفات الفعلية الخاص بالعرش ، وهو مما دل عليه النقل دون العقل .

وهناك ناس يقولون نحن نفوض المعنى كما نفوض الكيفية ، وهؤلاء أهل التفويض ، وقد قال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية إن قولهم من شر أقوال أهل البدع والإلحاد ، مع العلم بأن كثيرا من المصنفين يقولون إن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وهذا خطأ وليس بصحيح ، فهذا ليس من مذهب أهل السنة والجماعة بل هم متبرؤون منه .

وهناك من يقول إن صفات الله تعالى لا يراد بها ظاهرها ، بل يحرفونها إلى معاني أخرى ، وهؤلاء المأولة أهل التعطيل الذين أولوا النصوص إلى معاني عينوها بعقولهم ، وهذه المعاني التي عينوها بعقولهم غير مبينة في الكتاب والسنة ، فإذاً يلزم على قول أهل التفويض وعلى قول أهل التأويل أن تكون أسماء الله وصفاته غير مبينة لا في الكتاب ولا في السنة .

وقد ذكرنا هذه الأوجه من كلام شيخ الإسلام رحمه الله في الحموية ، ليتبين بذلك أن العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله موجود في الكتاب والسنة لهذه الوجوه التي سبق منها وجهان .أهـ



الثالث ـ أن الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله هو أساس الدين ، وخلاصة دعوة المرسلين ،

الشرح

لأن الله يقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ (الأنبياء :٢٥) فهذا هو الأساس ، أن نعرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ونوحده بذلك ، فإذا كان هذا منزلته في الدين فإنه لا يترك ملتبسا مشتبها

يتخبط الناس فيه خبط عشواء ، وإذا كان الرسول ﷺ علمك كيف تدخل الخلاء وكيف تخرج منه وكيف تجلس على الخلاء وكيف تأكل وكيف تشرب وكيف تنام وكيف تجلس ، وهذه المسائل بالنسبة لأصول الدين ، بالنسبة للعلم بأسماء الله وصفاته تعتبر مسائل بسيطة جدا ، فإذا كان الرسول علم أمته حتى الخراءة ، فما بالك بهذه الأصول العظيمة أن يدعها ملتبسة مشتبهة يتخبط الناس فيها أو يقولون لا ندري ما معناها ، فتكون نصوص الكتاب والسنة في أسماء الله وصفاته بمنزلة الحروف الهجائية ، كأنها ألف باء تاء ثاء إلخ ، وهذا شيء مستحيل ، ولذلك يقول .أهـ

* * *

وهو أوجب وأفضل ما اكتسبته القلوب وأدركته العقول ،

الشرح

« أوجب» لأنه أساس الدين ، والأساس قبل كل شيء ، «وأفضل» لما فيه من تحقيق العبادة ، لأنه لا يمكن أن تتحقق عبادة الله على الوجه الأكمل ، حتى تعرفه بأسمائه وصفاته ، وكيف تعبد من لا تعرف أسماءه وصفاته ، أو تعلمها على وجه محرف مبدل مغيّر ، ولهذا كان أكثر الناس شكا عند الموت ـ والعياذ بالله ـ أهل الكلام ، يصلون إلى الحيرة ـ نسأل الله السلامة ـ .أهـ

* * *

فكيف يهمله النبي ﷺ ، من غير تعليم ولا بيان مع أنه كان يعلم ما هو دونه في الأهمية والفضيلة ؟ !

الشرح

وهذا الاستفهام المراد به الإنكار ، يعني هذا مستحيل أن يهمله الرسول مع أنه يبين ما هو دونه .أهـ

الرابع - أن النبي ﷺ كان أعلم الناس بربه ،

الشرح

لا منازعة في هذا ، فإنه لا أحد من الخلق أعلم بالله من رسول الله ﷺ ولهذا كان هو يقول «إني لأرجو أن أكون أعلمكم بالله وأخشاكم له»[1] ثانيا .أهـ

* * *

وهو أنصحهم للخلق ،

الشرح

يسلم ولا نزاع فيه أن أنصح الخلق للخلق محمد رسول الله ﷺ ، وهذا أمر يعرفه من تتبع سيرته بعدل وعلم أنه أنصح الخلق ، ثالثا .أهـ

* * *

وأبلغهم في البيان والفصاحة ؛

الشرح

صحيح لا شك فيه ولا مراء ولا نزاع أنه أبلغ الناس بيانا وفصاحة ، وقد قرأتم في علم البلاغة ما معنى البيان والفصاحة ، فلا أحد أفصح من النبي ﷺ ولا أوضح كلاما منه .

اجتمع في كلامه الآن ثلاثة أمور :كمال العلم وكمال النصح وكمال البيان مع

---

(١) البخاري (٢٠) كتاب الإيمان ، باب قول النبي ﷺ : «أنا أعلمكم بالله» ، ومسلم (١١١٠) ، كتاب الصيام ، باب تحريم الجماع في نهار رمضان من حديث عائشة بلفظ «إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى»

وجود هذا المقتضي التام وهو أنه عالم بربه ناصح لخلقه بليغ بلسانه ، هذا المقتضي التام للبيان لا يمكن أن يتخلف عنه البيان ، لأن الرسول يعلم وناصح للخلق وفصيح في لسانه .أهـ

* * *

فلا يمكن مع هذا المقتضى التام للبيان أن يترك باب الإيمان بالله وأسمائه وصفاته ملتبساً مشتبهاً .

الشرح

لا يعقل أن النبي ﷺ يترك باب أسماء الله وصفاته ملتبسا مشتبها ، ثم يأتي أفراخ الروم واليونان من الجهمية وغيرهم ويبينون الحق بأسماء الله وصفاته ، هذا غير ممكن ، وهؤلاء يقولون نحن الذين بيّنا الحق ، فالرسول ﷺ أطلق هذه الألفاظ ولا علّم الناس بمعناها ، ونحن الذين بينا معناها للناس ، وقلنا لهم استوى على العرش يعني استولى عليه ، وقلنا لهم يد الله أي قوته ونعمته ، والرسول ما بيّن ونحن المبينون ، وأما الرسول ﷺ فترك الأمر ملتبسا مشتبها ، وأعتقد أن هذا أمر لا يعقل .

إذاً هذا الوجه يعود إلى أهمية هذا الباب أو إلى حال النبي ﷺ؟

يعود إلى حال النبي ﷺ أنها أكمل الأحوال اقتضاء للبيان ، فالوجوه ثلاثة :

العلم والنصح والبلاغة ، وكلها مجتمعة في حق النبي ﷺ فلا بد أن يبين ، وتخلف البيان للأمة يكون من جهل الإنسان ، فالجاهل لا يمكن أن يعلم ، ويكون من عدم النصح ، لأنه قد يكون الإنسان عالما لكنه لا ينصح للناس ولا يبين لهم الحق ، وقد يكون الإنسان عالما ناصحا لكن عنده عي ، فلا يعرف أن يعبر ولا أن يصور المعنى للناس بالصورة الكافية التي تجعلهم يفهمون الحق ، وهذا هو الواقع ، فقد

يأتي إنسان عنده علم وعنده نصح لكن لا يعرف أن يعبر عن علمه الذي أعطاه الله إياه ، فلا يكون مبينا للناس ، لكن رسول الله ﷺ كان عنده تمام العلم والنصح والبلاغة فبين البيان المبين ﷺ.أهـ

* * *

الخامس

الشرح

وهذا باعتبار حال الصحابة .أهـ

* * *

أن الصحابة رضي الله عنهم لا بدّ أن يكونوا قائلين بالحق في هذا الباب ؛

الشرح

هذه ضرورة عقلية ، الصحابة رضي الله عنهم لا بد أن يكونوا قائلين بالحق في هذا الباب ، ونعني بالباب باب الأسماء والصفات ، وهذه دعوى وكل دعوى تحتاج إلى بينة ، فاستمع للبينة .أهـ

* * *

لأن ضدّ ذلك إما السكوت ، وإما القول بالباطل ، وكلاهما ممتنع عليهم :

الشرح

أحوال الصحابة لا تخلو من ثلاثة ، أما أن يقولوا بالحق أو يسكتوا عنه والثالث أن يقولوا بالباطل .

فسكوتهم عن بيان الحق غير ممكن ، والنبي ﷺ قد شهد لهم بأنهم خير القرون

وشهد لهم التاريخ أيضاً بأنهم أنصح عباد الله بعد الرسل لعباد الله ، فإذا كانوا أنصح الناس وأعلم الناس بالشريعة فإنه لا يمكن أن يسكتوا عن بيان الحق ولا يمكن أن يقولوا بالباطل ، فيتعين أن يقولوا بالحق ، لأنه إذا كانت القسمة العقلية تنحصر في ثلاثة أمور فانتفى اثنان لزم الثالث ، إذا قلت لك الجيم تحتها نقطة والخاء فوقها نقطة ، فيلزم أن الحاء ما عليها نقطة ، لأن المتتبع للشكل يجد النقط إما فوق أو تحت ، وليس هناك نقطة على اليمين أو على اليسار وإلا كان يمكن أن تكون النقطة على يمين الحاء أو على يسارها وهذا لا يمكن ، فإذاً نقول إذا بطل اثنان تعين الثالث .

امتناع السكوت ما وجهه؟ .أهـ

* * *

أمّا امتناع السكوت فوجهه : أن السكوت إمّا أن يكون عن جهل منهم بما يجبُ لله تعالى من الأسماء والصفات ، وما يجوز عليه منها ويمتنع ، وإمّا أن يكون عن علم منهم بذلك ولكن كتموه ، وكل منهما ممتنع :

الشرح

هذه أدلة عقلية فعسى الله أن يعيننا وإياكم على فهمها .

السكوت ممتنع عليهم ، سكوت الصحابة عن بيان الحق في أسماء الله وصفاته ممتنع ، لماذا يمتنع؟

يقول : لأن السكوت إما أن يكون عن جهل وإما أن يكون عن كتمان ، يعني كونهم يسكتون عن بيان الحق في أسماء الله وصفاته فإنه لا أحد يسكت عن بيان الحق إلا أنه جاهل أو كاتم ، إما جاهل بالحق ولا يقدر أن يتكلم بما هو جاهل فيه ، وإما كاتم للحق مع علمه به ، فيعلم الحق لكن كتمه ، وهذا ممتنع على الصحابة .أهـ

* * *

أما امتناع الجهل :

الشرح

امتناع الجهل على الصحابة في أسماء الله وصفاته .أهـ

* * *

فلأنه لا يمكن لأي قلب فيه حياة ، ووعي وطلب للعلم ، ونهمة في العبادة إلا أن يكون أكبر همّه هو البحث في الإيمان بالله تعالى ، ومعرفته بأسمائه وصفاته ، وتحقيق ذلك علماً واعتقاداً .

الشرح

كل إنسان في قلبه حياة ومحبة للعلم ونهمة في العبادة فإن أول ما يبحث عنه هو معرفة أسماء الله وصفاته ، وقد تقولون لي إن هذا يكذبه الواقع ، لأننا نحن ـ والحمد لله ـ نحب العلم وفي قلوبنا نهمة للعبادة ومع ذلك لا ندرس علم التوحيد بأسماء الله وصفاته .

نقول لأن عندنا منه شيء كثير ـ ولله الحمد ـ فنحن نشأنا على الإسلام ومن أول نشئنا ونحن نعرف ربنا ، وإن كنا لا نعرف على سبيل التفصيل لكن على سبيل الإجمال ، الصغير منا وغير الصغير تقول له أين ربك ؟ يقول في السماء ، أي صغير بمجرد ما يحصل له التمييز يقول ربي في السماء أو فوق وما أشبه ذلك ، مما يدل على أن الفطرة مغروسة فيه ، فنحن والحمد لله عندنا شيء كثير من معرفة هذا ، لكن الإنسان الجاهل الذي ما عاش في الإسلام وعنده رغبة في العبادة لا بد أن يبحث عن هذا الإله قبل ، لأجل أن يبني عقيدته على شيء ، ولهذا الصحابة أحيانا يحدثهم النبي ﷺ بالحديث فيستفهمون عنه ، لما أخبر بأن الله يضحك قالوا :أو يضحك ربنا يا

رسول الله ؟ قال «نعم» قالوا :لن نعدم من رب يضحك خيرا[1] ولما سألوه أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه[2] على خلاف في صحة هذا السبب ، لكن قصدي أن الإنسان الذي عنده رغبة في تحقيق العبادة لا بد أن يبحث عن صفات المعبود وأسمائه حتى يعبده على بصيرة ، فلهذا يمتنع الجهل عليهم .أهـ

* * *

ولا ريب أن القرون المفضلة وأفضلهم الصحابة هم أبلغ الناس في حياة القلوب ، ومحبة الخير ، وتحقيق العلوم النافعة ، كما قال النبي ﷺ : «خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم»[3] . وهذه الخيرية تعم فضلهم في كل ما يُقرّب إلى الله من قول ، وعمل ، واعتقاد . ثم لو فرضنا أنهم كانوا جاهلين بالحق في هذا الباب لكان جهل من بعدهم من باب أولى ؛

الشرح

فلو قال قائل يمكن أن يكونوا جاهلين ، يمكن أنهم ما بحثوا ، يمكن أنهم ما حرصوا على الوصول إلى هذا ، فنقول إذا كانوا جاهلين فمن بعدهم من باب أولى ، لماذا ؟ .أهـ

* * *

(١) أحمد (٤/ ١١ـ ١٢) ، من حديث أبي رزين رضي الله عنه .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٣١٤ ، سورة البقرة آية ١٨٦ ، عن الصلب بن حكيم عن أبيه عن جده .

(٣) البخاري (٢٦٥٢) كتاب الشهادات ، باب لا يشهد عن شهادة جور إذا أشهد ، ومسلم (٢٥٣٣) ، كتاب فضائل الصحابة ، باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه وبقاء أصحابه أمان للأمة ، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

لأن معرفة ما يُثْبَتُ لله تعالى من الأسماء والصفات ، أو يُنْفَى عنه إنما تُتَلَقَّى من طريق الرسالة ، وهم الواسطة بين الرسول ﷺ وبين الأمة ، وعلى هذا الفرض يلزم أن لا يكون عند أحد علم في هذا الباب ، وهذا ظاهر الامتناع .

الشرح

وهذا صحيح ، فلو أن أحدا من الناس كابر وقال أنا لا أوافقكم على أن الصحابة لا بد أن يكونوا عالمين بأسماء الله وصفاته ، وأقول يمكن أن يكونوا جاهلين ، وهذه مكابرة لكن على فرض أننا سلمنا بهذا ، فإننا نقول :إذا كان الصحابة جاهلين فالذين بعدهم أجهل بلا شك ، لأننا على فرض أن تكون أسماء الله وصفاته معلومة فمن أين تتلقى ؟

من الرسول ﷺ ، والطريق الموصل إلى الرسول ﷺ في باب العلم هم الصحابة رضي الله عنهم ، فنحن ما أدركنا الرسول ﷺ ، فلا يمكن أن يأتينا خبر في باب أسماء الله وصفاته إلا من طريق الصحابة ، فعلى هذا إذا قلنا إن الصحابة جاهلون لزم أن نكون نحن أيضاً أجهل بذلك ، وحينئذ لا يكون عند الأمة كلها من أولها إلى آخرها علم في باب أسماء الله وصفاته ، وهذا ظاهر الامتناع ، الحمد لله .

ولذلك الذين يسبون الصحابة ـ والعياذ بالله ـ من فرق الأمة غرضهم بهذا السب ـ سواء قصدوا أولم يقصدوا ـ النتيجة لهذا السب هي التشكيك في كل الشريعة ، لأن الشريعة ما جاءتنا إلا من طريق الصحابة فإذا سببنا الصحابة أو رميناهم بالفسق أو بالكفر والردة ـ والعياذ بالله ـ فمعنى ذلك أنه ما عندنا شريعة قائمة ، إذ أن الشريعة لا تأتي إلا من طريقهم ، ولهذا كانت هذه البدعة من أكبر البدع ـ والعياذ بالله ـ إنكارا للشريعة .أهـ



وأما امتناع كتمان الحق :فلأنّ كل عاقل منصف عرف حال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وحرصهم على نشر العلم النافع وتبليغه الأمة ، فإنه لن يمكنه أن ينسب إليهم كتمان الحق ـ ولا سيما ـ في أوجب الأمور ، وهو معرفة الله وأسمائه وصفاته .

الشرح

إذا صار الصحابة عالمين ووصلنا إلى هذا الحد فلا بد أن يكونوا معلمين ، فلا يمكن أن يكتموا الحق أبداً ولا بد أن يبينوه للناس ، لأننا نعلم أنهم أنصح الأمة للأمة ، فلا بد أن يعلموا الناس .

فإذا قال لنا قائل :كل هذا الكلام فيه نظر ، لأننا نجهل الآن أسماء الله التي قال عنها النبي ﷺ «إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة»[1] فنورد عليكم أن أسماء الله التسعة والتسعين التي من أحصاها دخل الجنة غير معينة ، فالجواب أن نقول :

أما من احتج بالحديث الذي سرد هذه الأسماء[2] فإن هذا الإيراد لا يرد عليه .

ومن رأى أن هذا الحديث لا يصح وأنه مدرج من بعض الرواة تتبعها وسردها حسب علمه ، من قال بهذا قال إن الشارع ما أهملها ، فهي موجودة في القرآن والسنة ، لكن المهمل التعيين ، وكله الشارع إلى العباد لأجل أن يجتهدوا في طلبها وتحريها ، حتى يُعرف بذلك من كان حريصا على إحصائها ومن لم يكن حريصا ،

(١) البخاري (٦٤١٠) كتاب الدعوات ، باب مائة اسم غير واحدة ، ومسلم (٢٦٧٧) ، كتاب الذكر والدعاء ، باب الحث على ذكر الله تعالى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الترمذي (٣٥٠٢) كتاب الدعوات ، باب أسماء الله الحسنى بالتفصيل ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب ، قال شيخ الإسلام في الفتاوى (٦/ ٣٨٣) «تعيينها ليس من كلام النبي ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه» .

لأن إحصاءها ليس بالأمر الهين ، فإنه يحصل في إحصائها دخول الجنة ، فلا بد أن يكون لهذا العوض من ثمن ، وهو أنه ترك هذا الأمر للناس يتطلبونه بأنفسهم ، لكنها موجودة في القرآن والسنة التي بأيدينا قطعا ، إذ لا يمكن للرسول ﷺ أن يحيلنا على أمر غير موجود ، بل هو أمر موجود ، ولكن تركها لأجل أن يحرص الناس عليها .

ثم إنه ـ والله أعلم ـ أنه تركها أيضاً مفتوحة لأجل أن يتوسع الناس في إدراك ما يدركون منها ، فمثلا قد أعين هذا الاسم من أسماء الله وأرى أنه هو الذي دل عليه الحديث ، وأنت ترى اسما آخر ، والمهم أننا نأخذ من مجموع الأسماء تسعة وتسعين اسما ونحصيها ويكون ذلك سببا لدخول الجنة .

ولهذا ليس معنى الحديث أننا لا نجد أكثر من تسعة وتسعين ، بل نجد أكثر من تسعة وتسعين ولا شك ، لكن من أحصى تسعة وتسعين من الموجود فإنه يدخل بذلك الجنة ، وبهذا يزول الإشكال ، ويزول هذا الإيراد الذي قد يكون في قلب كل إنسان عندما يقال له إن الله تعالى ورسوله قد بين الحق في باب أسماء الله وصفاته بيانا واضحا ، فإذا أورد علينا هذا الإشكال أجبنا عنه بأحد هذين الجوابين :

الجواب الأول : أن من قبل حديث تعيينها أجاب به وعينها وقال الأمر واضح .

الثاني : من لم يقبله قال إن الله تعالى أبهمها على العباد رحمة بهم وامتحانا لهم ، رحمة بهم ليكون هذا أوسع في المجال ، فكل يختار ما يرى من هذه الأسماء فيحصيها ويدخل الجنة ، وأيضاً أبلغ في الامتحان في طلبها والبحث عنها حتى يعيّنها الإنسان ، لأنه لو كانت معينة لنا لم يكن فيه تعب ، لكن شيئا مبهما في الكتاب والسنة يحتاج إلى مراجعة كل القرآن والسنة ، كل الذي نقدر عليه من السنة ، وإلا فالقرآن ميسر معروف والحمد لله ، فيحتاج الإنسان إلى أن يتتبع ويحرص ، وهذا لا شك أن فيه مصلحة للعبد وفيه امتحان له ، وبهذا علم أن إخفاءها من المصلحة .

ولها نظير في العبادات ، أشياء أخفيت امتحانا للعباد مثل ساعة يوم الجمعة وليلة القدر ، فساعة يوم الجمعة مبهمة امتحانا للعباد ، لأنه لو عينت ما حرص الناس إلا في هذه الليلة أو في هذه الساعة وفاتهم خير كثير ، أرأيتم الآن لو كانت ليلة القدر معينة في ليلة سبع وعشرين ، كم يفوت الناس من قيام الليل والعمل ؟ تفوتهم تسع ليال ، وهذه مصلحة عظيمة للإنسان ، والحقيقة أننا لا نحس بهذه المصلحة في زيادة التسع ليال لنا نجتهد فيها بالعمل ، لا نحس بهذه المصلحة إلا إذا حضر الأجل ، فإذا حضر الأجل قال الإنسان ليتني عملت ، فالدراهم الآن موجودة بأكياس لا يهم الواحد أن يأخذ ريالا ويرمي به ، لكن كلما قلت الدراهم كانت أغلى ، ونحن بالعكس كلما زدنا بالسنين هان علينا ضياع الأيام ، لكن إذا انتهت الدراهم يقول الواحد يا ليتني احتفظت بالدراهم ، ليتني ما ضيعتها ، هكذا الله حكيم جل وعلا ، يشرع لعباده هذه الأمور ويخفيها لمصلحتهم ، وفي نفس الوقت امتحانا للعباد ، فالإنسان الحريص يقول ما أرخص عشر ليال في ليلة خير من ألف شهر ، والإنسان الكسلان يقول لن أسهر عشر ليال وأبحث ، ففيها امتحان وفيها رحمة في نفس الوقت .

فهذه المسائل الدقيقة ينبغي للإنسان أن يتأملها في شرع الله تعالى ، وأن لله تعالى الحكمة البالغة في كل ما شرع ، لكن منها ما هو معلوم لنا ومنها ما هو مجهول لنا .

قوله : لأن ضد ذلك إما السكوت وإما قول الباطل وكلاهما ممتنع عن الصحابة ، لأن السكوت إما أن يكون عن جهل أو عن علم مع الكتمان وهذا أيضاً مستحيل فجهل الصحابة بما يجب لله ويمتنع ويجوز من الأسماء والصفات عنهم لا يمكن ، وسكوتهم عن الحق مع علمهم به أمر لا يمكن ، ولهذا نقول إنه لا يمكن كتمانهم إضافة إلى ذلك .أهـ

* * *

ثم إنه قد جاء عنهم من قول الحق في هــذا الباب شيء كثير يعرفه من طلبه وتتبّعه .

الشرح

ولكن مع هذا لم يأتِ عنهم في باب الصفات مثلما أتى عن التابعين ومن بعدهم ، لأن الناس لم يتكلموا في عهد الصحابة في الصفات كما تكلموا فيما بعد ، فإن بدعة الجهمية أول ما ظهرت على يد الجعد بن درهم ثم الجهم بن صفوان وذلك بعد انقراض عصر الصحابة رضي الله عنهم ، فدل هذا على أن الصحابة لهم كلام كثير في باب الأسماء والصفات ، لكنه بالنسبة إلى كلام من بعدهم قليل .

والخلاصة أن نقول : إن الصحابة لا بد أن يكونوا قائلين بالحق في هذا الباب ، والدليل على هذه القاعدة أن ضد قول الحق إما السكوت أو القول بالباطل ، فالذي لم يقل بالحق معناه أنه إما ساكت وإما قائل بالباطل ، والسكوت ممتنع على الصحابة في هذا الباب ، لأن الباب من أهم الأمور فيمتنع أن يسكتوا ،لأن السكوت عن الحق لا يوجبه إلا واحد من أمرين :

إما الجهل به أو الكتمان ، فقد يكون الإنسان عالما لكن يكتم ، وهذان أيضاً ممتعان على الصحابة رضي الله عنهم كما تقدم تقريره ، ثم إننا نقول :ضد هذا الأمر ، أي ضد السكوت أنه وجد عنهم من الكلام في هذا الباب شيء كثير .أهـ

* * *

وأما امتناع القول بالباطل عليهم فمن وجهين : أحدهما :أن القول بالباطل لا يمكن أن يقوم عليه دليل صحيح ،

الشرح

لا يمكن أن يقوم عليه ، أي على صحته دليل صحيح ، أما على بطلانه فيمكن

أن يقوم عليه دليل صحيح ، لكن القول بالباطل لا يمكن أن يقوم عليه دليل وأنه حق .أهـ

* * *

ومن المعلوم أن الصحابة رضي الله عنهم أبعد الناس عن القول فيما لم يقم عليه دليل صحيح ، خصوصاً في أمر الإيمان بالله تعالى ، وأمور الغيب ، فهم أولى الناس بامتثال قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء :٣٦) ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف :٣٣) .

الشرح

الصحابة أبعد الناس عن القول بما لم يقم عليه دليل صحيح ، لا سيما في أمر الإيمان بالله واليوم الآخر ، لأن هذا من أمور الغيب التي لا يمكن أن يتكلم فيها الإنسان إلا بحق لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء :٣٦) ، ومعنى «لا تقف» لا تتبعه فتقول به ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأعراف :٣٣) ، الشاهد الجملة الأخيرة ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .أهـ

* * *

ثانيهما : أن القول بالباطل إما أن يكون مصدره الجهل بالحق ، وإما أن يكون مصدره إرادة ضلال الخلق ، وكلاهما ممتنع في حق الصحابة . أما امتناع الجهل فقد تقدّم بيانه . وأما امتناع إرادة ضلال الخلق :فلأن إرادة ضلال الخلق قصد سيئ ، لا يمكن أن يصدر من الصحابة الذين عرفوا بتمام النصح للأمة ، ومحبة الخير لها .

الشرح

لا يمكن أن يقول الصحابة بالباطل لأجل أن يضلوا الناس ، لأنه معروف من حالهم أنهم يحبون الخير وأنهم أنصح الخلق للأمة - يعني بعد الرسل - فلا يمكن مع هذا أن يريدوا إضلال الخلق .أهـ

* * *

ثم لو جاز عليهم سوء القصد فيما قالوه في هذا الباب ، لجاز عليهم سوء القصد فيما يقولونه في سائر أبواب العلم والدين ،

الشرح

يعني لو قلنا أن الصحابة يمكن أن يقولوا في هذا الباب بالباطل ليضلوا الخلق ؛ أفلا يمكن أن نقول :وربما يقولون في غير هذا الباب ، في باب العبادات مثلا بالباطل ليضلوا الناس عن سبيل الله؟ ، فإذا جوزنا هذا وهذا أنه يجوز أن يقولوا بالباطل في باب العقائد وفي باب العبادات الظاهرة ، فحينئذ نعدم الثقة بكل ما يقولونه في الشريعة ، وهذا يؤدي بلا ريب إلى بطلان الشريعة رأسا ، ولهذا قال : .أهـ

* * *

فتعدم الثقة بأقوالهم وأخبارهم في هذا الباب وغيره ، وهذا من أبطل الأقوال ، لأنه يستلزم القدح في الشريعة كلها . وإذا تبين أن الصحابة - رضي الله عنهم - لا بد أن يكونوا قائلين بالحق في هذا الباب ، فإنهم إما أن يكونوا قائلين ذلك بعقولهم ، أو من طريق الوحي .

الشرح

هذا آخر المراحل ، نقول الآن بعد أن تقرر عندنا أن الصحابة رضي الله عنهم لا بد أن يكونوا قائلين بالحق في باب الأسماء والصفات فمن أين جاءهم هذا الحق ؟

نقول هذا لا يخلو من أحد طريقين :إما أنه جاءهم عن الرسول ﷺ ، أو جاءهم عن طريق العقل ، فكروا وقالوا يجب لله كذا ويجب لله كذا .أهـ

* * *

والأول ممتنع ؛

الشرح

الأول هوالقول بأنه بطريق العقل .أهـ

* * *

لأن العقل لا يدرك تفاصيل ما يجب لله تعالى من صفات الكمال ، فتعين الثاني ، وهو أن يكونوا تلقوا هذه العلوم من طريق رسالة النبي ﷺ ، فيلزم على هذا أن يكون النبي ﷺ ، قد بين الحق في أسماء الله وصفاته ، وهذا هو المطلوب .

الشرح

هذا وإن كان طويلا لكنه مفيد جداً لطالب العلم ، فكله حجج عقلية منطقية تعلم بالتتبع والاستقراء بأن الحال ما تخرج عن كذا أو كذا ، فإذا بطل واحد تعين الثاني ، وكل هذا الكلام مؤداه وفائدته ومحط الفائدة منه أن الذي بين الحق في أسماء الله وصفاته هو النبي ﷺ ، فهو الذي بين الحق وتكلم الصحابة به من بعده وهذا هو المطلوب .أهـ

المناقشة

سؤال : لو قال قائل أنهم أرادوا أن النبي ﷺ أجمل بيان الكيفية؟

الجواب : لا يقولون كذا لأن هذا حق ، وهو أن الرسول ما بين الكيفية ، لأنه ما أحد يستطيع أن يحيط بها ، ولو أننا كلفنا بالكيفية لكلفنا ما لا نطيق ، لأن الله يقول : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ (طه : ١١٠) ، وهذه نافية وليست بنهي ، فلا يمكن الإحاطة بالله تعالى ، لكن هم ما يريدون هذا هم يريدون المعنى ، أهل التفويض يريدون تفويض المعنى أي أنه لا يعرف معناه ، وأما أهل التأويل فمعروف .أهـ

سؤال : التفويض ملازم للتعطيل؟

الجواب : معلوم أن التفويض تعطيل ، لأنه في الحقيقة عطّل النص عما يراد به ، فالله أراد منا أن نفهم النص على معناه وهم عطلوا معناه ، لكن الفرق بينهم وبين المأولة : أن المأولة عطلوا معناه الظاهر وجعلوا له معنى آخر فصاروا أحكم منهم ، لأن أهل التعطيل يقولون لأهل التفويض أنتم أغرار جهّال لا تعرفون شيئاً ، لكن نحن أهل العلم ، ولا شك أن مذهب أهل التعطيل أحكم من مذهب التفويض ، فمذهب أهل التأويل الذي هو التحريف أحكم من مذهب أهل التفويض وأصح ، والكل باطل .أهـ

سؤال : بعض الناس ينسب التفويض إلى أهل السنة فيقول أنتم منهم؟

الجواب : هذا غلط ، التفويض مثلما قال شيخ الإسلام : هذا هو الذي فتح باب الإلحاد وباب الكفر ، ولهذا يعتبر من شر أقوال أهل البدع ، لأن أهل الإلحاد قالوا أنتم تقولون لا ندري ، ونحن نقول كذا وكذا فلا تستطيعون أن تقولوا إنكم خالفتم النص لأنكم أنتم أنفسكم لا تدرون ما معنى النص ، ومن لا يدري عن معنى شيء لا يمكن أن يدعي أن هذا الشيء يخالفه .

ثم يقولون أيضاً : نحن أحكم منكم لأننا أهل علم ومعرفة ، وأنتم تقولون نحن لا نعلم ، فقد ناديتم على أنفسكم بالجهل .أهـ

سؤال : الحشوية تلقيب لأهل السنة و رمي لأهل السنة ، أم أنها اسم من أسماء المفوضة؟

الجواب : الحشوية رمي فقط ، فيقولون أن هؤلاء حشو ليس في كلامهم خير ولا في كلامهم صدق ، أو إن الحشو معناه الذي من عامه الناس فهم الذين لا يعرفون شيئاً .أهـ

سؤال : بعض الناس يقولون لا تخوضوا في أسماء الله وصفاته فإنه لا يجوز؟

الجواب : نعم يريدون أن لا تخوض حتى يخوض غيرك بالباطل ، خض بالحق فإن السلف ـ رحمة الله عليهم ـ الذين أدركوا زمن الأهواء كانوا أتقى منا وأعلم منا بالله ولم يسكتوا ، صحيح أن الصحابة ما تكلموا بهذا لأنه لم يظهر في وقتهم هذا الشيء ، كانوا يقرأون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على ما ظهر منهما ، ولكن لما ابتلي الناس بأهل الأهواء تكلموا ، وأظن أنه مر علينا قبل أن الإمام أحمد لما سئل ما بالنا نقول في القرآن غير مخلوق ولم يقله الصحابة؟

قال : نقول لأن هؤلاء الجهمية يقولون مخلوق ، فلماذا لا نقول نحن ليس بمخلوق ، لابد أن نقول ، ولما قيل لبعض العلماء كيف تقولون إن الله تعالى استوى على العرش بذاته؟ هذا تكلف لأنه ليس في القرآن بذاته ولا في السنة بذاته؟

قالوا نعم نحن نقول لأن هؤلاء يقولون ما استوى بذاته وإنه استولى .أهـ

سؤال : الذات مذكورة في حديث الرسول يقول : إبراهيم كذب في ذات الله؟

الجواب : لكن استوى على العرش بذاته ليس المقصود منه لفظ الذات ، إنما المقصود استوى بذاته وهذه ليست موجودة .

فقالوا نعم نحن نقول بذلك لأن هؤلاء يقولون استوى بمعنى استولى ، وليس أن ذاته علا عليه بل المعنى استولى عليه ولا نثبت العلو .أهـ

سؤال : وفي ذات الإله ، يختلف عن هذا؟

الجواب : نعم يختلف عن هذا ، لأن « ذات» في اللغة العربية لم ترد بمعنى العين ، وإنما وردت بمعنى جانب أو بمعنى أي شيء ، مثل نزلت به ذات ليلة بمعنى أي ليلة من الليالي .

في ذات الإله : أي في سبيله وجانبه هذا المعنى ، «وذلك في ذات الإله»[1] وليس المعنى بذات الإله في نفسه الذي هو عين الإله ، ولهذا «ذات» في اللغة العربية الفصحى بمعنى صاحبة في الأصل وهي تأنيث ذو ، ولكن حقيقة الأمر أنك عندما تقسّم وتقول ذات وصفات فلا حرج ولا مانع من أن تجعل ذات بمعنى نفس وبمعنى عين ، ولهذا كل العلماء من عهد التابعين فمن بعدهم كلهم يقولون ذات بمعنى أنها قسيمة للصفة ولا تنكر .أهـ

سؤال : فيه ناس يقولون بأن هناك بعض الصفات لها معاني والبعض الآخر لا نعرف معناه؟

الجواب : ليس بصحيح ، بل كلها معروفة المعنى .أهـ

سؤال : بالنسبة للفظ اليد يقولون ما نعرف معناه؟

الجواب : لم تذكر اليد مطلقة ، بل مضافة إلى الله فتكون يدا خاصة به ، عندما

(١) مقطع من قصيدة قالها خباب بن عدي رضي الله عنه حين صلبه المشركون يقول فيها :

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي جنب كان في اللّه مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزعِ

أقول لك يد الضب ويد الإنسان ويد الكلب ويد الجمل هل تفهم من هذا المعنى أن الأيدي من هذه كلها واحدة؟ بل يد كل شيء تناسبه ، فاليد التي بها يقبض الله السماوات والأرض كخردلة في يد أحدنا ، ويطوي السماء بيمينه كطي السجل للكتب هل تشبهها يد؟ لا يمكن أبداً .

والمهم أن هذه المسائل كلها ـ والحمد لله ـ معلومة ، ولا يمكن أن يخاطبنا الله بشيء غير معلوم في أعلى ما يكون من الأهمية ، فأعلى ما يكون من الأهمية هو معرفة الله بأسمائه وصفاته ، فلو قلنا أنه يمكن أن يخاطبنا الله بما لا نعلم صار القرآن ما نزل إلا عبثا في هذا الباب ، وعلى كل حال أمامنا شيء من هذا النوع ننتظر حتى نصل إليه .اهـ

سؤال : بالنسبة للذين يقولون إن القرآن ظني الدلالة على أساس أن الأفهام مختلفة وعقول الناس مختلفة فما الرد عليهم؟

الجواب : نرد عليهم بأن كون هذا الشيء ظنيا أو يقينيا أمر نسبي ، فهذا النص مثلا يكون عند شخص يقينيا وعند آخر ظنيا وعند ثالث مترددا فيه وعند رابع مجهول المعنى إطلاقا ، فلا يعقل له معنى إطلاقا ، وعند خامس معمىً عليه ﴿ **كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿١٤﴾ ﴾ (المطففين :١٤) ، يقولون هذا أساطير الأولين لأنهم سدت عليهم أبواب الوصول إلى معرفة القرآن .

فالمسألة في هذه الأمور نسبية ، فبعض الأحيان تكون الدلالة عندك في هذا النص قطعية ، ولا إشكال عندك بل هي مثل الشمس ، وعند غيرك ظنية بل قد يستدل بها على خلاف ما تقول ، فهذا غير صحيح .

صحيح أن النصوص فيها شيء عندك قطعي وعندك بعض الأحيان ظني وأحيانا يتبين لك في بعض الأحيان أنه قطعي وفي بعض الأحيان تنسى وجه الدلالة ويصير

عندك ظنيا ، فأحيانا نفس الإنسان يتردد في النص الواحد ، فيكون في يوم من الأيام عنده قطعي الدلالة لوجوه يذكرها في ذلك الوقت ، ثم ينسى هذه الوجوه في وقت آخر ويكون عنده ظني الدلالة أو ربما يتوقف فيه ، وهذا أمر عقلي فطري معلوم يعرفه كل واحد من نفسه .أهـ

سؤال : يجوز أن يقال إن الشرع أجمل لأجل أن يبقى أثر الاجتهاد ويثاب العلماء على تتبعه؟

الجواب : لا يظهر أن هذه هي الحكمة ، الظاهر أن الحكمة من الإجمال هو أن تعداد الجزئيات غير ممكن ، ثم إن تعداد الجزئيات في زمن لا يعرفون عن هذه الجزئيات شيئا قد يكون فيه شيء من الاستنكار ، مثلا : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (النحل) . فلو قال والطائرات في الجو ماذا سيقول المشركون؟

حديد يطير بالناس؟ ! هذا من سفاهة محمد .

ولهذا لما ظهرت الطائرات جاء رجل من العراق وحدث عندنا في مجلس أحد الأمراء وقال : إنا ركبنا بالطائرة من البصرة إلى بومباي ، قالوا : وما الطائرة؟ قال : الطائرة بيت من حديد له جناحان يطير .

فأشار الأمير إلى رجل وقال له هكذا يعني أسكته ، فغمزه فسكت ، ولما تفرق الناس قال له الأمير : هل أنت مجنون ، تأتي وتقول أن حديدا يطير؟ لا تتكلم في مجالسنا بهذا أبداً ، فقال له هذا الكلام ووبخه .

المهم أني أقول لكم أن هذه مسائل أجملت لأنه لا يمكن ذكرها للناس على سبيل التفصيل .أهـ

سؤال : يمكن أن يقال أنهم سكتوا ليس كتمانا للحق ولكن كما كتم أبو هريرة أو معاذ بعض الأشياء؟

الجواب : نحن نتكلم عن أسماء الله وصفاته ولا نتكلم عن مسألة فردية ومن عمل واحد فردي ، نتكلم الآن عن أسماء الله وصفاته وبالنسبة لعموم الصحابة ، أما سكوت بعضهم عن مسألة فردية لخوف محذور فهذا قد يمكن وأخيرا لا يمكن ، فلا بد أيضاً أن يبينه في النهاية ولا يتركونه ، كما فعل معاذ ﷺ وأخبر بالحديث عند موته .أهـ

سؤال :إحصاء أسماء الله فقط مجرد عدها؟

الجواب : ليس مجرد عدها ، إحصاؤها يتضمن ثلاثة أمور : حفظها ، وفهم معناها ، والتعبد لله بمقتضاها ، لا بد من ثلاثة أمور ، حفظها ومعرفة معناها ، والثالث أن يتعبد لله بمقتضاها ، لأن الله يقول : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (الأعراف :١٨٠) ، أما مجرد أنه يكتب ورقة ويكررها فهذا ليس بإحصاء .أهـ

سؤال : ما دام أني أعرف اسم هذه الآية وأقول تقريبا تسعة وتسعين لكن ما عددتها ولا أحفظ؟

الجواب : لابد أن تحصيها لأن هناك أشياء محددة بالشرع ، فالإنسان إذا سلم من الفريضة يسبح الله ثلاثا وثلاثين ويحمد ثلاثا وثلاثين ويكبر ثلاثا وثلاثين ، فلو قال أنا لن أعد ، سأسبح وأهلل ومتى ما مللت قمت ، فإنه لا يحصل على الأجر التام ، وكل شيء محدد فراع تحديده .أهـ

سؤال : حتى لو زاد؟

الجواب : إن زاد على سبيل التعبد بهذه الزيادة فهي بدعة ، وإن زاد على أن هذا تسبيح مطلق فهذا جائز ، لكن لا ينبغي أن يعلنه أمام الناس فيتخذوه سنة .أهـ

سؤال : بالنسبة للأسماء الحسنى ، هل هناك ضابط يميز بين الاسم أو الصفة التي يشتق منها اسم؟

الجواب : ليس هناك صفة يشتق منها اسم أبداً ، هذا غلط وليس بصحيح ،لأننا لو اشتققنا من كل صفة اسما ما بقي للأسماء فائدة ، ولقلنا الله ممسك وباطش وآخذ ومستهزىء وهذا لا يمكن .أهـ

سؤال : بعض العلماء مثل ابن العربي وصل إلى أنه قال رابع ثلاثة وخامس ستة؟

الجواب : هذه صفة .أهـ

الباب الثالث

في طريقة أهل السنة في أسماء الله وصفاته .

الشرح

أولاً أهل السنة والجماعة من هم؟ .أهـ

* * *

أهل السنة والجماعة : هم الذين اجتمعوا على الأخذ بسنة النبي ﷺ ،

الشرح

اجتمعوا ولهذا سموا جماعة ، وعلى سنة : ولهذا سموا أهل السنة .أهـ

* * *

والعمل بها ظاهراً وباطناً في القول والعمل والاعتقاد .

الشرح

هؤلاء هم أهل السنة ، الذين اجتمعوا على الأخذ بسنة الرسول ﷺ وعلى العمل بها ظاهرا وباطنا في العقيدة والقول والعمل .أهـ

* * *

وطريقتهم في أسماء الله وصفاته كما يأتي :

الشرح

أولاً في الإثبات وثانيا في النفي وثالثا فيما لم يرد نفيه ولا إثباته .أهـ

* * *

أولاً - في الإثبات :

الشرح

أي ما ورد إثباته لله تعالى. أهـ

* * *

فهي إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه ، أو على لسان رسول الله ﷺ ، من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ،

الشرح

هذه طريقتهم في الإثبات ، يثبتون ما أثبته الله لنفسه في القرآن مثل الاستواء على العرش والعلو واليد الوجه والعينين وما أشبه ذلك .

قال : من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، من غير تحريف : التحريف هو أن يحرف إما بالنطق أو بالمعنى ، فالتحريف بالنطق مثل ما ذكروا عن بعض المبتدعة ـ والعياذ بالله ـ أنه قرأ قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) ﴾ (النساء :١٦٤) ، فقال : وكلم اللهَ موسى تكليما ، وغرضه من هذا أن يكون الكلام من موسى لا من الله .

وكذلك من غير تعطيل : التعطيل معناه منع النص من دلالته ، ويشمل هذا من منعه من دلالته وصرفه إلى غيره ، ومن منعه من دلالته ولم يصرفه إلى غيره ، لأن الناس بالنسبة للنصوص في الصفات ، منهم من منع دلالته على مراد الله ولكن ما أثبت له معنى ، وهؤلاء هم الذين يسمون المفوضة ، يقولون ما أراد الله بهذا كذا ، إذاً ماذا أراد؟ لا يقولون شيئا ، ومنهم من قال إن الله ما أراد كذا وإنما أراد كذا ، وهؤلاء هم أهل التأويل ، لكننا نقول لهم في الحق أهل التحريف ، لأنهم حرفوا الكلام عن معناه ،

ومنهم من قال إن الله تعالى أراد به كذا وكذا مما يوافق ظاهر الكلام ، وهؤلاء أهل السنة والجماعة .

ومن غير تكييف ولا تمثيل : معنى تكييف ذكر الكيفية ، وسيأتي تعريفها في باب مستقل ، والتمثيل إثبات مماثل .

فإذا قال قائل : هذه الأمور الأربعة التي نزه أهل السنة والجماعة عقيدتهم عنها فيها شيء موجود في القرآن ، وفيها شيء غير موجود .

«من غير تحريف» ، موجود في القرآن ، فقد وجد ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، فقولنا تحريف مطابق لما جاء به القرآن .

«ولا تعطيل» ، ليس في القرآن ذكر تعطيل بهذا اللفظ أو هذه المادة ، لكن فيه ما يشير إلى إليه : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ (الزخرف :٣) ، والذي يقول إن الله ما أراد كذا أو إنما أراد كذا فإنه ما عقل الكلام على معناه .

«من غير تكييف» ، التكييف ما وجد ، لكنه موجود عن السلف ، كما قالوا في العبارة المشهورة : أمروها كما جاءت بلا كيف ، فهي موجودة عن السلف .

«ولا تمثيل» ، موجود في القرآن : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ (النحل :٧٤) ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾(الشورى :١١)أهـ

* * *

ثانياً - في النفي : فطريقتهم نفي ما نفاه الله عن نفسه في كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ ، مع اعتقادهم ثبوت كمال ضده لله تعالى .

الشرح

ما نفاه الله عن نفسه يقولون ننفيه عن الله لكن نعتقد مع النفي ثبوت كمال

ضده ، فيقولون مثلا إن الله لا يظلم : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ (الكهف :٤٩) ، فننفي الظلم عن الله ولكن مع ذلك نثبت كمال عدله ، نقول إن الله تعالى خلق السماوات والأرض ولم يعيي بخلقهن ، ما تعب ولا سأم لكمال قوته .أهـ

* * *

ثالثاً ـ فيما لم يرد نفيه ولا إثباته مما تنازع الناس فيه كالجسم والحيز والجهة ونحو ذلك ، فطريقتهم فيه التوقف في لفظه ، فلا يثبتونه ولا ينفونه لعدم ورود ذلك ، وأما معناه فيستفصلون عنه فإن أُريد به باطل يُنزه الله عنه ردوه ، وإن أريد به حق لا يمتنع على الله قبلوه .

الشرح

هناك أشياء صارت مثارا للنقاش بين الناس لم يرد بها نص ، مثل الجسم والحيْز والجهة ونحو ذلك ، فهل نقول إن لله جسما أو ليس لله جسم؟

من حيث اللفظ لا نثبته ولا ننفيه ، لكن من حيث المعنى نستفصل عن معناه ، ولهذا يقول : فطريقتهم فيه التوقف في لفظه ، فلا يثبتونه ولا ينفونه لعدم ورود ذلك ، وأما معناه فيستفصلون عنه ، فنقول ماذا تريد بالجسم؟ إن أردت بالجسم الشيء المركب من لحم ودم وعظم ، المفتقر جزؤه إلى كله وما أشبه ذلك ، فهذا ممتنع على الله تعالى .

وإن أردت بالجسم الذات المتصف بما يليق به فهو حق ، فإن لله ذاتا متصفة بالكمال ، وعليه فنقول هذا حق ، لكن إياك أن تقول إن الله جسم أو تقول إن الله ليس بجسم ، لأن فيه حق وفيه باطل ، فإن أثبت أوهمت الباطل وإن نفيت أوهمت نفي الحق ، فلا يجوز عليك الإثبات ولا النفي .

كذلك الحيْز ، هل لله حيز أو هل الله في حيز أو ما أشبه ذلك؟ فنقول ماذا تريد بالحيز؟

إن أردت بالحيز أنه سبحانه وتعالى مباين للمخلوقات منحاز عنها منفصل فهذا حق ، لأن الله تعالى مباين للمخلوقات ليس حالا فيها ولا حالة فيه ، وإن أردت بالحيز أن الأشياء تحوزه ، كما تقول ملكي في حيز ما بين الجبل والوادي فهذا باطل وننكره ، فلما كان الحيز لفظا مجملا يحتمل حقا وباطلا قلنا لا يجوز لك إطلاقه على الله ولا نفيه عنه حتى تستفصل .

كذلك الجهة ، إذا قال إن الله في جهة أو في غير جهة فإننا نستفصل ، فلا يجوز أن نقول في جهة ولا في غير جهة ، لأننا إن أطلقنا فربما يتوهم الإحاطة ، يعني إحاطة الأشياء بالله ، وإن نفينا فربما يفهم منه مذهب النفاة القائلين بأن الله تعالى ليس في داخل العالم وخارجه ولا فوق ولا متصل إلخ ، فنقول أما لفظ الجهة فلا نثبته ولا ننفيه ولكن نستفصل عن معناه ، فإن أردت بالجهة جهة سفل فهو منزه عن ذلك ولا يجوز ، وإن أردت جهة علو تحيط به فهو أيضاً منزه عنها ، وإن أردت جهة علو لا تحيط بالله فإن هذا حق ، فإن الله تعالى في العلو بدليل أن النبي ﷺ كان يرفع يديه إلى السماء ، وسأل الجارية «أين الله فقالت في السماء فقال أعتقها فإنها مؤمنة»(١) .

اعلم أن أهل السنة ـ كما قال المؤلف ـ هم الذين اجتمعوا على الأخذ بسنة النبي ﷺ والعمل بها ظاهراً وباطناً في القول والعمل والاعتقاد ، هؤلاء هم أهل السنة ، ولهذا سميناهم أهل السنة والجماعة ، والجماعة في الأصل ـ في اللغة العربية ـ معناه الاجتماع ، ولكنه نقل من هذا المعنى إلى القوم المجتمعين ، إذاً أهل السنة والجماعة هم الذين اجتمعوا على الأخذ بسنة الرسول ﷺ ، ولهذا سميناهم أهل السنة لأخذهم بالسنة ، وأهل الجماعة لاجتماعهم عليها .

(١) مسلم (٥٣٧) كتاب المساجد ، باب تحريم الكلام في الصلاة ، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه .

بهذا التقرير أو بهذا التعريف لأهل السنة والجماعة نعرف أنه لا يدخل فيهم الأشاعرة ولا الماتريدية ، وإن كان بعض الناس يحاول أن يدخل هاتين الطائفتين في أهل السنة والجماعة ، ونحن نقول هم ليسوا من أهل السنة والجماعة فيما يذهبون إليه في أسماء الله وصفاته وغيرهما مما خالفوا فيه السلف .

السلف هم أصل أهل السنة والجماعة ، والخلف هم الخالفون ـ كما قال شيخ الإسلام ـ المخالفون للسلف ، فهؤلاء هم أهل السنة والجماعة ، لابد أن يكونوا آخذين بسنة الرسول ﷺ والعمل بها ظاهرا وباطنا ، ظاهرا في أعمال الجوارح ، وباطنا في أعمال القلوب ، ظاهرا فيما يظهر للناس ، وباطنا فيما يخفى على الناس ، فالمراءون إذاً لم يحققوا أن يكونوا من أهل السنة والجماعة ، لأن أهل السنة والجماعة عندهم من الإخلاص لله تعالى والمتابعة ما هو على أكمل الوجوه .

في القول والعمل ، اعلم أن العمل إذا أفرد عن القول شمل القول ، وأما إذا قرن معه فإنه يختص بالفعل الذي هو قسيم القول ، ولهذا نقول في الصلاة هي أقوال وأفعال ، فأنت إذا أردت التقسيم تقول أقوال وأفعال ، والكل يشملها أنها أعمال ، فالعمل إذاً يشمل القول والفعل ، أما عند التقسيم فنقول إن الفعل قسيم القول .

وأما الاعتقاد فهو عقد القلب على الشيء وتصديقه به وإقراره به ، فهؤلاء هم أهل السنة والجماعة .

طريقتهم في أسماء الله وصفاته كما يأتي ، والأسماء والصفات فيها إثبات وفيها نفي وفيها ما سكت عنه ، فما ورد إثباته فطريقتهم فيه أنهم يثبتونه ، فيثبتون ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ ، وذلك لأن ما أثبته الله لنفسه إما في القرآن وإما في السنة ، فمثلا قول الرسول ﷺ «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث

الليل الآخر »[1] فهذه الصفة غير موجودة في القرآن ، وقوله « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة »[2] الضحك ليس موجودا في القرآن ، لكن يجب أن يؤمَن به كما يؤمن بما في القرآن ولهذا لما جاءت امرأة إلى ابن مسعود رضي الله عنه وقالت إني فتشت المصحف من فاتحته إلى خاتمته فما وجدت أن المرأة المستوشمة والنامصة ملعونة في القرآن ، والرسول ﷺ يقول : «لعن الله الواشمة والمستوشمة»[3] أين ذلك في القرآن؟ فقال : هو في القرآن :﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (الحشر :٧) ،[4] فالذي ثبت في السنة يجب الإيمان به كما يجب الإيمان بما في القرآن ، ولا يمكن لإنسان أنكر شيئاً من السنة الثابتة عن الرسولﷺ أن يدعي أنه مؤمن بالقرآن أبداً ، لأنه يكون كافرا به ، إذ أن الله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ (النساء :١٣٦) وهل المنكر لشيء مما ثبت عن الرسول مؤمنا بالرسول؟

لا ، إذاً لم يكن مؤمنا بالقرآن ، فما ثبت في القرآن والسنة من أسماء الله وصفاته

---

(١) البخاري (١١٤٥) كتاب التهجد ، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ، ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٢٨٢٦) كتاب الجهاد ، باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم فيسدد بعد ويقتل ، ومسلم (١٨٩٠) كتاب الإمارة ، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٥٩٤٢) كتاب اللباس ، باب الموصلة ، ومسلم (٢١٢٤) كتاب اللباس والزين ، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة من حديث ابن عمر رضي الله عنه واللفظ للبخاري .

(٤) الإبانة لابن بطة ١/ ٢٣٨ باب ذكر ما جاءت به السنة من طاعة رسول الله ﷺ والتحذير من طوائف يعارضون سنة رسول الله ﷺ بالقرآن ، والخطيب البغدادي في الكفاية ٤٣ باب ما جاء في التسوية بين حكم كتاب الله تعالى وحكم سنة رسول الله ﷺ في وجوب العمل ولزوم التكليف ، وتفسير ابن كثير ، سورة الحشر آية (٧) .

وجب علينا أن نثبته من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، وهذه العبارة هي التي عبر بها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في كتبه ، وقد يكون غيره ممن سبقه عبر بها ، ولكنه ـ رحمه الله ـ لما ناظروه لما كتب العقيدة الواسطية عقدوا له مجالس مع ولاة الأمور يناقشونه فيها ، وقالوا لماذا تقول من غير تحريف؟ وهم يعرفون أن قوله من غير تحريف لإبطال قول أهل التأويل الذين يأولون الصفات ، قال إنني اخترت التحريف لأنه هو الموجود في القرآن ، ﴿ **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** ﴾ (النساء :٤٦) ، أما التأويل : فإن التأويل الموجود في القرآن حق ، لأن التأويل الموجود في القرآن والسنة دائر بين معنيين لا ثالث لهما ، وهما التفسير أو الحقيقة التي يؤول إليها الشيء ، وهذا لا يمكن أن أنفيه ، لا يمكن أن أقول من غير تأويل ، إذا قلت من غير تأويل فمعناه أنه لا يفسر أو معناه أنه لا حقيقة له ، فأنا قلت من غير تحريف لأن هذا ـ أي صرف اللفظ عن ظاهره بدون دليل ـ يعتبر تحريفا ، من تحريف الكلم عن مواضعه ، ولا شك أن كلمة تحريف أشد وقعا على أهل التأويل من كلمة تأويل ، لأنه قد يقبل أن تقول أنت مؤول لكن لا يقبل أن تقول أنت محرف .

ومن غير تكييف ولا تمثيل وهذه المعاني لا نشرحها لأن لها شرحا في الكتاب نفسه .

أما في النفي فقول المؤلف : فطريقتهم نفي ما نفاه الله عن نفسه في كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ ، مع اعتقادهم ثبوت كمال ضده لله تعالى .

أهل السنة والجماعة يؤمنون بما نفى الله عن نفسه فينفونه عنه ، لكن لا يقتصرون على مجرد النفي ، بل هم ينفونه لكمال ضده عندهم ، فقوله تعالى : ﴿ **وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴿٤٩﴾ ﴾ (الكهف :٤٩) ، ليس معناه أنه لا يظلم فقط ، لكن لا يظلم لكمال عدله : ﴿ **وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ** ﴿٣٨﴾ ﴾ (ق :٣٨) ، ما مسنا من تعب وإعياء لكمال قوته : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا** ﴿٤٤﴾ ﴾

(فاطر :٤٤) ، لكمال علمه وقدرته لأن الله قال : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (فاطر :٤٤) ، لأن العاجز تفوته القدرة لأحد سببين : إما لعدم علمه وإما لعدم قدرته ، فلو جاءنا عامل من السوق وقلنا له أصلح لنا سيارة ، سيقول لا أقدر ، لماذا؟ لأنه جاهل ، فهو يقدر أن يركب ولكن لا يدري كيف يركب ، فهذا الرجل لا يقدر لعدم علمه .

لكن جئنا لمهندس جيد جدا في صناعة السيارات لكن وجدناه مريضا وقلنا له : اصنع لنا سيارة ، سيقول لا أقدر فهو عاجز لعدم قدرته ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (فاطر :٤٤) ، ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (البقرة :٧٤) ، هذا نفي لكمال علمه ومراقبته ، فعلى كل حال كل ما نفى الله عن نفسه من الصفات ، أو نفاه عنه رسوله ﷺ ، فإنما ذلك لكمال الضد لا لمجرد النفي .

قال النبي عليه الصلاة والسلام « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام »[(١)] لكمال حياته وكمال قيوميته ، ولهذا قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ (البقرة :٢٥٥) ، لأن الذي تأخذه السنة ناقص الحياة وناقص القيومية ، فإذا نام من الذي يقوم على عباده؟ ولهذا لكمال حياته وقيوميته لا تأخذه سنة ولا نوم .

وقوله : ثالثاً - فيما لم يرد نفيه ، ولا إثباته مما ، تنازع الناس فيه كالجسم ،

لاحظوا أن لفظ الجسم ما ورد إثباته لله ولا نفيه عنه ، لأنه ليس كمالا محضا ولا نقصا محضا ، وكذلك الجهة ما ورد أن الله في جهة أو أن الله جهة لا نفيا ولا إثباتا ، والسبب لأنها ليست كمالا محضا ولا نقصا محضا ، فلو كانت نقصا محضا لورد

(١) مسلم (١٧٨) كتاب الإيمان ، باب معنى قول الله تعالى «ولقد رآه نزلة أخرى» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

نفيها ، أو كمالا محضا لورد إثباتها ، لكن جاء بدل الجهة العلو ، فالعلو كمال محض فأثبته الله لنفسه ، كذلك الحيز هل الله في حيز؟ هل الله متحيز؟

هذه الكلمات الثلاث أكثر ما يدندن أهل التعطيل عليها ، يقولون إذا أثبتّ أن الله مستو على العرش استواءً حقيقيا بمعنى العلو عليه لزم من ذلك التمثيل ، قالوا لأنه يلزم من إثبات الاستواء الحقيقي إثبات أن يكون جسما ، والأجسام متماثلة ، وأحيانا يقولون لا يتصف الشيء بالصفات إلا إذا كان جسما ، والأجسام متماثلة .

وهذه القضية كاذبة في مقدمتيها جميعا ، فمثلا يقولون لا يوصف بالصفة إلا ما هو جسم ، وهذا ليس بحق بل توصف الأعراض كما توصف الأجسام ، فتقول مثلا هذا يوم طويل وهذا حر شديد وهذا مرض مزمن وما أشبه ذلك ، وهي أعراض وليست أجساما ، أعراض ووصفت بالصفة .

وكذلك أيضاً قولهم إن الأجسام متماثلة هذا أيضاً كذب ، فهي مختلفة في أحجامها وفي أشكالها وفي ذواتها أيضاً ، فإذا قبضت على الحديد لم ينضغط ، وإذا قبضت على العجين انضغط ، فلم تتساو الأجسام ، فهم يلبسون على العامة ، وعامة الناس لا يعرفون ، فيلبسون عليهم بمثل هذه العبارات ، يقولون الله جسم؟ إذا قلت أن الله جسم لزم تماثل الأجسام فتكون ممثلا ، كذلك الله في حيز ، معناه أن الأشياء تحيط به ، وهذا غير صحيح ، فمثل هذه العبارات ما موقفنا نحن منها؟

نقول لو سكت الناس عنها لكان الأوفق بنا أن نسكت ، لكن إذا خاض فيها الناس فلا بد لنا من دخول الميدان ، ولا نترك المجال لهؤلاء يلعبون كما يشاءون ونقول هذه ألفاظ ما جاء بها النص فلا نقول فيها شيئا ، هذا خطأ ، بل إننا إذا اضطررنا إلى الكلام تكلمنا ، هناك أشياء أدخلها الناس بعد الصحابة كله من أجل دفع الباطل ، ولو لم يتكلم فيها الناس ما تكلمنا فيها .

القرآن كلام الله : وورد في القرآن أنه كلام الله ، منزل : ورد في القرآن أنه منزل ،

غير مخلوق : ما ورد في القرآن ولا في السنة ولا عن الصحابة ، وقيل للإمام أحمد يا أبا عبد الله كيف تقول غير مخلوق؟

قال : إنهم إذا قالوا مخلوق فلابد أن نقول نحن غير مخلوق ، فإذا أوجدوا مثل هذه الأشياء فلابد أن ندخل المعترك معهم لنبين الحق ولا ندع المجال ساكتين ، لأننا لو سكتنا لانتصروا علينا ، ولهذا الذين يقولون إن مذهب أهل السنة والجماعة هو التفويض المحض وعدم الخوض في المعنى ؛ استطال عليهم الملاحدة وقالوا إذا كنتم لا تفهمون المعنى فأنتم من العوام ونحن نعرف المعنى ، المراد كذا وكذا وذهبوا يفسرون ، لأن الذي يعلم المعنى خير من العامي الذي يجهل .

فالحاصل أن الذي لم يرد إثباته ولا نفيه كالجسم والحيز والجهة ونحو ذلك مثل كلمة عرض ، وهل الله جوهر أو عرض؟ هل هو جسم ، كل هذه ما وردت ، فليس لنا حق أن نثبتها ولا أن ننفيها لأنها لم ترد ، وهي أمور غيبية لا يدرك لها نظير فلا يحل لنا أن نتكلم فيها ، لأننا لو تكلمنا لكنا قلنا ما لا نعلم فنسكت ، ولهذا عابوا على السفاريني رحمه الله قوله :

وليس ربنا بجوهر

ولا عرض ولا جسم تعالى ذو العلى[(١)]

إذاً ماذا نقول فيها؟

نقول : التوقف في لفظه فلا نثبته ولا ننفيه ، فإذا قال لنا قائل : هل تقولون إن الله جسم؟ فإنا لا نقول شيئا ، هل إن الله ليس بجسم؟ نتوقف ولا يلزمنا أن نقول إنه جسم ولا أنه غير جسم لأنه لم يرد ، وأما معناه فيستفصلون عنه فإن أريد به باطل ينزه الله عنه ردوه ، وإن أريد به حق لا يمتنع على الله قبلوه .

---

(١) الدرة المضية في عقيدة أهل الفرقة المرضية للسفاريني .

ينزه الله عنه ، كلمة يُنزه هذه صفة كاشفة وليست صفة مانعة ، الصفة الكاشفة تكون كالعلة لما سبقها ، ولا يقصد أن تكون مخرجة ومقيدة ، مثال ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (البقرة :٢١) ، وربنا الذي لم يخلقنا ألا نعبده؟ مالنا رب لم يخلقنا ، إذاً ﴿ الذي خلقكم ﴾ يسميه العلماء صفة كاشفة أي موضحة للمعنى ، فهي موضحة لمعنى الرب ﴿ ربكم الذي خلقكم ﴾ إن معنى الرب الذي خلقنا ، فتكون كالتعليل لما سبق .

فقولنا إن أريد به باطل ينزه الله عنه ، هل هناك باطل لا ينزه الله عنه؟

لا ، كل باطل فإن الله ينزه عنه ، إذاً فهذا التعبير «باطل ينزه الله عنه» ، نقول كلمة ينزه الله عنه صفة كاشفة أي مبينة ، لأن كل باطل فإن الله منزه عنه .

الصفة المانعة إذا قلت مثلاً : أكرم الطلبة المجتهدين فكلمة المجتهدين صفة مانعة تمنع غير المجتهد من دخوله .

إن أريد به حق قبلوه وإن أريد به باطل ردوه ، نبدأ الآن بكلمة الجسم ، وقلنا إن لفظها لا يطلق إثباتا ولا نفيا ، أما معناه فنسأل ماذا تريد بالجسم؟ إن أردت بالجسم القائم بنفسه المتصف بما يليق به العالي على عرشه الآتي يوم الفصل للقضاء بين خلقه ، إن أردت به هذا فهو حق ، كل هذا ثابت لله تعالى.

وإن أردت بالجسم المركب من أجزاء وأعضاء يفتقر بعضها إلى بعض في الوجود ، المفتقر إلى ما يمده من طعام وشراب وما أشبه ذلك ، فهذا باطل لا يجوز إثباته لله ، وكذلك لو أردت جسما مماثلا للأجسام فهو أيضاً باطل ينزه الله عنه .

نأتي إلى كلمة الحيز أو التحيز أو ما أشبه ذلك ، يقولون : إذا قلت إن الله تعالى بذاته فوق خلقه لزم أن يكون منحازا أو في حيز أو متحيزا أو مثل هذا التعبير .

فنقول : كلمة حيز ما وردت لا إثباتا ولا نفيا فنتوقف في لفظها ، أما معناها

فنسأل : إن أردت بالحيز أن الله تعالى تحوزه المخلوقات وتحيط به فهذا باطل ممتنع على الله تعالى ، وإن أردت بالحيز أنه منحاز عن المخلوقات بائن منها فهذا حق ، ولو نظرتم في كتب المعتزلة أو الأشعرية وجدتم يلزم من إثبات كذا أن يكون متحيزا وما أشبه ذلك ، ونحن نقول لماذا تجلبون علينا في هذه العبارات ، نحن لابد أن ننازلكم في الميدان حتى نعلم ماذا تريدون بالتحيز أو بالحيز أو ما أشبه ذلك .

كلمة الجهة أيضاً ، يقولون إنه لا يجوز أن تقول إن الله في جهة ، ولكن قل إن الله في كل مكان ، أي جهة تكون فالله فيها ، أو تقول إن الله سبحانه وتعالى لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلا ولا منفصلا ولا فوق ولا تحت ولا يمينا ولا شمالا ، إذاً معدوم .

الأول مذهب الحلولية من الجهمية وغيرهم ، والثاني مذهب المعطلة النفاة ، يقولون لا تقل إن الله في جهة أبداً ، إما أن تقول إنه في كل مكان أو قل ليس في مكان .

فنقول : كلمة جهة لم ترد في القرآن ولا في السنة لا نفيا ولا إثباتا لأنها تحتمل حقا وباطلا ، وجاء بدلا عنها مما لا يحتمل إلا الحق ، العلو ، فنقول بناء على أنك ألجأتنا وتقول أنه يلزم من كذا أن يكون الله في جهة فإننا ننازلك ونقول : إن أردت بالجهة ما فوق العالم فالله تعالى فوق العالم بلا شك ولا يحيط به شيء من مخلوقاته ، وإن أردت بالجهة ما تحيط بالشيء إحاطة الظرف بمظروفه فهذا باطل ، فإذا أردت أن الله في جهة يعني في مكان يحيط بالله تعالى كإحاطة الظرف بالمظروف فهذا باطل ولا يمكن أن يتصف الله به ، لأن الله تعالى أعظم من أن يحيط به شيء من مخلوقاته ، «ما السماوات السبع والأرضين السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في كف أحدنا»[1] ،

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٢٤) سورة الزمر آية (٦٧) .

وقد وسع كرسيه السماوات والأرض ، وكرسيه موضع قدميه ، ومن كان هذا عظمته فإنه لا يمكن أن يكون في جهة تحيط به .

فإذاً نستفصل في المعنى ونقول إن أردت كذا فهو حق ، وإن أردت كذا فهو باطل .

أما بالنسبة للفظ فإننا لا نتكلم فيه إثباتا ولا نفيا لأن ذلك لم يرد في القرآن لا إثباتا ولا نفيا ، وهذه الأشياء التي مثلنا بها يمثل بها شيخ الإسلام ابن تيمية لأنها هي ديدن أهل التعطيل .أهـ

* * *

وهذه الطريقة هي الطريقة الواجبة ، وهي القول الوسط بين أهل التعطيل ، وأهل التمثيل .

الشرح

ابتلي المسلمون بهاتين الطائفتين ؛ طائفة التعطيل وطائفة التمثيل ، أهل التعطيل غلو في التنزيه ، وأهل التمثيل غلو في الإثبات ، فالذين قالوا إن لله تعالى يدا تماثل أيدي المخلوقين ، أثبتوا اليد لكنهم غلو في إثباتها حتى جعلوها مماثلة لأيدي المخلوقين ، والذين قالوا ليس لله يد ، تنزيها لله أن يكون مشابها للمخلوق ، هؤلاء غلو بالنفي والتنزيه .

أهل السنة والجماعة ـ والحمد لله ـ وسط بين الطرفين لا فرّطوا ولا أفرطوا ، ولهذا يقول : وهذا القول الوسط بين أهل التعطيل وأهل التمثيل ، فقالوا لله يد حقيقية لكن لا تماثل أيدي المخلوقين .

فأعطانا قاعدة عظيمة وهي طريقة أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته .

قالوا الطريقة إثبات ما أثبته الله ورسوله ونفي ما نفاه الله ورسوله والتوقف فيما لم يرد إثباته ولا نفيه ، وهذه الطريقة هي الطريقة التي دل عليها العقل والسمع ، وهي الطريق السليمة وهي حقيقة الأدب مع الله ورسوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① ﴾ (الحجرات :١) ، فما ورد في الكتاب والسنة من أسماء الله و صفاته فالواجب إثباته ، وما نفاه الله عن نفسه فالواجب نفيه ، وما لم يرد فيه إثبات ولا نفي فإننا إن أثبتناه أخطأنا وإن نفيناه أخطأنا ، لأنه لا علم لنا ، إذاً فالواجب التوقف ، هذا باعتبار لفظه .

أما باعتبار معناه فقد سبق أننا نستفصل ، فإن أريد به حق قبلناه وإن أريد به باطل رددناه .أهـ

* * *

وقد دل على وجوبها العقل والسمع ، فأما العقل فوجه دلالته أن تفصيل القول فيما يجب ويجوز ويمتنع على الله تعالى لا يدرك إلا بالسمع ، فوجب اتباع السمع في ذلك بإثبات ما أثبته ، ونفي ما نفاه ، والسكوت عما سكت عنه

الشرح

كلمة تفصيل تعني أن الإجمال قد يدرك بالعقل بدون سمع ، لكن تفصيل القول فيما يجب ويجوز ويمتنع فإن هذا لا يمكن أن يدرك إلا بالسمع ، أما الإجمال فيمكن أن ندركه بالعقول ، فكوننا ندرك أن الله كامل الصفات على سبيل الإطلاق فهذا يدرك بالعقل ، وكوننا نعلم أن الله سبحانه وتعالى منزه عن النقص على سبيل الإجمال فهذا أيضاً يدرك بالعقل ، ولهذا أنكر إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام على أبيه إنكارا عقليا : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾ (مريم :٤٢) ، وهذا إنكار عقلي ، كيف تعبد وتدعي أنه إله وهو لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يدفع ولا

يغني عنك شيئا؟ والعقل بمجرد ما يفكر الإنسان يعرف أن عبادة مثل هذا غير صواب .

فلينتبه للاحتراز في العبارة ، أن تفصيل القول فيما يجب ، وأما إجمال القول فيدرك بالعقل ، لكن التفصيل لا يدرك ، فمثلا : الله تعالى استوى على العرش ، فهذا لا ندركه بالعقل ، لولا أن الله أخبرنا بذلك ما علمنا ، بل ولا علمنا أن هناك عرشا ، لكن علو الله تعالى العلو المطلق يدرك بالعقل ، لكن كونه علا على العرش ، هذا العلو الخاص فإنا لا ندركه بعقولنا .

نزول الله إلى السماء الدنيا لا يدرك بالعقل لكنه بالسمع ، فالمهم أن تفصيل القول فيما يجب وفيما يجوز وفيما يمتنع ، أفادنا المؤلف أن ما يمكن أن يكون صفة ينقسم إلى ثلاثة أقسام : واجب وجائز وممتنع كلها تكون في العلو ، فنجد لها مثالا في العلو ، وكون المخلوقات فوق الله ممتنع ، وكون الله فوقها واجب ، وكونه على العرش جائز ، لأن الله تعالى لو شاء ما استوى على عرشه ، فهو من الصفات الجائزة ، لكنه بعد أن أخبرنا بأنه استوى يجب علينا أن نصدق وأن نؤمن .

فصار ما يجب ويجوز ويمتنع التفصيل فيه لا يمكن إلا بالسمع ، وإذا كان لا يمكن إلا بالسمع فإنه يجب اتباع السمع في ذلك في إثبات ما أثبته ونفي ما نفاه والسكوت عما سكت عنه ، هذا هو العقل .

الآن ـ ولله المثل الأعلى ـ لو أن شخصا أردنا أن نتحدث عن معاملته الباطنة الخاصة في بيته ، فمن المعلوم أنا لا ندرك هذا إلا إذا تحدث لنا به ، فما هو العقل أن نتحدث نحن عن هذا الرجل وما يصنع في بيته بمجرد ما نقول هذا ثابت؟ أو أن نتوقف على ما يحدثنا به؟

نتوقف على ما يحدثنا به ، فإذا قال أنا أفعل في بيتي كذا وكذا تحدثنا به عنه ، وإذا

قال أنا لا أفعل هذا في بيتي تحدثنا به عنه ، وإذا لم يخبرنا عن شيء فإننا نتوقف ، كذلك ما يوصف الله به ، ما أخبرنا الله به عن نفسه وجب علينا إثباته ، وما نفاه عن نفسه وجب علينا نفيه ، وما سكت عنه يجب أن نسكت ، وهذا هو العقل .أهـ

* * *

وأما السمع :

الشرح

يعني دلالة السمع على وجوب اتباع ما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله .أهـ

* * *

فمن أدلته قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ .

الشرح

دعاؤه بها يستلزم التصديق والإثبات ، إذاً نثبت الأسماء الحسنى بمقتضى هذه الآية ، وقوله ﴿ فادعوه بها ﴾ دعاء الله تعالى بأسمائه ينقسم إلى قسمين :

الأول : أن تجعلها وسيلة لما تدعو به ، فتقول اللهم يا غفور اغفر لي ويا عزيز امنعني من الأعداء ويا تواب تب على ويا رزاق ارزقني ، هذا من الدعاء بها ، أن تجعلها وسيلة لما تدعو به ، ومعلوم أنك إذا جعلتها وسيلة لما تدعو به فإنك ستتوسل بكل شيء بما يناسبه من الأسماء ، فتتوسل لطلب الرزق باسم الرزاق ، ولطلب المغفرة باسم الغفور .

ولو قال قائل اللهم يا شديد العقاب اغفر لي ، فإن هذا لا يجوز ولا يناسب ، لأنك لو قلت لرجل يا بخيل أعطني ، فإنه يصفعك على وجهك ويقول هذه عطية

البخيل ، إذاً دعاؤه بها أن تتوسل بها لما تدعو به ، قال أهل العلم : إذا جعلها وسيلة لما يدعو به ، فإنه يدعو لكل شيء بما يناسبه من الأسماء ، فإذا أردت أن تسأل الله أن يعلمك فقل يا عليم علمني .

وهل تقول يا معلم علمني؟ المعلم ليس من أسماء الله .

إذاً يجوز أن نسأل الله سبحانه وتعالى بطلب العلم بما يدل على الفضل والجود فنقول : اللهم يا جواد علمني أو جد علي بالعلم أو ما أشبه ذلك .

أما قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ (البقرة :٢٨٢) ، فإن هذه صفة ولا يشتق من الفعل اسما ، فالصفة لا يشتق منها اسم ، ولهذا لو قال قائل أنا أسمي الله بالماكر لأن الله قال : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ (الأنفال :٣٠) ، قلنا لا يجوز .

الثاني : أن يتعبد لله تعالى بمقتضاها ، أي بمقتضى هذه الأسماء ، لأن العبادة من الدعاء كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (غافر :٦٠) ، فما معنى أن يتعبد لله بمقتضاها؟

إذا علم أن الله شديد العقاب تجنب كل ما يكون سببا لعقابه ، وإذا علم أنه غفور رحيم تعرّض لكل ما يكون سببا لمغفرته ، وإذا علم أنه الرزاق تعرض لكل ما يكون فيه الرزق والتجأ بطلب الرزق إلى الله تعالى ، فهذا معنى قوله : ﴿ فادعوه بها ﴾ .أهـ

* * *

﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف :١٨٠)

الشرح

﴿ ذروا ﴾ بمعنى اتركوا ، لكن هل المعنى اتركوهم تهديدا لهم فإن الله تعالى

سيعاقبهم لقوله : ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ (الأعراف :١٨٠) ، ؟ أو المعنى ذروا طريقتهم ويكون قوله ﴿ سيجوزن ﴾ استئنافا؟

نقول الآية تحتمل المعنيين وكلاهما صحيح ، اتركوا طريقة الملحدين فإنهم سيعاقبون ، أو اتركوا هؤلاء ولا تبالوا بهم فإنهم سيعاقبون ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (القلم :٤٤) ، وقوله : ﴿ يلحدون من أسمائه ﴾ والإلحاد سيأتي إن شاء الله .أهـ

* * *

وقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى : ١١) ، وقوله : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء : ٣٦) .

الشرح

﴿ تَقْفُ ﴾ معناه تتبع مأخوذة من القفا ، لأن المتبع يكون وراء الإنسان .

﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ يعني أي شيء لا علم لك به فلا تتبعه ، سواء ما يتعلق بصفات الله وأسمائه أو ما يتعلق بأحكام الله تعالى أو حتى ما يتعلق بما يدور بين الناس في يومياتهم ، فالذي لا علم لك به لا تتبعه ، ولهذا جاء في الحديث « كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع »[1] فأنت أيها الإنسان ينبغي لك أن تطمئن ولا تحدث بكل ما سمعت .

وقد حدثتكم عن جماعة أتوا إلينا من أفغانستان وقالوا لنا أن فيهم شيء من الشرك وكذا وكذا وأتوا بكتاب من مؤلفاتهم ، وفي اليوم الماضي أو الذي قبله يتصل

---

(١) رواه مسلم (٧) ، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ ، بلفظ «كذباً» ، وابن حبان (٣٠) في ذكر خبر ثان يدل على صحة ما ذهبنا إليه ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

علي أناس من الرياض ويقولون أن هذا كذب ، وأن هؤلاء جماعة من السلفيين متشددين جداً ، وأنهم ما تهيأ لهم أن يقبلوا بسرعة ، فأرادوا أن يشوهوا سمعة هؤلاء المقاتلين الأفغانيين ، وبناءاً على هذا بقينا على ميزانيين ، فما موقفنا الآن وقد جاءت الكفة الآخرى؟

لا نقف ما ليس لنا به علم ، ونقول : نتركهم ونسأل الله لنا ولهم الصلاح والاستقامة وأن ينصرهم على عدوهم ونكتفي بهذا ، ومادام المسألة فيها اضطراب وتناقض في الأقوال فالواجب السكوت .أهـ

* * *

فالآية الأولى : دلت على وجوب الإثبات من غير تحريف ولا تعطيل ؛ لأنهما من الإلحاد .

الشرح

الآية الأولى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ ، دلت على وجوب الإثبات في قوله : ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ ، وأيضاً بمجرد الخبر : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ ، يجب علينا الإثبات لأنه خبر الله وهو حق ، لكن زيادة على ذلك ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ ودلت على وجوب اجتناب التحريف والتعطيل ، لأنهما ـ أي التحريف والتعطيل ـ من الإلحاد ، فالذي يحرف ما جاء في الكتاب والسنة ملحد ، أو يعطله عن معناه فهو ملحد بلا شك ، لأن الإلحاد أصله الميل كما سيأتي ، فكل من خرج عن الاستقامة في الأسماء والصفات فهو ملحد .أهـ

* * *

والآية الثانية : دلت على وجوب نفي التمثيل .

الشرح

الآية الثانية : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ كيف دلت على وجوب نفي التمثيل؟

لأنها خبر ، خبر من الله تعالى أن الله لا مثل له ، فوجب علينا أن نقول به وأن ننفي المماثلة .

واعلم أن نفي المماثلة لا يدل على نفي أصل الاشتراك ، فالاشتراك في الشيء غير المماثلة به ، فأنت حيوان والشاة حيوان ، اشتركتما في الحيوانية ولم تتفقا في المثلية ، أنت جسم والحجر جسم ، اشتركتما في الجسمية وما تماثلتما ، اشتركتما في المعنى الأصلي ولكن اختلفتما بلا شك ، ولو ضربت حجرا بحجر فقد ينكسر وقد لا ينكسر ، لكن لو ضربت رأسك بالحجر انكسر .

الوجود : أنت موجود والسماء موجودة ، اشتركتما في الوجود لكن لم تتماثلا .

الرب تعالى موجود والمخلوق موجود ، اشتركا في الوجود لكنهما غير متماثلين في هذا الوجود ، فوجود الباري يخصه ووجود المخلوق يخصه ، فلاحظوا أن المثلية ليس معناها نفي الاشتراك في مطلق الشيء ، وهذا هو الذي ضل به من ضل من أهل البدع ، ظنوا أن الاشتراك في أصل الشيء يستلزم المماثلة ، فقالوا ما لله يد ولا لله وجه ولا لله عين ولا لله قدم ولا لله ساق ولم يستو حقيقة على العرش ولا ينزل حقيقة إلى السماء الدنيا وما أشبه ذلك ، ظنوا أن إثبات هذه الأشياء على وجه الحقيقة يستلزم المماثلة ، والله تعالى قد نفى أن يكون له مثيل ، فإذاً يجب علينا أن ننكر هذه الأشياء .أهـ

* * *

والآية الثالثة : دلت على وجوب نفي التكييف ، وعلى وجوب التوقف فيما لم يرد إثباته أو نفيه ،

الشرح

الآية الثالثة : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ إذا قال الإنسان إن لله يداً حقيقية فهذا صحيح ، وإذا قال إنها مثل يد المخلوق فهذا خطأ ، والذي دل على خطئه نفي المماثلة : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى :١١) ، تكذب كل من ادعى التمثيل في صفات الله ، ويمكن أن نستدل أيضاً على نفي التمثيل بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ، لأن الممثل لا علم عنده بذلك ، لكن مادام أن عندنا آية تدل على نفي التمثيل فالاستدلال بها أولى .

فإذا قال قائل : لله يد حقيقية نقول صدقت ، قال صفتها كذا وكذا وأخذ يعدد أصابع وعروق وعظام ويعدد أشياء ـ والعياذ بالله ـ نقول كذبت ، ومن قال لك هذا؟ فهذا الذي قام يصف يد الله تعالى بصفات ما لها نظير عندنا ، ولكنه تخيل صفات وقام يصف بها ، في الآيات التي ذكرنا ما يدل على تحريم طريقته ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ وهذه لم يدل عليها قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ولكن الذي دل عليها قوله : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ لأننا نقول : من أين لك العلم بهذا؟ فسيقول لا علم عندي ولكني أظن هذا ، فنقول له : إذاً لا تقف ما ليس لك به علم .

فإن قال قائل لمَ لَمْ تأت بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ (الأعراف :٣٣) ، والمكيف قال على الله ما لا يعلم؟

فأقول إننا عدلنا عن هذه الآية لوجهين :

أولاً : لأنها آية طويلة وهذا الكتاب مقرر على طلبة ، وكلما كان الدليل أخصر

كان أسهل عليهم ، فقوله : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أخصر من قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ (الأعراف :٣٣) .

ثانيا : أن هذه الآية : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء :٢٨) ، أعم من الآية الأولى ، فالآية الأولى يقول : ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ أما هذه الآية فعلى الله وعلى غيره ، ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء :٢٨) فهي عامة فيما يتعلق بالله تعالى وفيما يتعلق بغيره .

فتبين بهذه الآيات الثلاث وجوب إثبات ما أثبته الله لنفسه ونفي ما نفى الله عن نفسه والسكوت عما سكت عنه ، والسكوت عما سكت عنه نأخذه من الآية ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء :٢٨) ، ولهذا قلنا : وعلى وجوب التوقف فيما لم يرد إثباته أو نفيه .أهـ



وكل ما ثبت لله من الصفات فإنها صفات كمال يحمد عليها ويثنى بها عليه ، وليس فيها نقص بوجه من الوجوه ، فجميع صفات الكمال ثابتة للَّه تعالى على أكمل وجه ، وكل ما نفاه اللَّه عن نفسه فهو صفات نقص تنافي كماله الواجب ، فجميع صفات النقص ممتنعة على اللَّه تعالى لوجوب كماله ، وما نفاه اللَّه عن نفسه فالمراد به انتفاء تلك الصفة المنفية وإثبات كمال ضدها ،

الشرح

كل ما أثبته الله فهو صفة كمال وكل ما نفاه فهو صفة نقص ، والذي نفاه الله عن نفسه أيضاً لابد أن يستلزم إثباتا ، ولهذا قال المؤلف : فالمراد به انتفاء تلك الصفة المنفية وإثبات كمال ضدها ، مثاله قال الله تعالى : ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ

أَحَدًا﴿٤٩﴾ ﴾ (الكهف :٤٩) ، هذا نفي للظلم ، ننفي الظلم عن الله لأن الله نفاه عن نفسه ، لكن يجب مع نفي الظلم إثبات كمال العدل ، وليس المراد نفي الظلم فقط ، بل إثبات كمال العدل ، وهذا خاص فيما يوصف الله به وفيما يوصف به الرسول ﷺ في الغالب ، أما غيره فالنفي لا يدل على الكمال ، أما ما نفى الله عن نفسه فإنه يستلزم الكمال ، ولهذا يقول : .أهـ

* * *

وذلك أن النفي لا يدل على الكمال حتى يكون متضمناً لصفة ثبوتية يحمد عليها ، فإن مجرد النفي قد يكون سببه العجز فيكون نقصاً ، كما في قول الشاعر :

قُبَيِّلَةٌ لا يغدِرُون بذِمةٍ
ولا يَظْلمون الناسَ حبَّةَ خَرْدَلِ (١)

الشرح

هذا ذم وليس بمدح ،لأنه يقول لا يغدرون بذمة ، والذي لا يغدر مؤمن ، لأن من علامات النفاق الغدر ومن علامات الإيمان عدم الغدر ، لكن هنا لا يريد أنهم لا يغدرون لكمال وفائهم ، لو أراد أنهم لا يغدرون لكمال وفائهم لكان مدحا ، لكن لا يغدرون لعجزهم فلا يقدرون أن يخالفوا ، كذلك لا يظلمون الناس حبة خردل للعجز عن الظلم ، وإلا لو تمكنوا لظلموا لكنهم عاجزون ، فهل نقول الآن : هذا النفي يستلزم مدحا؟

---

(١) بيت لقيس بن عمرو بن مالك ويسمى النجاشي وفيه :

إذا الله جازى أهل لؤم بذمة   فجازى بني العجلان رهط ابن مقبل

الإصابة لابن حجر (٥/ ٨٨٥٤) النجاشي .

لا ، أما الرب تعالى فإنك إذا قلت إن الله لا يغدر فالمعنى لكمال وفائه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ (التوبة : ١١١) ، فإذا قلت إنه لا يظلم فهو لكمال عدله لا لأنه غير قادر ، فهو سبحانه وتعالى قادر أن يظلم لو شاء ، لكنه تعالى كامل العدل فلا يمكن أن يظلم .

والعجيب أن بعض البادية ولا سيما في الزمان الأول ، يرون أن الظلم كمال وأن من لا يظلم فهو ناقص وجبان ، حتى إن الرجل إذا خطب منهم قالوا : هل غار على قوم فأخذ إبلهم أو غنمهم؟ إن قالوا نعم زوجوه ، وإن قالوا لا ترددوا في قبول خطبته ، لأنهم يرون أن الذي لا يفعل هذا معناه أنه جبان وذليل ، وعلى هذا يحمل هذا البيت :
لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل ، والذمة العهد .أهـ

* * *

وقد يكون سببه عدم القابلية فلا يقتضي مدحاً ،

الشرح

يعني قد يكون سبب النفي غير العجز لكن عدم القابلية ، يعني أن هذه الصفة لا تقبل على هذا الموصوف .أهـ

* * *

كما لو قلت : الجدار لا يظلم ، إذا تبين هذا فنقول : مما نفى الله عن نفسه الظلم ، فالمراد به انتفاء الظلم عن الله مع ثبوت كمال ضده وهو العدل ، ونفى عن نفسه اللغوب وهو التعب والإعياء ، فالمراد نفي اللغوب مع ثبوت كمال ضده وهو القوة ، وهكذا بقية ما نفاه الله عن نفسه ، والله أعلم .

الشرح

شخص يتحدث عن بيت بناه أن جدره لا تظلم أحدا ـ فهذا ليس فيه مدح لأنه لا يقبل الظلم ، كما لو قلت عندي جدار ليس بأعمى ، فلا نقول إن هذه صفة مدح لأن الجدار في الأصل ليس بأعمى ولا هو مبصر حتى تمدحه بنفي العمى .

فالحاصل أن نقول :النفي من حيث هو نفي ينقسم إلى ثلاثة أقسام : تارة يتضمن كمالا وتارة يتضمن نقصا وتارة لا يتضمن هذا ولا هذا ، فالنفي الموجود في صفات الله كله يتضمن كمالا ، والنفي الموجود في قوم يعجزون عن تحقيقه يكون هذا نقصا ، والنفي في شيء لا يقبل الاتصاف به ولا الانتفاء منه لا يكون مدحا ولا ذما ، والله أعلم .أهـ

المناقشة

سؤال : بالنسبة للحيوانات هل تقبل الظلم؟

الجواب : نعم ، ولهذا أخبر النبي ﷺ أنه يقتص للشاة الجلحاء من القرناء[١] .أهـ

سؤال : هل الجدران تقبل ولها إرادة ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ (الكهف :٧٧) ، أو مجازا؟

الجواب : لا ، حقا يريد ، قال النبي ﷺ في أحد « أحد جبل يحبنا ـ يحبنا حقا ـ ونحبه»[٢] .أهـ

سؤال : الحكمة من تعقيب ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ هل قصده أنه الحي القيوم؟

الجواب : لا ، لأن هذا لبيان كمال هاتين الصفتين يعني صفتان كاملتان لا يمكن أن يلحقهما نقص .أهـ

سؤال : توكيد؟

الجواب : توكيد أو تحقيق الكمال .أهـ

سؤال : قلنا يا شديد العقاب اغفر لي لا يجوز ، هو غير مناسب لكن لا نقول إنه لا يجوز؟

الجواب : نقول لا يجوز لأن هذا سوء أدب مع الله ، كيف تسأله بما يقتضي العقوبة مغفرة وتوبة؟ هذا لا يناسب .أهـ

---

(١) مسلم (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة والأدب ، باب تحريم الظلم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٤٠٨٣) كتاب المغازي ، باب أحد جبل يحبنا ونحبه ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

سؤال : يا معلم ، ألا تجوز هذه؟

الجواب : يمكن بالتخصيص مثل : يا معلم إبراهيم أو يا معلم كذا فإنه يجوز .أهـ

سؤال : ألا يجوز بصفاته وأفعاله؟

الجواب : بلى ، فالوصف غير الاسم ، الصفة أوسع من الاسم ، فقد يوصف الله بما لم يسم به ، فليس كل صفة يتصف الله بها يجوز أن نجعل منها اسما .أهـ

سؤال : هل تدعوه بصفات الأفعال؟

الجواب : إذا كانت صفات الأفعال مما تختص بالله فيجوز الدعاء بها ، مثل اللهم منزل الكتاب مجري السحاب وما أشبه ذلك ، وإلا فلا يصح .أهـ

سؤال : قول يا شديد العقاب اغفر لي لا تجوز؟

الجواب : لا تجوز ، لا لأنها ليست من صفات الله ، لكن لأنها سوء أدب مع الله .أهـ

سؤال : قد يكون المعنى أنك شديد العقاب وممكن أن تغفر لي ؟

الجواب : هذا لا يصلح ، ولكن قل يا غفور اغفر لي ، ولهذا لما علم الرسول أبا بكر قال «فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك» شديد العقاب ! ! أو« إنك أنت الغفور الرحيم »[1] ، نعم لو قلت يا شديد العقاب لمن عصاك امنعني من معصيتك ، فيمكن أن تقول هذا .أهـ

سؤال : هذه الآية : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ فيها ميزة وهي أن النهي للتحريم؟

---

(١) البخاري (٨٣٤) كتاب الأذان ، باب الدعاء قبل السلام ، ومسلم (٢٧٠٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب الدعوات والتعوذ ، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

الجواب : فيها التصريح بالتحريم ، لكن هـذه تفوقها في المسألتين ثم نقول الأصل في النهي التحريم .أهـ

سؤال : من كيّف ألا نرد عليه بقوله :﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾؟

الجواب : لا ، لأنه قد يكيف بدون قيد بالتمثيل ، فإذا كيّف وقال كيفية يد الله كيدي مثلا ، فهذا مكيف وممثل ، لكن إذا كيّف بمعنى أنه هو تخيل صفة من الصفات ـ ولو بدون مماثلة ، بدون أن يقول يد الله كيد كذا وكذا ولكن قال يد الله صفتها كذا وكذا وأتى بكيفية من عنده ـ فهذا مكيف وليس بممثل .أهـ

التحريف

التحريف لغة : التغيير .

الشرح

حَرَفت الشيء غيرته ، ومنه حَرَفت الدابة أي غيرتها عن وجهة سيرها .أهـ

* * *

وفي الاصطلاح : تغيير النص لفظاً أو معنى ،

الشرح

إذا قال قائل﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ (طه :٥) ، أي استولى ، يقرأ ﴿ استوى ﴾ ولكن يقول إن معناه استولى ، فهذا تحريف معنوي لأنه تغيير المعنى فقط ، وإذا قرأ قارئ : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ (النساء :١٦٤) ، فقال وكلم اللهَ موسى تكليما ، فهذا تحريف لفظي ومعنوي ، وإذا قال قائل الحمد للَّهُ رب العالمين فهذا تحريف لفظي ، وكلها مذكورة هنا .أهـ

* * *

والتغيير اللفظي قد يتغير معه المعنى وقد لا يتغير ، فهذه ثلاثة أقسام :

الأول - تحريف لفظي يتغير معه المعنى ؛ كتحريف بعضهم قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ (النساء : ١٦٤) ، إلى نَصْب لفظ الجلالة ؛ ليكون التكليم من موسى .

الشرح

الذي غير هذا هم الذين ينكرون الكلام ، كل الطوائف التي تنكر أن يكون الله

متكلما يغيرون هذا ويقولون وكلم اللهَ موسى تكليما ، فيصير المكلم موسى هو الفاعل ، واستطاعوا أن يقولوا ذلك لأن موسى معتل بالألف لا تظهر عليه الحركات .

ويقال إن بعض أهل التحريف من الجهمية أو المعتزلة قال وكلم اللهَ موسى تكليما ، فقال له رجل من أهل السنة : ما تقول في قوله تعالى :﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ (الأعراف :١٤٣)؟ فبهت[1] الذي حرّف ، ولا يقدر أن يحرف الآن ، لأن ﴿ وَكَلَّمَهُ ﴾ الضمير هنا ضمير نصب لا يمكن أن يقبل غير النصب ﴿ وَكَلَّمَهُ ﴾ أي كلم موسى ، ما قال وكلم ربه ، فهو لا يستطيع أن يحذف الضمير ولا يستطيع أن يغيره عن معناه ، إذ أن هذا الضمير ضمير نصب لا يمكن أن يقبل أن يكون ضمير رفع ، كلم اللهَ موسى تكليما هذا تغيير لفظي معنوي .أهـ

* * *

الثاني - وتحريف لفظي لا يتغير معه المعنى ؛ كفتح الدال من قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة :١) .

الشرح

والصواب بالرفع ، الحمدُ .أهـ

* * *

وهذا في الغالب لا يقع إلا من جاهل إذ ليس فيه غرض مقصود لفاعله غالباً .

الشرح

الغالب أن التحريف اللفظي لا يقع إلا من جاهل ، والسبب أن ما فيه غرض في الغالب ، التحريف الناقل لغير المعنى نعم يقع ، لكن الذي لا يغير المعنى فالغالب أنه لا

(١) ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية ١٧٠ .

قصد فيه ، اللهم إلا رجل يريد أن يلبس على المسلمين ويجعلهم يشكون في القرآن ، فيشكله ويعربه على خلاف الصواب ، لأجل إذا قرأه العامي قال المصحف هذا كذا والمصحف الثاني كذا ، فهذا ربما يكون ، يعني يكون له تلبيس عام على المسلمين في تحريف القرآن .أهـ

* * *

الثالث – وتحريف معنوي وهو : صرف اللفظ عن ظاهره بلا دليل ؛ كتحريف معنى اليدين المضافتين إلى الله تعالى إلى القوة والنعمة ، ونحو ذلك .

الشرح

وهذا كثير ، التحريف المعنوي هو أكثر ما وجد في المنتسبين إلى القبلة يعني إلى الإسلام ، فمثلا الأشاعرة حرفوا والمعتزلة حرفوا والجهمية حرّفوا والمرجئة حرّفوا كذلك الوعيدية حرفوا والحرورية حرفوا ، وهكذا كل الطوائف المبتدعة قد حرفوا تحريفا معنويا ، لأن اللفظ لا يمكنهم أن يحرفوه لأنهم ينتسبون إلى الإسلام ، والمسلم لا يمكن أن يحرف كلام الله .

المعنى حيث أنه يعود إلى الفهم وإلى الأذهان استطاعوا أن يحرفوه ، يقولون إن الله تعالى يقول : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (المائدة :٦٤) ، المراد باليدين النعمة ، ويقول :﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ ، أي نعمتاه والله يقوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ (النحل :١٨)؟ قال نعم المراد الجنس ، نعمة الدين ونعمة الدنيا ، أو نعمة الدنيا ونعمة الآخرة .

والذي يفسرها بالقوة ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ المراد باليد القوة ، فهذا لا يتخلص لأن قوة الله واحدة ، ولا يمكن أن يقول لله قوتان ، ولهذا بطل هذا التحريف .

فالمراد باليد اليد الحقيقية التي بها سبحانه وتعالى يأخذ ويقبض :﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (الزمر :٦٧) وبها يطوي : ﴿ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ (الزمر :٦٧) ، ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ (الأنبياء :١٠٤) ، والحاصل أن أهل السنة والجماعة أبقوا دلالة اليدين على معناهما الظاهر اللائق بالله تعالى ، وهؤلاء المحرفة حرفوها ، فاستوى على العرش معناها عند أهل السنة علا عليه علوا يليق بجلاله سبحانه وتعالى ، وهؤلاء يقولون استوى على العرش بمعنى استولى ، فحرفوها تحريفا معنويا ، وهم لا يستطيعون أن يغيروا اللفظ فيقولوا استولى على العرش .

بنو إسرائيل استطاعوا أن يحرفوا لفظا ومعنى ، قيل لهم ﴿ قُولُوا حِطَّةٌ ﴾ فقالوا حنطة ، وقد قارن ابن القيم رحمه الله في النونية بين لام الأشعرية والمعتزلة في استوى وبين نون اليهود في حطة ، يقول إن لام الجهمية في استوى كنون اليهود في حطة ، فالحاصل إن هذا تحريف معنوي وهو كثير ، وأهل السنة والجماعة يتبرؤن من كل تحريف .أهـ

المناقشة

سؤال : لو قال لنا قائل إن الصفات ألفاظ مشتركة مثل استوى مشترك بين تعديه بإلى والكمال والعلو ، فتعيين أحدها تحكم ، فما الجواب؟

الجواب : الجواب بسيط ، نقول كل الألفاظ المشتركة التي لها معاني متعددة يعين المعنى الواحد السياق ، فلا يمكن أن تكون استوى على كذا بمعنى كمل ، لا يمكن أن تكون هكذا ، ولا يمكن أن تكون بمعنى قصد إن عديت بعلى ، كما أنك لو قلت عندي عين منقودة ولي عين جارية ولي عين قوية النظر ، كلمة عين في كل موضع متحددة المعنى ، فلا يمكن أن يراد بعين الأولى عين الثانية ولا بعين الثانية عين الثالثة ، فاللفظ المشترك يعين معناه السياق .أهـ

سؤال : نقول إن السياق عيّن المراد : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ فدل على أن المقصود باليدين النعمتين؟

الجواب : لا يمكن لأنهم يقولون : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قال الله تعالى : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ والإنفاق إنما هو باليد .أهـ

سؤال : الإنفاق النعمة .

الجواب : الإنفاق يكون باليد ، والأصل في الإعطاء والإنفاق والدفع أن يكون باليد ، فقوله : ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أي بهاتين اليدين وهذا واضح ، ثم إننا لو فسرناها بالنعمة فالنعمة ليست واحدة ، وإذا فسرناها بالجنس وهو يقول : ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ وإنفاقه لا يزال مستمرا وكثيرا بطل أن نقول إنها نعمة واحدة .أهـ

سؤال : هو ظاهر ولكن لأجل التخلص .

الجواب : التخلص لا يمكن ، وكل إنسان يريد التخلص بما لا يمكنه من سياق اللفظ فإنه لا يطاع بل هو مكابر .

ثم نقول له ماذا تقول في قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾؟ ونعدل إلى ما عدل إليه إبراهيم : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ (البقرة :٢٥٨) ، ماذا تقول بهذه الآية؟ فإنه لا يستطيع أن يتخلص .أهـ

سؤال : بقوتيّ من باب التعظيم .

الجواب : الله ذو قوتين؟ هذا لا يمكن ، ثم إن التعظيم لا يمكن أن يكون بالتثنية الدالة على الحصر ، التعظيم يكون بالجمع مثل : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ (القمر :١٤) ، فهذا صحيح ، أما أن يكون بالعدد المحصور باثنتين فهذا لا يمكن أن يكون ، لأن التثنية تدل على العدد المحصور بهذه السمة لا غير ، فالتعظيم يكون بالجمع لأنه دال على العظمة ، أما شيء محصور باثنين لا يمكن أن يدل على العظمة ، إنما يدل على هذا العدد المعين لا غير .أهـ

سؤال : العدول من دليل إلى آخر يعتبرونه انهزاما .

الجواب : إذاً نقول إن إبراهيم منهزم؟ سبحان الله ، لكن إذا أريد الحق وقطع الحجة ، لأن الدليل الذي فيه مجادلة بدلا من المجادلة نذهب إلى شيء آخر نجادل فيه ، وهذا لاشك أنه من إفحام الخصم وليس هذا انهزاما ، إنما يكون انهزاما لو لم يكن دليل أوضح ، لكن بالدليل الأوضح تلقمه الحجة ويكون دليلا لك على تعيين ما قلت ، لأنه إذا عجز عن الدفاع في هذا الدليل الثاني فإنه سيؤيد ما قلته في الدليل الأول .

والذين أوردوا هذا الإيراد لا تظنوا أنهم في شك من هذا أو أنهم يذهبون مذهب المعطلة ، لكن يريدون استخراج هذه الأشياء .أهـ

التعطيل

التعطيل لغة : التفريغ والإخلاء .

وفي الاصطلاح هنا : إنكار ما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات أو إنكار بعضه ، فهو نوعان :

١ - تعطيل كلي ؛ كتعطيل الجهمية الذين ينكرون الصفات ، وغلاتهم ينكرون الأسماء أيضاً .

الشرح

الجهمية أنكروا الصفات وقالوا ما لله صفات أبداً ، وبعضهم أنكر الأسماء وقال ما لله أسماء ، سبحان الله ، يقول الله : ﴿وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾ قالوا السميع الخالق للسمع في غيره ، والبصير الخالق للبصر في غيره ، وما أشبه ذلك من التحريفات الباطلة ، ومعلوم أن هذا خلاف ظاهر اللفظ ، والقرآن نزل باللغة العربية ، ولا يفهم أحد من أهل العربية في مثل ﴿وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾ إلا أن المراد المتصف بالسمع والبصر وأن ذلك من أسمائه .

غلاتهم ينكرون الأسماء ، وعامتهم ينكرون الصفات ويقرون بالأسماء ، لأنهم يقولون لو أثبتنا لله أسماءً لزم التمثيل ، لأنك تقول الله هو السميع والإنسان سميع ، وتقول إن الله هو الحي والإنسان يوصف بأنه الحي : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ (الأنعام :٩٥) . ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ (الإنسان :٢) وما أشبه ذلك ، فأنت إذا أثبت هذه الأسماء لله لزم من ذلك التماثل .

فيقال هذا غير صحيح ، لأنه كما تقدم أن الاشتراك في مطلق الأصل لا يعني المماثلة في الحقيقة ، ولهذا يقال للرجل حيوان ويقال للبقر حيوان وليس الحيوان كالحيوان ، ويقال للنبات حي وللإنسان حي وليست الحياة كالحياة ولا الحي كالحي .أهـ

٢ ـ وتعطيل جزئي ؛ كتعطيل الأشعرية الذين ينكرون بعض الصفات دون بعض .

الشرح

الأشعرية ينكرون أكثر الصفات ويقرون ببعض ، والذي يقرون به سبع صفات فقط ، وهي :الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام .

حـــي عـــلـــيـــم قـــديـــر والـــكـــلام لـــه

إرادة وكـــذاك الـــســـمـــع والـــبـــصـــر

حي عليم قدير والكلام له هذه أربع ،إرادة وكذاك السمع والبصر ، هذه سبع صفات يقرون بها والباقي ينكرونها ، فلا يقرون بالعزة ولا بالحكمة ولا بالقوة ، ما يقرون إلا بهذه الصفات السبع فقط والباقي يعطلونه ، مع أن إقرارهم بهذه الصفات ليس كإقرار أهل السنة والجماعة ، وأضرب لكم مثلا في الكلام :

كلام الله تعالى عند أهل السنة والجماعة يكون بالحرف والصوت ، فهو كلام الله حرفا وصوتا ، تكلم بهذه الحروف التي هي في كتاب الله ، وهم يقولون الكلام هو المعنى القائم بالنفس ، والحروف والأصوات مخلوقة تعبيرا عما في نفس الله من الكلام ، فيقولون إن كلام الله ليس هذه الحروف التي نقرأ ، ولا الصوت الذي سمعه جبريل ، ولا الصوت الذي سمعه موسى عليه الصلاة والسلام ، ولا الصوت الذي سمعه محمد ﷺ في ليلة المعراج ، ولكن الكلام معنى قائم بالنفس ، وأما الصوت الذي سمعه موسى وسمعه محمد ويسمعه جبريل ؛ فهو شيء مخلوق خلقه الله تعالى في الهواء أو في الشجرة :﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ﴾ (القصص :٣٠) ، أما أنه هو الصوت الذي كان الله تكلم به فلا .

أهل السنة والجماعة يقولون إن كلام الله بحرف وصوت ، كما ثبت في الحديث الصحيح « فينادي بصوت إن الله يأمرك »[1] فبين الرسول أنه بصوت ، وكذلك أيضاً قال الله تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) ﴾ (مريم :٥٢) ، والنداء هو الدعاء بصوت مرتفع .

حقيقة الأمر أن الأشاعرة في مسألة الكلام كالمعتزلة سواء ، بل شر من المعتزلة من بعض الوجوه ، فالمعتزلة يقولون : إن هذا الكلام الذي في المصحف هو كلام الله حقيقة ولكنه مخلوق ، يخلق الله أصواتا وحروفا ويقول إنها كلامه على سبيل التشريف والتعظيم وليس صفة من صفاته ، وأولئك يقولون إن هذا القرآن الذي في المصحف ليس كلام الله بل هو عبارة عن كلام الله ، وكلام الله تعالى هو المعنى القائم بالنفس ، فأولئك يقولون ـ أعني المعتزلة والجهمية ـ يقولون هذا الذي في المصحف كلام الله لكنه مخلوق ، وهؤلاء يقولون إنه ليس كلام الله وهو مخلوق ، وإنما كلام الله الذي هو صفته هو ما في نفسه من المعاني ، وحقيقة الأمر أنهم لم يثبتوا كلاما ، لأن ما يكون في النفس لا يسمى كلاما أبداً .

أنت الآن لو أردت أن تقوم بخطة من الخطط وقدرت في نفسك كلاما ورتبته بعناصره وماذا ستقول فإنك لا تسمى متكلما ، ما تكون متكلما حتى يخرج منك الصوت ، ولهذا لما أراد الله تعالى القول بالنفس قيده فقال : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ (المجادلة :٨) ، فقيد ذلك بالنفس .أهـ

* * *

(١) البخاري (٧٤٨٣) كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ ، ومسلم (٢٢٢) كتاب الإيمان ، باب بيان كون هذه الأمة نصف أهل الجنة من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وأول من عُرف بالتعطيل من هذه الأمة هو الجعد بن درهم .

الشرح

الجعد بن درهم هو أول من عرف بالتعطيل من هذه الأمة ، الجعد بن درهم أول ما تفوه به من التعطيل كلمتان ، قال إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ، هذا أول ما تكلم به ، فلما كان يوم عيد الأضحى ، خرج به خالد بن عبد الله القسري ـ رحمه الله ـ موثقا ، وطلب منه الرجوع عن رأيه فأبى أن يرجع ، فخطب خالد بن عبد الله القسري الناس لأنه هو الوالي على الجهة ، وقال : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم ، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ، ثم نزل من المنبر فضحى به وذبحه(١) ، فالبقرة عن سبع والبدنة عن سبع وهذا عن مئات الآلاف ، ولهذا قال ابن القيم :

شكر الضحية كل صاحب سنة

لله درك من أخي قربان(٢)

فأثنى عليه وقال : لله درك من أخي قربان ، وهكذا ينبغي في المفسدين في الأرض أن لا يتأنى بهم ، وإذا أصروا على ما هم عليه فلا أريح من القتل لهم ولغيرهم ، أما لهم فلأنهم يسلمون من بقية شر أنفسهم ، لأنهم إذا بقوا ازدادوا إثما ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾ (آل عمران :١٧٨) ، فنحن إذا قتلنا هذا المجرم المفسد في الأرض أحسنا إليه غاية الإحسان ، حتى لا يزداد إثما .

---

(١) رواه الذهبي في مختصر العلو ١١٥ وقال الألباني ورجاله ثقات غير عبدالرحمن بن محمد بن حبيب وأبيه وجده قال المؤلف في الميزان : ولا يعرف هؤلاء قلت : لكنه يتقوى بالذي بعده فإن إسناده خير منه .

(٢) النونية .

وثانيا : أريح لغيرهم من شرهم ، لأن الناس يسلمون من شرهم ومن بقية شرهم الذي بثوه ، ثم إن الناس ينتهون عما عليه وينزجرون ، لأن كثيراً من الناس الإيمان في قلوبهم ضعيف ما يردعهم إلا الردع السلطاني .

فهذا الذي فعله خالد بن عبد الله القسري بالجعد بن درهم هذا من خير ما يكون .

الجعد بن درهم أخذها عنه الجهم بن صفوان ، وكان الجهم بن صفوان أخبث منه وأقوى منطقا ، فنشر هذه البدعة وجعل لها عللا وجعل لها شبهات حتى انتشرت من الجهم بن صفوان ، ولهذا يسمى المذهب مذهب الجهمية لا الجعدية ، وإلا فالأصل إنه من الجعد بن درهم .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : إنه قد قيل إن الجعد بن درهم من أرض حران في الشام ، وأن فيها أناس من الصابئة والفلاسفة والكلدانيين الذين يعبدون النجوم وغيرهم وأنه قد تأثر بمذاهبهم ، ثم إنه يقول إنه قد اتصل بطالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم الذي سحر النبي ﷺ ، فتكون إذاً هذه المقالة مستمدة من اليهود ومن المجوس والمشركين والفلاسفة والصابئين ، فهي ـ والعياذ بالله ـ خبث مجمع ، حتى انتهت إلى ما انتهت إليه من المحن العظيمة لأهل الإسلام ، والذي قرأ التاريخ يعرف ما جرى للإمام أحمد ـ رحمه الله ـ وللعلماء في وقته من البلايا التي حصلت لهم بسبب هذه البدع الخبيثة ، نسأل الله السلامة .

التحريف ينقسم إلى قسمين : لفظي ومعنوي ، فالمعنوي أن يبقى اللفظ على ما هو عليه ولكن يغير المعنى ، واللفظي أن يغير اللفظ ثم قد يتغير به المعنى وقد لا يتغير .

مثال التحريف المعنوي : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ (النساء :١٦٤) ،

كلّمه أي جرحه بمخالب الحكمة «ما من مكلوم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دما اللون لون الدم والريح ريح المسك»[1] .

التحريف اللفظي الذي يتغير به المعنى :

إنما يخشى اللهُ من عباده العلماء : المخشي هو الله تعالى ومع ذلك رفع ، وهذا على حد قول العرب : خرق الثوبُ المسمارَ ، معلوم أن المخروق الثوب ومع ذلك رفع ، هم يقولون إنه إذا كان الفاعل والمفعول معلوما بالعقل جاز تغيير اللفظ من أجل ذلك ، وهذه القاعدة فاسدة بلا شك ، وإلا فلنقل خلق اللهَ السماوات ، خلق الله السماواتُ ، وكل شيء يعلم بالعقل نغير لفظه ، وهذا لا يمكن أن يقال ، وبعضهم يقول إنه على حد قول الشاعر :

أهـابـكِ إجـلالاً ومـا بـكِ قـدرة

عـلـي ولـكـن مـلء عـينٍ حـبـيـبـهـا

فالمعنى إن الله يخشى العلماء على سبيل الإجلال لا على سبيل الهيبة والخوف ، وعلى كل حال فهذه قراءة شاذة ـ والحمد لله ـ ولا يقرأ بها ولا يجوز القراءة بها .

التعطيل : ذكرنا أن التعطيل ينقسم إلى قسمين : تعطيل كلي وتعطيل جزئي .أهـ

---

(١) البخاري (٥٥٣٣) كتاب الذبائح والصيد ، باب المسك ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

المناقشة

سؤال : لماذا اختلف الخاصة والعامة ، هؤلاء ينكرون الصفات وهؤلاء ينكرون الأسماء؟

الجواب : ليس معنى عامتهم العامة الذين لا يفهمون ، عامتهم يعني أكثرهم .أهـ

سؤال : الترحم على خالد بن عبد الله القسري والثناء عليه مع أنه وصف بأنه ناصبي؟

الجواب : لا ندري ويمكن أنه يقال ، أو يشكر على هذا الفعل ويذم على الفعل الآخر ، ولا مانع من الإنسان إذا كان فيه سببان أحدهما يقتضي الذم أن يذم من هذا الوجه ويمدح من وجه آخر مادام على الإسلام .أهـ

سؤال : ذكر عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء أنه بنى كنيسة في الشام؟

الجواب : يقال هكذا لكن ما أظنه .أهـ

سؤال : يقولون إن الموجودين الآن من الأشاعرة يقرون بخمس عشرة صفة؟

الجواب : يقرونها على أنها أحوال ، يقولون عليم ذو علم وكونه عالماً ، فإذا زدتها صارت السبع أربعة عشر .أهـ

التكييف

التكييف : حكاية كيفية الصفة ؛ كقول القائل : كيفية يد الله أو نزوله إلى السماء الدنيا كذا وكذا .

التمثيل والتشبيه :

التمثيل : إثبات مثيل للشيء .

الشرح

بأن تقول هذا مثل هذا .أهـ

* * *

والتشبيه : إثبات مشابه له ،

الشرح

بأن تقول هذا شبه هذا ، وهل هما بمعنى واحد؟ الجواب .أهـ

* * *

فالتمثيل يقتضي المماثلة ، وهي المساواة من كل وجه ،

الشرح

إذا قلت هذا مثل هذا يعني مثله من كل وجه .أهـ

* * *

والتشبيه يقتضي المشابهة ، وهي المساواة في أكثر الصفات ،

الشرح

إذا قلت يشبه هذا ، فليس معناه أنه يماثله من كل وجه ، لا ، بل في أكثر الصفات ، ولهذا قالت ملكة سبأ : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ (النمل :٤٢) ، ولم تقل مثله ولا هو ، فالحاصل أن التشبيه هو المساواة في أكثر الصفات ، ولا يقتضي المماثلة من كل وجه .أهـ

* * *

وقد يطلق أحدهما على الآخر ،

الشرح

ودائماً تجد في كلام أهل العلم : من غير تمثيل وأحياناً يقولون من غير تشبيه .أهـ

* * *

والفرق بينهما وبين التكييف من وجهين :

أحدهما : أن التكييف أن يحكي كيفية الشيء سواء كانت مطلقة أم مقيدة بشبيه ، وأما التّمثيل والتّشبيه فيدلاّن على كيفية مقيّدة بالمماثل والمشابه ، ومن هذا الوجه يكون التكييف أعم ؛ لأن كل ممثِّل مكيّف ولا عكس .

الشرح

التكييف : يحكي كيفية الشيء سواء مقيدة بالمماثل أو غير مقيدة ، فإذا قال قائل : أنا اشتريت سيارة كيفيتها كذا وكذا وأتى بكيفيات لم نرها ، فإننا نسمي هذا تكييفاً ، لأنه كيف السيارة وبيّن لنا كيفيتها لكن ما ذكر لنا نظيراً لها .

وإذا قال اشتريت سيارة مثل هذه ، فهذا يصير ممثلا وفي نفس الوقت هو أيضاً مكيف ، لأنه لما قال مثل هذه عرفنا كيفيتها .

إذاً كل ممثل مكيف وليس كل مكيف ممثلاً ، فالذي يقول إن يد الله مثل يد المخلوق فإنه ممثل ، والذي يقول يد الله كيفيتها كذا وكذا وكذا ويذكر كيفية ما لها نظير يسمى مكيفاً ، والذي يقول استواء الله على عرشه كاستواء الإنسان على السرير فإنه ممثل ، والذي يقول استواء الله على عرشه كيفيته كذا وكذا ويذكر كيفية معينة فهذا مكيف .أهـ

* * *

ثانيهما : أن التكييف يختص بالصفات ،

الشرح

الكيفية تعود إلى الصفة فقط ولا تعود إلى الذات .أهـ

* * *

أما التمثيل فيكون في القَدْر والصفة والذات ، ومن هذا الوجه يكون التمثيلُ أعم ؛ لتعلقه بالذات والصفات والقدر ،

الشرح

تقول هذا مثل هذا في ذاته ، كلاهما حجر أو كلاهما إنسان وما أشبه ذلك ، وتقول في القَدْر : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (الطلاق :١٢) ، مثلهن في القدر ، لأن هذه سبع وهذه سبع في القدر وليس في الكيفية أو في الذات .

وتكون أيضاً في الصفة ، فإذا قلت هذا مثل هذا يعني في صفته ، فصارت الكيفية الآن تتعلق بالصفات ، والمثلية تتعلق بالذات والصفات والقدر .أهـ

* * *

ثم إن التشبيه الذي ضل به من ضل من الناس على نوعين :

أحدهما - تشبيه المخلوق بالخالق ، والثاني ـ تشبيه الخالق بالمخلوق ،

الشرح

تشبيه المخلوق بالخالق : هذا يسلكه الغلاة في البشر أو في المخلوقات ، فالذين عبدوا اللات والعزى ومناة وهبل شبهوا المخلوق بالخالق ، والذين قالوا إن الله مثل الناس في كذا وكذا شبهوا الخالق بالمخلوق .أهـ

* * *

فأما تشبيه المخلوق بالخالق فمعناه : إثبات شيء للمخلوق مما يختص به الخالق من الأفعال والحقوق والصفات .

الأول ـ كفعل من أشرك في الربوبية ممن زعم أن مع الله خالقاً .

الشرح

هناك من زعم أن مع الله خالقاً ، فالغلاة من الباطنية يزعمون أن أولياءهم يدبرون الكون ، ويسمون الولي إذا وصل إلى درجة معينة القطب ، ويقولون إنه الذي تدور عليه الحوادث ، فيجعلونه خالقاً مع الله ، وهناك أيضاً الثنوية من المجوس ، لكنهم لا يجعلون الخالق هو الرحمن تعالى ، بل يقولون إن للحوادث خالقين ، الظلمة تخلق الشر والنور يخلق الخير ، وهؤلاء أيضاً جعلوا المخلوق خالقاً ، فجعلوا الظلمة والنور التي هي مخلوقة جعلوها خالقاً ، وهذا أشد ممن جعلوا مع الله خالقاً .أهـ

* * *

الثاني - كفعل المشركين بأصنامهم ،

الشرح

الثاني هو الحقوق ، فجعلوا لله مماثلاً في الحقوق .أهـ

* * *

حيث زعموا أن لها حقًا في الألوهية ، فعبدوها مع الله .

الشرح

المشركون إذا سألتهم من خلق السماوات والأرض يقولون الله ، ولا يقولون اللات ولا العزى ولا مناة ، وإنما يقولون الخالق هو الله ، لكن يقولون هذه نعبدها لأنها تستحق أن تعبد ، فهؤلاء جعلوا لله مماثلاً في الحقوق .أهـ

* * *

الثالث - كفعل الغلاة في مدح النبي ﷺ أو غيره ، مثل قول المتنبي يمدح عبد الله ابن يحيى البحتري :

فكن كما شئت يا من لا شبيه له

وكيف شئت فما خلق يدانيكا

الشرح

هذا ضلال ، «يا من لا شبيه له» وهل هناك أحد ما له شبيه إلا الله؟ ما هناك أحد ، لكن لو قال قائل دفاعاً عن المتنبي : إنه يريد يا من لا شبيه له من الخلق ، نقول وهذا أيضاً كذب ، فإن هذا الرجل لا يساوي النبي ﷺ ولا غيره من الأنبياء ولا أبا بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علياً .

وقوله فما خلق يدانيكا كذب أيضاً ، وله نظراء كقول بعضهم يمدح رجلاً من الملوك :

مـــا شــــئـــت لا مـــا شـــاءت الأقـــدار

فـــاحـــكـــم فـــأنـــت الـــواحـــد الـــقـــهـــار

هذا أيضاً شرك ـ والعياذ باللّه .

وقول البوصيري في مدح الرسول ﷺ :

يـــا أكـــرم الخـــلـــق مـــالـــي مـــن ألـــوذ بـــه

ســـواك عـــنـــد حـــلـــول الحـــادث الـــعـــمـــم

فـــإن مـــن جـــودك الـــدنـــيـــا وضـــرتـــهـــا

ومـــن عـــلـــومـــك عـــلـــم الـــلـــوح والـــقـــلـــم

وهذا شرك حيث شبه النبي ﷺ بالرب تعالى ، بل جعل الرب ما له أثر في الخلق ، لأنه يقول من جودك الدنيا وضرتها ، فماذا بقي لله؟ ما أبقى شيئاً لله ـ والعياذ بالله ـ ومن علومك علم اللوح والقلم ، ومن علومك ـ وليس كل علومك أيضاً ـ علم اللوح والقلم ، وهذا أيضاً لا يكون إلا لله رب العالمين ، والنبي ﷺ أمره الله أن يقول : ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الأنعام : ٥٠) ، فكيف نقول ومن علومك علم اللوح والقلم ، ومع ذلك تعتبر هذه القصيدة عند بعض المعاصرين والسابقين أيضاً من غرر القصائد وأفضلها وأعظمها ، يترنمون بها فيما يبتدعونه من الأعياد كعيد الميلاد مثلاً ، ويرون هذا من أعظم ما يكون حباً للرسول ﷺ ، وفي الحقيقة أن الرسول ﷺ ما جاهد من جاهد من المشركين إلا بمثل هذه الأقوال ، بل إن المشركين ما وصلوا إلى هذا المسار ، فالمشركون

لم يدعوا أن الرسول ﷺ يعلم الغيب ، ولا يدعون أن الدنيا والآخرة من جوده أبداً ، ومع ذلك الرسول ﷺ قاتلهم واستباح دماءهم وأموالهم ونساءهم وذراريهم .أهـ

* * *

وأما تشبيه الخالق بالمخلوق فمعناه : أن يثبت لله تعالى في ذاته أو صفاته من الخصائص مثل ما يثبت للمخلوق من ذلك ، كقول القائل : إن يدي الله مثل أيدي المخلوقين ، واستواءه على عرشه كاستوائهم ، ونحو ذلك .

الشرح

هذا تشبيه الخالق بالمخلوق ، وهذا لا تستقر قدم أحد عليه أبداً وهو أن يجعل الخالق مثل المخلوق ، لكن ذهب إليه بعض الغلاة في قديم الزمان ، وأول من عرف به هشام بن الحكم أحد أئمة الرافضة هو أول من تكلم بالتشبيه ودعا إليه ، أما متأخروا الرافضة فذهبوا إلى مذهب المعتزلة وهو إنكار الصفات ، على العكس من هذا .

فتبين الآن أن التشبيه الذي حصل به الضلال يتنوع إلى نوعين : أحدهما : تشبيه الخالق بالمخلوق ، والثاني : تشبيه المخلوق بالخالق ، فتشبيه المخلوق بالخالق أن يثبت للمخلوق من الخصائص ما لا يكون إلا لله ، والثاني أن يثبت للخالق من الخصائص ما يكون من خصائص المخلوقين ، فيثبت لله من الصفات ما يكون من خصائص المخلوقين ، وكلاهما ضلال .أهـ

وقد قيل : إن أول من عرف بهذا النوع هشام بن الحكم الرافضي ، والله أعلم .

* * *

المناقشة

سؤال : كلام المتنبي هذا يقال إنه شرك أو يمكن أن يكون للمبالغة في الحسن ونحو ذلك؟

الجواب : لكن هل يصح أن نقول لشخص أنه لا شبيه لك؟ .أهـ

سؤال : في زمنه؟

الجواب : ولا في زمنه ، فما خلق ، نكرة في سياق النفي ، لا تعتذروا عنه فهو من الشعراء الذين يتبعهم الغاوون ، الذين في كل واد يهيمون لا شك ، إنما نحن ليس لنا إلا الظاهر ، وقد يكون هذا الرجل يقول هذا الكلام وهو لا يعتقده ، لكن ما علينا من عقيدته ، ما لنا إلا الظاهر ، ونحن لا نحكم إلا بما سمعنا ، أما شيء في قلبه وراء ما ندرك فهذا لا ندري عنه ، ولو كنا نقول لكل إنسان يظهر كلمة الكفر لعله أراد كذا ؛ فإن المشركين يقولون ما نعبدهم لأنهم يستحقون العبادة كما يستحقها الله : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (الزمر :٣) ، فنحن نجعلهم وسيلة إلى الله ، وإلا فنحن نعرف أنهم لا يستحقون العبادة .أهـ

سؤال : هو ما يقصد أنه يداني الله يقول : فما خلق يدانيك؟

الجواب : لكن يقول لا شبيه له ولا : نافية للجنس ، وقد قرأتَ في الآجرومية وعرفتَ أنها تنفي كل جنس ، لا شبيه له لا من الخالق ولا من المخلوق ، حتى الخالق لا يصل إلى درجة هذا الرجل إذا أخذنا بعموم اللفظ ، لكن نقول حتى لو أراد أنه لا شبيه له من الخلق فهو كاذب ، ولا يصل إلى درجة الشرك ، لكنه كذب في هذا ونقول له إنك كاذب ، مع أن : فما خلق يدانيك معناه لا يقربون منك الخلق ، ولا نعلم أحداً لا يقرب منه الخلق إلا الله تعالى فهو الذي لا يقربون منه في صفاته .أهـ

سؤال : تشبيه الخالق بالمخلوق وتشبيه المخلوق بالخالق كلهن درجة واحدة؟

الجواب : ما كلهن بدرجة واحدة ، وكلاهما ضلال .أهـ

الإلحاد

الإلحاد في اللغة : الميل .

الشرح

ألحد بمعنى مال .أهـ

* * *

وفي الاصطلاح : الميل عما يجب اعتقاده أو عمله .

الشرح

الإلحاد في اللغة : الميل ، قالوا ومنه في الأمور الحسية اللحد ، لأنه يحفر في جانب القبر غير متوسط ، ويسمى المتوسط شقاً ، وفي الاصطلاح : الميل عما يجب اعتقاده أو عمله ، فالفاسق يعتبر ملحداً ، والساجد للصنم يعتبر ملحداً ، والمعتقد في الله ما لا يجوز يعتبر ملحداً ، ولهذا قلنا عما يجب اعتقاده وهذا يتعلق بأعمال القلوب ، أو عمله وهذا يتعلق بأعمال الجوارح وأعمال القلوب .أهـ

* * *

وهو قسمان :

أحدهما : في أسماء الله .

الثاني : في آياته .

الشرح

والدليل على هذا التقسيم قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ (الأعراف :١٨٠) ، فذكر

الله تعالى الإلحاد في الأسماء ، أما في الآيات فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (فصلت : ٤٠) ، فبهاتين الآيتين تبين أن الإلحاد يكون في أسماء الله ، ويكون كذلك في آياته .أهـ

* * *

فأما الإلحاد في أسمائه فهو العدول عن الحق الواجب فيها ،

الشرح

لأنه ميل عما يجب حيث يعدل عن الحق الواجب في هذه الأسماء .أهـ

* * *

وهو أربعة أنواع :

١ ـ أن ينكر شيئاً منها ، أو مما دلت عليه من الصفات ، كما فعل المعطلة .

الشرح

هذا النوع هو أعلاها وأخبثها ـ والعياذ بالله ـ ، أن ينكر شيئاً منها ـ من الأسماء ـ مثل أن ينكر العزيز الحكيم القدير وما أشبهها ، وقد وجد هذا ، فإن غلاة الجهمية ينكرون الأسماء ، يقولون إن الله ليس بعليم ولا سميع ولا بصير ولا عزيز ولا حكيم إلخ ، وقالوا إن معنى السميع خالق السمع في غيره ، الحكيم خالق الحكمة في غيره ، فسمى الله بها نفسه من باب الإضافات لا من باب الحقائق .

أو ينكر ما دلت عليه من الصفات ، وقد علمنا أن أسماء الله إن كانت متعدية دلت على الذات والصفة والأثر ، فيثبت الاسم ويثبت ما تضمنه من الصفة ويثبت الحكم المترتب على ذلك الذي يسمى الأثر ، فالسميع مثلاً : تثبت أن السميع من أسماء الله ، وتثبت الصفة وهي السمع ، وثبت الحكم المترتب على ذلك وهو أنه يسمع ، لابد من هذه الأمور الثلاثة .

فإذا قال إنسان أنا أثبت أن الله سميع لكن لا أثبت له سمعاً ، فإننا نسمي هذا إلحاداً ، وإن قال أثبت أنه سميع وأن له سمعاً لكن لا أثبت الحكم أنه يسمع ، فنقول هذا إلحاد أيضاً ، فلابد أن تثبت الاسم والصفة والحكم ، وبعضهم يقول الأثر .

إذا كان الاسم غير متعد فلا بد من أمرين : إثبات الاسم وإثبات الصفة مثل الحي ، فالحي غير متعد ، فهو لا يتعلق بغيره ولكن يتعلق به نفسه سبحانه وتعالى ، فنقول : نثبت الحي على أنه اسم من أسماء الله ، ونثبت الحياة صفة من صفاته دل عليها اسم الحي .

فالذي يقول أنا أثبت أن الله حي وأن من أسمائه الحي لكن لا أثبت الحياة له ، نقول هذا ملحد ، فصار النوع الأول أن ينكر شيئاً منها ـ أي من الأسماء ـ أو مما دلت عليه من الصفات ، كما فعل المعطلة .أهـ

* * *

٢ ـ أن يجعلها دالة على تشبيه الله بخلقه ، كما فعل المشبهة .

الشرح

وهذا واقع ، فالمشبهة قالوا إن من أسماء الله السميع ومن أوصافنا نحن أيضاً السميع ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ (الإنسان :٢) ، قالوا فإذا كان الله سميعاً والإنسان سميع فإنه يدل على أنهما متماثلان ، فيستدلون بالأسماء على التشبيه ، نقول أي إنسان يؤمن بأسماء الله على أنها دالة على التشبيه فهو ملحد ، لأن أسماء الله إنما دلت على معاني تليق بالله سبحانه وتعالى .أهـ

* * *

٣ - أن يسمي الله بما لم يسمِّ به نفسه ؛ لأن أسماء الله توقيفية ،

الشرح

فإذا أثبت لله اسماً لم يسم به نفسه صار ملحداً لأنه لم يأت بها على الوجه الواجب ، مثاله .أهـ

* * *

كتسمية النصارى له (أباً) ، وتسمية الفلاسفة إياه (علة فاعلة) ، ونحو ذلك .

الشرح

النصاري يسمون الله الأب ، من أين جاءهم الأب؟ ليس عندهم دليل ، إذاً فهم ملحدون حيث خرجوا عما يجب في أسماء الله وصفاته ، وأسماء الله توقيفية ليس لك أن تثبت اسماً من أسماء الله إلا بنص ، والعقل لا مدخل له في هذا الباب ، كذلك الفلاسفة لا يقرون بالله تعالى ولكن يقرون بأن هذا الكون له محدث ، ويسمونه العلة الفاعلة يعني الموجبة ، هؤلاء سموا الله بما لم يسمِ به نفسه ، ولا يليق به أيضاً سبحانه وتعالى أن يكون علة أو أباً .أهـ

* * *

٤ ـ أنه يشتق من أسمائه أسماء للأصنام ، كاشتقاق (اللات) من الإله . و(العزَّى) من العزيز .

الشرح

المشركون ذكر الله لهم ثلاثة أسماء من أصنامهم : اللات والعزى ومناة ، اللات قيل إن أصلها اللاتّ بتشديد التاء ، وأنه كان رجلاً يلت السويق للحاج ويحسن إلى الناس فلما مات عكفوا على قبر فعبدوه ، وعلى هذا التفسير لا تدخل معنا ، وقيل إن

اللات من الإله ، بدلاً من أن يقولوا الله قالوا نسميه اللات ، لم يقولوا الله بل غيروا تغييراً بسيطاً وقالوا اللات من الإله الذي صار إلى الله .

العزى أخذوها من العزيز ، وأخذوا مناة من المنان ، فاشتقوا من أسماء الله أسماءً لأصنامهم ليضفوا عليها شيئا من العظمة ، وأن بينها وبين الخالق مناسبة ، فهذا مأخوذ من الله وهذا مأخوذ من العزيز وهذا مأخوذ من المنان ، هذا إلحاد .أهـ

* * *

وأما الإلحاد في آياته : فيكون في الآيات الشرعية ، وهي ما جاءت به الرسل من الأحكام والأخبار ، ويكون في الآيات الكونية ، وهي ما خلقه الله ، ويخلقه في السماوات والأرض .

الشرح

آيات الله تعالى نوعان : كونية وشرعية : فالكونية هذه المخلوقات في السماوات والأرض .

والشرعية ما جاءت به الرسل من الأحكام والأخبار ، فالإلحاد في القسم الأول ـ الأخبار والأحكام .أهـ

* * *

فأما الإلحاد في الآيات الشرعية : فهو تحريفها ، أو تكذيب أخبارها ، أو عصيان أحكامها .

الشرح

ثلاثة أمور ، التحريف بالآيات الشرعية يكون بواحد من أمور ثلاثة : الأول

التحريف اللفظي والمعنوي كلاهما ، لأن تحريفها ميل عما يجب فيها ، أو تكذيب أخبارها بأن يقول هذا غير صحيح أو الشك فيها ، أو عصيان أحكامها ، فالمعصية إلحاد لأن الإنسان خرج بها عما يجب أن يكون عليه من طاعة اللّه تعالى.أهـ

* * *

وأما الإلحاد في الآيات الكونية : فهو نسبتها إلى غير اللّه ، أو اعتقاد شريك أو معين له فيها .

الشرح

معنى نسبتها إلى غير الله أن يقول إن الذي خلق السماوات والأرض ليس الله ، والذي خلق الخير ليس الله ، والذي خلق الشر ليس الله ، فهذا نقول عنه ملحد ، كذلك لو نسب لله شريكاً فيها وقال إن الذي خلق السماوات هو الله وجبريل ، فنقول هذا أيضاً إلحاد ، أو معين : بأن قال الذي خلق هذه المخلوقات هو الله لكن له من يساعده .أهـ

* * *

الإلحاد بقسميه حرام ؛

الشرح

القسمان هما الإلحاد في الأسماء والإلحاد في الآيات كلاهما حرام .أهـ

* * *

لقوله تعالى مهدداً للملحدين : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف :١٨٠) .

الشرح

تهدد هؤلاء بقوله : ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف :١٨٠) ، والتهديد لا يكون إلا على محرم ، وقال تعالى في الإلحاد في الآيات .أهـ

* * *

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (فصلت :٤٠) .

الشرح

هذا يدل على توعدهم بالنار ، فاللَّه توعدهم بالنار وأنهم لا يأتون آمنين يوم القيامة .أهـ

* * *

ومن الإلحاد ما يكون كفراً حسب ما تقتضيه نصوص الكتاب والسنة .

الشرح

يعني منه ما يصل إلى حد الكفر حسب الأدلة الشرعية ، فالذي يعتقد أن لله تعالى شريكا في الخلق ، أو أن أحداً انفرد بالخلق ، أو أن لله معينا فيه فهذا كافر لا شك فيه ، والإلحاد في الآيات كبعض المعاصي فهذا لا يكون كفرا .

والمهم أن المسالة تحتاج إلى تفصيل ، ويرجع فيها إلى ما تقتضيه الأدلة من الكفر أو الفسوق .أهـ

* * *

ا لباب الرابع

في بيان صحة مذهب السلف

الشرح

اعلم أن كلمة السلف تعني السلف زمنا والسلف معتقدا ، فإن أريد بالسلف معتقدا صح أن نقول لمن هم موجودون الآن على مذهب السلف ؛ نقول إن هؤلاء سلف ، وإذا قلنا إن السلف هم السابقون زمنا فإنه يختص بالقرون الثلاثة المفضلة ، الصحابة والتابعون وتابعوا التابعين ، وكل الأمرين قد استعمله أهل العلم ، فتارة يريدون بالسلف من كان على طريقة السلف وإن كان متأخراً زمنا ، وتارة يقولون ـ أي يريدون بالسلف ـ القرون الثلاثة المفضلة ، ولهذا تجدهم يقولون مثلا : وهذا ما ذهب إليه سلف الأمة وأئمتها ، ويريدون بالسلف هنا القرون الثلاثة المفضلة ، ولهذا قال وأئمتها فأخرجهم عن السلف ، وهذا يعني السلف زمنا ، وتارة يقولون هذا مذهب السلف وهذا مذهب الخلف ، ويريدون بهم السلف معتقداً لا زمنا .

وهنا المراد بصحة مذهب السلف معتقداً .أهـ

* * *

وبطلان القول بتفضيل مذهب الخلف في العلم والحكمة على مذهب السلف ،

الشرح

وهل أحد قال بذلك إن مذهب الخلف أفضل في العلم والحكمة؟

نعم قالوه .أهـ

* * *

سبق القول في بيان طريقة السلف ، وذكر الدليل على وجوب الأخذ بها ، أما هنا فإننا نُريد أن نُبرهن على أن مذهب السلف هو المذهب الصحيح ؛ وذلك من وجهين :

الأول ـ أن مذهب السلف دل عليه الكتاب والسنة ؛

الشرح

وما دل عليه الكتاب والسنة فهو الصحيح لا شك ، وما لم يدل عليه الكتاب والسنة فإنه ليس بصحيح ، فإذا قال قائل كل يدعى وصلاً لليلى ، السلف يقولون نحن على الكتاب والسنة ، والخلف أيضاً يقولون نحن على الكتاب والسنة ، ولهذا يدعون لأنفسهم أنهم من أهل السنة ، فكل يدعي وصلاً لليلى ، فما هو الحكم؟ قال المؤلف .أهـ

* * *

فإن من تتبع طريقتهم بعلم وعدل ؛

الشرح

كلمتان عظيمتان ، من تتبعها بعلم وعدل ، بعلم : احترازا ممن تبعها بجهل ، فالجاهل لا يقبل حكمه ،لأنه ليس بعالم حتى يقبل حكمه في الناس .

وعدل : لأن بعض الناس عنده علم ويعلم أن مذهب السلف هو الصحيح لكن عنده جور وظلم ، فلا يقر به ولا يقر بأنه الحق ، ولا يمكن لمن أراد أن يحكم إلا أن يكون عنده علم وعدل ، فأما مع عدم العلم فكيف يحكم؟ ومع عدم العدل لا يؤمن في حكمه ، فقد يحكم بالباطل لكونه ليس بعدل ، لكن من تتبع طريقة السلف بعلم وقارنها بالكتاب والسنة ، وبعدل بحيث لا يكون عنده هوى أو جور ، يقول من تتبعها بذلك .أهـ

* * *

وجدها مطابقة لما في الكتاب والسنة جملة وتفصيلاً ولا بدّ ،

الشرح

يعني لابد من ذلك ، لابد من أن تكون مطابقة للكتاب والسنة جملة وتفصيلا ، لماذا؟ .أهـ

* * *

فإن الله تعالى أنزل الكتاب ليدبّر الناس آياته ، ويعملوا بها إن كانت أحكاماً ، ويصدقوا بها إن كانت أخباراً .

الشرح

هذه الجملة صحيحة ، والدليل على صحتها قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ (ص :٢٩) ، هذا التدبر ، وبالتدبر يكون العلم : ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (ص :٢٩) ، هذا العمل به إن كان أحكاما والتصديق به إن كان أخبارا ، هذا هو الذي نزل من أجله القرآن ، إذاً فالقرآن له معاني ويمكن الوصول إليها وإلا لما كان فائدة من التدبر .أهـ

* * *

ولا ريب أن أقرب الناس إلى فهمها وتصديقها والعمل بها هم السلف ؛

الشرح

هذا حق ، أقرب الناس إلى فهمها وتصديقها والعمل بها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وابن عباس ومعاذ بن جبل وأمثالهم ، أقرب من ابن أبي دؤاد وأشباهه ممن جاءوا بعد ذلك ، بل نقول :

ألــــم تـــر أن الــــســــيـــف يــــنــــقـــص قـــدره

إذا قـــيـــل إن الـــســـيـــف أمـــضـــى مـــن الـــعـــصـــا

ولا ريب أن السلف وعلى رأسهم الصحابة رضي الله عنهم أقرب إلى فهمها وإلى تصديقها والعمل بها ، ولا أحد يعارض في ذلك إلا مكابر .

ولماذا هم أقرب؟ .أهـ

* * *

لأنها جاءت بلغتهم وفي عصرهم ،

الشرح

لأنها جاءت بلغتهم والثاني في عصرهم ، يعرفون الأسباب والملابسات والأحوال التي تعين على الفهم ، وفيه أمر لو زدناه لكان أحسن : ولأنهم أقوى الناس إيمانا بلا شك ، فهم جاءت بلغتهم قبل أن تتغير اللغات ، وجاءت في عصرهم يعلمون الأحوال والملابسات التي توجب فهم الآيات ، والثالث عندهم من الإيمان والانقياد التام ما ليس عند غيرهم ، ولذلك لا شك أن يكون مذهبهم هو الصواب .أهـ

* * *

فلا جرم أن يكونوا أعلم الناس بها فقهاً ، وأقومهم عملاً .

الشرح

وهذا مسلم ، وهذا دليل شرعي حسي على أن السلف هم أعلم الناس بأسماء الله وصفاته وأقواهم إيمانا بها ، أما الوجه الثاني فهو عقلي .أهـ

* * *

الثاني ـ أن يقال : إن الحق في هذا الباب

الشرح

أي في باب الأسماء والصفات .أهـ

* * *

إما أن يكون فيما قاله السلف ، أو فيما قاله الخلف .

الشرح

الآن عندنا مذهبان ، مذهب الخلف وهو التأويل والتحريف ، ومذهب السلف وهو الإيمان بها على ظاهرها ، فعندنا الآن طريقتان : الحق إما أن يكون بما قاله السلف ، وإما أن يكون في ما قاله الخلف .

وقد يقول قائل أو فيما لم يقله هؤلاء ولا هؤلاء ، لأن القسمة العقلية لا تقتضي انحصار الحق في هذا وهذا فقط ، قد يكون هناك قول ثالث غير قول السلف وغير قول الخلف ، نعم ربما يقول هذا قائل .

لكن الجواب عليه أن نقول : ليس هناك قول ثالث ، الواقع أنه ليس هناك قول ثالث ، وأن المفاضلة الآن بين طريقة السلف والخلف فقط ، وبالإجماع أنه ما هناك طريق ثالث لا سلفي ولا خلفي ، ونحن نريد أن نتكلم مع الذين فضلوا طريقة الخلف وقالوا إنها أعلم وأحكم ، فنقول لهم الآن : الحق إما أن يكون فيما قاله السلف ، أو فيما قاله الخلف .

فلو قال قائل : أو في قول ثالث غير القولين ، فنقول له هات ، ليس هناك قول ثالث لأن الواقع أن المسألة منحصرة إما في مذهب السلف وإما في مذهب الخلف .أهـ

* * *

والثاني باطل ،

الشرح

الثاني هو أن يكون الحق فيما قاله الخلف لا فيما قاله السلف ، ولماذا يكون باطلا .أهـ

* * *

لأنه يلزم عليه أن يكون الله ورسوله والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار قد تكلّموا بالباطل تصريحاً أو ظاهراً ، ولم يتكلموا مرة واحدة بالحق الذي يجب اعتقاده لا تصريحاً ولا ظاهراً .

الشرح

مذهب السلف دل عليه الكتاب والسنة ، إذا قلنا إن الحق فيما قاله الخلف ؛ لزم أن يكون القرآن والسنة وكلام السلف كلها ما تكلمت بالحق الذي يجب اعتقاده .

إذا قلنا إن الحق الذي يجب اعتقاده ما كان عليه الخلف وهو غير موجود لا في القرآن ولا في السنة ولا في كلام الصحابة ؛ فإنه يلزم أنهم ما تكلموا بالحق ، لا القرآن ولا السنة ولا الصحابة ، وإذا كانوا لم يتكلموا بالحق وقد تكلموا بالباطل لأنه ماذا بعد الحق إلا الضلال ، فإذا لم يتكلموا بالحق فقد تكلموا بالباطل ، فيكون القرآن والسنة وكلام الصحابة مملوءا بالباطل خاليا من الحق .

هل أحد يمكن أن تستقر له قدم على هذا اللازم فيقول نعم أنا التزم أن القرآن والسنة وكلام الصحابة كله مملوء بالباطل خال من الحق؟ ما أحد يستقر على هذا ، ولذلك لو أن أحدا استقر قوله على هذا .أهـ

* * *

فيكون وجود الكتاب والسنة ضرراً محضاً في أصل الدين ، وترك الناس بلا كتاب ولا سنة خيراً لهم وأقوم! وهذا ظاهر البطلان .

الشرح

نقول لمن قال إن مذهب الخلف أعلم وأحكم : هذا مذهب السلف وهذا مذهب الخلف والحق لا يخرج عنهما ، إما أن يكون فيما قاله السلف أو فيما قاله الخلف ـ تنزلا معه ـ إن قلت إنه فيما قاله الخلف فإنه يلزم على قولك أن يكون الكتاب والسنة وكلام الصحابة وأئمة الأمة كله باطل ، لأنك ترى أن الحق فيما سواه ، وأنهم لم يتكلموا مرة واحدة بالحق الذي يجب اعتقاده ، إذاً فما قيمة الكتاب والسنة الآن؟

لا نقول إنه لا قيمة لهما ، بل قيمتهما ضرر على الأمة ، لأنه حصل بهما إثبات الباطل والخلو من الحق ، فأصبح وجود الكتاب والسنة ضررا في أصل الدين الذي هو توحيد اللّه تعالى بأسمائه وصفاته ، وأن ترك الناس بلا كتاب ولا سنة أحسن ، فما مادام أنهما يثبتان الباطل ولا يقولان بالحق فكوننا نسلم منهما أسلم ، ولا أظن مؤمنا بالله واليوم الآخر يستقر قدمه على هذا الأمر أبداً .

ولو أن أحدا قال بهذا اللازم لأعلن على نفسه بالكفر ، وهذا أمر واضح .

يقول العلماء : بطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم ، وإذا تبين لنا أن هذا اللازم باطل ؛ علمنا يقينا أن الملزوم ـ وهو كون مذهب الخلف أعلم وأحكم ـ باطل بكل حال .

فهذان وجهان : الوجه الأول دليل حسي شرعي ، والوجه الثاني دليل عقلي نظري ، ولا يقدر أحد أن يتخلص منه أبداً .أهـ

* * *

هذا وقد قال بعض الأغبياء :

الشرح

كلمة جيدة ، ـ بعض الأغبياء ـ وهذا التعبيرمن تعبير شيخ الإسلام ابن تيمية ، هذا الكتاب ملخص من الفتوى ، بعض الأغبياء والغبي هو الذي لا يعرف ، فهو فعيل إما بمعنى مفعول مغباً عنه الأمر ، وإما بمعنى أنه غاب خافية عنه الأمور ولا يعرف الأمور .أهـ

* * *

طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم وأحكم ،

الشرح

إذا قرأت هذه العبارة قلت هذه عبارة محمكة جيدة ، طريقة السلف أسلم والحمد لله على السلامة ، لكن طريقة الخلف أعلم وأحكم مشكلة ، لأن معناها أن طريقة السلف فيها جهل وسفه ، جهل ضد العلم وسفه ضد الحكمة ، ولا بد لهذا القول من منشأ ، وما السبب الذي حملهم على أن يقولوا مثل هذه الكلمة الجائرة الكاذبة؟ .أهـ

* * *

ومنشأ هذا القول أمران :

الأول ـ اعتقاد قائله ـ بسبب ما عنده من الشبهات الفاسدة ـ أن اللّه تعالى ليس له في نفس الأمر صفة حقيقية دلّت عليها هذه النصوص .

الشرح

السبب أن قائل هذا القول يعتقد أن اللّه ليس له صفة حقيقة دلت عليها

النصوص ، فيعتقد أن اللَّه ليس له يد حقيقية ، وأن اللَّه لم يستو حقيقة على العرش ، وأن اللَّه ليس له وجه حقيقي ، وأن اللَّه ليس له عين حقيقية ، وما أشبه ذلك ، والسبب الذي جعله يعتقد هذا ، بسبب ما عنده من الشبهات الفاسدة .

فهذا الذي قال إن طريقة الخلف أعلم وأحكم إنما قال هذا الكلام لأنه قال إني أعتقد أن اللَّه ليس له صفة حقيقية دلت عليها النصوص ، وأعتقد أن اللَّه لم يستو حقيقة على العرش ، وأعتقد أن اللَّه ليس له يد حقيقية ، وأعتقد أن اللَّه ليس له عين حقيقية ، وأعتقد أن اللَّه ليس له وجه حقيقي ، وهكذا هو يعتقد هذا الاعتقاد ، وهذا الاعتقاد باطل .

وإنما اعتقد هذا الاعتقاد لأن عنده شبهة فاسدة ، وهي قوله إذا أثبت هذه الأمور كنت مجسما ممثلا ، إذاً فأنفي هذه الأمور ، لأن التجسيم والتمثيل باطل ، واللازم الباطل يدل على بطلان الملزوم فلا أقر بذلك ، هذا السبب الأول .أهـ

* * *

الثاني ـ اعتقاده أن طريقة السلف هي الإيمان بمجرد ألفاظ نصوص الصفات من غير إثبات معنى لها ،

الشرح

هذا الذي يفهمه كثير من أهل التأويل ، يفهمون أن مذهب السلف الإيمان بمجرد الألفاظ بدون إثبات معنى ، ويقولون : مذهب السلف هو أن نؤمن بأن لله يد ، وأما معنى اليد فلا نقول شيئا ، فقط نقرأ : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة :٦٤) ، ونؤمن بأن اللَّه استوى على العرش ، وأما معنى استوى فلا ندري ما معنى استوى ، ويقولون هذا مذهب السلف .

وهذا غير صحيح ، ولو كان هذا مذهب السلف لوافقناهم على أن مذهب

الخلف أعلم وأحكم ، لأن مذهب الخلف يقول أنا أدري ما معنى اليد ، معناها النعمة والقوة ، وأدري ما معنى استوى على العرش ، معناه استولى عليه ، وأدري ما معنى وجه ربك ، أي ثوابه وهكذا ، والذي يدري عن المعنى أعلم من الذي لا يدري عن المعنى وأحكم ، أعلم لأنه أثبت المعنى ، وأحكم لأنه رأى أن اللّه لا يمكن أن يخاطبنا بألفاظ ليس لها معنى ، فإن المخاطبة بألفاظ ليس لها معنى تعتبر سفها لا حكمة ، فلهذا يكون مذهب الخلف أعلم وأحكم .

انظر إلى هذا الاعتقاد الباطل في مذهب السلف ، وليس هذا مذهب السلف ، فلو أن شخصا قام وصعد المنبر وخطب عند الناس وقال ألف باء تاء ثاء جيم حاء خاء دال ذال راء زاي والسلام عليكم ، هذه الخطبة هل هي مؤثرة أو ليس لها معنى؟ هم يقولون إن الكلام في أسماء اللّه وصفاته عند السلف مثل هذا ، مثل ألف باء تاء ثاء مالها معنى ، ولا يمكن أن يتكلم السلف بمعناها إطلاقا ، هذا رأيهم في السلف ، فإذا كانوا لا يعتقدون لله صفة حقيقية حتى يؤمنوا بها هم ، ولا يعتقدون أن السلف يثبتون معنى ، إذاً بقي لطريقة الخلف أنها أعلم وأحكم ، لأنهم أثبتوا معاني ولم يثبتوا الحقائق التي يقول عنها هؤلاء إنها باطلة .

يقولون أسلم : لأنك إذا سألت إنسانا عن شيء لا يدري عنه وقال لا أدري فإنه يسلم ، وهم يقولون لا ندري ما معنى آيات الصفات ، فإذا قالوا لا نثبت لها معنى سلموا ، ولكنه سيبين أن هذا خطأ .أهـ

* * *

بناء على هذين المنشأين صار منشأ القول بتفضيل طريقة الخلف على طريقة السلف في العلم والحكمة أمرين :

الأمر الأول : أن الخلف يعتقدون أن اللّه ليس له صفة حقيقية ، والأمر الثاني :

يعتقدون ـ أي الخلف ـ أن السلف لا يثبتون معاني الأسماء والصفات وإنما يؤمنون بمجرد اللفظ فقط ،

الشرح

أما معنى مؤول أو على وجه الحقيقة فإن هذا لا يعتقدونه .أهـ

* * *

فيبقى الأمر دائراً بين أن نؤمن بألفاظ جوفاء لا معنى لها وهذه طريقة السلف على زعمه وبين أن نثبت للنصوص معاني تخالف ظاهرها الدال على إثبات الصفات للّه ، وهذه هي طريقة الخلف ؛ ولا ريب أن إثبات معاني النصوص أبلغ في العلم والحكمة من إثبات ألفاظ جوفاء ليس لها معنى ، ومن ثم فَضَّلَ هذا الغبي طريقة الخلف في العلم والحكمة على طريقة السلف .

الشرح

أرجو أن تفهموها تماماً وأن تحرصوا على هذه الأمور ، لأننا في زمن نخشى على أنفسنا من كثرة أهل التأويل فيما بيننا الآن ، فأهل التأويل فيما بيننا الآن كثروا وصاروا يلبسون وصاروا يؤلفون بما يسمونه بالثقافة الإسلامية ، فإذا أتوا على مسألة الصفات قرروا تقريراً تاماً مذهب أهل التأويل .

في مدارسنا الآن بعض المعاهد ـ ليست التابعة لجامعة الإمام ـ تقرر هذا المنهج ، والطالب الذي لم يقرأ مذهب السلف قراءة جيدة من قبل فإنه يلتبس عليه الأمر ، فيقف إما حيران ما يدري إلى هؤلاء أو إلى هؤلاء ، أو يقول نحن نقرأ القرآن ونسكت وما علينا من مجادلاتكم ، أو أن يقر بما قاله هؤلاء وقرروه من التأويل الذي هو في الحقيقة تحريف ، ولهذا أنا أحب منكم طلبة العلم أن تحرصوا على هذا الأمر وتولوه عناية ، ولا تقولوا هذا أمر انقضى ، صحيح أننا في هذه

البلاد قبل عشرات السنوات عندنا هذا الأمر لا يوجد ولا نسمع به ولا نعرفه إلا في بطون الكتب ، أما الآن فأصبحنا نعرفه في بطون فصول المدارس ، فلذلك يجب علينا أن نعتني بهذا الأمر حتى ندركه وندرك مآخذ أولئك الذين حرفوا نصوص كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ عن معانيها اللائقة بالله ، والله الموفق .

قول القائل : طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم وأحكم تدل على غباوته ، وأن منشأ هذا القول أمران :

الأمر الأول ـ اعتقاده أنه ليس للّه صفة تدلّ عليها النصوص ، ثم اعتقاده أن طريقة السلف مجرد الإيمان بألفاظ بدون إثبات معنى لها ، لما اعتقد هذا ـ أن اللّه ليس له صفة حقيقية دلت عليها النصوص ، وأن مذهب السلف مجرد الإيمان بالألفاظ ـ رأى أن طريقة الخلف أعلم وأحكم ، ونحن قد مثلنا لكم بمثال فقلنا : اليد أثبتها اللّه لنفسه ، ويعتقد هذا الغبي أن اللّه ليس له يد حقيقية ، وأن مذهب السلف الإيمان باللفظ بدون إثبات معنى ، بل يقرأون فقط : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة :٦٤) ، ولا يدرون عن معناها ، والخلف يقولون إننا نقول إن معنى اليدين القدرة ، فالآن أثبتوا للنصوص معنى ، ولم يثبتوا يدا حقيقية لأنهم يعتقدون أن ذلك مستحيل على اللّه لاستلزامه التشبيه عندهم ، ولا شك أن من أثبت للنصوص معنى ولو كان مأولاً خير ممن لم يثبت معنى ، فإنك إذا قلت لشخص ما ، ما معنى ذلك؟ فقال كذا وكذا للقرينة ، وقلت لشخص آخر ما معناه وقال لا أدري ، فإن الأول أعلم وأحكم ، أعلم لأنه أثبت معنى ، وأحكم لأنه قال إنه لا يمكن أن تأتي هذه الألفاظ من الرب تعالى بدون معنى أبداً .أهـ

* * *

وقول هذا الغبي يتضمن حقّاً وباطلاً : فأما الحقّ فقوله : «إن مذهب السلف أسلم»

الشرح

ونحن نوافقه على هذا ونقول صدقت وبررت أن طريقة السلف أسلم .أهـ

* * *

وأما الباطل فقوله : «إن مذهب الخلف أعلم وأحكم»

الشرح

لكن قولك «إن طريق الخلف أعلم وأحكم» كذبت في هذا ، فليست طريقة الخلف أعلم وأحكم ، فأنتم توافقون على أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف ليست أعلم ولا أحكم ، أما كونها ليست أسلم فهو قد أقر بها ، هو بنفسه يقول أنها ليست أسلم ، الأسلم طريقة السلف ، لكن ادعى أن طريقة الخلف أعلم وأحكم ، ونحن نقول هذه الدعوى باطلة ولا نصدقك بها .

إذا قال قائل : أنتم ادعيتم أن قول هذا الرجل إن طريقة الخلف أعلم وأحكم ادعيتم أنها باطلة ، فما الدليل على هذا البطلان؟ وإلا فهي حق وليست باطلة .أهـ

* * *

وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول ـ أنه يُناقض قوله : «إن طريقة السلف أسلم» ؛

الشرح

قوله «إن طريقة الخلف أعلم وأحكم» تناقض «إن طريقة السلف أسلم» ومعلوم أن الكلام المتناقض باطل ، وجه المناقضة .أهـ

فإن كون طريقة السلف أسلم من لوازم كونها أعلم وأحكم ،

الشرح

متى أقر بأن طريقة السلف أسلم فإن هذا مضمونه أنها أعلم وأحكم ، وجه ذلك قوله : .أهـ

* * *

إذ لا سلامة إلا بالعلم والحكمة ، العلم بأسباب السلامة ، والحكمة في سلوك تلك الأسباب ،

الشرح

وهذا صحيح ، لا يمكن لأحد أن يسلم إلا بعلم وبحكمة أيضاً ، بعلم بأسباب السلامة ، وبحكمة باتباع سلوكها ، فلو أن رجلا سقط في ماء يغرقه فإنه لا يسلم إلا بأمرين : أن يكون عنده علم بالسباحة ، والثاني أن يتصرف بمقتضى هذا العلم .

عندنا ثلاثة رجال : رجل سقط في ماء يغرقه ولكنه غير متعلم ، وقام يخبط لعله ينجو ، ولكنه غرق لأنه جاهل ولا علم عنده بأسباب السلامة .

والثاني سقط في ماء يغرقه وهو متعلم لكنه ما استعمل علمه ، ركب على الماء ولا تحرك أبداً فمآله أن يغرق .

والرجل الثالث سقط في ماء يغرقه وهو متعلم فتحرك حسب علمه حتى سلم ونجا .

إذاً لا يمكن أن يوجد سلامة إلا بعلم وحكمة ، علم بأسباب السلامة ، وحكمة بسلوك تلك الأسباب ، فما دمت قلت «إن طريقة السلف أسلم» فإن هذا مضمونه إقرارك بأنها أعلم وأحكم ، إذ لا سلامة إلا بعلم وحكمة .

وهذا الكلام الذي ذكره شيخ الإسلام موجود في بطون الكتب ، حتى ـ مثلا ـ عند النووي رحمه اللّه وعند كثير من العلماء الذين يتكلمون على مذهب الأشاعرة ؛ يقولون هذه العبارة ، يقولون طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم .أهـ

* * *

الوجه الثاني ـ أن اعتقاده أن اللّه ليس له صفة حقيقية دلت عليها هذه النصوص اعتقاد باطل ؛ لأنه مبني على شبهات فاسدة ؛ وبهذا يتبين أن طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم ، وهو لازم لهذا الغبي لزوماً لا محيد عنه

الشرح

قد ذكرنا أن منشأ قول هذا القائل اعتقاده أنه ليس للّه صفة دلت عليها هذه النصوص ، فهو يقول ليس للّه استواء حقيقي ولا يد حقيقية ولا عين حقيقية وهكذا ، فنقول هذا الاعتقاد باطل لأنه مبني على شبهات فاسدة ، وسيأتي بيانه إن شاء اللّه في الباب العشرين .

من جملة ما يقولون : يقولون إن هذه الصفات لو ثبتت حقيقة للزم أن يكون اللّه مشابها للخلق ، والتشبيه ممتنع فتكون هذه الصفات ممتنعة ، ولهذا أنكروا اليد وقالوا لو كان للّه يد لكانت جارحة ولكان جسما ولكان مشابها للمخلوق ، وكل هذا باطل كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى بيانه .أهـ

* * *

ولأن اللّه تعالى قد ثبت له صفات الكمال عقلاً وحسًا وفطرة وشرعاً :

الشرح

الله تعالى ثبتت له صفات الكمال بالعقل والفطرة والشرع ، ثلاثة أدلة كل واحد من جنس .أهـ

فأما دلالة العقل على ثبوت صفات الكمال لله فوجهه أن يقال : إن كل موجود في الخارج فلا بد أن يكون له صفة : إما صفة كمال ، وإما صفة نقص ،

الشرح

كل موجود في الخارج ، كلمة في الخارج هذه احترازا من الموجود في الذهن ، لأن الأذهان قد تفرض أشياء لا يمكن وجودها في الأعيان ، فقولنا في الخارج احترازا مما يوجد في الذهن ، وأنت الآن في ذهنك ربما تقدر أشياء مستحيلة في الخارج ، قد تقدر في ذهنك أن جمرة تلتهب في وسط ماء ، قد يفرض الذهن هذا ، والذهن قد يفرض أن امرأة تحمل بولد يكون في جوف رأسها ، ولكن ليس له وجود في الخارج ، والذهن يفرض وجود المتناقضين جميعا ، ولكن لا وجود له في الخارج ، فلهذا انتبهوا إذا مر عليكم في كلام ابن تيمية أو غيره كلمة في الخارج احترازا من الذهن ، فإن الأذهان تفرض ما لا يكون في الأعيان ، وهذا أمر مشاهد ، هل يمكن أن تفرض شيئا موجودا ليس له صفة أو لا يمكن؟

فرضا يمكن أن تتصور وجود شيء ليس له صفة ، ليس بطويل ولا قصير ولا أبيض ولا أسود ولا غليظ ولا خفيف ، يمكن أن تفرض هذا ، لكنه في الخارج لا يمكن ، فكل موجود في الخارج لابد أن يكون له صفة ، فالذهن يفرض كل شيء ، ونمثل بالمثال الأول الذي مثلنا به : لو وضعت جمرة في ماء فإنها تنطفأ ، يمكن أن يفرض ذهنك أنه يوجد جمرة تتلهب في ماء ولا تنطفأ ، ألا يفرض ذهنك أن هناك سيارة تمشي على الهواء؟ يمكن أن نتخيل الآن أن فوقنا ألف طائرة ، لكن في الخارج ما فوقنا شيء إلا سقف المسجد ، قد يتصور الإنسان أنه يوجد شخص يمشي على رأسه من هنا إلى مكة .

قال الله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء :٢٢) ، هل تتخيل ذلك أم لا؟ كيف يخبرنا الله عن شيء ما نتخيله؟ ممكن فرضا ، لو كان ذلك لفسدتا ، فتبين أن

اللّه صور لنا شيئا محال أن يوجد في الخارج ، لكن الذهن قد يتصور أن هناك إلهين ، لكن واقعا لا يمكن ، فيجب أن نعرف أن الذهن يفرض أشياء لا يمكن أن توجد في الخارج ، وليس المعنى أنه لا يفرض إلا الواقع ، بل يفرض شيئا لا يمكن أن يوجد أبداً .

المهم أنه يمكن أن تتخيل شيئا موجودا ليس له صفة ، لكن لا يوجد أمامنا شيء في الخارج ليس له صفة ، بل كل شيء موجود لا بد له من صفة ، ولو لم يكن من صفته إلا أنه موجود لكان كافيا .

فنقول الآن للذين ينكرون الصفات : هل الرب موجود أو غير موجود؟ فسيقولون موجود ، لو أنكروا وجود الرب كفروا ، فنقول : إذا كان موجودا فكل موجود فلا بد أن يكون متصفا بصفة ، ولا يقدرون أن يقولوا لا ، لأنهم لو قالوا لا ، قلنا أول ما يدمغ رؤوسكم صفة الوجود ، وأنتم الآن تقولون إنه موجود ، فمعنى موجود أنه متصف بصفة الوجود ، فلا بد لكل موجود من صفة ، قد يكون جسما وقد يكون غير جسم ، السواد والبياض والطول والقصر موجود وهو غير جسم ، وقد يكون جسما ثخينا أو جسما رقيقا ، فالحديد جسم ثقيل والزبد جسم رقيق ، فإذاً كل موجود لابد له من صفة .

يقول : فإذا كان كذلك : فلا بد أن يكون له صفة : إما صفة كمال ، وإما صفة نقص ، فالرب موجود فلا بد له من صفة ، إما صفة كمال وإما صفة نقص .أهـ

* * *

والثاني

الشرح

الذي هو صفة النقص .أهـ

* * *

باطل بالنسبة إلى الرب الكامل المستحق للعبادة ،

الشرح

وهو اللَّه تعالى ، والرب من أسماء اللَّه ، قال النبي ﷺ «أما الركوع فعظموا فيه الرب»[1] ، فإذاً نقول النقص بالنسبة إلى اللَّه ممتنع ولا يمكن .أهـ

* * *

وبذلك استدل اللَّه تعالى على بطلان ألوهية الأصنام باتصافها بصفات النقص والعجز بكونها لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ولا تخلق ولا تنصر ،

الشرح

لكونها عاجزة ناقصة الصفات صارت غير مستحقة للعبادة .أهـ

* * *

فإذا بطل الثاني

الشرح

وهو النقص .أهـ

* * *

تعين الأول ، وهو ثبوت صفات الكمال لله ،

الشرح

هذا دليل عقلي واضح ، فصارت دلالة العقل على ثبوت صفات الكمال للَّه

(١) مسلم (٤٧٩) كتاب الصلاة ، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

واضحة ، فنأتي مثلا لصفة الكلام ، هم ينكرون أن اللّه يتكلم ، نقول لهم هل صفة الكلام كمال أو نقص؟

كمال لا شك فيه ، فمن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، سواء كان بأصل الخلقة أو بسبب عاهة أصابته ، فإن من يتكلم أفضل ممن لا يتكلم وأكمل ، ولهذا كان الإنسان إنسانا والبهيمة بهيمة ما تتكلم أمرها مبهم ، فتأتي إلى الشاة تثغي ولا تدري هي تريد ماءً أو طعاما أوفيها ألم في بطنها أو في رأسها ، لكن تأتي إلى الإنسان إذا جاع قال أعطني طعاما ويبين ، وإذا عطش قال أعطني ماء وإذا آلمته بطنه قال بطني تؤلمني وهكذا ، فالحاصل أننا نقول إذا كان الرب تعالى موجوداً بإقراركم ، فإما أن يكون متصفا بصفات الكمال وإما أن يكون متصفا بصفات النقص والثاني باطل ، فلزم أن يكون متصفا بصفات الكمال ، وكل ما أثبته اللّه تعالى لنفسه فهو صفة كمال ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾ (النحل :٦٠) ، المثل : قال العلماء الوصف الأعلى الأكمل ، ثانيا نقول .أهـ

* * *

ثم إنه قد ثبت بالحسِّ والمشاهدة أن للمخلوق صفات كمال ، واللّه سبحانه هو الذي أعطاه إياها فمعطي الكمال أولى به .

الشرح

للمخلوق صفات كمال ، له علم وقدرة وسمع وبصر وحياة وقوة وعزة وحكمة إلخ ، كل هذا للمخلوق وهي صفة كمال ، ومن الذي أعطاه هذا الكمال؟

اللّه ، فمعطي الكمال أولى بالكمال ، وهل يمكن للناقص أن يعطي غيره شيئا كاملا؟ لا يمكن أبداً ، فالعاجز لا يمكن أن يعطي غيره قدرة ، لأنه لا قدرة عنده حتى يعطي غيره ، والإنسان الفقير لا يمكن أن يعطي غيره مالاً ليشتري به بيتا ليستغني به عن

الأجرة ويكمل بهذا ، هذا لا يمكن أبداً ، فالناقص ناقص على اسمه ، لا يمكن أن يكون كاملا لتكميل غيره ، فمعطي الكمال إذاً أولى بالكمال ، فمن أعطى السمع لا يمكن أن يكون أصما ، ومن أعطى المال لا يمكن أن يكون فقيرا ، ومن أعطى غيره قدرة وقوة لا يمكن أن يكون عاجزا ، لأنه بمجرد إيصاله الخير إلى هذا الإنسان يدل على كماله .

فتبين الآن أن كل موجود لا بد له من صفة ، إما صفة كمال وإما صفة نقص ، وهذا يسميه العلماء في المجادلة والمناظرة يسمونه السبر والتقسيم ، بمعنى أنك تردد الشيء بين أمرين لا ثالث لهما مثلا ، وتلزم الخصم بأن يقول بأحدهما .

فنقول الآن : السبر والتقسيم لا يخلو أن يكون كل موجود لا بد له من صفة ، وأنتم تقرون بأن اللّه موجود ، إذاً لا بد له من صفة ، إما صفة كمال وإما صفة نقص ، وصفة النقص ممتنعة عليه فتعين أن يثبت له صفة الكمال .

الثاني طريق الأولى أن نقول : هذه المخلوقات هي خلق اللّه تعالى وفيها كمال ، ومعطي الكمال أولى بالكمال ، إذ أنه من المعلوم بالعقل أن الناقص لا يكمّل غيره ، فما من أحد كمّل غيره إلا وهو أكمل منه ، وهذا دليل واضح ، لو لم يكن من كماله إلا إعطاء الكمال لغيره ، لكان ذلك كافيا في ثبوت الكمال له .أهـ

* * *

وأما دلالة الفطرة على ثبوت صفات الكمال للّه ؛ فلأن النفوس السليمة مجبولة ومفطورة على محبة اللّه وتعظيمه وعبادته ،

الشرح

كل قلب سليم وفطرة سليمة فإنها مفطورة على محبة اللّه وعلى تعظيمه وعلى عبادته ، قال اللّه عز وجل : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ

إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء :٤٤) ، إذاً كل شيء يتعبد لله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ (الحج :١٨) ، فالفطر السليمة مجبولة على محبة اللَّه وعلى تعظيمه وعلى عبادته ، ولهذا ثبت في الحديث القدسي أن اللَّه يقول : «إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين»[١] فخبث النفس والفطرة طارىء ، إذاً الفطر السليمة مجبولة على أن تحب خالقها وعلى أن تعظمه وعلى أن تعبده «كل مولود يولد على الفطرة»[٢] .أهـ

* * *

وهل تحب وتعظم وتعبد إلا من عرفت أنه متصف بصفات الكمال اللائقة بربوبيته وألوهيته؟ !

الشرح

الجواب لا : لا يمكن أن تحب وأن تعظم وأن تعبد إلا من عرفت أنه متصف بصفات الكمال من أجل أن تعبده بها ، ولذلك قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه : ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢)﴾ (مريم :٤٢) ، وقال لقومه : ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦)﴾ (الأنبياء :٦٦) ، فإذاً لا يمكن أن تعبد النفوس إلا من عرفت أنه متصف بالصفات التي يستحق بها أن يعبد ، وهذا أمر ظاهر ، عندما تقول يا رب اغفر لي فأنت مؤمن

---

(١) مسلم (٧١٥٦) كتاب الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ، من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه .

(٢) البخاري (١٣٥٨) كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ ، ومسلم (٢٦٥٨) كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

بالربوبية ومؤمن بأنه يغفر ومؤمن بأنه يعلم ومؤمن بأنه يسمع دعاءك ومؤمن بأنه قادر على أن يجيب مطلوبك ، لولا هذا ما دعوت الله ، إذاً فالنفوس مجبولة على هذا الشيء ، انظر إلى النفوس إذا خلت من الشوائب حتى نفوس الكفر إذا ضل عنهم ما كانوا يفترون فإنهم في الشدائد يدعون اللّه مخلصين له الدين ، لأن جميع الشوائب تتمزق في هذه الحال ، فترجع الفطرة إلى أصلها وهو دعاء اللّه تعالى وحده لا شريك له ، ومعلوم أنهم لا يدعون اللّه في حال الضراء إلا وهم يعلمون أنه قادر على كشفها وعلى إزالتها وإلا لعد ذلك عبثا منهم ، فتبين بهذا أن الفطرة تدل على أن اللّه تعالى متصف بصفات الكمال اللائقة به .أهـ

* * *

وأما دلالة الشرع على ثبوت صفات الكمال لله ؛ فأكثر من أن تحصر ، مثل قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحشر :٢٢ـ٢٤) .

الشرح

فإن قلت هذه أسماء وأنت تريد أن تثبت الصفات فما الجواب؟

كل اسم فهو متضمن لصفة ولا عكس ، يعني ليس كل صفة متضمنة لاسم لكن كل اسم فإنه متضمن لصفة ، ولهذا سبق لنا في التقرير أن الأسماء لا يتم الإيمان بها إلا بأمور ثلاثة إن كانت متعدية ، وبأمرين إن كانت لازمة ، إذا كان متعديا يستلزم إثبات الاسم وإثبات الصفة المتضمنة وإثبات الحكم ، أما إذا لم يكن متعديا فإثبات الاسم والصفة فقط .أهـ

وقوله : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الروم : ٢٧) .

الشرح

المثل الأعلى : الوصف الأكمل .أهـ

* * *

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة :٢٥٥) .

الشرح

هذه آية الكرسي .أهـ

* * *

ومثل قوله ﷺ : «أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً بصيراً قريباً ؛ إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[1] .

الشرح

فهنا أثبت الصفات لله تعالى.أهـ

(١) البخاري (٢٩٩٢) كتاب الجهاد والسير ، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير ، ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

الشرح

فتبين الآن يا إخواني أن اعتقاد هذا الرجل الذي يقول إن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم ، أن اعتقاده أنه ليس لله صفة اعتقاد باطل ، والذي دل على بطلانها العقل والفطرة والشرع ، والله أعلم .أهـ

* * *

الوجه الثالث ـ أن اعتقاده أن طريقة السلف مجرد الإيمان بألفاظ النصوص بغير إثبات معناها ، اعتقاد باطل كذب على السلف ؛

الشرح

تقدم لنا أن قول الغبي إن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم قول باطل من وجوه :

الأول : أنه متناقض ، ووجه التناقض أنه متى حكم بأنها أسلم لزم أن تكون أعلم وأحكم ، لأنه لا سلامة إلا بالعلم والحكمة .

ثانيا : أنه إنما قال هذا القول بناء على أن اللّه ليس له صفة تدل عليها هذه النصوص ، وهذا باطل لأن اللّه تعالى قد ثبتت له نصوص الكمال بالعقل والفطرة والشرع .

الوجه الثالث ـ أن اعتقاده أن طريقة السلف مجرد الإيمان بألفاظ النصوص بغير إثبات معناها ، اعتقاد باطل كذب على السلف ، هو يعتقد أن السلف يؤمنون بألفاظ النصوص ولا يدرون عن معناها ، ولهذا يقولون إن مذهب السلف هو التفويض ، ونحن نقول لهم هذا كذب على السلف ، فإنكم إن أردتم أن السلف يفوضون الكيفية فهو صحيح ، وإن أردتم أنهم يفوضون المعنى فهو كذب على السلف .أهـ

فإن السلف أعلم الأمة بنصوص الصفات لفظاً ومعنى ،

الشرح

فالسلف أعلم الناس بنصوص الصفات ، ولا أحد أعلم من السلف بنصوص الصفات أبداً ، لأنهم يفهمون منها أكثر مما يفهم من بعدهم .أهـ

* * *

وأبلغهم في إثبات معانيها اللائقة باللَّه تعالى على حسب مراد اللَّه ورسوله .

الشرح

فهم يفهمون المعنى ويثبتونه ، ولهذا سيأتينا إن شاء اللَّه منهم عبارات ، العبارة المشهورة عن أئمتهم يقولون «أمروها كما جاءت بلا كيف» وهذا يدل على أنهم يثبتون المعنى ، لو كانوا يريدون أنهم لا يعرفون اللفظ لقالوا أمروا لفظها ولا تعتقدوا معناها ، أو قالوا لا يعلم المعنى ، ومالك ـ رحمه اللَّه ـ يقول الاستواء معلوم والكيف مجهول ، فهم يعلمون المعاني ، وهل تعتقد أن رسول اللَّه ﷺ يقرأ قول اللَّه تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝ ﴾ (طه :٥) ، ولا يدري ما معنى استوى؟ وهل تقدر أن الرسول ﷺ يقرأ : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص :٧٥) ، ولا يدري ما معنى ﴿ بِيَدَيَّ ﴾؟

لا يمكن هذا أبداً ، وكذلك الخلفاء الراشدون وكذلك الصحابة والتابعون وأئمة الأمة بعدهم كلهم لابد أن يكونوا عالمين بمعاني آيات الصفات ، وإذا كنا نقول لا يمكن أن يقرأوا قول اللَّه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ (المائدة :٦) وهم لا يعلمون المعنى ، فإننا نقول إذا كان هذا ممتنعا ؛ فامتناع أن لا يعلموا معنى قوله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝ ﴾ (طه :٥) ، من باب أولى ، وهذا أمر يقيني أنهم يعلمون معنى : ﴿ إِذَا

قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ (المائدة :٦) ، وقد طبقوها فعلا ، فهم يتوضئون على حسب ما تدل عليه هذه الآية الكريمة ، إذا كانوا يعلمون الآيات الدالة على الأحكام العملية ، فكيف لا يؤمنون بالآيات الدالة على العقائد الخبرية العلمية؟ هذا شيء مستحيل .

إذاً السلف يعرفون معاني آيات الصفات وأحاديثها ويؤمنون بها ويثبتونها ، لكنهم يتبرؤون من شيئين هما التمثيل والتكييف .أهـ

* * *

الوجه الرابع ـ أن السلف هم ورثة الأنبياء والمرسلين ، فقد تلقوا علومهم من ينبوع الرسالة الإلهية وحقائق الإيمان .

الشرح

السلف وعلى رأسهم الصحابة تلقوا علمهم في باب أسماء اللّه وصفاته من الكتاب والسنة ، من رسول اللّه ﷺ .أهـ

* * *

أما أولئك الخلف ، فقد تلَقوا ما عندهم

الشرح

السلف قلنا تلقوا علومهم ، والخلف قلنا تلقوا ما عندهم ، لأن العلوم التي عندهم هي جهل في الواقع ، هي جهل وليست علوماً حقيقية ، بخلاف السلف .أهـ

* * *

من المجوس والمشركين وضلال اليهود واليونان .

الشرح

ونعلم هذا مما سيأتي إن شاء اللّه تعالى في بيان مقالة استمداد أهل التعطيل ، مقالة أهل التعطيل مستمدة من هذه الأصناف وبئس الأصناف ، المجوس والمشركون وضلال اليهود واليونان ، لأنه ـ كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى ـ أكثر ما دخل التعطيل على هذه الأمة من كتب اليونان التي عربها المأمون ، ولهذا قال شيخ الإسلام : لا أظن أن اللّه تعالى يغفل المأمون عما أدخله على الأمة من فساد العقيدة ، لأن البلاء كل البلاء فيما عربه من كتب اليونان ، حتى إنه قيل أنه يؤتى إليه بالكتاب ويزنه ذهبا ، في كفة ذهب وفي كفة هذا الكتاب ويعطي صاحبه هذا الذهب حرصا على تعريب كتب اليونان ، ولكنها ضرت الأمة ضررا عظيما ، وتعرفون إن المحنة التي وقعت للإمام أحمد على يد المأمون وحصل في هذا شر كثير ، وسيأتي إن شاء اللّه تعالى أن استمداد مقالة التعطيل من هذه الطرق ، ينابيع فساد ، المجوس ، المشركين ، ضلال اليهود ، ضلال اليونان .أهـ

* * *

فكيف يكون ورثة المجوس والمشركين واليهود واليونان وأفراخهم ،

الشرح

هذا تعبير شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهو رحمه اللّه قوي في هذا على هؤلاء المعطلة .

أفراخهم : الفرخ ضعيف يأخذ طعامه وشرابه من أمه ، أي أنهم ما عندهم من القوة التي يعتدون بأنفسهم فيها ، وإنما صاروا مثل الفرخ ، تنقش أمه الحبة له ثم يأتي ويأكلها ، ولهذا عبر شيخ الإسلام عن أهل التعطيل بأنهم أفراخ هؤلاء .أهـ

* * *

أعلم وأحكم في أسماء اللّه وصفاته من ورثة الأنبياء والمرسلين!؟

الشرح

هل يمكن أن يكون هؤلاء ورثة المجوس واليهود واليونان والمشركين أعلم باللّه وأسمائه وصفاته من ورثة الأنبياء والمرسلين؟ لا يمكن هذا أبداً ، أما في أمور الدنيا فقد يكونون أعلم بالدنيا ، لو أنك قلت إن هذا الرجل الذي يبيع الخضار أعلم من صناع القنابل من الروس والأمريكان ، هل يمكن هذا أو لا يمكن؟ وهل أحد سيصدقك؟

من هم أصحاب الشأن في أسماء اللّه وصفاته؟

الأنبياء والمرسلون وتلامذتهم ، فكيف يكون هؤلاء أعلم باللّه وأسمائه وصفاته ممن أكبر عنايتهم التعرف والمعرفة بأسماء اللّه وصفاته وهم الأنبياء والمرسلون؟ .أهـ

* * *

الوجه الخامس -

الشرح

وهذا الوجه من أشدها .أهـ

* * *

أن هؤلاء الخلف الذين فضل هذا الغبي طريقتهم في العلم والحكمة على طريقة السلف ، كانوا حيارى مضطربين

الشرح

هل الحيران المضطرب الذي لا يدري أين هو ، هل عنده علم؟ لا ، لأنه لو كان

عنده علم ما تحير ولا اضطرب وصار يقول اليوم قولا وغدا يقول قولا ، اليوم يقول هذا العقل يوجب كذا وغداً يقول العقل يحرم كذا ويمنعه ، وهذا اضطراب ، وكونه يبقى حيرانا ـ نسأل اللّه العافية والسلامة ـ هل يمكن أن نقول هذا أعلم من رجل موقن يؤمن بالله وأسمائه وصفاته حق الإيمان أو لا يمكن؟

هذا مستحيل ، فنقول : الآن ـ والحمد لله ـ نحن وإياك نزن بالقسطاس المستقيم ، انظر حال السلف الصالح هل عندهم حيرة واضطراب في أسماء اللّه وصفاته أم طريقتهم واحدة؟

طريقة واحدة مبنية على الإيمان واليقين ، وهؤلاء طريقتهم حيرة وشك ، حتى إن بعضهم يقول : أكثر الناس شكا عند الموت أهل الكلام ـ والعياذ بالله ـ يلحقهم شك وحيرة وقلق لأنه ما دخل الإيمان في قلوبهم ، وإذا لم يدخل الإيمان في القلب فإنه يخون صاحبه في أحوج ما يكون إليه وذلك عند الموت ، نسأل اللّه أن يحسن لكم الخاتمة ، والسبب في حيرتهم ، قال : .أهـ

* * *

بسبب إعراضهم عما بعث اللّه به محمداً ﷺ من البينات والهدى ،

الشرح

هذا السبب ، ما ذهبوا يأخذون أسماء اللّه وصفاته مما بعث به الرسول ﷺ ، من أين أخذوها؟ قال : .أهـ

* * *

والتماسهم علم معرفة اللّه تعالى ممن لا يعرفه

الشرح

والنبي ﷺ يعرف اللّه بأسمائه وصفاته وخلفاؤه وأئمة أمته كذلك ، فخذ معرفة

اللّه في أسمائه وصفاته من كتاب اللّه وسنة رسوله ، ولا تأخذها مما قال فلان وقال فلان من هؤلاء الذين لا يعرفون اللّه بإقرارهم على أنفسهم ، أعتقد أن الرجل لو جاء إلى شخص أعمى لم يخرج من البلد وقال دلني على طريق مكة فإنه لا يكون صوابا ولا يصلح ، لكن لو جاء إلى رجل بصير بالطرق عارف متردد لقال له طريق مكة أن تخرج من هذا البلد وإذا وصلت إلى كذا فامض يمينا أو شمالا وهكذا بين له حتى كأنما يشاهدها ، فأيهما أحق أن تطلب معرفة طريق مكة منه؟

الأخير بلا شك ، وهنا يقول يريدون معرفة اللّه ممن لا يعرفه .أهـ

* * *

بإقراره على نفسه وشهادة الأمة عليه ، حتى قال الرازي وهو من رؤسائهم

الشرح

من رؤساء أهل الكلام ، والرازي معروف ، الفخر الرازي يسمونه فخر الدين الرازي ، هذا من أئمة المتكلمين .أهـ

* * *

مُبيِّناً ما ينتهي إليه أمرهم :

نهاية إقدام العقول عقال

الشرح

وإذا صار نهايتها العقال فقد ربطت ولا تتحرك يمينا ولا شمالا ، هذه نهاية إقدام العقول ، والإنسان الذي يريد أن يعرف اللّه بعقله ينتهي به الأمر إلى أن يقف حيران ، مادام أن رؤيتنا للسماء : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ (الملك :٣ ، ٤) ، وهو مما يعلم

بالحس لا يمكن إدراكه ، فكيف بالرب عز وجل ، هل يمكن إدراك اللّه بقياس العقول؟ لا يمكن .أهـ

* * *

وأكثر سعي العالمين ضلال

الشرح

أكثر سعي العالمين : الذين على طريقته أكثر سعيهم ضلال .أهـ

* * *

وأرواحنا في وحشة من جسومنا

الشرح

ما ظنك برجل روحه تتوحش من جسده؟ فإنها تتوحش من غيره من باب أولى .أهـ

* * *

وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا

سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا[1]

الشرح

حصيلة جيدة ! ! ما وصلوا إلى يقين ، كل البحث طول عمرهم قال فلان وقال

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٨/ ٩٦ وتتمته :

وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فزالوا والجبال جبال

وكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعاً مزعجين وزالوا

فلان الثاني وقال فلان ونقل فلان وهكذا جدل ولجُة ودوامة ما تصل إلى يقين ، ما أسهل طريق الكتاب والسنة ، الرسول ﷺ لما شكا إليه الصحابة أنهم يجدون في نفوسهم أشياء لا يستطيعون الكلام بها ، أمره إذا أحس بذلك ماذا يصنع ، قال : «فليستعذ بالله ولينته»(١) ولم يقل اذهب اضرب المقدمات والنتائج وانظر النتيجة ، قال «فليستعذ بالله ولينته» هكذا أمر الرسول ﷺ ، كلمة بسيطة ، قد يكتب هؤلاء عليها مجلدات ثم لا يصلون إلى نصف بيانها ووضوحها ، فهؤلاء كلهم كل كلامهم قيل وقال ، وإذا رأيت مداخل كفرهم تبين لك أن هؤلاء المساكين ليسوا على شيء .أهـ

* * *

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ،

الشرح

هو رجل من أهل علم الكلام والفلسفة ، يقول لقد تأملت الطرق الكلامية كلها ، والمناهج الفلسفية وهي بمعنى الطرق لكنه اختلاف لفظي ، فما رأيتها تشفي عليلا يعني من مرضه ، ولا تروي غليلا من عطشه ، فما فائدتها؟ لا فائدة منها مادام أنها لا تشفي الأمراض ولا تروي من العطش فلا فائدة منها ، والآن انتقل .أهـ

ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، إقرأ في الإثبات : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه :٥) .

---

(١) مسلم (٢١٤) كتاب الإيمان ، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقول من وجدها ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، إقرأ في الإثبات : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه :٥) .

الشرح

فأثبت الاستواء على العرش .أهـ

* * *

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (فاطر : ١٠) .

الشرح

فأثبت العلو .أهـ

* * *

واقرأ في النفي : ﴿ ليس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى : ١١) .

الشرح

فانفي المماثلة .أهـ

* * *

﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ (طه : ١١٠) .

الشرح

فأنفي التكييف ، وهذه طريقة سليمة ، ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه:٥) ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ (فاطر :١٠) ، إذاً أين هذا العرش؟ فوق كل شيء ، و﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ (فاطر :١٠) ، دليل على علوه سبحانه وتعالى .

أثبت أن اللَّه مستو على عرشه علي بذاته على خلقه ، وهذا الاستواء غير معلوم الكيفية ، والدليل : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ (طه :١١٠) ، وغير مماثل لاستوائنا على السرير والبهيمة : ﴿ ليس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى :١١) .

أربع كلمات تثبت هذه العقيدة التي ذهب هؤلاء الناس إلى إثباتها ونفيها مرة والتوقف فيها مرة أخرى ، لكن هذه طريقة سليمة وهكذا يجب في جميع الصفات .

ولا تستوحش يا أخي مما وصف اللَّه به نفسه ، ولا تقل هذا يستلزم كذا وهذا يقتضي كذا ، مادام أن اللَّه أثبته لنفسه والكلام بيّن وواضح فلا تستوحش منه أبداً ، ولهذا لما أضاف اللَّه إلى نفسه ما لا يليق به بيّنه ، في الحديث القدسي أن اللَّه يقول للعبد يوم القيامة : «يا عبدي استطعمتك فلم تطعمني ، استسقيتك فلم تسقني ، مرضت فلم تعدني» كل هذه لا تليق بالله ، ولهذا بيّنها اللَّه تعالى في نفس الحديث فقال : «أما علمت أن عبدي فلان استطعمك فلم تطعمه ، أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ، أما علمت أن عبدي فلان استسقاك فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي ، أما علمت أن عبدي فلان مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لوعدته لوجدتني عنده»[1] ولم يقل لوجدت ذلك عندي ، قال : «لوجدتني عنده» وفرق بين هذا والذي قبله .

فلما كان هذا الحديث ظاهره لا يليق بالله لم يتركه اللَّه مغفلا بل بيّنه .

إذاً نأخذ من هذا أن كل نص ورد في صفات اللَّه ولم يكن له تأويل من عند اللَّه أو من عند رسوله فهو على ظاهره على ما يليق بالله لا نكيف ولا نمثل .أهـ

* * *

(١) مسلم (٦٥٠٨) كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل عيادة المريض ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[١] . اهـ . كلامه .

الشرح

ماذا يعرف؟ أن هؤلاء ليس عندهم شيء ، لم يستفيدوا إلا قيل وقالوا ، وما استفادوا شيئا ، إذا كانت هذه شهادة من هذا الرجل الذي يعتبر إماما في الكلام والفلسفة تبين أنها لا خير فيها ، ولهذا قال شيخ الإسلام عن علم المنطق : «إنني أعلم أن علم المنطق لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد» ، لأنه صعب على البليد ، والذكي ليس بحاجة إليه .أهـ

* * *

فكيف تكون طريقة هؤلاء الحيارى الذين أقروا على أنفسهم بالضلال والحيرة ، أعلم وأحكم من طريقة السلف ، الذين هم أعلام الهدى ومصابيح الدّجَى ، الذين وهبهم اللّه من العلم والحكمة ما برّزوا به على سائر اتباع الأنبياء ، والذين أدركوا من حقائق الإيمان والعلوم ما لو جُمِع إليه ما حَصَلَ لغيرهم لاستحيا من يطلب المقارنة ، فكيف بالحكم بتفضيل غيرهم عليهم؟! وبهذا يتبين أن طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم .

الشرح

فصارت الوجوه الآن خمسة كلها تدل على بطلان هذه الكلمة ، مع أن هذه الكلمة موجودة ومتداولة بين الناس ولا سيما عند الأشاعرة ، يقولون طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم ، لكن كما رأيتم الآن أنه قول باطل متناقض ، وأن طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم ، والله المستعان .أهـ

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٦٠ ، والصواعق المرسلة ٤/ ١٢٦٢ .

المناقشة

سؤال : اليونان ما مذهبهم؟ نصارى؟

الجواب : مذهبهم : أكثرهم عباد النجوم وهياكل وكواكب .أهـ

سؤال : قول شيخ الإسلام : لا أظن أن اللَّه يغفر للمأمون ، هذا تعدي على الله ، الرجل الذي قال لا أظن أن اللَّه يغفر لفلان؟

الجواب : لا ، ذاك قال : «والله لا يغفر اللَّه لفلان»(١) لكن هذا قال ما أظن ، لأن جرم المأمون عظيم ، والإنسان الذي يقول ما أظن ليس كالذي يحلف أنه لا يكون ، بينهما فرق .أهـ

سؤال : قصد المأمون بتعريب كتب اليونان؟

الجواب : مهما كانت نيته هو غير العقيدة وصرف الناس إلى خلق القرآن ، والذي لا يقول بهذا يحبسه أو يقتله ، وهذه نية .أهـ

سؤال : قوله «لوجدتني عنده» ما معناه؟

الجواب : معناه أن اللَّه سبحانه وتعالى عند المنكسرة قلوبهم وعند الضعفاء ، فهذا المريض لما كان ضعيفا كان اللَّه سبحانه عنده ، يعني باللطف والرحمة والمغفرة وما أشبه ذلك ، ولا يمكن أن يكون اللَّه بذاته عند هذا الرجل وهو في السماء ، ولا شيء من المخلوقات يحيط به سبحانه وتعالى .أهـ

سؤال : يقولون أولنا؟

الجواب : نقول أولنا لأنه هل تعتقد أن اللَّه تعالى وهو أعظم من كل شيء يمكن

---

(١) مسلم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى ، من حديث جندب رضي الله عنه .

أن يكون في هذه الحجرة؟ وكذلك نقول إنه عنده لكنه لا يلزم أن يكون في الحجرة ، بل يجب أنه ليس في الحجرة .أهـ

سؤال : اللّه في كل مكان أو علمه المحيط في كل مكان؟

الجواب : اللّه في السماء وليس في كل مكان ، ولا يمكن أن يكون في كل مكان ، لكنه يعلم ما في كل مكان .أهـ

سؤال : وجدتني عنده؟

الجواب : وجدتني عنده وهو في السماء ، المعنى أن اللّه تعالى يكون عنده رحمة لهؤلاء المرضى أكثر من غيرهم ، وكل من كان أشد افتقارا إلى اللّه كان اللّه إليه أقرب .أهـ

سؤال : هل تاب الرازي ، وهل تكون توبة إذا لم يرد ما في كتبه ويتبرأ من كتبه ، لأن مجرد هذا البيان قد يكن إعجابا بطريقة أهل السنة فقط ، ولم يقل وأنا الآن على طريقة أهل السنة؟

الجواب : ظاهر هذا أنه تاب وليس إعجابا لأن هذا يدل على أنه اعتقاد ، قال أقرأ في كذا ورأيت أقرب الطرق ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي ، فيعتبر هذا رجوع .أهـ

سؤال : ألا يمكن أن يكون هناك قول ثالث ، حتى لو كان مخالفا يكون من الخلف؟

الجواب : لكن قد يقول مثلا إن مذهب السلف التأويل ، ويأتي آخر ويقول لا أأول ولا آخذ بالظاهر ، فنقول الآن ما وجد أحد يقول بهذا ، كلهم إما أن يقولوا بهذا أو بهذا ، وليس هناك إلا مذهب سلف أو مذهب خلف على كل حال .أهـ

سؤال : فيه أناس يقولون الآن : نحن لا ننكر مذهب السلف؟

الجواب : أنا لا أنكر الماء ولا النار ، بل أقول إن الماء حق والنار حق ولكني أريد أن أجمع بينهما ، هذا لا يمكن ، كيف تجمع بين قولين أحدهما يقول إذا قلت إن لله يدا حقيقية فأنت كافر ، فأهل التأويل يقولون : الذي يثبت لله يدا حقيقية كافر ، لأنه مجسم ممثل مكذب لقول اللّه تعالى : ﴿ليس كَمِثْلِه شَيْءٌ﴾ (الشورى : ١١) ، هذا لا يمكن أن يكون إلا كما قال بعضهم : ينبغي أن نوفق بين الشيوعية والمذهب الاقتصادي الإسلامي ، وذهب يقرن بينهما ، حتى أني رأيت كلاما لبعضهم ـ والعياذ بالله ـ يقول إن طريقة الإسلام الاقتصادية هي طريقة الماركسية الشيوعية لا فرق بينهما ، ثم يذهب يحلل ويعلل بعلل علة عليه ، فلا يمكن أن يجتمع حق وباطل إطلاقا ، بل إن الحق عدو للباطل : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ (الأنبياء :١٨) ضربة على الدماغ ، ثم إذا دمغه يتلوى وربما يشفى؟ لا ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ وليس ميتا ﴿زَاهِقٌ﴾ إذاً لا يمكن أن يجتمع حق وباطل فلا يلبس عليكم ، لا يمكن أبداً أن يجتمع حق وباطل ، فالحق حق والباطل باطل ، وكلاهما ضدان عدوان كل منهما يحب أن يقضي على الأخر ، ولكن الغلبة مع الحق ، يقذف به من هو على كل شيء قدير ، القوي المتين جل وعلا ، يقذف بالحق على الباطل قذفا ، ما أحسن هذا الضرب على الدماغ ، ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ إذا الفجائية ، ما يريد ولا لحظة حتى يزهق ويذهب .

وهؤلاء الذين يقولون مثل هذا القول يريدون أن نداهنهم : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ ﴾ (القلم :٩) ، أو على الأقل يريدون منا أحد أمرين ، إما أن نوافقهم أو نداهنهم ، وكلاهما لا يمكن ، لا يمكن أبداً أن نداهن في الحق .

الواجب على المؤمن أن يقول الحق ، وأن يقول لمن خالفه أنت مخطىء مهما كنت ، ادخل في الحق وعلى العين والرأس وأنت أخونا وصاحبنا ، ومع ذلك أيضاً فإن

بدعتك إذا لم تخرجك من الإيمان فأنت أخونا ، لكن نقول أنت أخ خالفت الحق في هذا الأمر .أهـ

سؤال : هل المنكرون للصفات ينكرون كل الصفات ويصرحون أنه لا صفات له ، أوينكرون هذه الصفات؟

الجواب : هم على قسمين : منهم من ينكر جميع الصفات مثل الجهمية ينكرون جميع الصفات ، ومنهم من ينكر بعض الصفات بل أكثر الصفات ويثبتون صفات معينة فقط ، فالأشاعرة مثلا ما يثبتون من صفات اللّه إلا سبعا فقط ، وصفات اللّه تعالى ما لها حصر ومع ذلك ينكرونها ، كل الصفات الخبرية وكل الصفات الفعلية الاختيارية ينكرونها كلها .أهـ

سؤال : الجهمية : هل ينكرون الصفات التي نثبتها الواردة في القرآن؟

الجواب : ينكرون كل صفة ، حتى السمع والبصر والكلام ينكرونه .أهـ

سؤال : قد يقولون نحن نفترض صفات غير هذه وننكرها؟

الجواب : إذا كانوا ينكرون الموجود فما لم يثبت من باب أولى ، ونحن أهل السنة والجماعة لا نثبت شيئا لم يثبته اللّه لنفسه ، الصفات توقيفية .أهـ



الباب الخامس

الشرح

الباب الذي قبل هذا مهم جدا ولهذا تجب العناية به ، وهو قول بعض المتأخرين ، بل بعض الأغبياء وليس المتأخرين : إن مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم وأحكم ، لا بد من العناية به وبيان بطلانه حتى لا يلتبس علينا الأمر ، لأني قلت لكم إن بعض الناس من العلماء المحققين المشهود لهم بالخير يقولون هذا الكلام كالنووي وغيره ، يقولون مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم وأحكم .

أما هذا الباب فهو في مسألة بسيطة ليست مثل الأولى .أهـ

* * *

في حكاية بعض المتأخرين لمذهب السلف .

قال بعض المتأخرين : «مذهب السلف في الصفات إمرار النصوص على ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد» . اهـ .

الشرح

قصده ما سيأتي في الباب الذي يليه وهو أنه ليس هناك فرق بيّن في مذهب السلف ومذهب الخلف ، لأنهم كلهم يعتقدون أن ظاهرها غير مراد ، لكن السلف يسكتون ـ على رأيه ـ وأولئك يعيّنون .

نحن نقول إن هذا من باب التلبيس والتضليل ، فأنت إذا قلت : مذهب السلف إمرار النصوص على ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد ، فيه شيء من التناقض في الواقع ، لأنك إذا قلت إمرارها على ما جاءت به وجب أن تعتقد أن ظاهرها مراد ، وإلا ما أمررتها على ما جاءت به ، ومع ذلك نحن نتنزل مع الناس

لأنهم قد يفهمون من مذهب السلف شيئاً غير ما نفهمه نحن ، فنحتاج إلى أن نفصل فنقول : .أهـ

* * *

وهذا القول على إطلاقه فيه نظر ،

الشرح

وفي نسخة : «وهذا النقل على إطلاقه غير صحيح» .

هذا النقل : لأن قوله مذهب السلف ، ينقل عن غيره ويقول هذا الذي يريدون ، فنقول هذا النقل غير صحيح ، وهذا القول أيضاً على إطلاقه فيه نظر ، والمعنى متقارب لأنه قال : .أهـ

* * *

فإن لفظ (ظاهر) مجمل يحتاج إلى تفصيل :

الشرح

وأكثر ما يأتي البلاء من الإجمال الذي ما فيه تفصيل ، فيؤخذ على إجماله ثم يبدأ كل إنسان يفسره على ما يريد ، لكن بالتفصيل يزول الإشكال .أهـ

* * *

فإن أريد بالظاهر

الشرح

الظاهر الذي قال : إن ظاهرها غير مراد .أهـ

* * *

ما يظهر من النصوص من الصفات التي تليق بالله من غير تشبيه ، فهذا مراد قطعاً ، ومن قال : إنه غير مراد فهو ضال إن اعتقده في نفسه ، وكاذب أو مخطئ إن نسبه إلى السلف ،

الشرح

الذي يقول إن السلف يقولون إن ظاهرها غير مراد ، نقول ماذا تريد بالظاهر؟ إن أردت بالظاهر المعنى اللائق بالله بدون تشبيه قلنا له هذا مراد ، وقولك إن السلف يقولون غير مراد كذب إن نقلته عنهم وخطأ وضلال إن اعتقده في نفسك ، فإن السلف لا يقولون بهذا القول ، لا يقولون إن ظاهرها اللائق بالله بدون تشبيه إنه غير مراد ، بل يقولون إنه مراد ، ونضرب لذلك مثلا :

إذا قال قائل : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝ ﴾ (طه :٥) ، ظاهر الآية أنه علا على العرش واستوى عليه استواء خاصا وهو العلو والاستقرار ، فإذا قال قائل : هذا الظاهر يقول السلف إنه غير مراد ! !

نقول له كذبت ، ما قال السلف هذا ، وأنت إن اعتقدت أن هذا مذهب السلف فأنت مخطئ ، ولهذا قال : فهو ضال إن اعتقده في نفسه ، وكاذب أو مخطئ إن نسبه إلى السلف .

فإذا قال : أنا أريد بالظاهر «استوى على العرش» يعني كاستوائنا نحن على السرير ، هذا هو الظاهر ، نقول إن الظاهر هذا غير مراد لا شك ، لكننا نمنع أن يكون هذا هو الظاهر ، ولا يمكن أن يكون هذا هو الظاهر ، لأن الظاهر من جميع ما وصف الله بنفسه الظاهر منه أنها صفات تليق به بدون تشبيه .

وهذه الجملة يحصل فيها اشتباه عند الطلبة ولا يفهمونها جيدا ، فنعيد مرة ثانية :

نقول : إذا قال قائل إن السلف يعتقدون أن ظاهر النصوص غير مراد ، نقول هذا

على إطلاقه فيه نظر ويحتاج إلى تفصيل ، والتفصيل هو أن نقول له : ماذا تريد بالظاهر الذي زعمت أن السلف يقولون إنه غير مراد؟ إن أردت بالظاهر المعنى اللائق بالله بدون تشبيه فهو مراد ، فالسلف يريدون هذا ، يريدون أن معنى الآيات والأحاديث الدالة على الصفات أنها على حسب ما يليق بالله بدون تشبيه بل على ظاهرها ، وأنت إن نقلت هذا عن السلف فإنك كاذب أو مخطئ ، وإن اعتقدته في نفسك وقلت إن هذا الظاهر المراد في نفسك فأنت ضال .أهـ

* * *

وإن أريد بالظاهر ما قد يظهر لبعض الناس من أن ظاهرها تشبيه الله بخلقه ، فهذا غير مراد قطعاً ،

الشرح

لو قال ظاهر قوله تعالى : ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ (طه :٥) ، أنه كاستواء الإنسان على السرير هذا ظاهر الآية وهو غير مراد ، نقول صدقت في شيء وكذبت في شيء ، أما الذي صدق فيه فقوله أنه غير مراد ، وكذب في أنه ظاهر النص لأن هذا لا يمكن أن يكون ظاهر النص ، ولهذا قلنا وإن أريد بالظاهر ما قد يظهر لبعض الناس من أن ظاهرها تشبيه الله بخلقه ، فهذا غير مراد قطعاً .أهـ

* * *

وليس هو ظاهر النصوص ، لأن مشابهة الله لخلقه أمر مستحيل ، ولا يمكن أن يكون ظاهر الكتاب والسنة أ[illegible]ً مستحيلاً ، ومن ظن أن هذا هو ظاهرها فإنه يبين له أن ظنه خطأ ، وأن ظاهرها بل صريحها إثبات صفات تليق بالله وتختص به ، وبهذا التفصيل نكون قد أعطينا النصوص حقها لفظاً ومعنى . والله أعلم .

الشرح

فلو قال قائل : قوله تعالى : ﴿لِمَا خلقتُ بيدَيَّ﴾ (ص :٧٥) . ظاهره إثبات يد حقيقية تشبه أيدي المخلوقين .

نقول هذا ليس بصحيح ، ليس هذا هو ظاهر النص ، فإن قلت إن هذا غير مراد قلنا صدقت .

أما إذا قال ظاهرها إثبات يدين حقيقيتين تليقان به وهذا غير مراد ، نقول صدقت في شيء وكذبت في شيء ، أما قولك إن ظاهرها إثبات يدين حقيقيتين تليق بالله فهذا صحيح ، وأما قولك غير مراد فهذا كذب ، فالسلف ما قالوا غير مراد ، بل إنهم يقولون هذا مراد ونثبته لله تعالى.

بقينا ماذا يريد في اليدين؟ يرى أن المراد بها في علم الله القوة والنعمة والقدرة وما أشبه ذلك ، وهذا لا شك أنه تحريف للكلم عن مواضعه .أهـ



الباب السادس

في لبس الحق بالباطل من بعض المتأخرين .

قال بعض المتأخرين : «إنه لا فرق بين مذهب السلف ومذهب المؤولين في نصوص الصفات ؛

الشرح

وهذا القول كقول من يقول إنه لا فرق بين الجمرة والثلجة ، بل بينهما فرق ، فالثلجة باردة والجمرة حارة ساخنة ، وهؤلاء يقولون : لا فرق بين مذهب السلف ومذهب المأولين ، فمذهب السلف كمذهب المعتزلة وكمذهب الأشاعرة وغيرهم من أهل التأويل ، لماذا؟ .أهـ

* * *

فإن الكل اتفقوا على أن الآيات والأحاديث لا تدل على صفات الله ،

الشرح

يقول الكل ، ويعني بالكل السلف وأهل التأويل ، اتفقوا على أن الآيات والأحاديث لا تدل على صفات الله ، فقوله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ (طه :٥) ، لا تدل على صفة الاستواء ، وقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص :٧٥) ، لا تدل على صفة اليدين ، وقوله : ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ (الملك :١٦) ، لا تدل على صفة العلو .أهـ

* * *

لكن المتأولون رأوا المصلحة في تأويلها لمسيس الحاجة إليه وعيّنوا المراد ، وأما السلف فأمسكوا عن التعيين لجواز أن يكون المراد غيره» . اهـ .

الشرح

هذا في الواقع يتكلم على ما يريد .

وهذا كذب صريح على السلف ، فما منهم أحد نفى دلالة النصوص على صفات الله التي تليق به ، بل كلامهم يدل على تقرير جنس الصفات في الجملة ، والإنكار على من نفاها ، أو شبه الله بخلقه ؛ كقول نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري : «من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً»[1] . اهـ . وكلامهم في هذا كثير ، ومما يدل على إثبات السلف للصفات ، وأنهم ليسوا على وفاق مع أولئك المتأولين : أن أولئك المتأولة كانوا خصوماً للسلف ، وكانوا يرمونهم بالتشبيه والتجسيم لإثباتهم الصفات ، ولو كان السلف يوافقونهم في عدم دلالة النصوص على صفات الله ، لم يجعلوهم خصوماً لهم ويرموهم بالتشبيه والتجسيم ، وهذا ظاهر ولله الحمد .أهـ

* * *

(١) الذهبي في «مختصر العلو» ٢١٧ ، وقال الألباني : وهذا إسناده صحيح .

الباب السابع(١)

في أقوال السلف المأثورة في الصفات .

اشتُهر عن السلف كلمات عامة وأخرى خاصة في آيات الصفات وأحاديثها ، فمن الكلمات العامة قولهم : «أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف» . روي هذا عن مكحول والزهري ومالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد والأوزاعي(٢) ، وفي هذه العبارة رد على المعطّلة والمشبهة ؛ ففي قولهم : «أمِرُّوها كما جاءت» رد على المعطلة ، وفي قولهم : «بلا كيف» . رد على المشبهة ، وفيها ـ أيضاً ـ دليل على أن السلف كانوا يُثبتون لنصوص الصفات المعاني الصحيحة التي تليق بالله ، تدل على ذلك من وجهين :

الأول ـ قولهم : «أمِرُّوها كما جاءت» . فإن معناها إبقاء دلالتها على ما جاءت به من المعاني ، ولا ريب أَنها جاءت لإثبات المعاني اللائقة بالله تعالى ، ولو كانوا لا يعتقدون لها معنى لقالوا : أمروا لفظها ولا تتعرضوا لمعناها ، ونحو ذلك .

الثاني ـ قولهم : «بلا كيف» ؛ فإنه ظاهر في إثبات حقيقة المعنى ، لأنهم لو كانوا لا يعتقدون ثبوته ، ما احتاجوا إلى نفي كيفيته ، فإن غير الثابت لا وجود له في نفسه ، فنفي كيفيته من لَغْوِ القول ، فإن قيل : ما الجواب عما قاله الإمام أحمد في حديث النزول وشبهه : «نؤمن بها ونصدق ، لا كيف ولا معنى»(٣) . قلنا : الجواب على ذلك : أن المعنى الذي نفاه الإمام أحمد في كلامه هو المعنى الذي ابتكره المعطلة من الجهمية وغيرهم ، وحرّفوا به نصوص الكتاب والسنة عن ظاهرها إلى معاني تُخالفه .

---

(١) لا يوجد له شرح .

(٢) السنة للخلال .

(٣) أورده ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة (٣٨٥) وعزاه للخلال بسنده .

ويدلّ على ما ذكرنا أنه نفى المعنى ، ونفى الكيفية ؛ ليتضمن كلامه الردّ على كلتا الطائفتين المبتدعتين : طائفة المعطلة وطائفة المشبهة . ويدلّ عليه ـ أيضاً ـ ما قاله المؤلف في قول محمد بن الحسن : «اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن رسول الله ﷺ ، في صفة الربّ تعالى من غير تفسير ، ولا وصف ، ولا تشبيه»[1] . اهـ .

قال المؤلف : أراد به تفسير الجهمية المعطلة ، الذين ابتدعوا تفسير الصفات بخلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون من الإثبات . اهـ .

فهذا دليل على أن تفسير آيات الصفات وأحاديثها على نوعين :

ـ تفسير مقبول : وهو ما كان عليه الصحابة والتابعون من إثبات المعنى اللائق بالله تعالى الموافق لظاهر الكتاب والسنة .

ـ وتفسير غير مقبول : وهو ما كان بخلاف ذلك .

وهكذا المعنى ، منه مقبول ومنه مردود على ما تقدّم .

فإن قيل : هل لصفات الله كيفية؟

فالجواب : نعم لها كيفية ، لكنها مجهولة لنا ؛ لأن الشيء إنما تعلم كيفيته بمشاهدته أو مشاهدة نظيره أو خبر الصادق عنه ، وكل هذه الطرق غير موجودة في صفات الله ، وبهذا عُرف أن قول السلف : «بلا كيف» . معناه بلا تكييف ، لم يريدوا نفي الكيفية مطلقاً ، لأن هذا تعطيل محض . والله أعلم .

---

(١) اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٧٤٠) والذهبي في «مختصر العلو» (١٥٩) ، وابن تيمية في مجموع الفتاوى ، ج ٤ ص (٤ ـ ٥) .

الباب الثامن(١)

في علو الله تعالى وأدلة العلو .

علوّ الله تعالى من صفاته الذاتية ، وينقسم إلى قسمين :

علوّ ذات وعلوّ صفات .

فأما علو الصفات فمعناه : أنه ما من صفة كمال إلا ولله تعالى أعلاها وأكملها ، سواء كانت من صفات المجد والقهر ، أم من صفات الجمال والقدر . وأما علو الذات ، فمعناه : أن الله بذاته فوق جميع خلقه ، وقد دلّ على ذلك الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة ، فأما الكتاب والسنة فإنهما مملوءان بما هو صريح أو ظاهر في إثبات علو الله ـ تعالى ـ بذاته فوق خلقه ، وقد تنوعت دلالتهما على ذلك ، فتارة بذكر العلو والفوقية والاستواء على العرش وكونه في السماء ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة : ٢٥٥) ، ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ (الأعلى :١) ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ (النحل : ٥٠) . ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه :٥) ، ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ ﴾(تبارك : ١٦) ، وقوله ﷺ: «والعرش فوق ذلك ، والله فوق العرش»(٢) ، وقوله : «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء»(٣) . وتارة بصعود الأشياء وعروجها ورفعها إليه ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ (فاطر : ١٠) ، وقوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ

---

(١) لا يوجد له شرح .

(٢) أبو داود (٤٥٥٩) كتاب السنة ، باب في الجهمية ، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه بلفظ «إن عرشه على سماواته لهكذا ـ وقال بأصابعه مثل القبة عليها ـ» ورواه ابن ماجه في المقدمة وضعفه الألباني ، انظر السنة لابن أبي عاصم ٥٧٧ .

(٣) البخاري (٤٣٥١) كتاب المغازي ، باب بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وخالد بن الوليد رضي الله عنه ، إلى اليمن قبل حجة الوداع ٨/ ٦٥ ، ومسلم (١٠٦٤) ، كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة (٧/ ١٣١) .

إِلَيْهِ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ (النساء : ١٥٨) وقوله ﷺ : ﴿ولا يصعد إلى الله إلا الطيّب﴾[١] ، وقوله ﷺ : «فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم»[٢] ، «يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل»[٣] . وتارة بنزول الأشياء منه ، ونحو ذلك مثل قوله تعالى : ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الواقعة) ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ (النحل : ١٠٢) ، وقوله ﷺ : «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر»[٤] . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تواترت عن النبي ﷺ ، في علو الله تعالى على خلقه ، تواتراً يوجب علماً ضروريًا بأن النبي ﷺ قالها عن ربه ، وتلقتها أمته عنه ، وأما الإجماع : فقد أجمع الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأئمة أهل السنة ؛ على أن الله تعالى فوق سماواته على عرشه ، وكلامهم مملوء بذلك نصًا وظاهراً . قال الأوزاعي : «كنّا والتابعون متوافرون . نقول : إن الله تعالى ذكره فوق عرشه ، ونؤمن بما جاءت به السنة من الصفات»[٥] . قال الأوزاعي هذا بعد ظهور مذهب جهم النافي لصفات الله

---

(١) البخاري (٧٤٣٠) كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٥٥٤) كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاةالعصر ، ومسلم (٦٣٢) كتاب المساجد مواضع الصلاة ، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) مسلم (١٧٩) كتاب الإيمان ، باب معنى قول الله ﷺ ، ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٤) البخاري (١١٤٥) كتاب التهجد ، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ، ومسلم (٧٥٨) ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٥) ابن ماجه (١٨١) كتاب المقدمة (١٣) باب فيما أنكرت الجهمية ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٥) وقال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ (١/ ١٧٩ ـ ١٨٠) ، وهذا إسناد صحيح وفي مختصر العلو ١٢١ .

وعلوه ؛ ليعرف الناس أن مذهب السلف كان يُخالف مذهب جَهْم ، ولم يقل أحد من السلف قطّ : إن الله ليس في السماء ، ولا إنه بذاته في كل مكان ، ولا إن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء ، ولا إنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل ، ولا إنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه ، بل قد أشار إليه أعلم الخلق به في حجة الوداع يوم عرفة في ذلك المجمع العظيم ، حينما رفع إصبعه إلى السماء ، يقول : «اللهم اشهد»[1] ، يُشهد ربه على إقرار أمته بإبلاغه الرسالة ، صلوات الله وسلامه عليه .

وأما العقل : فإن كل عقل صريح يدل على وجوب علو الله بذاته فوق خلقه من وجهين :

الأول ـ أن العلو صفة كمال ، والله تعالى قد وجب له الكمال المطلق من جميع الوجوه ، فلزم ثبوت العلو له تبارك وتعالى .

الثاني ـ أن العلو ضده السفل ، والسفل صفة نقص ، والله تعالى مُنزّه عن جميع صفات النقص ، فلزم تنزيهه عن السفل ، وثبوت ضده له ، وهو العلو .

وأما الفطرة : فإن الله تعالى فطر الخلق كلهم : العرب والعجم حتى البهائم على الإيمان به وبعلوّه ، فما من عبد يتوجه إلى ربه بدعاء أو عبادة إلا وجد من نفسه ضرورة بطلب العلو ، وارتفاع قلبه إلى السماء لا يلتفت إلى غيره يميناً ولا شمالاً ، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من اجتالته الشياطين والأهواء . وكان أبو المعالي الجويني يقول في مجلسه : «كان الله ولا شيء وهو الآن على ما كان عليه» ؛ (يُعرّض بإنكار استواء الله على عرشه) ، فقال أبو جعفر الهمداني : «دعنا من ذكر العرش ـ أيْ : لأنه ثبت بالسمع ـ وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ، ما قال عارف قطّ : يا

(١) البخاري (١٧٤٢) كتاب الحج ، باب الخطبة أيام منى من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، ومسلم (١٢١٨) كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ من حديث جابر رضي الله عنه .

الله! إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو ، لا يلتفت يمنة ، ولا يسرة ، فكيف ندفع هذه الضرورة من قلوبنا؟» . فصرخ أبو المعالي ولطم رأسه ، وقال : «حيرني الهمداني ، حيرني الهمداني»[1] . فهذه الأدلة الخمسة كلها تطابقت على إثبات علو الله بذاته فوق خلقه ، فأما قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُم ﴾ (الأنعام : ٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ (الزخرف : ٨٤) . فليس معناهما أن الله في الأرض كما أنه في السماء ، ومن توهّم هذا أو نقله عن أحد من السلف فهو مخطئ في وهمه ، وكاذب في نقله ، وإنما معنى الآية الأولى : أن الله مألوه في السماوات وفي الأرض ، كل من فيهما فإنه يتألّه إليه ويعبده ، وقيل معناها : أن الله في السماوات ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ (الأنعام : ٣) ؛ أي : إن الله يعلم سركم وجهركم في الأرض ، فليس علوه فوق السماوات بمانع من علمه سركم وجهركم في الأرض . وأما الآية الثانية فمعناها : أن الله إله في السماء وإله في الأرض ، فألوهيته ثابتة فيهما ، وإن كان هو في السماء ؛ ونظير ذلك قول القائل : فلان أمير في مكة ، وأمير في المدينة ؛ أي : أن إمارته ثابتة في البلدين ، وإن كان هو في أحدهما . وهذا تعبير صحيح ، لغة وعرفاً ، والله أعلم .

* * *

(١) الذهبي كما في «مختصر العلو» قال الألباني : إسناد هذه القصة صحيح مسلسل بالحفاظ ٢٧٦ _ ٢٧٧/ ٣٣٧ .

الباب التاسع(١)

في الجهة .

نريد بهذه الترجمة أن نُبيّن : هل الجهة ثابتة لله تعالى ، أو منتفية عنه؟

والتحقيق في هذا : أنه لا يصح إطلاق الجهة على الله ـ تعالى ـ لا نفياً ولا إثباتاً ، بل لا بد من التفصيل :

فإن أُريد بها جهة سُفْلٍ ، فإنها منتفية عن الله وممتنعة عليه ؛ لأن الله ـ تعالى ـ قد وجب له العلو المطلق بذاته وصفاته ، وإن أُريد بها جهة علو تُحيط به ، فهي منتفية عن الله وممتنعة عليه ـ أيضاً ـ فإن الله أعظم وأجلّ من أن يُحيط به شيء من مخلوقاته ، كيف وقد وسع كرسيّه السماوات والأرض؟

﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الزمر : ٦٧) . وإن أُريد بها جهة علو تليق بعظمته وجلاله من غير إحاطة به ، فهي حق ثابتة لله ـ تعالى ـ واجبة له . قال الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلاني في كتابه «الغنية» : «وهو سبحانه بجهة العلو ، مستوٍ على العرشِ ، محتو على الملك»(٢) . اهـ .

ومعنى قوله : «محتو على الملك» ؛ أنه محيط بالملك تبارك وتعالى . فإن قيل : إذا نفيتم أن يكون شيء من مخلوقات الله محيطاً به ، فما الجواب عما أثبته الله لنفسه في كتابه ، وعلى لسان نبيه ﷺ ، وأجمع عليه المسلمون من أن الله سبحانه في السماء؟

فالجواب : إن كون الله في السماء لا يقتضي أن السماء تُحيط به ، ومن قال ذلك

---

(١) لا يوجد له شرح .

(٢) مختصر العلو ٢٨٤/ ٣٤٨ .

فهو ضالّ إن قاله من عنده ، وكاذب أو مخطئ إن نسبه إلى غيره ؛ فإن كل من عرف عظمة الله تعالى وإحاطته بكل شيء ، وأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، وأنه يطوي السماء كطيّ السجل للكتب ، فإنه لن يخطر بباله أن شيئاً من مخلوقاته يمكن أن يُحيط به سبحانه وتعالى ، وعلى هذا فيخرج كونه في السماء على أحد معنيين :

الأول ـ أن يراد بالسماء العلو ، فيكون المعنى : أن الله في العلو ؛ أي : في جهة العلو ، والسماء بمعنى العلو ثابت في القرآن . قال الله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ (الأنفال : ١١) أي : من العلو لا من السماء نفسها ؛ لأن المطر ينزل من السحاب .

الثاني ـ أن تجعل «في» بمعنى «على» فيكون المعنى : أن الله على السماء ، وقد جاءت «في» بمعنى : «على» في مواضع كثيرة من القرآن وغيره . قال الله تعالى :﴿ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ ﴾ (التوبة : ٢) أي : على الأرض ـ .

الباب العاشر

في استواء الله على عرشه

الشرح

وهذا أخص من العلو ، لأن علو الله تعالى عام ، عال على كل شيء ، وأما الاستواء فإنه خاص بالعرش ، يقال : إن الله تعالى علا على السماوات ، ولا يقال إنه استوى على السماوات ، فالاستواء إذاً أخص من العلو ، ولهذا يقر بعض أهل البدع بعلو الله تعالى ولا يقرون باستوائه على عرشه .أهـ

* * *

الاستواء في اللغة : يُطلق على معانٍ تدور على الكمال والانتهاء .

الشرح

الاستواء كل معانيه تدرو على كمال وانتهاء ، وإن كان قد تختلف في بعض الأماكن عن بعض إما بزيادة تخصيص أو تقييد أو ما أشبه ذلك ، وهذا ما يسمى بعلم الاشتقاق ، ومن أحسن ما رأيت في هذا الباب كتاب مقاييس اللغة لابن فارس موجود في ستة مجلدات أو سبعة ، هذا الكتاب يذكر المادة ثم يقول أصلها كذا وكذا ثم يأتي بشواهد على هذا وهو نافع لطالب العلم ، ودائما نرى في التعريفات عند أهل الفقه يقولون هذا مشتق من كذا ويفرعون عليه ، فالاستواء في اللغة يطلق على معان متعددة كلها تدور على الكمال والانتهاء .أهـ

* * *

وقد ورد في القرآن على ثلاثة وجوه :

الشرح

ورد في القرآن على ثلاثة وجوه لا في اللغة ، لأنه في اللغة ورد على أربعة وجوه .

الوجوه الثلاثة التي في القرآن ووجه رابع أن يكون مقرونا بالواو مثل قولهم استوى الماء والخشبةَ ، وهذا ما جاء نظيره في القرآن لكنه مستعمل في اللغة العربية ، استوى الماء والخشبة يعني تساوى الماء والخشبة وليس من العلو ، وفي القرآن ورد على ثلاثة أوجه .أهـ

* * *

١ ـ مطلق ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واستوى ﴾ (القصص : ١٤) ؛ أي كمل .

الشرح

معنى استوى أي كمل ، فإذا جاءت استوى مطلقة فهي بمعنى الكمال ، ولهذا يقال استوى الطعام يعني كمل ونضج .أهـ

* * *

٢ ـ ومقيد بـ«إلى» ؛ كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ (البقرة : ٢٩) ؛ أي : قصد بإرادة تامة .

الشرح

وقد وردت في القرآن مقيدة بإلى في موضعين ، في سورة البقرة وفي سورة فصلت ، في سورة البقرة : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ (البقرة :٢٩) ، وفي سورة فصلت : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ (فصلت :١١) ، فوردت في موضعين في القرآن معداة بإلى ، واختلف المفسرون

فيها ، فقال بعضهم إن استوى هنا بمعنى قصد بإرادة جازمة قصد إلى السماء ، وهؤلاء أيدوا قولهم بوجهين ـ وجه لفظي ووجه معنوي ، الوجه اللفظي قالوا : إن استوى هنا عديت بإلى ، وهي إذا كانت بمعنى العلو تعدى بعلى ، فلما عديت بإلى صارت مضمنة معنى يتعدى بإلى ، فيكون معنى استوى إليها أي قصد إليها على وجه كامل ، ونحن قلنا أنها تدل على الكمال والانتهاء ، أي قصد إلى السماء قصدا كاملا .

والوجه الثاني مما أيدوا به تفسيرهم هذا وجه معنوي : قالوا لأننا إذا قلنا : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ أي علا إليها ، لزم من ذلك أن يكون قبل هذا تحت السماء ، إذا قلنا استوى إليها يعني صعد إليها لزم أن يكون حين خلق الأرض تحت السماء وهذا محال لأنه ينافي علو الله تعالى ، وإلى هذا المعنى أي أن المراد ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ قصد إليها ، ذهب ابن كثير ـ رحمه الله ـ في التفسير .

أما ابن جرير فإنه يقول : إن استوى هنا بمعنى علا ، قال لأن هذا هو معناها في القرآن ، كلما عديت بحرف الجر فإنها بمعنى علا ، ونقول كما نقول في سائر الصفات استوى الله إلى السماء ولا يلزم من ذلك أن تكون السماء فوقه حين خلق الأرض ، بل إن هذا كما في قوله «ينزل إلى السماء الدنيا» ولا يلزم أن تكون السماوات الأخرى فوقه .

وهذا أقرب إلى ظاهر اللفظ ، فيكون معنى استوى إليها أي علا إليها وصعد إليها وارتفع إليها وما أشبه ذلك ، ونقول إن هذا في أمور لا تدركها عقولنا فنبقيها على ظاهر لفظها وننزه الله تعالى عما لا يليق به من كون شيء من مخلوقاته فوقه .أهـ

* * *

٣ ـ ومقيد بـ«على» ؛ كقوله تعالى : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ (الزخرف : ١٣)

الشرح

الآية هذه قبلها شيء يبين المعنى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾

لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ (الزخرف :١٢ ، ١٣) على ظهور ما تركبون .أهـ

ومعناه حينئذٍ العلو والاستقرار ،

الشرح

لأن الذي يركب على البعير أو يركب على السفينة مثلا فإنه عال عليها ومستقر ، ولهذا قال : ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ (الزخرف :١٣) أي ما كنا مطيقين له لولا أن الله سخره ، إذاً الاستواء في القرآن ورد على ثلاثة وجوه : مطلق ، مقيد بإلى ، مقيد بعلى ، لننظر إلى استواء الله على العرش نجد أنه ما ورد بإلى ، كل المواضع وهي سبعة في القرآن بالنسبة لاستواء الله على العرش كلها وردت بعلى ، وعليه .أهـ

* * *

فاستواء الله على عرشه معناه : علوه واستقراره عليه علواً واستقراراً يليق بجلاله وعظمته ،

الشرح

هذا معنى استوى على العرش يعني علا عليه واستقر ، أما علا عليه فقد لا يستنكرها الإنسان ، لكن استقر عليه أنكرها بعض أهل العلم من أهل السنة مع أنها جاءت عن السلف ، لكن أنكرها وقال ما ينبغي أن يصف الله بأنه استقر على العرش ، لأن الاستقرار على الشيء قد يفهم منه حاجة المستقر إليه ، وعلى هذا فنقول استوى على العرش أي علا عليه على وجه خاص علواً يليق بجلاله وهو غير العلو المطلق على جميع المخلوقات .

ولكننا نقول : إذا كان قد ورد عن السلف فنقول إننا نأخذ به ولا يلزم من استواء

الله على العرش أن يكون الله محتاجا إليه ، لأن العرش وكل المخلوقات محتاجة إلى الله ، وقد ذكر ابن القيم في النونية أنه ورد عن السلف تفسيرها بأربعة معان : بمعنى علا وبمعنى ارتفع وبمعنى صعد وبمعنى استقر ، نحن حذفنا صعد وارتفع لأنه يغني عنها علا .

يقول : علواً يليق بجلاله وعظمته ليس كاستوائنا نحن على الفلك أو على البعير أو على السيارة ، لأننا نحن إذا استوينا على هذه الأشياء محتاجون إليها ، ولو أنها أزيلت من تحتنا لسقطنا ، لكن الله تعالى مستو على العرش وهو غير محتاج إليه ، بل العرش وغيره من المخلوقات محتاج إلى الله .أهـ

* * *

وهو من صفاته الفعلية

الشرح

لأنه يتعلق بمشيئته ، وكل شيء يتعلق بمشيئة الله من صفاته فهو من الصفات الفعلية ، لأن الصفات الذاتية لازمة لا تنفك عن الله تعالى ، والدليل على أن الاستواء من الصفات الفعلية قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (الأعراف :٥٤) ، وجه الدلالة أن قوله ﴿ ثم ﴾ يدل على أن الاستواء كان بعد أن لم يكن ، خلق ثم استوى ، وإذا كان بعد أن لم يكن صارت الصفة فعلية .أهـ

* * *

التي دل عليها الكتاب والسنة والإجماع ، فمن أدلة الكتاب : قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه :٥) .

الشرح

وقد ذكرها الله تعالى في سبعة مواضع من القرآن ، ولم تأت في القرآن مرة واحدة بلفظ استولى مما يدل على أنها حقيقة في العلو خلافا لمن فسرها بالاستيلاء ، وسيأتي الرد عليهم إن شاء الله .أهـ

* * *

ومن أدلة السنة : ما رواه الخلال في كتاب «السنة» بإسناد صحيح على شرط البخاري عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : «لما فرغ الله من خلقه استوى على عرشه»(١) .

الشرح

لما فرغ الله من خلقه يعني انتهى منه ، ولا يعني ذلك أن الله تعالى شغله شيء عن شيء ، ولكنه لما انتهى من الخلق ، فالانتهاء هنا بالنسبة للمخلوق لا بالنسبة للخالق ، لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال فعالا ولا يشغله شيء عن شيء ، وبهذا يزول الإشكال الذي أورده بعض الناس على قوله تعالى : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ (الرحمن :٣١) ، وقالوا إن هذه الآية ظاهرها يقتضي أن الله كان مشغولا عن محاسبة الثقلين من قبل ، ولكن نقول : هذا ليس بصحيح ، وإنما المعنى أنه باعتبار محاسبة هؤلاء صار تجدد المحاسبة ، وهو من باب التهديد .أهـ

* * *

(١) رواه الذهبي في «مختصر العلو» ٩٨/ ٣٨ ، وقال رواته ثقات رواه أبوبكر الخلال في كتاب السنة له . وذكره ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص (٦٨) أقوال رسل الله والسفراء بينه وبين خلقه وقال : إسناده صحيح على شرط البخاري .

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني : «إنه مذكور في كل كتاب أنزله الله على كل نبيٍّ» . اهـ .

الشرح

وعلى هذا فتكون الملل مجمعة على استواء الله على عرشة .أهـ

* * *

وقد أجمع أهل السنة على أن الله تعالى فوق عرشه ، ولم يقل أحد منهم إنه ليس على العرش ،

الشرح

إذا قيل أهل السنة فمن هم؟

قال السلفيون نحن أهل السنة ، وقال الأشعريون نحن أهل السنة ، وقال الماتريديون نحن أهل السنة ، وقال بعض الناس كلكم أهل السنة ، ـ مصالحة ـ ولكن الصواب الذي لا شك فيه أن أهل السنة لا ينطبق إلا على السلفيين المتبعين للسلف ، لأن معنى أهل الشيء هو الملازم للشيء ، ومن خرج عن السنة بتأويل لم تدل عليه السنة فهو ليس من أهل السنة ، فالصواب أنه إذا قيل أهل السنة لا يُعنى بهم إلا السلفيون ـ أعني المتبعين للسلف ـ ومعلوم أننا لو قلنا أن أهل السنة تشمل الأشعرية والماتريدية لكان نقل هذا الإجماع غير صحيح ، لأن الأشاعرة والماتريدية ما يقرون باستواء الله على العرش .أهـ

* * *

ولا يمكن لأحدٍ أن ينقل عنهم ذلك لا نصًا ولا ظاهراً .

الشرح

الفرق بين النص والظاهر أن النص ما لا يحتمل إلا معنى واحدا، والظاهر ما يحتمل معنيين هو في أحدهما أظهر .أهـ

* * *

وقال رجل للإمام مالك ـ رحمه الله ـ : يا أبا عبد الله! : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (طه :٥) كيف استوى؟!

الشرح

كلمة كيف استوى يحتمل أنه سؤال عن الكيفية مع الإقرار بالاستواء، ويحتمل أن يكون الاستفهام للإنكار كيف يستوى على العرش؟ فصيغة الاستفهام هنا تحتمل أنها استفهام عن الكيفية مع الإقرار بأصل الاستواء، ويحتمل أنها إنكار للاستواء، أي كيف يستوي على العرش وهو خالق العرش؟ .أهـ

* * *

فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء (العرق) . ثم قال : «الاستواء غير مجهول ،

الشرح

غير مجهول المعنى بل هو معلوم المعنى .أهـ

* * *

والكيف غير معقول ،

الشرح

يعني أن عقولنا لا تدرك الكيف، وليس المعنى أنه لا كيفية لاستواء الله على

العرش ، خلافا لمن زعم ذلك ، لأننا لو قلنا إن المعنى إنه لا كيفية للاستواء صار معناه نفي الاستواء ، لأن كل موجود فلا بد له من كيفية ، فإذا قلت لا كيفية لاستواء الله على العرش صار المعنى نفي الاستواء ، لكن مراد السلف بقولهم : الكيف غير معقول ، أي أننا نحن لا نعقل هذه الكيفية ، وإلا فإن له كيفية لا يعلمها إلا الله تعالى.أهـ

* * *

والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ،

الشرح

الإيمان بالاستواء واجب ، والسؤال عن الكيفية لا عن الاستواء بدعة .أهـ

* * *

وما أراك إلا مبتدعاً» ثم أُمر به أن يخرج[1] .

الشرح

يعني ما أظنك إلا مبتدعا ، ولهذا أقول أراك بضم الهمزة ، ولا يصح «ما أراك» أي ما أعلمك إلا مبتدعا ، لا يصح في هذا التركيب لأن مالكا رحمه الله لا يعلم ويتيقن أن هذا الرجل مبتدع .أهـ

* * *

(١) اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٦٦٤) والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٦) وأبونعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥ ، ٣٢٦) والذهبي في مختصر العلو ص (١٣١ـ ١٣٢) وصححه وقال : هذا ثابت عن مالك ، وقواه الألباني ، وجود إسناده الحافظ بن حجر في الفتح (١٣/ ٤٠٦ ، ٤٠٧) .

وقد روي نحو هذا عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن شيخ مالك[1] . فقوله : «الاستواء غير مجهول» ؛ أي : غير مجهول المعنى في اللغة ، فإن معناه : العلو والاستقرار . وقوله : «والكيف غير معقول» . معناه : أنَّا لا ندرك كيفية استواء الله على عرشه بعقولنا ، وإنما طريق ذلك السمع ، ولم يرد السمع بذكر الكيفية ، فإذا انتفى عنها الدليلان العقلي والسمعي ، كانت مجهولة يجب الكفّ عنها .

الشرح

الكيف غير معقول ولا ندركه بعقولنا ، وإذا كنا لا ندركه بعقولنا فإننا نرجع إلى الكتاب والسنة ـ إلى السمع ـ ، ولم يرد السمع بذكر الكيفية ، إذاً تبقى الكيفية مجهولة لأنه انتفى عنها الدليلان العقلي والسمعي .

ولهذا قال بعض أهل العلم : إذا قال لك الجهمي إن الله ينزل إلى السماء فكيف ينزل؟ فقل له إن الله أخبرنا أنه ينزل ولم يخبرنا كيف ينزل ، فلا نتجاوز ما أخبر الله به عن نفسه .

وقال آخر : إذا قال لك الجهمي إن الله ينزل إلى السماء الدنيا فكيف ينزل؟ فقل له أخبرني كيف ذاته؟ فسيقول لك الذات مجهولة الكيفية ، فقل له إن الصفات فرع عن الذات ، فإذا جهلت كيفية الذات جهلت كيفية الصفات ، والأمر واضح والحمد لله .أهـ



وقوله : «الإيمان به واجب» . معناه : أن الإيمان باستواء الله على عرشه على الوجه اللائق واجب ، لأن الله أخبر به عن نفسه ، فوجب تصديقه والإيمان به .

---

(١) اللالكائي (٦٦٥) والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٨) والذهبي في مختصر العلو (١١١)

الشرح

إذاً فالإيمان واجب بالاستواء لا بالكيف .أهـ

* * *

وقوله : «والسؤال عنه بدعة» . معناه : أن السؤال عن كيفية الاستواء بدعة ؛ لأنه لم يكن معروفاً في عهد النبي ﷺ وأصحابه .

الشرح

لم يسألوه كيف استوى لأنهم يعلمون معنى الاستواء ، ويعلمون أنهم لن يدركوا كيفيته ، لأن الله يقول : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (طه : ١١٠) ، فإذا كنا لا يمكن أن ندرك كنه ذاته فلا يمكن أن ندرك كنه صفاته ، لأن الكلام عن الصفات فرع عن الكلام في الذات .أهـ

* * *

وهذا الذي ذكره الإمام مالك ـ رحمه الله ـ في الاستواء ميزان عام لجميع الصفات التي أثبتها الله لنفسه في كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ ، فإن معناها معلوم لنا ، وأما كيفيتها فمجهولة لنا ؛ لأن الله أخبرنا عنها ، ولم يخبر عن كيفيتها ؛ ولأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، فإذا كنّا نثبت ذات الله ـ تعالى ـ من غير تكييف لها ، فكذلك يكون إثبات صفاته من غير تكييف ، قال بعض أهل العلم : إذا قال لك الجهمي : إن الله ينزل إلى السماء الدنيا ، فكيف ينزل؟! فقل له : إن الله أخبرنا أنه ينزل ولم يخبرنا كيف ينزل!! وقال آخر : إذا قال لك الجهمي في صفة من صفات الله : كيف هي؟ فقل له : كيف هو بذاته؟ فإنه لا يمكن أن يكيف ذاته فقل له : إذا كان لا يمكن تكييف ذاته ، فكذلك لا يمكن تكييف صفاته ؛ لأن الصفات تابعة للموصوف!!

فإن قال قائل : إذا كان استواء الله على عرشه بمعنى العلو عليه ، لزم من ذلك أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساوياً ،

الشرح

هذا اللزوم صحيح ، كل شيء على شيء فإما أن يكون هذا الذي فوق أكبر مما تحته أو أصغر أو مساويا ، هذا لزوم عقلي صحيح ، واستمع إلى بقية الإيراد .أهـ

* * *

وهذا يقتضي أن يكون جسماً ، والجسم ممتنع على الله ،

الشرح

هذا الطاغوت والمعول الخارب يمشي عليه كل من أنكر الصفات ، فإن كل من أنكر الصفات يقول إن إثباتها يستلزم أن يكون جسما ، ثم يقولون الأجسام متماثلة ، فإذا كانت الأجسام متماثلة وهذا يستلزم التجسيم لزم أن يكون الله مماثلا للخلق .

لكن هذا المعول سبق لنا بيان أنه معول لا يستقيم ، بل معول لا يفيد .أهـ

* * *

فجوابه أن يُقال : لا ريب أن الله أكبر من العرش ، وأكبر من كل شيء ،

الشرح

هذا حق لأن النبي ﷺ أخبر بأن الله يقبض السماوات بيمينه وكذلك الأرض[1] ، وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن السماوات السبع والأرضين

---

(١) البخاري (٤٦٢٧) كتاب التفسير ، باب قول الله تعالى : ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ ، ومسلم (٦٩٨١) كتاب صفات المنافقين ، باب صفة القيامة والجنة والنار ، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

السبع في كف الرحمن كخردلة في كف أحدنا[١] ، وعلى هذا فالله أكبر من كل شيء ، وهذا ليس فيه أي محذور .أهـ

* * *

ولا يلزم على هذا القول شيء من اللوازم الباطلة ، التي يُنزّه الله عنها .

الشرح

إذا قلنا إن الله أكبر من كل شيء فليس في هذا محذور ، فنحن نقول في كل صلاة «الله أكبر» وإن كان الذي يتبادر في قولنا الله أكبر في الصلاة وفي الأذان أنه أكبر من الكبرياء والعظمة فإن هذا هو المتبادر ، لكن مع ذلك أيضاً هو أكبر من كل شيء حتى بذاته ، والدليل على هذا ما أشرنا إليه قبل قليل ، والله تعالى فوق العرش وليس محتاجا إلى العرش كما سبق ، وحينئذ فليس هناك مضرة ولا محذور .أهـ

* * *

وأما قوله : «إن الجسم ممتنع على الله» ، فجوابه : أن الكلام في الجسم وإطلاقه على الله نفياً أو إثباتاً من البدع التي لم ترد في الكتاب والسنة وأقوال السلف ،

الشرح

ابحث في القرآن فإنك لا تجد أن الله نفى أن يكون جسما أو أثبت أنه جسم ، وكذلك لا تجد في السنة أن الرسول أثبت أن الله جسم أو أن الله ليس بجسم ، وكذلك لا تجد هذا في أقوال السلف ، لأنه ما حدث القول بالجسم إلا بعد حدوث البدع ، ولهذا نقول هذا ليس بموجود ، وإطلاقه من البدع التي لم ترد في الكتاب والسنة وأقوال السلف .أهـ

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٢٤) سورة الزمر آية (٦٧) .

وهو من الألفاظ المجملة التي تحتاج إلى تفصيل :

الشرح

لأن كلمة جسم عندما تقول هل الله جسم أم لا يحتاج إلى تفصيل :

فنقول أولاً : أما بالنسبة للفظه فلا نلتزم بالإثبات ولا بالنفي لعدم ورود ذلك ، فلم يرد أن الله أثبته ولا نفاه ، فحقنا أن نمسك عما أمسك الله عنه ، وبالنسبة للمعنى نقول .أهـ

* * *

فإن أريد بالجسم الشيء المحدث المركب ، المفتقر كل جزء منه إلى الآخر ، فهذا ممتنع على الربّ الحيّ القيّوم .

الشرح

نحن في أجسامنا بقية الجسم مفتقر إلى الرأس لو زال الرأس فلا فائدة من الجسم ، ومفتقر إلى الأمعاء والمعدة والقلب والكبد ، ولو أزيلت هذه منا ما بقينا ، أما بالنسبة للرب تعالى فلا يمكن أن نقول إنه جسم بهذا المعنى أبداً ، لأن ذلك يستلزم الحدوث والنقص العظيم ويستلزم أن للخالق خالقا أحدثه .أهـ

* * *

وإن أُريد بالجسم ما يقوم بنفسه ، ويتصف بما يليق به ، فهذا غير ممتنع على الله تعالى ؛ فإن الله قائم بنفسه ، متصف بالصفات الكاملة التي تليق به سبحانه وتعالى .

الشرح

لأنك لو لم تصف الله بهذا فمعناه أنه غير موجود ، فلو قلت إنه ليس قائما بنفسه

ولا متصفا بالصفات ، إذاً لا يمكن أن يكون موجودا ، بل هذا كقولهم إن الله ليس فوق العالم ولا تحت العالم ولا يمينه ولا شماله ولا متصلا بالعالم ولا منفصلا عن العالم فلا يكون شيئاً .

فأنت إذا آمنت بالله تعالى بذات متصفة بالصفات اللائقة بها فهذا هو الحق ولا يلزم على هذا شيئاً من اللوازم الباطلة أبداً .أهـ

* * *

لكن لما كان لفظ الجسم يحتمل ما هو حق وباطل بالنسبة إلى الله ؛ صار إطلاق لفظه نفياً أو إثباتاً ممتنعاً على الله .

الشرح

لأن كل لفظ يحتمل معنى باطلا فإنه لا يجوز إثباته لله على سبيل الإطلاق ولا نفيه على سبيل الإطلاق ، ومن هذا صفة المكر مثلاً ، لو قلت هل الله ماكر؟ إن قلت نعم أخطأت وإن قلت لا أخطأت وإن قلت ماكر بمن يمكر به وبرسله أصبت .أهـ

* * *

وهذه اللوازم التي يذكرها أهل البدع ليتوصلوا بها إلى نفي ما أثبته الله لنفسه من صفات الكمال على نوعين :

الأول ـ لوازم صحيحة لا تنافي ما وجب لله من الكمال ، فهذه حق يجب القول بها ، وبيان أنها غير ممتنعة على الله .

الشرح

مثل لو قالوا إنه يلزم من الاستواء على العرش أن يكون ذاتاً متميزةً تستوي وتنزل وما أشبه ذلك ، نقول في هذا اللازم إنه حق ، ولو قالوا إنه يلزم من كلام الله تعالى إذا

قلت إنه بحرف وصوت يلزم أن يكون هذا الكلام مسموعاً خارجاً من ذاته ، فهذا حق لا مانع منه ، وهم يقولون هذا ممتنع لأنه يلزم قيام الحوادث بذات الله وقيام الحوادث بذات الله ممتنع .

فنقول : إذا كانت هذه اللوازم لا تنافي ما يجب لله من صفات الكمال فإننا نلتزم بها ولا حرج .أهـ

* * *

الثاني ـ لوازم فاسدة تنافي ما وجب لله من الكمال ، فهذه باطلة يجب نفيها ، وأن يبين أنها غير لازمة لنصوص الكتاب والسنة ؛

الشرح

إذا ذكروا لوازم وقالوا هذا اللازم باطل ، فإننا نبين لهم أن هذا اللازم لا يلزم مما أثبته الله لنفسه لأن كل معنى لا يليق بالله لا يمكن أن يكون لازما لشيء مما أخبر الله به عن نفسه ، مثلا إذا قالوا : إنه يلزم من إثبات الصفات أن يكون جسما والأجسام متماثلة ، نقول : لا يلزم هذا ، لأن من الأشياء ما يكون صفة ويوصف وهو صفة ، تقول : هذا اليوم حره شديد ، والحر صفة وليس ذاتا ، فلا يلزم من الصفة ألا تكون قائمة إلا بجسم ، ثم نقول لهم على تقدير أنها لا تقوم إلا بجسم ، فمن يقول إن الأجسام متماثلة؟

فكل لازم يكون باطلا فإنه لا يمكن أن يكون لازما لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ والعلة .أهـ

* * *

لأن الكتاب والسنة حق ومعانيهما حق ، والحق لا يمكن أن يلزم منه باطل أبداً ، فإن

قال قائل : إذا فسرتم استواء الله على عرشه بعلوه عليه ، أوهم ذلك أن يكون الله محتاجاً إلى العرش ليُقلّه .

الشرح

إذا قلت إن استواء الله على العرش يعني علوه عليه واستقراره عليه فهذا يوهم أن الله محتاج إلى العرش ليقله كما أننا إذا استوينا على السرير فإننا محتاجون إليه .أهـ

* * *

فالجواب : أن كل من عرف عظمة الله تعالى وكمال قدرته وقوته وغناه ، فإنه لن يخطر بباله أن يكون الله محتاجاً إلى العرش ليقلّه ، كيف والعرش وغيره من المخلوقات مفتقر إلى الله ، ومضطر إليه لا قوام له إلا به ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ والأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ (الروم :٢٥) .

الشرح

وهذا واضح والحمد لله أنه مستو عليه بدون حاجة .أهـ

* * *

فإن قيل : هل يصح تفسير استواء الله على عرشه باستيلائه عليه ، كما فسره به المعطلة فراراً من هذه اللوازم؟

الشرح

هذا محط العراك بين أهل السنة والجماعة وبين المعطلة ، فالمعطلة يقولون استوى بمعنى استولى ، وأهل السنة والجماعة يقولون استوى بمعنى علا ، ولا يصح تفسيرهم استوى بمعنى استولى لأننا نقول لهم :

أولاً : ما دليلكم على أن الاستواء يأتي بمعنى الاستيلاء؟

سيقولون عندنا شاهد من اللغة العربية وهو قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق

من غير سيف أو دم مهراق

معنى استوى على العراق أي استولى عليها ، فالجواب على ذلك :

١ ـ قائل هذا البيت مجهول وإذا كان مجهولا فلا يحتج به ، ويجوز أن يكون أحد هؤلاء المعطلة صنع هذا البيت وقال هذا هو الشاهد .

٢ ـ إننا نمنع أن يكون «استوى بشرعلى العراق» نمنع أن يكون متعينا أنه بمعنى استولى ، إذ من الجائز أن يكون استوى على العراق يعني علا عليه لكن علواً معنويا .

٣ ـ على فرض أن استوى في هذا البيت بمعنى استولى ؛ فإننا فسرناه به لأنه لا يمكن أن يكون استوى عليه كاستواء الإنسان على السرير ، فالعراق مساحة كبيرة ولا يمكن أن يأتي أحد ويركب عليه .

فعلى كل حال بطل استدلالهم بهذا البيت ، فإذا بطل استدلالهم بهذا البيت رجعنا إلى معنى الاستواء الوارد في كتاب الله ، ووجدنا أن الآيات السبع كلها ما جاءت في آية واحدة بلفظ استولى .

قال المعطلة استوى على العرش يعني استولى على العرش بزيادة اللام ، قال ابن القيم : إن زيادة اللام في استوى عند هؤلاء كزيادة النون في حطة عند اليهود فاليهود قيل لهم : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ (البقرة :٥٨) فدخلوا على أستاههم يحبون وقالوا حنطة ، لا يريدون حطة الآثام ولكن حنطة ليملئوا بطونهم ، فهؤلاء زادوا اللام كما زادت اليهود النون ، وقد استوى يعني استولى .

فنقول سبحان الله العظيم ، هذا لا يصح ، فإنه لم يرد في كل المواضع السبعة التي ذكرها الله تعالى في الاستواء لم يرد أن الله قال فيه استولى ، فكيف يمكن أن يفسر استوى بمعنى استولى .أهـ

* * *

فالجواب : أنه لا يصح ، وذلك لوجوه ، منها :

الشرح

وقول المؤلف منها يعني أن هناك وجوها أخر لكن لم يذكرها .أهـ

* * *

١ ـ أن هذه اللوازم إن كانت حقًا فإنها لا تمنع من تفسير الاستواء بمعناه الحقيقي ،

الشرح

لا تمنع ، كاللوازم التي مرت علينا ، إذا كان الله قد استوى حقيقة على العرش فإما أن يكون أكبر من العرش أو دونه أو مساويا له ، وقلنا إذا لزم أن يكون أكبر من العرش فلا محذور في ذلك ، وليس فيه محذور إطلاقا ، لأن الله أكبر من كل شيء ، فاللوازم سواء في هذا الباب أو في غيره التي يلزمها هؤلاء المبتدعة لأهل السنة إذا كانت حقا تلزم من النص فإنها تكون حقا ، لأن اللازم من الحق حق ، والله تعالى بكل شيء عليم ، والنبي ﷺ لا ينطق عن الهوى ، فما لزم من كلام الله ورسوله فإنه حق ، بخلاف اللوازم التي من كلام البشر ، فاللوازم التي من كلام البشر لا تعتبر ملزمة لهم ولا دالا عليها كلامهم ، لأن الإنسان قد يقول القول ولا يشعر بما يلزم عليه من اللوازم .

اللوازم : يعني يلزم من كذا كذا وكذا ، فنقول إذا كانت اللوازم هذه بالنسبة لكلام

الله ورسوله حقا وتلزم فهي حق ونقول بها ولا حرج علينا ، أما إذا كانت اللوازم لا تلزم فإننا نقول : لا نلتزم بها ، مثال ذلك :

يقول هؤلاء المبتدعة وأمثالهم : إذا أثبتم أن الله يفعل فعلا قائما بنفسه لزم من ذلك قيام الحوادث به ، وما قام به الحوادث فهو حادث ، يعني إذا أثبتم أن الله يستوي استواء فعليا على العرش وأنه ينزل نزولا فعليا إلى السماء الدنيا وأنه يأتي إتيانا فعليا للقضاء يوم القيامة وأنه يضحك ضحكا فعليا وأنه يتكلم بصوت وما أشبه ذلك ؛ إذا قلتم هذا لزم أن تقوم الحوادث بذات الله ، ويلزم من قيام الحوادث بذات الله أن يكون حادثا .

فعندنا لازمان : **اللازم الأول** : يلزم أن تكون الحوادث تقوم بذات الله ﷻ وهذا اللازم نلتزمه ونقول لا مانع من أن الله يفعل ما يريد ، يأتي وينزل ويستوي ويضحك ويعجب وما أشبه ذلك ولا مانع .

الثاني : يلزم من قيام الحوادث به أن يكون حادثا ، فنقول هذا لا يلزم ، وإلزامكم إيانا به لا يلزمنا ، فإن الحوادث أفعال متجددة تبع حكمة الله تعالى ، أما ذات الله تعالى فإنه لم يزل ولا يزال موجودا .

فالحاصل أن اللوازم إن كانت حقا وأنها تلزم من كلام الله ورسوله فالواجب علينا التزامها وإثباتها ، لأن كلام الله حق وهو عالم تعالى بما يلزم من كلامه ، أما إذا كانت لا تلزم فإننا نردها ولا نبطل بها كلام الله .

وهم ـ والعياذ بالله ـ يلزمون أنفسهم ويلزمون أهل السنة بهذه اللوازم الباطلة لأجل أن يبطلوا بذلك كلام الله ، فيقولون لا يمكن أن ينزل لأن هذا فعل والفعل لا يقوم إلا بذات إلا وهي حادثة والله تعالى منزه عن الحدوث ، فيجب أن نأول النزول إلى نزول الأمر مثلا ، وهكذا المجيء والإتيان وما أشبه ذلك ، كله بناء على هذا اللازم الذي اعتقدوه لازما وهو ليس بلازم .أهـ

وإن كانت باطلاً فإنه لا يمكن أن تكون من لوازم نصوص الكتاب والسنة ، ومن ظن أنها لازمة لها فهو ضال .

الشرح

هذه قاعدة مفيدة : كل لوازم يلزمنا بها أهل البدع لأجل أن نرجع عما أثبتناه من صفات الله فسبيلها هكذا :

إن كانت اللوازم لازمة حقا فإننا نلتزم بها ونقول إنها حق ولا تنافي كمال الله ، وإن كانت لا تلزم نفيناها وقلنا هذه لا تلزمنا ، وقولكم إنها تلزم هذا دليل على جهلكم وضلالكم .

فإن قال قائل : ما تقولون في لازم القول هل هو قول أم لا؟ فمثلا إذا لزم من قول إنسان شيء من الأشياء ، فهل تضيفون هذا اللازم إلى هذا القائل ، فمثلاً إذا لزم من قول المعطلة أنه ليس موجوداً ، أي إنكار الخالق مطلقا ، إذا قالوا إن الله تعالى لا يمكن أن نصفه بالصفات الثبوتية لأننا لو أثبتنا له الصفات لشبهناه بالموجودات ، لو قالوا هكذا ، قلنا هذا يلزم أن تشبهوه بما هو دون الموجودات ، بالمعدومات والمعدوم منقوص وليس بشيء ، فإذا قالوا لا نصفه بالوجود ولا العدم قلنا هذا أقبح لأنكم شبهتموه بالممتنعات ، فهل هذا لازم؟

يقول العلماء : إن اللازم إن كان من قول معصوم فهو لازم وإن كان من غير قول معصوم فليس بلازم ، لأن الإنسان بشر قد لا يدرك ما يلزم على قوله من اللوازم ، وربما إذا ذكّر وقيل يلزم على قولك كذا وكذا من الأمور الباطلة ربما يرجع ، وكثير من الأشياء يحكم بها الإنسان بحكم ثم إذا نوقش رجع لأنه تبين له أن هناك لوازم لا يمكن أن يقول بها ، وهذا هو القول الوسط في مسألة اللازم ، لازم القول هل هو قول؟

فالجواب : إن كان من معصوم فهو قول ، وهذا لا يكون إلا في كلام الله وكلام

رسوله ﷺ ، وإن كان من غير معصوم فليس قولا لـه لأنه قد يكون في تلك الساعة لا يلاحظه ولو نبه له لرجع عن قوله .أهـ

* * *

٢ ـ أن تفسيره بالاستيلاء يلزم عليه لوازم باطلة لا يمكن دفعها كمخالفة إجماع السلف ،

الشرح

هذه من اللوازم الباطلة التي تلزم من فسر استواء الله بالاستيلاء ، فنقول له أنت الآن مخالف لإجماع السلف . فإن قال : وماذا هناك لو خالفت إجماع السلف هم رجال ونحن رجال؟

نقول : هذا لا يمكن لأن الإجماع السابق لا يمكن نقضه لقول الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ (النساء :١١٥) ، فأنت الآن اتبعت غير سبيل المؤمنين ، ثم نقول الآن : خالفت السلف ، فالحق إما أن يكون معك أو مع السلف ، فإن قلت مع السلف فقد حكمت على نفسك ، وإن قلت معي دون السلف فهذا أقبح وأقبح ، ومعناه أنك ضللت كل سلف الأمة ، مع أن الهدى إنما يأتينا من طريقهم .

فالحاصل أن مخالفة إجماع السلف ضلال وباطلة .أهـ

* * *

وجواز أن يُقال : إن الله مستوٍ على الأرض ، ونحوها مما ينزه الله عنه

الشرح

لأنه مستول على الأرض ، فهل بإمكان أي مسلم أن يقول إن الله تعالى خلق

السماوات والأرض ثم استوى على الأرض؟ لا يمكن أبداً ، وهل يمكن لأي مسلم أن يقول إن الله مستو على ظهر البعير؟ لا يمكن ، إذاً هذا لازم باطل ، واللازم الثالث الباطل : .أهـ

* * *

وكون الله ـ تعالى ـ غير مستولٍ على العرش حين خلق السماوات والأرض .

الشرح

يلزم على قولهم استوى بمعنى استولى أن يكون العرش حين خلق السماوات والأرض ملك لغير الله ، لأن الله يقول : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (السجدة :٤) ، فيكون العرش في هذه المدة ملكا لغير الله ، لكن حصلت حروب طاحنة واستولى الله على العرش !! هذا كلامهم . وأذكر مرة كنا نتحدث عند عوام وقلنا إن المبتدعة يقولون إن معنى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (السجدة :٤) ثم استولى على العرش ، فقال أحدهم : ما أنقص عقولهم ، إذاً لمن كان العرش قبل هذا؟ هذا وهو عامي فهم أن هذا أمر لا يمكن ، وهو صحيح إذا فسرناه باستولى .أهـ

* * *

٣ ـ أن تفسيره بالاستيلاء غير معروف في اللغة ، فهو كذب عليها ، والقرآن نزل بلغة العرب ، فلا يمكن أن نفسره بما لا يعرفونه في لغتهم .

الشرح

وهذا غير معروف في اللغة العربية أن استوى بمعنى استولى ، فإذا كان غير معروف والقرآن باللغة العربية فمعناه أنه لا يمكن أن يرد في القرآن ، لكنهم قد يقولون لك : بل هذا وارد في الكلام العربي الفصيح ، واقرأ إن شئت :

قـد اسـتـوى بـشـر عـلـى الـعـراق

مـن غـيـر سـيـف أو دم مـهـراق

أولاً : نقول : لمن هذا البيت؟ لمجهول ، يمكن أنهم صنعوه مثل ما يصنع بعض النحويين شواهد لهم ، وإذا قلت لمن هذا؟ قال لرجل من بني ظبة ، ثم ابحث عن رجل في بني ظبة ، فالحاصل أنهم ربما اصطنعوا هذا البيت ، وإذا كان لمجهول فإن ما للمجهول مجهول ، هذا أولاً .

ثانيا : على فرض أنه لرجل من صميم العرب قبل أن تتغير اللغة فإنه ليس فيه دليل ، لأننا نقول إن استوى على العراق واضح أنه ليس المراد أنه جلس عليه وإنما المعنى أنه استولى عليها وملك وقهر ، وهذا واضح .

ثالثاً : وأيضاً نقول يمكن أن يكون استوى بمعنى علا لكنه علو معنوي ، لأن العلو الحسي بالنسبة إلى هذا البيت ممتنع ، فدل دليل على امتناعه فيفسر بالعلو المعنوي .أهـ

* * *

٤ ـ أن الذين فسروه بالاستيلاء كانوا مُقرّين بأن هذا معنى مجازي ،

الشرح

هم يقولون استوى بمعنى استولى هذا مجاز لا شك ، وأن استوى حقيقة بمعنى علا ، لكن ههنا مجاز عن الاستيلاء ، وتعرفون النزاع بين العلماء في إثبات المجاز ونفيه إما مطلقاً وإما في القرآن .

فذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا مجاز في اللغة مطلقاً ، وممن ذهب إلى هذا بل ممن أيد هذا ـ وإلا فقد ذهب إليه الناس من قبله ـ شيخ الإسلام وابن القيم ، وقد بسط شيخ الإسلام القول عليه في كتاب «الإيمان» ، وبسط ابن القيم الكلام عليه في

«مختصر الصواعق» فمن أراد أن يرجع إلى قولهما تبين له بذلك أنه لا مجاز في اللغة .

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا مجاز في القرآن فقط وأما اللغة فيجوز أن يكون فيها مجاز .

ومسألتنا الآن مما في القرآن لا مما في اللغة ، إذاً لا يمكن أن تكون مجازاً ، لكن هؤلاء المعطلة هم الذين ابتدعوا المجاز وجعلوا من هذا السلاح إبطالاً لكثير من صفات الله تعالى .أهـ

* * *

والمعنى المجازي لا يُقبل إلا بعد تمام أربعة أمور :

الأول ـ الدليل الصحيح المقتضي لصرف الكلام عن حقيقته إلى مجازه .

الشرح

وهو ما يعبر عنه في البلاغة بالقرينة ، فلا يمكن أن نحمل اللفظ على مجازه ـ إذا قلنا بالمجاز ـ إلا بعد تمام هذه الأمور الأربعة ، الأول الدليل الصحيح ، فليس كل دليل يكون صحيحا ، المقتضي لصرف الكلام عن حقيقته إلى مجازه ، فإن لم يوجد دليل لم نقبل ، فالأصل الحقيقة .أهـ

* * *

الثاني ـ احتمال اللفظ للمعنى المجازي الذي ادعاه من حيث اللغة .

الشرح

لابد أن يكون اللفظ محتملا للمعنى المجازي الذي ادعيت من حيث اللغة ، فإن لم يحتمل فإنا لا نقبل ، فلو قال إنسان لآخر خذ هذه المائة ريال واشتر لي بها ثوبا ،

فذهب الرجل واشترى بالمائة ريال ثمانمائة خبزة وأتى بها ، فقال له : قلت لك اشتري ثوبا وأنت أتيت بالخبز ! قال نعم لأن الخبز كسوة الباطن ، وأنت عبرت بالثوب مجازا عن ثوب الباطن الذي هو الشبع ، فمثل هذا لا يقبل لأنه لا يحتمل في اللغة العربية ، ولو أوله تأويلا قد يكون مقبولا في بعض الأحيان ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) ﴾ (طه : ١١٨) ، ولم يقل ألا تجوع ولا تظمأ ، لأن العري تعري البدن من اللباس والجوع تعري البطن من الطعام ، فأراد أن يحمل هذا على ذاك ، فنقول هذا لا يمكن وغير مقبول ، ولم يعبر أحد في اللغة العربية عن الخبز بالثوب أبداً ، فلا بد أن يكون اللفظ محتملا للمعنى المجازي ، فإن كان غير محتمل فلا يقبل .أهـ



الثالث ـ احتمال اللفظ للمعنى المجازي الذي ادعاه في ذلك السياق المعيّن ، فإنه لا يلزم من احتمال اللفظ لمعنى من المعاني من حيث الجملة أن يكون محتملاً له في كل سياق ؛ لأن قرائن الألفاظ والأحوال قد تمنع بعضَ المعاني التي يحتملها اللفظ في الجملة .

الشرح

هذه مهمة ، فلو فرض أن هذا اللفظ يحتمل هذا المعنى في اللغة ، فإنه يحتاج إلى دليل يثبت أن هذا الاحتمال ممكن في هذا السياق المعين ، مثال ذلك : كلمة يد في اللغة العربية تطلق على النعمة لا شك في هذا ، كما قال المتنبي :

وكم لظلام الليل عندك من يد
تحدث أن المانوية تكذب

وكذلك قال عروة بن مسعود الثقفي ـ رسول قريش الذي أرسلته ـ قال لأبي

بكر : لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك[1] ، لولا يدلك عندي يعني نعمة ، لكن قوله تعالى : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص :٧٥) ، لا يحتمل أن يكون المراد منه في هذا السياق النعمة ، فصار هذا الثالث احتمال فوق احتمال ، أولاً أن نقول هات دليلا على أن هذا المعنى يحتمله اللفظ في اللغة ، فإن أتى بدليل نطالبه بشيء ثان فنقول :

هات دليلا يدل على احتمال المعنى في هذا السياق المعين ،لأنه ليس كل شيء يحتمله اللفظ في اللغة العربية يمكن أن يحتمله في كل سياق .أهـ

* * *

الرابع ـ أن يبين الدليل على أن المراد من المعاني المجازية هو ما ادعاه ؛ لأنه يجوز أن يكون المراد غيره ، فلا بد من دليل على التعيين . والله أعلم .

الشرح

والعجيب أن هذا التأويل قد التزم به كثير من أهل البدع وقالوا هذا هو الذي يقصم ظهورنا أن تأتي بدليل يدل على أن المراد هذا المعنى الذي عينته ، فمثلا هذا اللفظ يحتمل في اللغة عدة معاني ، منها ظاهر اللفظ ، وظاهر اللفظ هو أولى ما يكون باللفظ ، ومنها المعنى الذي يخالف الظاهر الذي ادعاه هذا الرجل ، فنقول هات دليلا يعين أن الكلام يراد به ما ذهبت إليه ، فمثلا : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ (الفجر :٢٢) ، يقول وجاء أمر ربك نقول له هات دليلا على أن المراد أمره ، ربما يكون المراد من ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ وجاء عذاب ربك ، ويمكن أن يكون المراد من ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ وجاء ملك ربك ، جاء نور ربك ، فلماذا تعين وجاء أمر ربك فقط ، ومثله الذي يقول «ينزل ربنا إلى السماء » يقول ينزل أمره ، فنقول له هات دليلا ، فحينئذ لا

(١) البخاري (٢٧٣١) كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد ، من حديث المسور بن مخرمة ومروان .

يستطيع .

فلو أننا سلمنا أن اللفظ مستعمل في مجازه كما قلت ، فما الدليل على أن المراد في المعنى المجازي هو الذي عينته أنت ، فقد يجوز أن يكون المراد معنى مجازيا غيره ، فهات دليلا ، وهذه الأوجه الأربعة ذكرها ابن القيم ـ رحمه الله ـ وقد نكون غيرنا فيها بعض الشيء توضيحا ، والغالب أن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هو الأصل ، لكن ابن القيم يهذب .أهـ

المناقشة

سؤال : ألا يكون الاستواء صفة ذاتية فعلية؟

الجواب : لا ، لأنه لو شاء الله تعالى لم يستو على العرش ، لكن الذاتية لا تتعلق بمشيئته بل هو متصف بها دائما ، إنما هي باعتبار جنس الفعل ، فإن جنس الفعل من الصفات الذاتية ، لأن الله لم يزل ولا يزال فعالا .أهـ

سؤال : تفسير الاستواء بالاستقرار لماذا نقوله؟

الجواب : لأنهم يقولون إن الاستواء في اللغة العربية يأتي بمعنى الاستقرار ، لأن قوله : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ (الزخرف :١٣) ، ليس معناه مجرد العلو ، بل علو واستقرار لأنه لا تتم النعمة إلا إذا استويت على الأنعام استواء باستقرار ، أما أن تعلو عليها ثم تحيد وتسقط فإنه ما تمت النعمة .أهـ

سؤال : نقل الإجماع في مجال العقائد؟

الجواب : الإجماع في مجال العقائد مثل الإجماع في مجال الأحكام .أهـ

سؤال : حتى لو كان هناك مخالف من الفرق الضالة؟

الجواب : نعم ، لأن المراد بالإجماع إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، أما أولئك فلا يعتبر قولهم في الإجماع .أهـ

سؤال : من قرأ في الأسماء والصفات وأشار بيده ، هل في هذا ذكر كيفية؟

الجواب : هذا من باب التحقيق فمثلا لما قرأ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** (٥٨) ﴾ (النساء :٥٨) ، وضع إبهامه على عينه وسبابته على أذنه[١] أو بالعكس ، وليس المعنى

(١) أبو داود (٤٥٦٤) كتاب السنة ، باب في الرؤية ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أن الرسول ﷺ يريد أن لله أذناً وأن هذه هي عين الله ولكن يريد التحقيق ، مثل قوله «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»[1] .أهـ

سؤال : البدعة في السؤال عن الكيفية أم الخوض في الأسماء والصفات؟

الجواب : الظاهر أن البدعة هو السؤال عن الكيفية ، هذا ظاهر السياق ، لأن الرجل سأل عن الكيفية ، وأما الخوض في باب الأسماء والصفات فإن الصحابة يسألون الرسول أحيانا عن أسماء الله وصفاته ، قالوا : أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟[2] وقال أبو رزين العقيلي : يا رسول الله كيف يحاسبنا الله تعالى ونحن جميع وهو واحد؟[3] فيسألون عن هذا الشيء ، لكن لا يسألون عن الكيفية وعما لا يمكن إدراكه .أهـ

سؤال : كيف يسمى مبتدعا مع أنه سال عن أمر من الدين؟

الجواب : هو قال ما أراك إلا مبتدعا لأن هذا كان من ديدن أهل البدع في عهد مالك والأئمة ، كان أهل البدع يمشون على أهل العلم ثم يوردون عليهم مثل هذه الشبه ، فكان ذلك ديدنهم .أهـ

---

(١) البخاري (٥٧٣) كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاة الفجر ، ومسلم (٦٣٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ، من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه .

(٢) أحمد ٤/ ١٢ ، وابن حبان كما في الإحسان (٦١٤١) ذكر الأخبار عما كان الله فيه قبل خلق السموات والأرض ، قال محققه وسنده ضعيف .

(٣) رواه بنحوه عبدالله في السنة (١١٢٠) (٢/ ٤٨٥) بلفظ : «كيف يرانا اللّه . . .» الحديث ، والطبراني في الكبير (٤٤٧) ١٩/ ٢١١ ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٤١) باب جامع في البعث وقال رواه عبداللّه والطبراني بنحوه وأحد طريقي عبداللّه متصل ورجالها ثقات والإسناد الآخر وإسناد الطبراني مرسل عن عاصم بن لقيط إن لقيطاً ، وابن أبي عاصم في السنة (٦٣٦) ، وقال الألباني : إسناده ضعيف .

سؤال : لعله كان يجرب الإمام مالك؟

الجواب : أهل البدع يسألون مثل هذه الأسئلة ويمشون على الناس ويقولون كيف كذا وكيف كذا ليشككوا الناس في عقائدهم ، أو يحاولون منهم أن يدعوا هذه العقائد إلى ما يعتقده هؤلاء ، هذا كان ديدنهم .أهـ

سؤال : بالنسبة للقاعدة : نتوقف في اللفظ ونستفصل في المعنى ، إذا قال قائل : الألفاظ هي أوعية المعاني فأصلاً لما رفضنا اللفظ وتوقفنا فيه زال اللفظ وزال ما ينبني عليه؟

الجواب : لكن هذا المعنى ثابت ـ وهو أن الله تعالى قائم بنفسه متصف بالصفات اللائقة به ـ فنثبته أم لا؟ .أهـ

سؤال : نعم ثابت

الجواب : إذا نثبته .أهـ

سؤال : إذاً تثبته لكن لا على أنه مفرع على إثبات اللفظ ؟

الجواب : لكن مسالة أن نقول إنه جسم فهذا لا نقوله تحاشيا للفظ ، أولاً لأن الجسم موهم لمعنى لباطل ، وكل شيء يوهم معنى باطلا فالله لا يتصف به .أهـ

سؤال : أنا أقصد أنّا نقول له نحن نقبل منك هذا الثناء لكن ليس مفرعا على أن الله جسم لأننا أصلا رفضناه .

الجواب : اللفظ نرفضه ، لكن هو إذا قال إن الله ليس بجسم يعني أنه لا ذات له تتصف بالصفات ، ولهذا حقيقة الأمر عند هؤلاء المعطلة أن الله تعالى ما هو إلا معنى من المعاني فقط ، وليس ذاتا يستوي على العرش أو ينزل أو يأتي للفصل بين عباده ، فكل هذا ممتنع عندهم ، ولهذا يفسرون الاستواء بالاستيلاء ويفسرون النزول بنزول الأمر ويفسرون الإتيان يوم القيامة بإتيان أمره وما أشبه ذلك .أهـ

سؤال : المحذور أنهم يصفوننا بالتناقض؟

الجواب : لا يصفوننا بالتناقض لأننا نقول إننا تحاشينا هذا اللفظ لعدم وروده فقط ، وإلا فحقيقة الأمر إذا أردت أن معنى جسم أي أنه قائم بذاته متصف بالصفات فنحن نقول إنه جسم بهذا المعنى ، لكن لا نثبت اللفظ فقط ، ونتحاشاه لعدم وروده ، وأنت إذا أردت أنه جسم بهذا المعنى فهو جسم بهذا المعنى إلا أننا لا نتلفظ به ، فنتحاشا اللفظ وأما المعنى فنؤمن بهذا ، وهو ينكر هذا الشيء ، ولهذا يقولون إن الصفات لا تقوم إلا بأجسام فيجب أن ننكر الصفات ، كما هي طريقة بعض المعتزلة من الغلاة .أهـ

سؤال : الأدلة التي قلناها في إثبات أن الله أكبر عليها بعض الإيرادات : مثلا « السماوات والأرض في يد الرحمن كخردلة في يد أحدكم »[1] قد يقول قائل إن السماوات والأرض في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة والكرسي كذلك بالنسبة للعرش ، لكن الخردلة بالنسبة ليد الشخص أكبر من كون الكرسي بالنسبة للعرش كحلقة ملقاة في فلاة؟

الجواب : نعم كل واحد أكبر من الثاني ، لكن السماوات السبع في كف الرحمن كخردلة في يد أحدنا ، وأما نسبة الخردلة إلى الكف فهذا لا يلزم ، المهم أن نعرف من هذا أن الله أكبر من كل شيء ، وأما أن نقول إن نسبة السماوات السبع إلى الكرسي كحلقة في فلاة من الأرض ، وهذا معناه أن الكرسي نسبة كبره إلى السماوات السبع أكبر من نسبة كبر يد الله إلى الخردلة فهذا لا يلزم ، المهم أنه يدل على أن الله أكبر من كل شيء .أهـ

سؤال : نفينا له باعتبار الملزوم أو باعتبار اللازم؟ لأن لازمهم صحيح .

الجواب : غير صحيح ، أصحيح أن الحوادث لا تقوم إلا بحادث؟ .أهـ

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٢٤) ، سورة الزمر آية (٦٧) .

سؤال : قولهم إن الحوادث إذا قامت بالله يلزم من ذلك أن يكون الله حادثا؟

الجواب : لا ، هذا غير صحيح ، لأن الحوادث أفعال تتجدد ، ولا يلزم من تجدد الأفعال أن يكون الفاعل كذلك ، الآن ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما تفعل فعلا ، هل يلزم أنك حادث عند فعلك هذا الفعل أو من قبل؟ فوجود الله تعالى سابق على حدوث الحوادث هذه وهو أزلي ، فلا يلزم أن يقولوا لا تقوم الحوادث إلا بحادث ، بل تقوم الحوادث بأزلي ولا مانع .

سؤال : لم لا نقول أنه مستو على الأرض؟

الجواب : لكن بهذه اللفظة لا نطلقها ، فالله أطلقها على العرش ، ولكن هذه اللفظة لا تطلق على الأرض .أهـ

سؤال : يقولون عندنا أدلة أخرى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ (يوسف :٨٢) ، يقولون كيف يسأل القرية والمعروف أنها لا تسأل ، وكذلك الجدار؟

الجواب : هل تظن أن أولاد يعقوب لما قالوا لأبيهم اسأل القرية يريدون أنه سيذهب ويقف عند الجدران ويقول ماذا تقولون؟ لا أحد يظن هذا ، وكل يعرف أن المراد بذلك هو المعنى الحقيقي الذي لا يحتمل غيره أنك تسأل أهلها .أهـ

فصل

والعرش في اللغة : سرير الملك ،

الشرح

هذا هو معناه في اللغة ، وإنما ذكرناه لأن هؤلاء المعطلة قالوا : ﴿اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ استوى لها عدة معاني ، والعرش له عدة معاني ، فيطلق على عريش العنب وعددوا له أشياء ، فنقول لهم إن العرش في اللغة العربية لا يعرف إلا بسرير الملك .أهـ

* * *

قال الله ـ تعالى ـ عن يوسف : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ (يوسف :١٠٠) .

الشرح

يعني على عريش العنب !! لا بل على عرش الملك .أهـ

* * *

وقال عن ملكة سبأ : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل :٢٣) .

الشرح

أي العرش الذي تجلس عليه ، إذاً فالعرش في اللغة هو سرير الملك ، وعرش الرحمن تعالى هو الذي استوى عليه ، ولكنه لا يلزم من موافقة العرش للعرش أن يكونا متماثلين ، فلا يلزم من التوافق في الاسم التوافق في الحقيقة والكيفية ، وهذا واضح ومحسوس ، فأنت لك يد والقط له يد ولكنهما مختلفتان في الحقيقة والكيفية وغير متماثلين ، فالقط إذا أراد أن يدافع عن نفسه تخرج أظفاره وتكون طويلة ، لكن أنت إذا قلمت أظفارك يوم الجمعة وجاء شخص يوم السبت يريد أن ينازعك فهل

تخرجهن؟ فالعرش الذي استوى عليه الرحمن ليس كالعرش الذي أثبته الله تعالى لملكة سبأ .أهـ

* * *

وأما عرش الرحمن الذي استوى عليه ، فهو عرش عظيم محيط بالمخلوقات ،

الشرح

عرش عظيم ، قال الله تعالى : ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ (التوبة :١٢٩) .

وأما كونه محيطا بالمخلوقات فالدليل على ذلك من قوله تعالى في الكرسي : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ (البقرة :٢٥٥) ، والعرش أعظم بكثير من الكرسي .أهـ

* * *

وهو أعلاها ،

الشرح

معلوم أنه أعلى المخلوقات لأن الله استوى عليه ، فيجب أن يكون فوق كل شيء ، وثبت أيضاً أن الفردوس أعلى الجنة ووسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن(١) .

فوقَه أو وفوقُه روايتان ، فعلى رواية فوقَه يكون فوقَه عال عنه ، وعلى رواية فوقُه بمعنى سقفه ، فالله تعالى له هذا العرش العظيم .أهـ

---

(١) البخاري (٢٧٩٠) كتاب الجهاد والسير ، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ، (٧٤٢٣) كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وأكبرها ،

الشرح

أكبر هذه المخلوقات التي نشاهد ، ومن المعلوم أن الله قادر على أن يخلق أكبر من العرش ألف مرة ، وليس العرش أكبر شيء يخلقه الله ، لا ندري ، لكن الذي نعلم من المخلوقات أن العرش أكبرها .أهـ

* * *

كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : «ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة ،

الشرح

السماوات مبتدأ ، والخبر الجار والمجرور إلا كحلقة ، السماوات السبع كلها والأرضون السبع كحلقة ملقاة في أرض فلاة ، والأرض الفلاة هي الواسعة ، والحلقة عند الإطلاق يراد بها حلقة الدرع ، والدرع عبارة عن قميص مسرود ومنسوج من حلقات من الحديد يلبسه الإنسان في القتال من أجل أن يتقي به السهام ، وهو معروف ، وتصوروا الآن نسبة الحلقة إلى هذه الأرض ماذا تكون؟ لا شيء في الواقع .أهـ

* * *

وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[1] .

(١) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٩) ، وقال : رواه محمد بن أبي شيبة في كتاب العرش (١/ ١١٤) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٩٠) وابن مردويه كما في تفسير ابن كثير ٢/ ١٣ وابن جرير في تفسيره ٥/ ٣٩٩ ، وجملة القول إن الحديث صحيح بهذه الطرق .

الشرح

ولهذا وصفه الله بأنه العرش العظيم ، فإذاً لا يقدر قدره إلا الله سبحانه وتعالى ، ولا يمكن للإنسان أن يحيط به مع أنه مخلوق من المخلوقات .أهـ

* * *

قال المؤلف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في «الرسالة العرشية» : «والحديث له طرق . وقد رواه أبو حاتم ، وابن حبان في صحيحه ، وأحمد في «المسند» وغيرهم» . اهـ .

الشرح

المؤلف له رسالة اسمها الرسالة العرشية تكلم فيها عن الأفلاك بكلام تقول كأن هذا الرجل يعيش اليوم ، فقد ذكر أشياء حققها العلم الحديث ، وهي مطبوعة وموجودة في الفتاوى .أهـ

* * *

والكرسي في اللغة : السرير وما يقعد عليه .

الشرح

إذاً الكرسي له إطلاقان في اللغة : السرير الذي ينام عليه ، والثاني ما يقعد عليه كالكراسي المعروفة التي يقعد عليها المدرسون وشبههم .أهـ

* * *

وأما الكرسي الذي أضافه الله إلى نفسه

الشرح

يعني في قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ (البقرة :٢٥٥)أهـ

فهو موضع قدميه تعالى ، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : «الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى»[1] .

رواه الحاكم في «المستدرك» . وقال : إنه على شرط الشيخين ، وقد روي مرفوعاً ، والصواب أنه موقوف .

الشرح

هذا الحديث موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما ، وهل له حكم الرفع؟

هو لا شك أنه لا مجال للإجتهاد فيه ، وأنه من الأمور الخبرية المحضة ، ولكن ابن عباس رضي الله عنهما ممن عرف بالأخذ عن بني إسرائيل ، وعلى هذا فيبقى في النفس من هذا شيء ، لكن قبول أهل العلم له وتلقيهم إياه يدل على أنه صحيح ، فإن السلف أخذوا بهذا الحديث واعتمدوه .

وفي قوله : « الكرسي موضع القدمين » إثبات القدم لله تعالى ، وهذا حق قد صح به الحديث عن النبي ﷺ في قوله : «لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه أو رجله فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط»[2] ، لكن إثبات القدمين لا أعلمه إلا في هذا الحديث ، وأما القدم فهو ثابت في صحيح البخاري وغيره .

لكن مع هذا نقول إن إثبات القدمين لا يعني التمثيل أبداً ، فهو كإثبات الوجه

---

(١) السنة لعبدالله بن أحمد (٥٨٦) ١/ ٣٠١ ما روي في الكرسي وجلوس الرب عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وتفسير ابن كثير ، سورة البقرة آية (٢٥٥) .

(٢) البخاري (٧٣٨٤) كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم ـ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ ، ورواه عن أنس تعليقاً ، ومسلم (٢٨٤٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب النار جهنم أعاذنا الله منها ، من حديث أنس رضي الله عنه .

والعين والذات ليس مماثلاً للخلق ، نعلم ذلك علم اليقين ، لأننا نعلم عن طريق السمع بأن الله ليس كمثله شيء ، ونعلم عن طريق العقل بأنه لا يمكن أن يكون المخلوق مثل الخالق أبداً ، فلذلك التماثل ممنوع حتى فيما توافق فيه المعنيان في اللفظ فإن الحقيقة مختلفة .أهـ

* * *

وهذا المعنى الذي ذكره ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في الكرسي هو المشهور بين أهل السنة ، وهو المحفوظ عنه ، وما روي عنه أنه العلم فغير محفوظ ،

الشرح

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ (البقرة :٢٥٥) ، وسع علمه السماوات والأرض ، وكأن هذا التفسير استنادا إلى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ (غافر :٧) ، وإلى قوله : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾ (الطلاق :١٢) ، لكن هذا المعنى لم يرد في اللغة العربية أن الكرسي يعني العلم ، وإذا لم يرد في اللغة العربية والقرآن إنما نزل بلغة العرب فإنه لا يجوز أن يحمل القرآن على ما يخالف اللغة العربية ، لأننا لو حملناه على ما يخالفها فقد خرجنا به عن اللغة التي نزل بها ، وهذه جناية على القرآن .أهـ

* * *

وكذلك ما روي عن الحسن أنه العرش

الشرح

أنه : أي الكرسي العرش فجعلهما شيئا واحدا .أهـ

ضعيف لا يصح عنه ؛ قاله ابن كثير رحمه الله تعالى[1] .

الشرح

إذاً فعندنا عرش وكرسي ، والعرش أعظم وأعلى وليسا شيئا واحدا ، بل هما شيئان مختلفان ، والله أعلم .أهـ

* * *

(١) تفسير ابن كثير ، سورة البقرة آية ٢٥٥ .

المناقشة

سؤال : يقولون أين كان الله قبل ذلك؟

الجواب : نقول كما جاء في الحديث : «كان الله تعالى في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء»[1] وإذا كنت تريد أن تحتج بهذا فقل أيضاً لا توجد سماوات لأنه أين كان الله قبل خلق السماوات؟ ونحن لا نقول إن الله استوى على العرش بمعنى أنه محتاج إليه ، ولكن نقول استوى على العرش عظمة وكبرياء وجلالا ، وليس المعنى أنه محتاج إلى العرش بحيث لو أزيل العرش لسقط ، فلا أحد يقول بهذا من السلف .أهـ

سؤال : إثبات وضع القدمين هل فيه شيء؟

الجواب : لا شيء فيه ، وقال موضع ولم يقل وضع ، يعني معناه أنه مكان الرجلين ، لكن الله أعلم بكيفيتها ، مثلما نقول في العرش تماما ، ولا نقول بالكيفية .أهـ

سؤال : هل نثبت لله القدمين بهذا الأثر؟

الجواب : نعم نثبت القدمين بهذا الأثر .أهـ

سؤال : ما أجمع السلف على إثبات القدمين؟

الجواب : الظاهر أنهم مجمعون لأن الذي يمر عليّ في الكتب القدمين بهذا اللفظ .أهـ

سؤال : يقولون أنه لا يعقل من ابن عباس مع علمه أن يأخذ العقائد من الأقوال الإسرائيلية؟

---

(١) ابن حبان كما في الإحسان (٦١٤١) ذكر الأخبار عما كان الله فيه قبل خلقه السماوات والأرض ، من حديث أبي رزين العقيلي رضي الله عنه ، قال محققه : وإسناده ضعيف .

الجواب : هذا وجه ، فقد يقال إن ابن عباس رضي الله عنهما لا يمكن أن يعتمد في أمر كهذا على الأخبار الإسرائيلية ، وإن كان قد يروي من أخبارهم ، أما أن يروي شيئا يتعلق بالله تعالى فإن هذا بعيد .أهـ

سؤال : قوله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ (البقرة :٢٥٥) **ألا ينافي كونه فوق؟**

الجواب : لا ينافي ، فالسماوات محيطة بالأرض وهي فوق الأرض .أهـ

الباب الحادي عشر

في المعية

الشرح

يعني معية الله لخلقه ، والمعية اختلف فيها أهل القبلة ، ويُعنى بأهل القبلة كل من ينتسب إلى الإسلام ، فمنهم من قال : إن المعية تقتضي الاختلاط ، إما الاختلاط الكامل بأن يكون الله تعالى في المكان الذي أنت فيه ، إن كنت في المسجد فهو في المسجد وإن كنت في البيت فهو في البيت وإن كنت في السوق فهو في السوق ، وهذا مذهب الحلولية من الجهمية وغيرهم ، وهو مذهب باطل كما سيأتي إن شاء الله تعالى بيان بطلانه .

ومنهم من قال إن الله تعالى مع خلقه حقيقة لكنه فوقهم ، ولا تتنافى المعية والفوقية كما سيأتي إن شاء الله تعالى في الفصل الذي بعد هذا ، وهو إمكان الجمع بين حقيقة العلو وحقيقة المعية .

ومنهم من قال إن المعية مجاز عن العلم والنصر والتأييد والقدرة وما أشبه ذلك ، وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان ما هو الحق في هذه الاحتمالات الثلاثة .

أما الذين يقولون إن المعية معية اختلاط الذات بالذات ؛ فهؤلاء كفار لا يصح أن ينسبوا إلى أهل القبلة ، فالذين يقولون إن الله حلّ في عين من الأعيان أو في كل الأعيان فهؤلاء لا نعدهم من أهل القبلة وإن انتسبوا إلى الإسلام فليسوا من أهل الإسلام في شيء ، لأن هؤلاء الذين يقولون بالحلول العام أخبث من النصارى الذين يقولون بالحلول الخاص .

النصارى يقولون بالحلول الخاص إن الله حل في عيسى ، وهؤلاء يقولون إن الله

حل في كل شيء حتى في الحمير والكلاب والعياذ بالله ، وهؤلاء لا يمكن أن نقول إنهم من أهل القبلة أو من المسلمين وإن كانوا يدعون ذلك مثل ابن عربي وأشباهه ، فهؤلاء لا نقول إنهم من المسلمين ، ولا يجوز أن نقول إنهم من المسلمين وهذه عقيدتهم في ربهم تعالى.أهـ

* * *

أثبت الله لنفسه في كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ أنه مع خلقه .

الشرح

المؤلف جعل العنوان «المعية» ، لكن عندما أراد أن يتكلم عليها لم يقل إن الله أثبت المعية لنفسه ، بل قال أثبت أنه مع خلقه ، لأن المعية بهذا اللفظ ما وردت ، إنما ورد أن الله مع خلقه ، وهذا من الأشياء التي يجب على الإنسان أن يتحرى لفظ الكتاب والسنة فيها فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته ، لأنها أخبار عن أمور غيبية لا تقاس بغيرها في المشاهدة ، وإذا كان كذلك فإن من الأدب أن يعبر الإنسان بما عبر به الكتاب والسنة ، حتى وإن كان سيعبر بلفظ صحيح ، لكن المحافظة على اللفظ أولى ، ولهذا لم يقل أثبت الله لنفسه معية لخلقه وإنما قال أثبت الله لنفسه أنه مع خلقه كما جاء في القرآن والسنة .أهـ

* * *

فمن أدلة الكتاب : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ (الحديد :٤) .

الشرح

أينما : ظرف مكان يعني في أي مكان كنتم وقرنت بما ﴿ أَيْنَ مَا ﴾ من أجل إفادة العموم ، في أي مكان ، إذ من الممكن أن يعبر فيقول أين كنتم لكنه قال : ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴾ (النساء :٧٨) .

هو : الضمير يعود على الله ، معكم : هذا الخبر ، فأخبر الله عن نفسه أنه مع خلقه ، وحينئذ كيف نفهم هذه الآية؟ هل نفهم هذه المعية كمعية الإنسان لأخيه ، بمعنى أنتم الآن معي وأنا معكم ونحن في مكان واحد؟

لا ، لا نفهمها هكذا لسببين :

١ . أن في الكتاب والسنة ما يمنع ذلك ، وهو ما أثبته الله لنفسه بأنه فوق عرشه ، فمن كان فوق عرشه لا يمكن أن يكون في الأرض .

٢ . أن معية الخالق للمخلوق ليست كمعية المخلوق للمخلوق ، فكما أن بقية صفات الله تعالى تكون على الوجه اللائق به ، فهذه الصفة كبقية الصفات كلها من باب واحد ، ما أضافه الله لنفسه فهو على ما يليق به سبحانه وتعالى ، حتى بالنسبة للمخلوق مع المخلوق لا تستلزم المعية المشاركة في المكان أبداً ، فهذا الضابط يوجه الجند ويقول اذهبوا إلى المكان الفلاني وأنا معكم وهو جالس في غرفة القيادة ، ويقال مثلا المؤمن مع إخوته المؤمنين وإن كانوا متباعدين في الأقطار ، حتى الصبي ـ كما مثل بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يقول : الصبي يبكي فيقول له أبوه اذهب إلى المكان الفلاني وأنا معك وهو في البيت ، فإذا تبين هذا فإن المعية هنا معية حقيقية ولا تستلزم المشاركة في المكان .

واعلم أن قول الإنسان لا تستلزم في هذا وفي غيره ليست كقوله لا تقتضي ، والفرق بينهما أن « الاستلزام » معناه أن هذا لازم ، وأن «لا تقتضي » معناه أنه لا يمكن أن يكون ذلك ، ففرق بين لا يستلزم وبين لا يقتضي ، لأنك إذا قلت لا يقتضي فهذا ممنوع .

لو قلت لك مثلا : المعية لا تقتضي المشاركة في المكان ، فإن هذا خطأ وليس بصحيح ، وليس القصد معية الله بل أي معية ، فإذا قلت المعية لا تقتضي المشاركة في المكان فهذا خطأ لأنها قد تقتضيه .

لكن إذا قلت : المعية لا تستلزم المشاركة في المكان فهذا صحيح ، لا تستلزمه ولكن قد تقتضيه ، فهذا فرق يجب أن نعرفه بين الألفاظ ، بين الاقتضاء وبين الاستلزام .أهـ

* * *

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال : ١٩)

الشرح

الفرق بين هذه والتي قبلها ، أن التي قبلها أعم وهذه أخص قال : ﴿ مَعَ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴾ هذه المعية ليست كالأولى ، الأولى المراد بها معية الإحاطة والعلم والقدرة والسلطان ، لكن هذه معية تزيد على مقتضى المعية السابقة ، فهي تقتضي مع الإحاطة النصر والتأييد .أهـ

* * *

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا ﴾ (طه :٤٦) .

الشرح

هذه أخص من التي قبلها ، المؤلف بدأ بها على الترتيب ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا ﴾ الخطاب لموسى وهارون ، فهذه أخص من كونه مع المؤمنين ، لأنها قيدت بشخص يستحق أن يكون الله معه ، وهذه المعية كالمعية التي للمؤمنين تقتضي مع الإحاطة النصر والتأييد ، ولهذا لما قال موسى عليه الصلاة والسلام عن فرعون : ﴿ نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ (طه :٤٥) ، قال الله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ (طه :٤٦) ، ولما قال أبوبكر للنبي ﷺ : لو نظر أحدهم إلى قدمه لأبصرنا قال له النبي ﷺ : «لا تحزن

إن الله معنا»(١) ، فهذه المعية أخص من المعية الأولى لأنها قيدت بأشخاص .أهـ

* * *

ومن أدلة السنة : قوله ﷺ : «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت»(٢) .

الشرح

هذا الحديث ضعيف من حيث السند ، لكن حسنه بعض أهل العلم وقال إنه حديث حسن ، «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت» لأنك إذا علمت ذلك وأيقنته سوف تكون مراقباً لله تعالى ، إذا علمت أنك إن كنت في السطح فالله سبحانه وتعالى معك ولكن ليس في السطح ، إذا كنت في الحجرة فالله معك لكن ليس في الحجرة ، هو على عرشه فوق سماواته ، فأنت ستراقب الله تعالى لأن ضد ذلك أن تغفل فلا تشعر بأن الله يراقبك ، وإذا لم تشعر أن الله يراقبك فإنك سوف تنتهك المحرمات وتتهاون بالواجبات ، لكن إذا علمت هذا العلم أوجب لك كمال

---

(١) البخاري(٣٦٥٢) كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم من حديث البراء رضي الله عنه ، ومسلم (٢٣٨١) كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» ، ونقله ابن كثير عن الإمام أحمد من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه بهذا اللفظ حين لحقهم سراقة .

(٢) أبونعيم في الحلية ٦/ ١٢٤ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وقال : غريب من حديث عروة لم نكتبه إلا من حديث محمد بن مهاجر ، وقال الهيثمي في المجمع ١/ ٦٥ ورواه الطبراني في الأوسط والكبير ، وقال : تفرد به عثمان بن كثير ، قلت : ولم أر من ذكره بثقة ولا جرح أهـ وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ١٠٠٢ والسلسلة الضعيفة ٢٥٨٩) .

المراقبة لله سبحانه وتعالى ، ولهذا سئل النبي ﷺ عن الإحسان سأله جبريل فقال : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] ، فإن عبدته كأني أراه فهل هو يراني؟

نعم ، لكن الرسول ﷺ بين درجتين للمراقبة : الدرجة الأولى أن تعبد الله كأنك تراه ، والدرجة الثانية أن تعبد الله كأنه يراك ، فالدرجة الأولى درجة طلب وشوق ، كأنك تراه فتريد الوصول إليه ، والدرجة الثانية درجة خوف وهرب ، إن لم تكن تراه فإنه يراك .أهـ

* * *

وقوله ﷺ لصاحبه أبي بكر وهما في الغار : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ معنا ﴾ (التوبة :٤)[2] .

الشرح

كلمة لا تحزن هنا هل هي على ظاهرها؟ والمعرف أن الحزن هو الندم على ما مضى والخوف هو لما يتوقع ، فالحزن فيما مضى والخوف لما يتوقع ، هنا هل المراد بالحزن ظاهره ، يعني لا تحزن لما مضى أو المراد به الخوف؟

قال بعض أهل العلم : المراد به الخوف ، يعني لا تخف علينا لأن الله معنا ،

---

(١) البخاري (٥) كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم (١) كتاب الإيمان ، باب ماجاء في منكري القدر من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) البخاري (٣٦٥٢) كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم من حديث البراء رضي الله عنه ، ومسلم (٢٣٨١) كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه بلفظ : «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» .

ويمكن أن يراد بالحزن ظاهره ، والمعنى لا تحزن على ما جرى فإنه لا خوف علينا ، لأن الإنسان قد يحزن على ما حصل ويتمنى أن لم يحصل ، هذا لا شك أنه موافق لظاهر اللفظ لكنه بعيد من حال أبي بكر رضي الله عنه أن يكون أبو بكر نادماً على ما وقع منهما ، هذا بعيد ، والأقرب أن الحزن هنا بمعنى الخوف ، يعني لا تحمل هماً للمستقبل لأن الله معنا ، ومن المعلوم أن أبا بكر لم يفهم حين قال له النبي ﷺ «إن الله معنا» لم يفهم إن الله في نفس الغار أبداً ، ولا يمكن لمن عرف عظمة الله سبحانه وتعالى أن يتوهم بأن الله تعالى مع الخلق في أمكنتهم بل هو سبحانه وتعالى فوق عرشه ، لكنه مع ذلك هو معهم لكونه سبحانه وتعالى عالماً بهم ، محيطاً بهم سمعاً وبصراً وقدرةً وتدبيراً وغير ذلك .أهـ

* * *

وقد أجمع على ذلك سلف الأمة ،

الشرح

أجمعوا على أن الله مع خلقه على حسب ما وردت به الأدلة ، وسلف الأمة : مقَدموها ، والغالب أنه يطلق على القرون الثلاثة المفضلة وهم الصحابة والتابعون ثم تابعوهم هؤلاء هم القرون المفضلة وهم السلف .أهـ

* * *

وأئمتها .

الشرح

الأئمة بعد السلف ، وقد يكونون متقدمين منهم وقد يكونون متأخرين ، هناك أئمة جاؤوا بعد زمن القرون الثلاثة ، لكن أئمة الإسلام ما اختلفوا في ثبوت المعية لله تعالى على الوجه اللائق به تبارك وتعالى .

والأئمة يمكن أن يكونوا في كل مكان وفي كل زمان ، يمكن أن يمن الله تعالى على شخص في آخر الدنيا فيكون إماماً في العلم ، والمراد بالإمام ليس كما يقوله أهل البدع أنه الإمام المعصوم ، لأنه لا أحد معصوم إلا النبي ﷺ ، بل إمام الأئمة عندهم كعلي بن أبي طالب ليس بمعصوم وقد أخطأ في عدة أمور ، لكنه لا شك أنه مأجور على خطئه رضي الله عنه لأنه من الأئمة الذين يجتهدون ، فقد يصيبون الحق وقد لا يصيبونه ، لكن مرادنا بالأئمة : الأئمة الذين وهبهم الله تعالى علماً وعبادة بحيث كانوا قدوةً للناس في علمهم وفي عبادتهم والله تعالى يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (السجدة : ٢٤) ، فالمهم أن أئمة الأمة غير سلف الأمة ، ولكنهم ينصون على سلف الأمة في باب العقائد لأن اختلاف الناس في العقائد إنما حصل بعد القرون المفضلة ، وإن كان من البدع ما نبغ في عهد الصحابة لكنها ما ظهرت وانتشرت إلا بعد القرون الثلاثة .أهـ

* * *

والمعية في اللغة : مطلق المقارنة والمصاحبة ،

الشرح

هذا معناه في اللغة ، الشيء مع الشيء يعني أنه معناه مقارن له في أمر من الأمور ومصاحب له في أمر من الأمور .أهـ

* * *

لكن مقتضاها ولازمها يختلف باختلاف الإضافة وقرائن السياق والأحوال :

الشرح

وهذا الذي قاله المؤلف هو ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وهو ما تقتضيه اللغة .أهـ

فتارة تقتضي : اختلاطاً ؛ كما يقال : جعلت الماء مع اللبن ،

الشرح

إذا جعلت الماء مع اللبن فإنه يختلط ، إذاً هذه معية اقتضت اختلاطاً .أهـ

* * *

وتارة تقتضي تهديداً وإنذاراً ؛ كما يقول المؤدب للجاني : إذهب فأنا معك .

الشرح

والغرض من هذا التهديد ، شخص مثلاً أمسك بقاطع طريق وقال له لماذا تقطع الطريق على المسلمين؟ فقال لم أقطع أبداً ، قال بل قطعت لكن اذهب فأنا معك ، فسيكون حال هذا الرجل مذعوراً لأن هذا تهديد ، مثل ما يقول له بعبارة ثانية اذهب وأنا وراءك يعني معناها إذا فعلت شيئاً فأنا سوف أنكل بك ، وهل من ذلك قوله تعالى : ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ (النساء :١٠٨)؟

يمكن أن نقول هذا تهديد من الله تعالى بأن لا يبيت أحد شيئاً لا يرضاه الله سبحانه وتعالى .أهـ

* * *

وتارة تقتضي نصراً وتأييداً ؛ كمن يقول لمن يستغيث به : أنا معك ، أنا معك

الشرح

حتى الصبيان إذا غضب بعضهم على بعض يأتي الصبي للآخر ويقول أنت معي أو مع فلان؟ والمراد بذلك النصر والتأييد ، ولهذا تجد كل واحد منهم يعمل دعاية لنفسه أيهم أكثر أتباعاً .أهـ

إلى غير ذلك من اللوازم والمقتضيات المختلفة باختلاف الإضافة والقرائن والأحوال ، ومثل هذا اللفظ الذي يتفق في أصل معناه ، ويختلف مقتضاه وحكمه باختلاف الإضافات والقرائن ، يسميه بعض الناس مشككاً ؛ لتشكيك المستمع هل هو من قبيل المشترك الذي اتحد لفظه واختلف معناه ، نظراً لاختلاف مقتضاه وحكمه؟ أو هو من قبيل المتواطئ الذي اتحد لفظه ومعناه ، نظراً لأصل المعنى؟

الشرح

هناك مشترك ومتواطئ ، إذا اتفق اللفظ ومعناه فإنه متواطئ ، وإذا تعدد المعنى واتحد اللفظ فإنه مشترك لاشتراك المعنيين في لفظ واحد ، وأما ما اتفق لفظه ومعناه فسمي متواطئاً لتواطئ اللفظ والمعنى ، لا يزيد أحدهما على الأخر ،

يقول : هل هو من قبيل المشترك الذي اتحد لفظه واختلف معناه؟

كالعين مثلاً ، فكلمة عين لفظ لكن معناه مشترك بين معاني متعددة ، العين يراد بها عين الإنسان التي يبصر بها ، ويراد بها العين النابعة من الأرض : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا ﴾ (القمر :١٢) ، ويراد بها الذهب ، ولهذا يقال عين موروودة وعين منقودة ، مثلاً تقول شخص صاحب أعيان فيقول المخاطب هل هي أعيان منقودة أو أعيان موروودة؟ يعني هل عنده ذهب أو عنده بساتين ، إذاً العين لفظ مشترك بين معاني متعددة ، هذه الألفاظ مثل المعية التي لها معاني مختلفة باختلاف الأحوال هل نقول إنها من باب المشترك ونقول مثلاً المعية تقتضي نصراً وتأييداً ، وتقتضي تهديداً ، وتقتضي إحاطة ، ثلاثة معاني للفظ واحد ، هل هي على هذا التقدير من باب المشترك؟

يقول المؤلف إن بعض العلماء يسميها مشككاً ، لا نقول إنه مشترك ولا نقول إنه متواطىء ، نسميه مشككا وعلى هذا تكون الألفاظ متواطئة مشتركة مشككة .

يقول : هل هو من قبيل المشترك الذي اتحد لفظه واختلف معناه ، نظراً لاختلاف مقتضاه وحكمه؟ أو هو من قبيل المتواطئ الذي اتحد لفظه ومعناه ، نظراً لأصل المعنى؟

فالمعية إذا نظرنا إلى أن أصل معناها المصاحبة والمقارنة ، لكن تختلف بحسب الإضافات ، فإذا نظرنا إلى الأصل قلنا إنها من قبيل المتواطيء ، لأن كل هذه المعاني تتفق في أصل واحد ، فهي إذاً من قبيل المتواطىء ، وإذا نظرنا إلى أن معانيها تختلف بحسب القرائن والإضافات قلنا إنها من باب المشترك ، لأن معنى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ (النساء :١٠٨) ليس كمعنى قوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (الأنفال :١٩) ، فرق عظيم بين المعيتين ، فيرى بعض العلماء أن هذه لما كانت مشككة فهل تكون من الألفاظ المشتركة أو من الألفاظ المتواطئة سموها مشتركة .أهـ

* * *

والتحقيق أنه نوع من المتواطئ ؛

الشرح

يعني هذا النوع من الألفاظ يقول شيخ الإسلام : التحقيق أنه نوع من المتواطىء ، وإنما قال ذلك رحمه الله لفائدة عظيمة ، لأننا إذا جعلناه من المشترك احتجنا إلى دليل في تعيين أحد المعنيين ، ثم يقع الإنسان في حرج ، لكن إذا قلنا متواطيء ، لم نخرج عن أصل المعنى ، ولهذا قال : والتحقيق أنه نوع من المتواطىء .أهـ

* * *

لأن واضع اللغة وضع هذا اللفظ بإزاء القدر المشترك ، واختلاف حكمه ومقتضاه إنما هو بحسب الإضافات والقرائن لا بأصل الوضع ،

الشرح

فكلمة «مع» أصل وضعها في اللغة وضعت بإزاء المعنى المشترك الجامع لكل ما يقتضيه ، هذا الأصل ، فواضع اللغة عندما قال «مع» يقصد المصاحبة

والمقارنة ، لكنه يعرف أنها تختلف بحسب الإضافات ، فأصل الوضع أنه من المتواطىء .أهـ

* * *

لكن لما كانت نوعاً خاصًا من المتواطئة ، فلا بأس بتخصيصها بلفظ .

الشرح

اللفظ الذي خصصت به هو المشكك ، يقول شيخ الإسلام : بدلا من أن نقول إن الألفاظ متواطئة ومشتركة فقط لا مانع من أن نقول إن هذه مشككة لأنها نوع خاص من المتواطىء .

ولا شك أن ما ذهب إليه شيخ الإسلام أنه هو الحق ، لأن الألفاظ المشتركة لا تجد معنى جامعا بين معانيها ، فالعين الباصرة والعين المنقودة والعين المورودة ، ليس بينها أصل جامع يجمع أبداً ، ما هنالك إلا اللفظ وليس هناك رابطة بين العين التي تبصر والعين التي تنبع والعين التي تنقد ، لكن « مع » مهما درت في معانيها تجد فيها أصلا جامعا وهو المقارنة والمصاحبة ، وإن كانت هذه المقارنة والمصاحبة تختلف بحسب المعنى أو بحسب القرائن والسياق .

وعلى هذا فنقول إن الصواب أن المعية هذا اللفظ بقطع النظر عن كونه معية الله من الألفاظ المتواطئة ، لكن لما كانت نوعا خاصا من المتواطىء فلا حرج أن نسميها مشككا نظراً إلى أن المتأمل في معناها يحتار هل هي من الألفاظ المشتركة أو من الألفاظ المتواطئة؟

عندما نقول الماء مع اللبن ونقول الأمير مع جنده فإن ، بينهما فرق ، الأمير مع جنده وهو معلوم أنه ما خالطهم بل هو بائن منهم وقد لا يكون في مكانهم أيضاً ، لكن

الماء مع اللبن مقتض للاختلاط ، فهل تقول الآن إن « مع » من باب المشترك لأنها دلت على معنى يباين المعنى الآخر؟ هل تقول إنها من المتواطئ؟ ـ مثل كلمة إنسان هذه متواطئة لأنها تشمل كل إنسان مع الآخر على حد سواء ـ .

إذا كان كذلك فإننا نقول هل تجعل المعية من باب المشترك؟ لا ، هل تجعلها من باب المتواطئ؟ لا تجعلها من باب المتواطئ لأن حقيقة الأمر أن معانيها ما اتفقت ، لكن شيخ الإسلام يقول : الصواب أنها من المتواطئ لأنها اشتركت في أصل المعنى وهو المقارنة والمصاحبة لكنها اختلفت بحسب الإضافات ، وهذا الاختلاف بحسب الإضافات لا يعني الاختلاف في أصل المعنى ، لكن يقول شيخ الإسلام رحمه الله : لما كانت معانيها تختلف بحسب السياقات وقرائن الأحوال فلا مانع من أن نحدث لها اسما جديدا وهو المشكك .أهـ

* * *

إذا تبين ذلك فقد اتضح أن لفظ المعية المضاف إلى الله مستعمل في حقيقته لا في مجازه ،

الشرح

ما دمنا نقول إن المعية في أصل المعنى للمقارنة والمصاحبة لكنها تختلف بحسب الإضافات ؛ فإنها إذا أضيفت إلى الله فإنها تكون حقيقة لا مجازا ، لكنها ليست كالمضافة إلى الإنسان أو كإضافة معية اللبن للماء وما أشبه ذلك .أهـ

* * *

غير أن معية الله لخلقه معية تليق به ، فليست كمعية المخلوق للمخلوق بل هي أعلى وأكمل ،

الشرح

كما نقول في سائر صفاته ، كما أننا نقول إن سائر الصفات بالنسبة لله حقيقة وإن كانت تماثل أو تشارك المخلوق في اللفظ ، فقدرة الله حق وقدرة المخلوق حق لكن تختلف القدرتان بحسب إضافتهما ، كذلك بالنسبة للمعية نقول إن معية الله حق ومعية المخلوق حق لكنهما تختلفان بحسب الإضافة ، نحن مثلا عندما نقول إن القمر معنا وهو في السماء ليس كما إذا قلنا إن الله معنا وهو في السماء ، بينهما فرق عظيم .أهـ

* * *

ولا يلحقها من اللوازم والخصائص ما يلحق معية المخلوق للمخلوق ،

الشرح

مثلا إذا قال الأب لابنه اذهب واشتري لنا حاجة من السوق ، فقال أخاف أن يعتدي عليّ الصبيان ، فقال اذهب وأنا معك ، فهذه معية تقتضي النصر والتأييد وربما تقتضي أيضاً المراقبة فقد يتبعه مثلا وهو لا يشعر به حتى لا يخطئ عليه أحد أو من النافذة ، لكن هل إن مراقبة هذا الإنسان لابنه ونصره إياه وتأييده إياه كمراقبة الله تعالى لخلقه؟ أبداً ، لأن الله تعالى لا يفوته شيء : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ** ۝ ﴾ (آل عمران :٥) ، لكن هذا الإنسان الذي قال لابنه أنا معك ربما يفوته وربما أيضاً لا ينصره ، ربما يعتدى عليه قبل أن يصل إلى نصرته ، لكن الله تعالى ليس كذلك ، فتبين بهذا أنه لا يلزم من قولنا إن المعية حقيقة ـ كما قال شيخ الإسلام رحمه الله في كتبه ـ لا يلزم من ذلك أن تكون مماثلة لمعية المخلوق للمخلوق كسائر الصفات ، كما نقول لله سمع وللإنسان سمع لكن يختلف ، وللإنسان قدرة ولله قدرة لكن تختلف .

وقد ذكر ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أمثلة كثيرة في أول التدمرية في أشياء اتفقت في الاسم لكن اختلفت في الحقيقة ، فقال إن الله سمى الإنسان سميعاً وبصيراً وسمى نفسه سميعاً بصيراً وليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير ، وأثبت للإنسان علما وأثبت لله علما وليس العلم كالعلم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ (البقرة : ٢٥٥) ، ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ (غافر :٧) ، وقال في علم الإنسان : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ الإسراء :٨٥) ، ففرق بين هذا وهذا وعلى هذا فقس .

قوله : فقد اتضح أن لفظ المعية المضاف إلى الله مستعمل في حقيقته لا في مجازه ، كما هو القول في سائر صفات الله تعالى أنها مستعملة في حقيقتها لا في مجازها ، فإن معية الله تعالى وإن كانت تتفق مع معية المخلوق في أصل المعنى وهو المصاحبة والمقارنة لكنها تختلف عنها في أنها معية تليق بالله تعالى ، كما نقول في السمع والبصر والقدرة والقوة ، فالله تعالى موصوف بهذه الصفات ، وهي تتفق مع صفات المخلوقين في أصل المعنى لكن تختلف بحسب الإضافات ، فإن سمع الله تعالى لا يشبه سمع المخلوقين ولا بصرهم ولا قوتهم ، ولهذا لما حكى الله عن عاد أنهم قالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ (فصلت :١٥) ، لم ينكر الله تعالى أن يكون لهم قوة بل أثبت أن لهم قوة إلا أنه قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ (فصلت :١٥) فمثلا إذا قلت لشخص من الناس أنا معك فإن هذا ربما أن يكون المعنى أنني معك في مكانك أو أني معك في النصر والتأييد كما يقول الصبيان بعضهم لبعض عند الخصومات يقول أحد الصبيان لطرف ثالث أنت معي أم معهم ، والمراد بالنصر والتأييد والتثبيت .

ولكن إذا قلنا إن الله مع خلقه فهل معناه أنه في مكانهم؟ لا يمكن هذا لأننا نقول إن المعية تختلف بحسب الإضافات والقرائن فلا يمكن أن تتساوى جميع أفرادها في معانيها .

وعلى هذا فإذا قلنا إن معية الله لخلقه مستعمل في حقيقته لا في مجازه فإننا نسد على أولئك الذين يحتجون علينا ببدعتهم في التأويل ، لأن الأشاعرة وغيرهم من المعتزلة يقولون أنتم تجعلون المعية مجازا في حق الله تعالى ثم تنكرون علينا أن نجعل اليد مجازا والعين مجازا والوجه مجازا ، وهذا ظلم منكم أن تبيحوا لأنفسكم ما تحرمونه علينا .

فنقول لهم نحن لا نقول بذلك ، بل نقول إن المعية حقيقة في معناها بالإضافة إلى الله تعالى ، لكنها سالمة مما لا يليق بالله ، كأن يقول قائل إن الله معنا في مكاننا ، فإن هذا لم يقل به إلا الحلولية من الجهمية وغيرهم ، ونحن لا نقول به .

فإن قال قائل : كيف تقولون إن الله معنا حقيقة ولا تقولون إنه في الأرض؟ وهل يتصور أن يكون معنا حقيقة وهو في السماء ونحن في الأرض؟ .

فالجواب : نعم يتصور وسيأتي إن شاء الله ذلك في بيان الجمع بين علو الله تعالى ومعيته ، وانظر إلى قدرة الله تعالى فإنها لا تقاس بقدرات الخلق ، فنحن نصلي جماعة وكل منا يقول : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ ، وهل نقولها بكلمة واحدة وفم واحد أم أنه ربما تكون أنت في أول الفاتحة وأنا في آخرها والثالث في وسطها؟ ومع هذا فكل واحد منا يناجيه الله تعالى ، فأنت تقول : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ ، فيقول الله تعالى : « حمدني عبدي » ويقول الثاني : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾ فيقول الله له : «مجدني عبدي » ويقول الثالث : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ - في آن واحد - والله يقول : « هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[1] .

فالله تعالى لا يمكن أن يكون مثل المخلوق ، بل هو لا يدرك لا في الذهن ولا في

(١) الترمذي (٢٩٥٣) كتاب التفسير ، باب من سورة فاتحة الكتاب ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

العقل ولا في الحس ، أي أنه لا يحاط به ، وأما الإيمان بوجوده فهذا معروف أنه أمر فطري عقلي شرعي .

قال : إذا تبين ذلك فقد اتضح أن لفظ المعية المضاف إلى الله مستعمل في حقيقته لا في مجازه ، غير أن معية الله لخلقه معية تليق به ، فليست كمعية المخلوق للمخلوق بل هي أعلى وأكمل ، ولا يلحقها من اللوازم والخصائص ما يلحق معية المخلوق للمخلوق .

وإذا قلنا بذلك رددنا الباب في وجوه هؤلاء الذين يحتجون علينا .أهـ

* * *

هذا وقد فسر بعض السلف معية الله لخلقه : بعلمه بهم ، وهذا تفسير للمعية ببعض لوازمها

الشرح

يعني أن بعض سلف الأمة ـ ولاسيما بعد أن ظهر قول الجهمية بأن المراد بالمعية المصاحبة في المكان ـ صاروا يفسرون المعية بالعلم فيقولون : ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي وهو عالم بهم ، ولا يفسرونها بالمعية الحقيقية وإنما يفسرونها بالعلم ، وهذا هو الذي أوجب لبعض المتأخرين في عصرنا هذا ـ وأظنه قد سبقه من سبقه أيضاً ـ بأن يقول كيف تحتجون علينا بتأويلنا وأنتم تأولون؟ .أهـ

* * *

وغرضهم به : الردّ على حلولية الجهمية ، الذين قالوا : إن الله بذاته في كل مكان ، واستدلوا بنصوص المعية ، فبيَّن هؤلاء السلف أنه لا يراد من المعية كون الله معنا بذاته ؛ فإن هذا محال عقلاً وشرعاً ؛ لأنه ينافي ما وجب من علوه ، ويقتضي أن تُحيط به مخلوقاته ، وهو محال .

الشرح

ولا شك أن هذا معنى باطل وأن الذي يعتقده في ربه كافر ، لأنه إذا اعتقد أن الله في كل مكان لزم من ذلك إما تعدد ذات الله وإما تجزؤها ، فإذا زعمت أن الله بذاته في كل مكان لزم من ذلك إما أن الله متعدد وإما أن الله متجزء ، جزء منه هنا وجزء منه هناك وهذا محال ، هذا مع مخالفة هذا القول لما توافرت عليه الأدلة النقلية والعقلية والفطرية من أن الله تعالى فوق عرشه عال على جميع خلقه .أهـ

* * *

أقسام معية الله لخلقه :

تنقسم معية الله لخلقه إلى قسمين : عامة وخاصة :

فالعامة : هي التي تقتضي الإحاطة بجميع الخلق من مؤمن وكافر وبَر وفاجر ، في العلم والقدرة والتدبير والسلطان ، وغير ذلك من معاني الربوبية .

الشرح

هذه عامة شاملة لجميع الخلق ، كالربوبية تكون عامة شاملة لجميع الخلق ، وهذه المعية العامة إنما تذكر على سبيل العموم ، فيقال إن الله مع خلقه وهو معهم وما أشبه ذلك ، ولا يمكن أن تذكر على سبيل الخصوص فيقال إن الله مع الكافر ، لكن نقول إن الله مع الخلق فيشمل المؤمن والكافر ، وأما أن نقول إن الله مع الكافرين ، فإذا قلنا اتق الله فإن الله لا يكون مع الكافرين ، قال إنما أردت بذلك المعنى العام ! فنقول له هذا لا يصح ، في المعنى العام اجعل اللفظ عاما واجعل الإضافة عامة فقل إن الله مع الخلق ومع الناس وما أشبه هذا ، حتى لا تجعل المعية مضافة إلى الكافرين على وجه يوهم أنه معهم بالنصر والتأييد .أهـ

وهذه المعية توجب لمن آمن بها كمال المراقبة لله تعالى ، ولذلك قال النبي ﷺ: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت»(١) .

الشرح

هذه المعية إذا آمن الإنسان بها فإنها توجب له كمال المراقبة ، مثال ذلك : لو أن رجلا في بيته وليس عنده أحد من الخلق همّ بمعصية ، فإذا علم أن الله معه أي أنه مطلع عليه لا يفوته شيء من أمره فإنه لا يفعل ولا يمكن أن يفعل لأنه يخاف الله ويستحي من الله ـ عز وجل ـ ، الله تعالى أحق أن يستحيى منه ، ولهذا قال بعض الناس ـ يقرب المسألة ـ ما ظنك لو كان أقرب الناس إليك عندك وأنت تريد المعصية هل تفعلها؟

الجواب أنك لا تفعلها ، فإذا كان هذا حياؤك من الخلق فليكن حياؤك من الخالق أعظم وأعظم ، ولهذا امتدح الله تعالى الذين يخشون ربهم بالغيب ، لأن الذين يخشون ربهم بالغيب هم الذين خشوا الله تعالى خشية حقيقية لا يشوبها أي شبهة .أهـ

* * *

ومن أمثلة هذا القسم قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ (الحديد : ٤) ، ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ (المجادلة :٧) .

---

(١) سبق تخريجه .

ورواه الطبراني في الأوسط والكبير ، وقال : تفرد به عثمان بن كثير ، قلت : ولم أر من ذكره بثقة ولا جرح .أهـ .

وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ١٠٠٢ والسلسلة الضعيفة ٢٥٨٩ .

الشرح

الآية الأولى في سورة الحديد وأولها : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ ﴾ (الحديد :٤) ، هو الذي خلق ، هو نفسه ، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله : كل ضمير يعود إلى الله فالمراد به هو نفسه ، ولا حاجة إلى أن نقول بذاته ، لكن احتاج السلف إلى أن يقولوا بذاته في بعض المسائل من أجل الرد على أهل التعطيل ، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ استوى : الضمير يعود على الله ، استوى الله ، وبعض العلماء قال استوى على العرش بذاته ، وكلمة بذاته من باب التأكيد فقط وقصدهم بذلك الرد على من فسر الاستواء بالاستيلاء ، وإلا فمن المعلوم أن الله إذا أضاف الفعل إلى نفسه فالمراد هو نفسه .

﴿ يَعْلَمُ ﴾ أي الله ﴿ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ أي الله ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ ولكن هذه النقطة الأخيرة يجب أن تعلم بأن الناس اختلفوا فيها ، فمنهم من فسرها بأنه معنا بذاته في أمكنتنا ، وهؤلاء الحلولية من الجهمية ، وإلا فبعض الجهمية ينكر وجود الله بالكلية في الحقيقة لأنه يقول إن الله ليس داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته ولا متصل ولا منفصل ، فيصفون الله تعالى بما يقتضي أن يكون معدوما بل ممتنعا .

ومن العلماء من فسرها بالعلم فقال : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ أي علمه معكم ، وهذا ورد عن كثير من السلف لأجل الرد على ما شاع عند الناس في ذلك الوقت من أقوال هؤلاء الجهمية الذين فسروا كلام الله تعالى بما لا يراد به بل بما هو ممتنع .

ومنهم من قال إنها على حقيقتها لكنها معية تليق بالله تعالى ويمتنع غاية الامتناع أن يكون المراد بها أنه معنا في الأرض فهذا شيء مستحيل ، وقال إنه يمكن أن يكون

الشيء معك حقيقة وهو فوقك ، وضربوا لذلك مثلا بما تقوله العرب : مازلنا نسير والقمر معنا ، مازلنا نسير والجدي معنا ، والجدي هو أحد النجوم المشهورة المعروفة ، فإنهم يقولون ذلك ويرون أن هذه المعية حقيقة وإن كان هذا الشيء ليس في الأرض ، فإذا كان هذا ممكنا في المخلوق فما بالك بالخالق .

وهذا لا شك أنه هو المعنى الموافق لظاهر الآية ، مادمنا أثبتنا معية حقيقية تليق بالله تعالى ولا يلحقها شيء من اللوازم الباطلة .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ختام الآية بما يقتضي العلم أيضاً .أهـ

والآية الثانية : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ (المجادلة :٧) من نجوى ثلاثة ، هل « نجوى » مضافة إلى ثلاثة أو أن ـ ثلاثة ـ بدل من نجوى؟

فيها رأيان للنحويين : منهم من قال ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ ﴾ أي من مناجاة ثلاثة ، ومنهم من يقول : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ﴾ يعني من جماعة النجوى ﴿ ثَلَاثَةٍ ﴾ فتكون بدلا من نجوى ، وعلى كل حال فالمعنى لا يختلف .

والنجوى هي مخاطبة الغير بكلام خفي ، قال الله تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ (مريم :٥٢) ، فهؤلاء الثلاثة الذين يتناجون يكون الله تعالى رابعهم ، وليس معنى رابعهم أنه في مكانهم رابعا لهم بل هو سبحانه وتعالى في مكانه فوق سماواته على عرشه لكنه لكمال إحاطته كأنه معهم لا يخفى عليه شيء من أمرهم .

﴿ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ (المجادلة :٧) . ﴿ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ ﴾ أدنى من الثلاثة وأدنى من الخمسة ، : ﴿ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ أكثر من الخمسة ، لأن الذي ذكره الله تعالى منتهاه خمسة ﴿ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ يعني ولا أكثر من الخمسة ﴿ إلا هو معهم أين ما كانوا ﴾ في أي مكان وفي

أي عدد فإن الله تعالى محيط بهم غاية الإحاطة ، وكما هو موجود في فطركم أيضاً أنه لا يمكن أن نتصور بأن الله تعالى في الأرض لأن هذا مما لا يليق بالله سبحانه وتعالى ، وإنما المعنى أنه مع خلقه وهو عال عليهم لكمال صفاته سبحانه وتعالى وإحاطته .أهـ

* * *

وأما الخاصة فهي : التي تقتضي النصر والتأييد لمن أضيفت له ، وهي مختصة بمن يستحق ذلك من الرسل وأتباعهم .

الشرح

هذه الخاصة تقتضي النصر ، ولكن ليست هي النصر لكن تقتضي النصر والتأييد والحفظ والكلاءة لمن أضيفت له ، وهي ـ أي الخاصة ـ قد تضاف إلى معينين بأشخاصهم وقد تضاف إلى معينين بأوصافهم .أهـ

* * *

وهذه المعية توجب لمن آمن بها كمال الثبات والقوة ، ومن أمثلتها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ المؤمِنينَ ﴾ (الأنفال :١٩) .

الشرح

هذه معية لمعينين بصفاتهم .أهـ

* * *

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل :٢٨) .

الشرح

كذلك هذه معية لمعينين بصفاتهم .أهـ

* * *

﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ (طه :٤٦)

الشرح

هذه معية بأشخاصهم ، وهذه قالها الله تعالى لموسى حين قال : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ (طه :٤٥)

يعني فرعون فقال : ﴿ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ (طه :٤٦) .

ما يقول وما تقولون له ﴿ وَأَرَىٰ ﴾ ما يفعل بكما فلا تخافا .أهـ

* * *

هذه معينة بالشخص ، وهذه قالها النبي ﷺ لأبي بكر وكانا في الغار ، في غار ثور قد اختفيا عن طلب قريش وبقيا في الغار ثلاثة أيام ، فلما وقفوا على الغار قال أبو بكر للنبي ﷺ : يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصرنا ، يعني فأنا أخاف قال : « لا تحزن إن الله معنا »[1] لما قال هذا فإن أبا بكر سوف يطمئن ويثبت ويعرف أنهم لن يدركوا رسول الله ﷺ ولا صاحبه وهذا هو الواقع .

* * *

---

(١) البخاري (٣٦٥٢) كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم من حديث البراء رضي الله عنه ، ومسلم (٢٣٨١) كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ : «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» ، ونقله ابن كثير عن الإمام أحمد من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه بهذا اللفظ حين لحقهم سراقة .

وقوله عن نبيه ﷺ : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة : ٤٠) .

الشرح

وأما ما اشتهر عند بعض الناس من أن العنكبوت وضعت نسيجاً من العش على الغار فهذا لا صحة له ، وكذلك ما ذكروا من أن حمامة وقعت أيضاً على باب الغار حتى إذا رأوا الحمامة قالوا لو كان هناك أحد ما وقعت الحمامة عليه فهذا أيضاً لا أصل له . ولهذا يتساءل الناس كثيراً عن قتل العنكبوت هل يجوز أم لا يجوز؟ إذا قلت لهم يجوز قالوا كيف يجوز !ألا تخاف الله؟ هذه حمت الرسول ﷺ ووضعت عليه العش وجزاؤها أن نقتلها ، وهل هذا إلا كما قال الشاعر :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر

وحسن فعل كما يجزى سنمار

ولكن نقول هذا ليس بصحيح ، ولهذا قتل العناكب لا بأس به بل ورد في حديث أن الرسول أمر بقتلها لكنه ضعيف ، لا بأس به إذا آذت ، لأنها في بعض الأحيان تؤذي لاسيما في المكاتب تعشش على الكتب .

فإن قيل : هل المعية من صفات الله الذاتية أو من صفاته الفعلية؟

فالجواب : أن المعية العامة من الصفات الذاتية ؛ لأن مقتضياتها ثابتة لله تعالى أزلاً وأبداً ، وأما المعية الخاصة فهي من الصفات الفعلية ؛ لأن مقتضياتها تابعة لأسبابها ، توجد بوجودها ، وتنتفي بانتفائها .

المناقشة

سؤال : إذا كان هنا فائدة في إطلاقنا له حقيقة ، قلنا باعتبار ما تضاف إليه ، فمادام أنها باعتبار ما تضاف إليه فإنه لا يطلق عليها هذا المعنى ، لأنه ما وجه إطلاق معنى حقيقة عليها مع أننا لا نعتبرها إلا باعتبار ما يضاف إليها؟

الجواب : لكنها حقيقة فيما أضيفت له ، فإذا قلت الماء مع اللبن فهو حقيقة معه وإذا قلت هذا الإنسان مع هذا الإنسان بالنصر والتأييد فهو حقيقة معه .أهـ

سؤال : لكن باعتبار ما تضاف إليه فإن الفرق واضح .

الجواب : الفرق واضح لأنها أضيفت إلى هذا وأضيفت إلى هذا ، فالتفريق هنا بحسب الإضافات ، يعني بحسب ما أضيفت إليه ، كما أن الفرق بين قدرة الخالق وقدرة المخلوق ظاهر جدا بحسب ما أضيفت إليه ، وإلا فالقدرة من حيث هي قدرة هي فعل الشيء بدون عجز ، لكنها تختلف بحسب الإضافة .أهـ

سؤال : هل نقول هي معية حقيقة فقط أو نفصل فيها؟

الجواب : نعم نقول هي معية حقيقية وأنها مستعملة في معناها الحقيقي لا في المعنى المجازي باعتبار ما تضاف إليه ، كما أنها إذا أضيفت إلى بعض المخلوقات تكون حقيقة فيما أضيفت إليه في هذه الناحية وحقيقة فيما أضيفت إليه في الناحية الأخرى .أهـ

سؤال : هذا المستند الأخير وهو وصف الله بالمعية يعني باعتبار ما تضاف إليه؟

الجواب : معلوم ضروري وقد قلنا إنها حقيقة لكنها تليق به ، وإنما صار شيخ الإسلام رحمه الله إلى هذا وصرح بأنها حقيقة حتى لا ينفتح علينا باب يحتج به الأشاعرة ، لأن الأشاعرة قالوا إنكم تنكرون علينا المجاز ، وتقولون إن كل ما أضاف الله إلى نفسه فهو حقيقة فلماذا تقولون في المعية إنها مجاز؟

فأهل السنة والجماعة أجابوهم عن ذلك بأحد وجهين : منهم من قال إنها مجاز لكن دل الدليل عليه ، ونحن لم ننكر عليكم التأويل مطلقا ، إنما أنكرنا عليكم التأويل الذي لا دليل عليه .

ومنهم من قال : لا نسلم أنها مجاز ، بل نقول هي حقيقة ولكنها تليق بالله تعالى ، ولا يمتنع أن يكون الشيء مع الشيء وهو بعيد عنه ، وضرب شيخ الإسلام لهذا مثلا قال إنهم يقولون مازلنا نسير والنجم معنا مازلنا نسير والقمر معنا ومع ذلك فهو بعيد عنا في السماء ويطلق عليه أنه معنا حقيقة في اللغة العربية ، ومسار شيخ الإسلام رحمه الله على هذا المسار لا شك أنه يوصد الباب أمام الذين يحتجون علينا في مسألة التأويل ، لكن إذا اضطررنا إلى أن نسلم بأنه تأويل فإننا نقول : لنا دليل ، وإذا دل الدليل على التأويل فعلى العين والرأس ، كما أننا نتفق معكم في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (النحل :٩٨) ، لو أخذنا بظاهر اللفظ لكان المعنى بعد القراءة لكن المعنى بلا شك قبل القراءة كما تفسره السنة ، وحينئذ إذا دل دليل على التأويل فإنه يكون هو المعنى المراد ، لأن الذي فسر هذا اللفظ بهذا المعنى الذي هو التأويل هو صاحبه الذي تكلم به ، ولهذا لما أراد الله سبحانه وتعالى التأويل في قوله : « عبدي جعت فلم تطعمني واستطعمتك فلم تطعمني ومرضت فلم تعدني »[1] لما أراد الله خلاف ظاهره بيّن ذلك قال : « أما علمت أن عبدي فلان استطعمك فلم تطعمه ومرض فلم تعده » فالحاصل أن التأويل إذا دل عليه الدليل فهذا واجب أن نقول به ، ويكون هذا تفسيرا للكلام ممن تكلم به ، فأنا لو قلت مثلا أكرم زيدا وهناك أربعة زيود وقلت أريد هذا فإنه لا يمكن أن يحتمل أنه يراد زيد الثاني و الثالث والرابع ، فإذا فسر المتكلم كلامه بمراده فهذا في الحقيقة لا ينكر

(١) مسلم (٢٥٦٩) كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل عيادة المريض ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وليس بتأويل ، فنحن نجيب كل من احتج علينا بمثل هذه النصوص نجيبه بأحد أمرين : إما بمنع أن يكون ذلك تأويلا وأن يحمل اللفظ على الحقيقة التي تليق بالله تعالى ، وإما إذا دل الدليل على التأويل قلنا لا مانع منه .

ولهذا فالتأويل لا يقبل مطلقا ولا يرد مطلقا ، فمنه مقبول ومنه مردود ، وتفسير اللفظ بخلاف ظاهره بمقتضى دلالة الشرع على ذلك لا يعد جناية على النصوص ، بل هو موافق للنصوص ولا بد منه ، والله أعلم .أهـ

سؤال : ما الفرق بين اللازم وما يقتضيه الشيء ، وهل يصح أن نعبر بهذا عن هذا؟

الجواب : اللازم وما يقتضيه : اللازم معناه هو الذي لا بد أن يكون ، والذي يقتضيه معناه أنه قد يكون شيئا آخر فقد يقتضيه وقد لا يقتضيه ، فمثلا إذا قلنا هذا يقتضي كذا وحتما صار لازما ، وإذا كان يقتضي ذلك ولم نرد بذلك اللازم فإن ما لم يكن لازما فإنه يجوز أن يراد به ولكن لا يتعين .أهـ

سؤال : الحلولية من الجهمية الذين يقولون إن الله معنا بذاته بماذا نرد عليهم؟

الجواب : نرد عليهم بالنصوص الكثيرة الدالة على أن الله فوق عرشه ، ونرد عليهم أيضاً بدلالة العقل فنقول : ما قال إنسان يا الله إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو لا يمكن أن يذهب يمينا ولا يسارا ، ونرد عليهم أيضاً بإجماع السلف فإن السلف مجمعون على أن الله تعالى مستو على عرشه فوق جميع خلقه .

والحقيقة أن هذا القول لا يمكن أن يستقيم عليه عاقل أبداً ، كيف نقول إن الله معنا بذاته في أمكنتنا؟ فهذا معناه أن هذه الأمكنة تحيط بالله أو أن هذه الأمكنة في جوف الله ـ نسأل الله العافية ـ وإلا فما معنى هذا؟ فكلامهم غير معقول ، لكنهم كما قال الله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ**

مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ (آل عمران :٧) ، والله تعالى حكيم جعل في نصوص الكتاب والسنة أشياء فيها نوع من الاشتباه امتحانا وابتلاء للخلق ، حتى يُعلم من يريد الحق ممن يريد الشبهة والتشكيك ، وهذا من الابتلاء ، لأنه لو لم يكن هناك آيات متشابهات وكان الأمر كله واضحا ما عرف الصادق في طلبه والمؤمن من غير الصادق والمؤمن .أهـ

سؤال : ما هو تفسير ابن عباس وغيره من الصحابة في هذه الآية ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ هل ورد فيها قول لهم؟

الجواب : ورد في تفسير ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال هو معهم بعلمه إما بهذا اللفظ أو قريب منه ، مع أن الشوكاني رحمه الله يقول إنه لم يرد عن الصحابة تفسير المعية بالعلم أبداً ونفى ذلك ، لكن الظاهر أن نفيه ليس بصحيح لأنه ما اطلع على هذا ، إنما بقية الصحابة غير ابن عباس وابن مسعود ما رأيت أحدا منهم قال بهذا ، لأن المعنى عندهم واضح ، يقرأون القرآن على ظاهره وينزهون الله عما لا يليق به .

ثم إن تفسيرهم المعية بالعلم ليس معناه أنه مقصور على العلم ، ولهذا حتى علماء المسلمين من الخلف يقولون بعلمه وسمعه وبصره وإحاطته وليس العلم فقط .أهـ

الباب الثاني عشر

في الجمع بين نصوص علو الله بذاته ومعيته

الشرح

وهذا الباب ونحوه من الأبواب المهمة لطالب العلم سواء كان ذلك في العلوم العملية الحُكمية أو في العلوم العلمية الاعتقادية ، لأن بعض النصوص فيه اشتباه حيث يظن التعارض بين نصوص الكتاب والسنة وليس الأمر كذلك ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ ﴾ (آل عمران :٧) ، فيضربون كتاب الله بعضه ببعض ويقولون هذا يناقض هذا وهذا يكذب هذا وما أشبه ذلك ، أو يلجأون إلى القول بأحد النصين وإلغاء الأخر ، ولكن أهل الإيمان والعلم يسلكون مسلكاً آخر وهو أنه لا تعارض في كلام الله تعالى ولا تعارض بين كلام الله وبين سنة رسول الله ﷺ التي صحت عنه ،لأن الكل من عند الله والله تعالى يقول الحق لا يقول الباطل أبداً ، والتناقض إبطال أحد النصين بالآخر فيقتضي أن يكون أحدهما باطلاً ، والله سبحانه وتعالى كل قوله حق وصدق لا يتناقض .أهـ

* * *

قبل أن نذكر الجمع بينهما نُحبّ أن نقدّم قاعدة نافعة أشار إليها المؤلف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في كتابه «العقل والنقل» (١ :٤٣ ، ٤٤) وخلاصتها :

الشرح

اعلم أن العلماء رحمهم الله يعبرون دائماً بضمير الجمع وإن كان المتكلم واحداً ، ولا يعنون بذلك أنهم يعظمون أنفسهم ولكنهم يعنون بذلك أننا نحن مجموعة هذه الطائفة مثلاً أو ما أشبه ذلك نقول كذا وكذا ، وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال في

الحمارية : ذاك على ما قضينا وهذا على ما نقضي ، ولم يزل العلماء رحمهم الله من الأئمة وأتباعهم يعبرون بمثل هذا التعبير ، يقولون نحن نقول كذا ونبدأ بكذا وننهي قولنا بكذا وما أشبه ذلك ، ولا يعد هذا من باب التعاظم أو من باب التعالي والتكبر فلكل مقام مقال .

العقل والنقل هو اختصار لاسم الكتاب وإلا فاسمه : «درء تعارض العقل والنقل» أو اسم آخر له «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» وهذا الكتاب أثنى عليه ابن القيم ـ رحمه الله ـ ثناءً عظيماً حتى قال :

وله كتاب العقل والنقل الذي

ما في الوجود له نظير ثاني

ومراده ما في الوجود له نظير ثاني في محاجة أولئك المتكلمين والفلاسفة ونحوهم ، وإلا فلا شك فإن في الوجود ما هو أفضل منه بكثير ، لكنه يعني في هذا الباب .أهـ

* * *

أنه إذا قيل بالتعارض بين دليلين ، فإما أن يكونا قطعيين ، أو ظنيين ، أو أحدهما قطعيًا ، والآخر ظنيًا .

الشرح

القطعي : هو الذي يقطع العقل بثبوته ولا يكون في العقل احتمال من ألف احتمال أن يكون ذلك ليس بصحيح أو أن يكون ذلك مرتفعاً ، كقطع الإنسان مثلاً بمشاهدة الشمس وهي مشرقة ، فهذا قطع .

وأما **الظني** : فهو الذي يترجح عند الإنسان وليس بالأمر المقطوع به ، إذ من

المحتمل أن يكون الأمر خلافه ، كما لو تدلت الشمس للغروب وكان فيه قطع من السحاب فغلب على الظن أنها غربت ، وقد تكون لم تغرب لكن الذي يغلب على ظنك أنها قد غربت أقول هذا ظن ، فالأدلة إما أن يكونا قطعيين أو ظنيين أو أحدهما قطعياً والثاني ظنياً .أهـ

* * *

فهذه ثلاثة أقسام :

الأول ـ القطعيّان : وهما ما يقطع العقل بثبوت مدلولهما ،

الشرح

ما يقطع العقل قطعاً لا احتمال فيه بثبوت مدلولهما .أهـ

* * *

فالتعارض بينهما محال ؛

الشرح

إذاً لا تعارض بين دليلين قطعيين ، هذا مستحيل ووجه الاستحالة .أهـ

* * *

لأن القول بجواز تعارضهما يستلزم

الشرح

يستلزم واحداً من أمرين وكلاهما محال .أهـ

* * *

إما وجوب ارتفاع أحدهما وهو محال ؛

الشرح

لأنا نقول إنهما قطعيان ، فإذا كان تعارضهما يستلزم ارتفاع أحدهما معناه أنه يستلزم ارتفاع أمر قطعي وهذا شيء مستحيل .أهـ

* * *

لأن القطعي واجب الثبوت ، وإما ثبوت كل منهما مع التعارض وهو محال أيضاً ؛ لأنه جمع بين النقيضين .

الشرح

مثل أن يكون أحدهما دالاً على أن هذا أبيض والثاني دال على أنه أسود ، لا يجتمعان على ذلك لأنه جمع بين النقيضين ، وعلى هذا فالتعارض بين دليلين قطعيين أمر مستحيل .أهـ

* * *

فإن ظن التعارض بينهما :

الشرح

يعني قد يرد على الذهن أنهما متعارضان وهما قطعيان فماذا نصنع؟ .أهـ

* * *

فإما أن لا يكونا قطعيين ،

الشرح

وإذا لم يكونا قطعيين فالتعارض بينهما قائم ، فيكون أنا ظننت أنهما قطعيان وهما في الحقيقة غير قطعيين ، هذا أمر ممكن أن يكون .أهـ

وإما أن لا يكون بينهما تعارض ،

الشرح

ولكن أنا ظننت التعارض والواقع أنه لا تعارض .أهـ

* * *

بحيث يُحمل أحدهما على وجه ، والثاني على وجه آخر ،

الشرح

وإذا صح أن يحمل أحدهما على وجه والثاني على آخر فإنه لا تعارض بينهما .أهـ

* * *

ولا يرد على ذلك ما يثبت نسخه من نصوص الكتاب والسنة القطعية ؛ لأن الدليل المنسوخ غير قائم ، فلا معارض للناسخ .

الشرح

هناك نصوص قطعية موجودة ومتعارضة ولكن أحدها منسوخ مثل قوله تعالى﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) ﴾ (الأنفال :٦٥) ، هذا نص قطعي محدد بعدد ، وجاء في الآية التي بعدها : ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ ﴾ (الأنفال :٦٦) ، وهذا قطعي في دلالته ومناقض للأول فيكون الثاني ناسخا لأن الله قال : ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ (الأنفال :٦٦) ، فتبين الآن أن الثاني ناسخ للأول ، وحينئذ يكون

الثاني قائما وليس له معارض ، لأن النص المنسوخ قد نسخ حكمه وألغي ، وحينئذ لا يكون للناسخ معارض فلا يقع التعارض .

فالقاعدة إذاً سليمة : كل قطعيين فإنه لا يمكن التعارض بينهما لأن القول بجواز التعارض يستلزم إما ارتفاع أحدهما وإما اجتماعهما وكلاهما محال .

أما ارتفاع أحدهما فمحال لأنه قطعي ، وأما اجتماعهما فمحال لأنه جمع بين النقيضين ، ولا يرد على هذا النسخ لما علمت ، لكن لو فرض أن الإنسان أبى إلا أن يكون بينهما تعارض وهما قطعيان ولم يتوصل إلى جمع فإننا نقول هذا إصرار خاطئ ، والواجب عليك إذا لم تعلم الجمع وأنك مازلت مصرا على التعارض أن تقول آمنت بالله ورسوله وأن لا تعتقد هذا التعارض .أهـ

* * *

الثاني ـ أن يكونا ظنيين : إما من حيث الدلالة ، وإما من حيث الثبوت ،

الشرح

كيف يكون الفرق بين الدلالة والثبوت؟ لأن النص قد يكون ثابتا ولكن دلالته غير قطعية ، وقد تكون دلالته قطعية لكنه غير ثابت ، كأن يكون مثلا جاء من طرق ضعيفة فهذا غير ثابت بنفسه ، فإذا وجد تعارض بين دليلين ظنيين نقول .أهـ

* * *

فيطلب الترجيح بينهما ثم يقدم الراجح .

الثالث ـ أن يكون أحدهما قطعيًا ، والآخر ظنيًا ، فيقدم القطعي باتفاق العقلاء ؛ لأن اليقين لا يُدفع بالظنّ .

الشرح

هذا كلام شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ وهو كلام واضح .أهـ

إذا تبين هـذا ، فنقول : لا ريـب أن النصوص قد جاءت بإثبات عـلو الله بـذاته فوق خلقه

الشرح

مثل : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيْمُ ﴾ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ ﴾ ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه ﴾ (فاطر :١٠) ، ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ (المعارج :٤) ، وأمثال هـذا كثير لا يحصى ، ولكن نحن قلنا علوه بذاته ، من أين جاءتنا ذاته؟ لأن الله إذا أضاف الشيء إلى نفسه فالمراد إليه ذاته : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ هو ذاته وليس هناك حاجة إلى أن يقول هو الذي خلق بذاته السماوات والأرض ، ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ من الذي أنزل؟ الله ذاته ، وليس هناك حاجة إلى أن يقول أنزل بذاته ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيْمُ ﴾ الله ذاته وليس هناك حاجة إلى أن يقول وهو العلي بذاته لأن هذا شيء يعرفه كل أحد يعرف اللغة العربية ، يعرف أن المضاف إلى الشيء يراد به ذات الشيء ، فإذا لم يرد به ذات الشيء فلا بد أن تدل القرينة .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ الله ذاته خلق ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ ﴾ الله ذاته استوى على العرش ، ولهذا لما أنكر بعض الناس على بعض العلماء قولهم استوى على العرش بذاته وقال هذا لا يجوز أن تقول استوى على العرش بذاته لأن هذا زيادة في النص ، فقال له : أنا لم أزد وغاية ماهنالك أنني بينت وأوضحت لأدفع قول من يقول استوى على العرش أي استولى عليه ، فلا يكون استوى عليه بذاته ولكن استوى عليه بقدرته ، فأنا أريد أن أرد هذا القول الباطل ، ولهذا قال : وأنه معهم .

وأيضاً نحتاج في مسألة العلو أن نقول بذاته لأن من الناس من يقول إنه عال بصفاته لا بذاته ، ونحن نقول إنه عال بذاته وبصفاته .أهـ

وأنه معهم ،

الشرح

جاءت النصوص أنه معهم في آيات كثيرة لاسيما المعية الخاصة فإنها جاءت كثيرة في القرآن .أهـ

* * *

وكل منهما قطعيّ الثبوت والدلالة .

الشرح

قطعي الثبوت لأنه في القرآن والقرآن متواتر ، ولا أشد من تواتر القرآن .

والدلالة : لأنها صريحة في نصوص العلو ، وكذلك نصوص المعية صريحة في المعية لا تحتمل أي احتمال .أهـ

* * *

وقد جمع الله بينهما في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾

الشرح

هذه الأيام الستة هل هي أيامنا هذه أم هي لحظات أم هي سنين عديدة لا تُعلم؟

على أقوال ثلاثة ، والصحيح أنها أيامنا هذه فهي بمقدارها ، وأولها الأحد وآخرها الجمعة ، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ﴾ واستوى بمعنى علا واستقر علوا واستقرارا يليق بجلاله سبحانه وتعالى ، وقد مر علينا في أول البحث أن كلمة استوى ترد في اللغة على أربعة أوجه : مطلقة ، ومقيدة بإلى ، وبعلى وبالواو .أهـ

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾

الشرح

﴿ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ ﴾ أي ما يدخل من الحيوانات في جحورها والدواب والنبات ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من ذلك ، فالداخل منها يخرج ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من المطر والرحمة والملائكة والعذاب وغير ذلك ﴿ وَمَا يَعْرُجُ ﴾ من الأعمال والملائكة ، وهنا قال : ﴿ يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ ولم يقل إليها لأن المراد يعرج ويدخل إليها ، فالعروج هنا ضُمِّن معنى الدخول .أهـ

* * *

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾

الشرح

يعني أن علوه تعالى فوق العرش لا يمنع أن يكون معنا فهو معنا أينما كنا ، و«أين» هذه ظرف مكان يعني في أي مكان كنتم فالله معكم ، ولكن كيف نفهم هذه المعية؟

فهمها أهل الحلول ـ والعياذ بالله ـ على أنه معنا مختلطا بنا ، وقالوا إذا كنا في المسجد فهو في المسجد وإذا كنا في السوق فهو في السوق وإذا كنا في البيت فهو في البيت وإذا كنا في الأماكن الطاهرة فهو في أماكن طاهرة وإذا كنا في أماكن قذرة فهو في أماكن قذرة ، فجعلوا الله تعالى متفرقا ـ والعياذ بالله ـ ولا ريب أن هذا القول باطل تنكره العقول لأول وهلة ، وهو يستلزم إما أن يكون الله متعددا أو متجزءا وكلاهما باطل ، ولا يمكن لعاقل لم تجتله الشياطين أن يقبل ذلك .

والغريب أن هؤلاء الذين يقولون بذلك لو أن أحدهم سأل ربه لقال يا رب ورفع يديه إلى العلو .أهـ

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد : ٤) ، ففي هذه الآية أثبت الله تعالى استواءه على العرش الذي هو أعلى المخلوقات ، وأثبت أنه معنا ، وليس بينهما تعارض ؛ فإن الجمع بينهما ممكن . وبيان إمكانه من وجوه :

الأول ـ أن النصوص جمعت بينهما فيمتنع أن يكون اجتماعهما محالاً ؛ لأن النصوص لا تدل على محال ، ومن ظن دلالتها عليه فقد أخطأ فليعد النظر مرة بعد أخرى ، مستعيناً بالله ، سائلاً منه الهداية والتوفيق ، باذلاً جهده في الوصول إلى معرفة الحق ، فإن تبين له الحق فليحمد الله على ذلك ، وإلا فليكل الأمر إلى عالمه وليقل : ﴿ آمَنَا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران : ٧) ، ﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ ﴾ (البقرة :٣٢) .

الثاني ـ أنه لا منافاة بين معنى العلو والمعية ؛ فإن المعية لا تستلزم الاختلاط والحلول في المكان ـ كما تقدم ـ ، فقد يكون الشيء عالياً بذاته ، وتضاف إليه المعية كما يقال : ما زلنا نسير والقمر معنا ، مع أن القمر في السماء ، ولا يعد ذلك تناقضاً لا في اللفظ ولا في المعنى ، فإن المخاطب يعرف معنى المعية هنا ، وأنه لا يمكن أن يكون مقتضاها أن القمر في الأرض . فإذا جاز اجتماع العلو والمعية في حق المخلوق ففي حق الخالق أولى .

الثالث ـ أنه لو فرض أن بين معنى العلو والمعية تناقضاً وتعارضاً في حق المخلوق ، فإن ذلك لا يلزم في حق الخالق ؛ لأن الله ـ تعالى ـ ليس كمثله شيء في جميع صفاته ، فلا تقاس معيته بمعية خلقه ، ولا تقتضي معيته لهم أن يكون مختلطاً بهم أو حالاً في أمكنتهم لوجوب علوه بذاته ؛ ولأنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته بل هو بكل شيء محيط ، وبنحو هذه الوجوه يمكن الجمع بين ما ثبت من علو الله بذاته وكونه قِبَل وجه المصلي ، فيقال : الجمع بينهما من وجوه :

الأول ـ أن النصوص جمعت بينهما ، والنصوص لا تأتي بالمحال .

الثاني ـ أنه لا منافاة بين معنى العلو والمقابلة ، فقد يكون الشيء عالياً وهو مقابل ، لأن المقابلة لا تستلزم المحاذاة ، ألا ترى أن الرجل ينظر إلى الشمس حال بزوغها فيقول : إنها قِبَل وجهي ، مع أنها في السماء ، ولا يعد ذلك تناقضاً في اللفظ ولا في المعنى ، فإذا جاز هذا في حق المخلوق ففي حق الخالق أولى .

الثالث ـ أنه لو فرض أن بين معنى العلو والمقابلة تناقضاً وتعارضاً في حق المخلوق ، فإن ذلك لا يلزم في حق الخالق ؛ لأن الله ـ تعالى ـ ليس كمثله شيء في جميع صفاته ، فلا يقتضي كونه قِبَل وجه المصلي أن يكون في المكان أو الحائط الذي يصلي إليه لوجوب علوه بذاته ؛ ولأنه لا يحيط به شيء من المخلوقات ، بل هو بكل شيء محيط سبحانه وتعالى .

المناقشة

سؤال : إذا قال عال بصفاته وصفاته من ذاته فتقييدنا له بالذات ليس له حاجة؟

الجواب : ليس له حاجة في الأصل ، لكن إذا بلينا بمن يحرف ويخرجها عن حقيقتها لابد أن يبين الحقيقة ، والعلي بصفاته لا يستلزم أن يكون عليا بذاته ، فقد يكون الملك هنا والجنود في السقف ، فهو بذاته ليس بعال لكنه بصفاته فوق الذين فوقه في السطح .أهـ

الباب الثالث عشر

في نزول الله إلى السماء الدنيا .

في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : «ينزل ربّنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له»(١) . وقد روى هذا الحديث عن النبي ﷺ ، نحو ثمانٍ وعشرين نفساً من الصحابة رضي الله عنهم ، واتفق أهل السنة على تلقي ذلك بالقبول . ونزوله تعالى إلى السماء الدنيا من صفاته الفعلية التي تتعلق بمشيئته وحكمته ، وهو نزول حقيقي يليق بجلاله وعظمته ، ولا يصحّ تحريف معناه إلى نزول أمره أو رحمته أو ملك من ملائكته ، فإن هذا باطل لوجوه :

الأول ـ أنه خلاف ظاهر الحديث ؛ لأن النبي ﷺ ، أضاف النزول إلى الله ، والأصل أن الشيء إنّما يُضاف إلى من وقع منه أو قام به ،

الشرح

هذا هو الأصل ، فإذا قلت قام فلان فالأصل أن القائم فلان الذي وقع منه القيام ، وإذا قلت مات فالأصل أنه هو الذي مات ، ولهذا قلنا « يضاف إلى من وقع منه » مثل : قام « أو قام به » مثل : مات ، فإنه لا يقال وقع منه الموت ولكن يقال قام به واتصف بالموت ، هذا هو الأصل في اللغة العربية .أهـ

* * *

(١) البخاري (١١٤٥) كتاب التهجد ، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ، ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

فإذا صرف إلى غيره كان ذلك تحريفاً يُخالف الأصل .

الثاني ـ أن تفسيره بذلك يقتضي أن يكون في الكلام شيء محذوف ، والأصل عدم الحذف .

الشرح

« ينزل ربنا » إذا قلت ينزل أمر ربنا فمعناه أن في الكلام شيئا محذوفا والأصل عدم الحذف .أهـ

* * *

الثالث ـ أن نزول أمره أو رحمته لا يختص بهذا الجزء من الليل ، بل أمره ورحمته ينزلان كل وقت .

الشرح

وهذا صحيح فإن نزول الأمر ونزول الرحمة لا يختص بهذا الجزء من الليل بل هو ينزل كل لحظة ، كل لحظة وأوامر الله تعالى نازلة ، وكل لحظة ورحمته سبحانه وتعالى نازلة .أهـ

* * *

فإن قيل : المراد نزول أمر خاصّ ، ورحمة خاصة ، وهذا لا يلزم أن يكون كل وقت .

الشرح

لو قال قائل : المراد بنزول أمره أي أمر خاص غير الأمر العام الذي ينزل كل وقت ، أو المراد بالرحمة رحمة خاصة في هذا الجزء من الزمن لا الرحمة العامة التي تنزل كل وقت .أهـ

فالجواب : أنه لو فرض صحة هذا التقدير والتأويل ، فإن الحديث يدل على أن منتهى نزول هذا الشيء هو السماء الدنيا ،

الشرح

لو قلنا إنها رحمة خاصة ، تنزل رحمته إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، أو أنه أمر خاص .أهـ

* * *

وأي فائدة لنا في نزول رحمة إلى السماء الدنيا حتى يخبرنا النبي ﷺ عنها؟ !

الشرح

ما الفائدة إذا كانت لا تصل إلى الأرض وننتفع منها فأي فائدة لنا حتى يخبرنا عنها رسول الله ﷺ؟ فبطل بذلك أن يكون المراد بالنزول نزول الأمر أو الرحمة .أهـ

* * *

الرابع ـ أن الحديث دلّ على أن الذي ينزل يقول : «من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له»[1] . ولا يمكن أن يقول ذلك أحد سوى الله تعالى .

الشرح

هل يمكن للأمر أن يقول « من يدعوني فأستجيب له» « أو الرحمة تقول » من

(١) البخاري (١١٤٥) كتاب التهجد ، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ، ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

يدعوني فأستجيب له « أو الملك يقول » من يدعوني فأستجيب له »؟ وبهذا تبين بطلان هذا التحريف وأن الصواب أن الذي ينزل هو الله تبارك وتعالى حقيقة .

ولكن ها هنا مسائل :

المسالة الأولى : هل يخلو العرش من الله تعالى عند نزوله إلى السماء الدنيا أو لا يخلو؟

من العلماء من قال إنه لا ينبغي لنا أن نتكلم بهذا ، وأنه كما قال الإمام مالك في السؤال عن كيفية الاستواء قال : « السؤال عنه بدعة » فالسؤال هل يخلو منه العرش أو لا يخلو؟ هذا من البدع ، لأن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ما سألوا النبي ﷺ عن ذلك ، مع أننا نعلم أنه إما أن يكون ورود هذا على القلب حقا أو باطلا ، فإن كان باطلا فلا ينبغي إيراده ، وإن كان حقا فإننا نعلم أنه لو كان مما ينبغي أن يتكلم فيه الإنسان لكان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أولى الناس بأن يتكلموا به ، ولهذا نقول إن الأولى الكف عن هذا السؤال ولا تقل يخلو أو لا يخلو ، ولكن قل كما سمعت «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا » وما عليك أن يخلو عرشه منه أو لا يخلو .

وقال بعض أهل العلم إن العرش يخلو منه ، وهذا خطأ ، لأن القول بأن العرش يخلو منه قول بلا علم ، فإن الأصل أنه مستو على عرشه فلا يمكن أن ننفي عنه هذه الصفة إلا بدليل وليس هناك دليل ، ثم إنك إذا قلت يخلو منه العرش فإنه يوهم أن تكون الأمكنة تحصر الله تعالى فيكون على العرش ثم ينزل إلى السماء فيكون على السماء وهذا شيء مستحيل .

القول الثالث في المسألة : أنه ينزل ولا يخلو منه العرش لأن النصوص أثبتت نزوله وأثبتت أنه مستو على العرش فنثبت أنه مستو على العرش وأنه ينزل ولا تناقض في

ذلك ، لأن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء ، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وقال إننا نقول : ينزل ولا يخلو منه العرش .

ولكن عندي أن الأولى هو الكف عن إيراد هذا السؤال مطلقا ، ونقول إن الصحابة ما سألوا النبي ﷺ ولو كان هذا من الأمور التي يجب علينا أن نعتقدها إثباتا أو نفيا لبينها الله ورسوله .أهـ

المناقشة

سؤال : القول الثاني قد يستند إلى قولهم أن يستوي على العرش بالصفات الفعلية ، والصفات الفعلية تتعلق بالمشيئة متى شاء فعلها ومتى شاء لم يفعلها؟

الجواب : نعم هو من الصفات الفعلية لكن من الذي يقول إنه سبحانه وتعالى لما نزل إلى السماء الدنيا ترك الاستواء على العرش؟ لا نجزم بهذا ، ولهذا قلت إن أقرب الأقوال الثلاثة هو الإمساك عن هذا الشيء ، عن إيراد السؤال والجواب عنه .أهـ

سؤال : إذا كان النزول حقيقيا وأن الله ينزل بذاته فهل السماوات والملائكة تكون فوقه أو تحته؟

الجواب : هذا من الأشياء التي يجب أن نعلم وهو أن الله فوق كل شيء ، حتى لو نزل إلى السماء الدنيا فإن الله فوق كل شيء ولا يمكن أن يقاس بخلقه ، فنقول إنه ينزل وهو فوق كل شيء ، ولهذا لما خاف بعض العلماء من هذه الشبهة قال إن الله تعالى يرفع السماء الدنيا ويجعلها فوق السماء السابعة ، من أجل أن لا يكون فوقه شيء من السماوات ، ولكن هذا خطأ لأنه إذا رفع السماء الدنيا صارت عليا وليست دنيا ، فالصواب أن نعرض عن هذا كله بقلوبنا وألسنتنا وأن يسعنا ما وسع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، ونؤمن بأنه تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كما أخبر عنه رسوله ﷺ ولا نتجاوز ذلك والحمد لله أنّا ما كلفنا بهذا ، ولو كان هذا مما كلفنا به لكان الله تعالى يبينه بيانا شافيا ، لأنه يتعلق بالعقيدة ولا بد أن تكون العقيدة واضحة ومبنية على أمر واضح .أهـ

فصل

في الجمع بين نصوص علو الله تعالى بذاته . ونزوله إلى السماء الدنيا .

علو الله ـ تعالى ـ من صفاته الذاتية التي لا يمكن أن ينفكّ عنها ، وهو لا يُنافي ما جاءت به النصوص من نزوله إلى السماء الدنيا ،

الشرح

فالعلو صفة ذاتية ، ومعنى ذاتية أن الله لم يزل ولا يزال متصفا بها ، وهو أمر سمعي عقلي فطري كما سبق ، فإذا ورد ما ظاهره ينافي ذلك فإننا نجمع بينهما فنقول في مسألة النزول .أهـ

* * *

والجمع بينهما من وجهين :

الأول ـ أن النصوص جمعت بينهما ، والنصوص لا تأتي بالمحال ، كما تقدم .

الثاني ـ أن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته ، فليس نزوله كنزول المخلوقين حتى يقال : إنه ينافي علوه ويناقضه . والله أعلم .

الشرح

وبهذا نسلم من كل هذه الإيرادات ، إذا قلنا إن الله ليس كمثله شيء وإن الله أخبرنا بأنه ينزل وأخبرنا بأنه فوق كل شيء فإننا نثبت أنه فوق كل شيء وأنه ينزل ، ونقول إن هذا أمر أثبته الله لنفسه ولا يثبت الله لنفسه شيئا محالا أبداً ، ونسلم من كل الإيرادات التي يوردها أهل الشبه علينا .

مما أورد على حديث النزول أن ثلث الليل الآخر يدور على الكرة الأرضية وينتقل باللحظة من هذا المكان إلى هذا المكان ، فهل يستلزم أن يكون الله تعالى نازلا دائما؟

نقول كما قلنا قبل قليل : من كان عندهم ثلث الليل فالنزول الإلهي ثابت في حقهم ، ومن طلع عندهم الفجر فالنزول الإلهي قد انتهى في حقهم وإن كان موجودا عند آخرين ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يقاس بالخلق ، فقد يكون بالنسبة لهذه المنطقة من الأرض نازلا إلى السماء الدنيا لأنها ثلث الليل الآخر وبالنسبة للمنطقة الأخرى غير نازل لأنها ليست في الثلث الآخر من الليل .

وكل الأمر ينبني على التسليم التام لما جاء في النصوص ، فأنت إذا سلمت تسليما تاما وآمنت إيمانا كاملا لم ترد عليك هذه الشبهات ، والله أعلم .أهـ

الباب الرابع عشر

في إثبات الوجه لله تعالى .

مذهب أهل السنة والجماعة : أن لله وجهاً حقيقيًا يليق به موصوفاً بالجلال والإكرام ،

الشرح

أهل السنة والجماعة هم الذين اجتمعوا على السنة وأخذوا بها ولم يتفرقوا بها ، وقد ادعى بعض المتأخرين أن أهل السنة والجماعة ينطبق على ثلاث طوائف : الأثرية والأشعرية والماتريدية ، وزعموا أن الأشعرية والماتريدية من أهل السنة والجماعة ، ولكن هذا ليس بصحيح ، لأننا نقول إن الوصف لا ينطبق عليهم ، إذ أنهم أهل السنة وأين السنة من الأشاعرة؟ وأين السنة من الماتريدية؟ ويقولون أهل الجماعة وأنتم معترفون الآن بأن هؤلاء ثلاث فرق ، والجماعة لا تكون إلا فرقة واحدة ، وعلى هذا فإن هذا الوصف لا يصدق إلا على الأثرية فقط ، ولهذا قال السفاريني ـ رحمه الله ـ في الدرة لما ذكر افتراق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة قال :

وليس هذا النص جزما يعتبر
في فرقة إلا على أهل الأثر

أهل الأثر : الأثريون ، لأن الأثريين فرقة واحدة آخذة بالسنة مجتمعة عليها .أهـ

* * *

قد دلّ على ثبوته لله الكتاب والسنة ،

الشرح

على ثبوت الوجه لله دل الكتب والسنة .أهـ

فمن أدلّة الكتاب قوله تعالى : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْأِكْرَامِ ﴾ (الرحمن :٢٧) .

الشرح

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ هذا بعد قوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ (الرحمن : ٢٦ـ٢٧) ، قال بعض أهل العلم : ينبغي للإنسان أن يصل بين الآيتين فيقول : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ لأجل أن يتبين بذلك الفرق بين الخالق والمخلوق ، لأنك لو قلت ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ وسكتّ ، لم يكن هناك ارتباط بين الأولى والثانية ، فإذا قلت ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ تبين بذلك كمال الخالق وتميزه عن المخلوق .

﴿ ذُو ﴾ : صفة لوجه وليست صفة لرب ولهذا جاءت بالرفع .

لكن : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ ﴾ (الرحمن :٧٨) ، صفة لرب وليست لاسم ، لأن الذي يوصف بالجلال والإكرام هو الله أو وجه الله

وقوله : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ (الرحمن :٢٧) ، ذهب بعض أهل الجهل والسفه إلى أن الله يفنى إلا وجهه ، واستدلوا لذلك بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ (القصص :٨٨) ، ولكن هذا من الخطأ العظيم ، لأن الله تعالى لا يمدح نفسه بأنه يهلك إلا وجهه ، فإنه ليس هناك مدح ، وإذا كان الإنسان تأكله الأرض إلا عجب الذنب فقد صار وجه الله مثل عجب الذنب ، وهذا لا أحد يقول به ـ والعياذ بالله ـ ولكن عبر بالوجه عن الذات لأن الوجه هو الموصوف بالجلال والإكرام ، والوجه هو أشرف ما يكون في الإنسان فلهذا عبر الله عن نفسه بالوجه فقال : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ (الرحمن :٢٧) ، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ (القصص :٨٨) .

وقال بعض العلماء في قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ (القصص :٨٨) ، إلا

ما أريد به وجهه واستدل لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ (الفرقان :٢٣) ، قال فكل شيء لا يراد به وجه الله فإنه هالك تالف ، والآية قد نقول إنها تشمل المعنيين .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (البقرة :١١٥) ، فقد اختلف السلف فيها على قولين :

منهم من يقول إن المراد بالوجه هنا الجهة ، وجعل قرينة ذلك قوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ (البقرة :١١٥)

فهاتان جهتان ، فأينما تولوا جهة المشرق أو جهة المغرب فثم جهة الله تعالى ، يعني فهي الجهة التي أمرتم بها .

وقيل المراد بـ :﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (البقرة :١١٥) : ، وجهه الحقيقي ، وأن الإنسان أينما تولى إلى مشرق أو مغرب فإن الله تعالى قبل وجهه كما جاء في الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ نهى أن يبصق المصلي قبل وجهه وقال : «إن الله قبل وجهه»[(١)] وهذا القول أرجح ، والقول الأول صحيح فإن الإنسان إذا اشتبهت عليه القبلة وصلى إلى أي جهة فثمة الجهة التي أمر أن يتوجه إليها .أهـ

* * *

ومن أدلّة السنة قول النبي ﷺ في الدعاء المأثور : «وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك»[(٢)] .

---

(١) البخاري (٤٠٦) كتاب الصلاة ، باب حك البزاق باليد من المسجد ، ومسلم (٥٤٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بصاق المصلي بين يديه وعن يمينه ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) النسائي (١٢٣٨) كتاب السهو ، باب الدعاء بعد الذكر ، وصححه الألباني في صحيح النسائي ، وقال في المشكاة (٢٤٩٧) إسناده جيد .

الشرح

هذا فيه دليل على أن الإنسان يرى الله تعالى ، وأن ألذ شيء عليه هو النظر إلى وجه الله ، ففي قوله تعالى عن الجنة : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ (الزخرف : ٧١) ، نقول لا لذة للعين أكمل من لذة النظر إلى وجه الله تعالى ، ولهذا سأل النبي ﷺ ربه لذة النظر إلى وجهه ، وفي سؤال النبي ﷺ لذة النظر إلى وجه الله دليل على أن ذلك ممكن وأن رؤية الله ممكنة ، خلافا لأهل التحريف من الأشعرية وغيرهم الذين يقولون إن الله تعالى لا يرى بالعين وإنما يرى بالقلب أو يرى ثوابه ، أما ذات الله تعالى فعندهم أنه لا يرى ، ولكنهم ـ نسأل الله العافية ـ حرموا أنفسهم هذه اللذة العظيمة التي هي أعلى نعيم الجنة ، حرموا أنفسهم إياها مع دلالة الكتاب والسنة على ثبوتها ، والشوق إلى لقاء الله معناه محبة الوصول إلى الله تعالى.أهـ

* * *

فوجه الله تعالى من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به ، ولا يصح تحريف معناه إلى الثواب

الشرح

أهل التعطيل قالوا إن المراد بوجه الله ثواب الله ، كل من عليها فان ويبقى ثواب ربك ذو الجلال والإكرام ، فنقول هذا لا يصح .أهـ

* * *

لوجوه منها :

أولاً ـ أنه خلاف ظاهر النّص ، وما كان مخالفاً لظاهر النص فإنه يحتاج إلى دليل ، ولا دليل على ذلك .

الشرح

فكل أحد صرف النص عن ظاهره فإننا نقول له هات الدليل وإلا فالأصل أن دلالة النصوص على ظاهر النصوص ، فإن جاء بدليل وإلا وجب أن نجعل النص دالا على ما يقتضيه ظاهره .

ولكن الإشكال أن بعضهم يقول إن ظاهر النص هذا مستحيل على الله ، ولذلك يلبسون فيقولون : الاستواء على العرش ظاهره أن الله استوى عليه يعني علا عليه واستقر لكن هذا محال ، لأنه لو كان كذلك لزم أن يكون الله محتاجا إلى العرش .

فنقول لهم هذا ليس بلازم ، وهذا المعنى إنما يلزم في استواء المخلوق ، هو الذي إذا استوى على شيء وخرّ الشيء سقط ، أما الخالق فلا ، فهؤلاء الذين يقولون إننا لو أثبتنا لله وجها لزم أن يكون له جزء ، ولهذا يقولون سبحان من تنزه عن الأبعاض والأغراض والأعراض ، وهذه الكلمة إذا سمعها أحد قال هؤلاء ملهمون ، وهم إنما يقصدون بقولهم سبحان من تنزه عن الأبعاض أنه ليس له يد ولا وجه ولا عين ولا قدم لأن هذه أبعاض والله منزه عن الأبعاض .

وقولهم تنزه عن الأغراض أي عن الحكمة ، لأن الله تعالى يفعل الشيء لا لحكمة ولكن يفعله هكذا سجالا ، لأنه لو فعله لحكمة لكان محتاجا إلى هذا الغرض الذي يريده ، فهو منزه عن الأغراض .

والثالث : منزه عن الأعراض ، والأعراض الصفات الفعلية ، يقولون لأنها عرض يأتي ويزول ، فهو منزه عن النزول إلى السماء الدنيا ومنزه عن الاستواء على العرش ومنزه عن الضحك ومنزه عن الإتيان يوم القيامة وما أشبه ذلك ، قالوا لأن هذه أعراض والأعراض لا تقوم إلا بأجسام والأجسام متماثلة ، وقد سبق لنا بيان بطلان هذا الدليل .أهـ

ثانياً ـ أن هذا الوجه ورد في النصوص مضافاً إلى الله تعالى ، والمضاف إلى الله إما أن يكون شيئاً قائماً بنفسه ، وإما أن يكون غير قائم بنفسه ، فإن كان قائماً بنفسه فهو مخلوق ، وليس من صفاته كبيت الله ، وناقة الله ،

الشرح

بيت الله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ﴾ (الحج :٢٤) ، وقال النبي ﷺ : «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله»[١] فإذا كان قائما بنفسه فليس من صفات الله كبيت الله وناقة الله : ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ (الشمس :١٣) ، والبيت شيء مستقل قائم بنفسه فيكون مخلوقا ، والناقة كذلك شيء قائم بنفسه فيكون مخلوقا ، وغيره مثل مساجد الله «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[٢] والمساجد أشياء قائمة بنفسها فتكون مخلوقة .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية :١٣) السماوات والأرض أعيان قائمة بنفسها ، وقوله : ﴿ مِّنْهُ ﴾ ليس المعنى أنها جزء من الله وإنما إضافتها إلى الله إضافة خلق أو تشريف أو تكريم .أهـ



وإنما أُضيف إليه إما للتشريف ، وإما من باب إضافة المملوك والمخلوق إلى مالكه وخالقه ، وإن كان غير قائم بنفسه فهو من صفات الله ، وليس بمخلوق كعلم الله

---

(١) مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء/ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٩٠٠) كتاب الجمعة / باب الجمعة في القرى والمدن ، ومسلم (٤٤٢) كتاب الصلاة / باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

الشرح

قال الله تعالى : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ (البقرة :٢٥٥) ، فهذا غير مخلوق ، وقال تعالى : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ (النساء :١٦٦).أهـ

* * *

وقدرته وعزته وكلامه ويده وعينه

الشرح

وردت قدرة الله مضافة إلى الله «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[١] .

وعزته : المذكور سابقاً .

وكلامه : ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ (التوبة :٦).

ويده : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح :١٠) ، ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة :٦٤).

وعينه : ﴿ تجري بأعيننا ﴾ (القمر :٧) ، ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ (طه :٣٩) .

* * *

ونحو ذلك ، والوجه بلا ريب من هذا النوع ؛

---

(١) مسلم (٢٢٠٩) كتاب السلام ، باب استحباب وضع يده على موضع الألم في الدعاء ، وأبوداود (٣٧٤٢) كتاب الطب ، باب كيف الرقيا ، من حديث عثمان بن أبي العاص واللفظ لأبي داوود .

الشرح

فإن وجه الله تعالى صفة من صفاته غير بائن منه ، والوجه لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بما هو وجه له فلا يقوم بنفسه .أهـ

* * *

فإضافته إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف .

الشرح

ما القول في قوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ (الحجر :٢٩) هل هو عين قائمة بنفسها؟

نعم ، لأن الروح عين قائمة بنفسها تقبض وتكفن وتعذب فهي عين قائمة بنفسها فتكون مخلوقة .أهـ

* * *

ثالثاً ـ أن الثواب مخلوق بائن عن الله تعالى ، والوجه صفة من صفات الله غير مخلوق ولا بائن ، فكيف يفسر هذا بهذا؟ !

الشرح

يعني إذا قلت أن قوله تعالى : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ (الرحمن :٢٧) أن المراد ثوابه ، فالثواب مخلوق وبائن عن الله وليس من صفاته ، لأن الله تعالى يخلق هذا الثواب فكيف يفسر هذا بهذا .أهـ

* * *

رابعاً ـ أن ذلك الوجه وصف في النصوص بالجلال والإكرام ،

الشرح

والثواب لا يوصف بالجلال والإكرام : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ ﴾ (الرحمن :٢٧) ، ولم يقل ذي الجلال ، فدل هذا على أن الصفة تابعة للوجه ، والثواب لا يمكن أن يوصف بأنه ذو الجلال والإكرام لأن الثواب لا يكرم أحدا ، وهنا يقول : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ (الرحمن :٢٧)أهـ

* * *

وبأن له نوراً يستعاذ به ،

الشرح

يؤخذ هذا من قوله : «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة»[١] .أهـ

وسبحات تحرق ما انتهى إليه بصره من خلقه ،

الشرح

لقوله عليه الصلاة والسلام : «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[٢] فهل يمكن أن يقال سبحات الثواب؟ لا يمكن .أهـ

* * *

وكل هذه الأوصاف تمنع أن يكون المراد به الثواب . والله أعلم .

(١) ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٩/ ١٥٢ ، ترجمة القاسم الليث الرسعني .

(٢) مسلم (١٧٨) كتاب الإيمان ، باب معنى قول الله عز وجل ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه . .

المناقشة

سؤال : ما الفرق بين الماتريدية والأشاعرة؟

الجواب : يقولون إن الفرق بينهما أن الماتريدية يزيدون صفة ثامنة وهي الخلق ، فيثبتون الخلق بخلاف الأشاعرة ، وهذا في الصفات ، أما في أسماء الإيمان والدين والقدر فقد يختلفون عنهم ، كما أن الجهمية والمعتزلة يتفقون في باب الصفات ويختلفون في باب أسماء الإيمان والدين وفي باب القدر .أهـ

سؤال : بعض من يقول إن الماتريدية هم أقرب الناس إلى أهل السنة والجماعة؟

الجواب : نظرا إلى أنهم يزيدون هذه الصفة .أهـ

سؤال : قولنا إنه عبر بالوجه عن الذات لأنه أشرف ما بالإنسان ولهذا قاسوا الله على المخلوق ، ولم يرد أن أشرف صفات الله هي الوجه فنكون بذلك تكلمنا على الله بغير علم؟

الجواب : لا ، لأنه معروف أن هذه أساليب لغة عربية والقرآن نزل باللغة العربية[1] فعندما نقول مثلا ويبقى رجل ربك فلا شك أن تعليق البقاء بهذه الصفة الخاصة تدل على أنها أكمل من غيرها ، يعني أن تعليق هذا البقاء الذي هو صفة كمال بهذا الشيء المعين من صفات الله يدل على أنه أكمل من غيره ـ حتى من غير من باب القياس ـ ولكن يقال إنه ليس المراد بلا شك أن الله تعالى يهلك ويبقى وجهه فقط لأن اللغة العربية واسعة تعبر عن مثل هذا .أهـ

سؤال : هل يكون التأويل قد دل في هذه الآية : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ (القصص :٨٨)؟

الجواب : عندي أنه ليس فيها تأويل ، حتى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ (الرعد :٢٢) ، وما أشبه ذلك ، دائما يعبَر بالوجه عن الذات ، حتى في

مقتضى اللغة العربية فهم لا يريدون الوجه فقط بل يريدون الذات كلها ، فالظاهر أن هذا ليس من باب التأويل بل إن هذا هو مقتضى هذا الأسلوب في اللغة العربية .أهـ

سؤال : **هل معنى هذا أن الإنسان يحب الموت؟**

الجواب : لا ، ليس المعنى أن يحب الموت ، إنما المعنى أن يحب لقاء الله ، ولهذا لما قال الرسول ﷺ : «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قالت عائشة : يا رسول الله كلنا يكره الموت ، قال : «ليس بذاك ولكن المؤمن إذا احتضر بشر بالجنة فأحب لقاء الله فأحب الله لقاءه ، وأما الكافر» فبالعكس[1] .أهـ

سؤال : **تسمية القرآن كتاب الله ألا يعتبر أنه قائم بذاته؟**

الجواب : كتاب بمعنى مكتوب ولا يعتبر قائما بذاته ، لأن المكتوب هو قول الله تعالى ، وصحيح أنه بعد أن وضع في هذه الأوراق فالأوراق مخلوقة والمداد مخلوق وعمل الكاتب مخلوق ، لكن المكتوب غير مخلوق .أهـ

---

(١) البخاري (٦٥٠٧) كتاب الرقائق ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقائه ، من حديث أنس وعائشة رضي الله عنها ، ومسلم (٢٦٨٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

الباب الخامس عشر

في يدي الله تعالى .

مذهب أهل السنة والجماعة : أن لله تعالى يدين اثنتين ،

الشرح

يدين : بالنصب لأنها اسم أن مؤخر .أهـ

* * *

مبسوطتين بالعطاء والنعم ،

الشرح

والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة :٦٤) بل يداه ثنتان ، ولو كان له أكثر من ثنتين لقال بل أيديه مبسوطة لأن المقام مقام تمدح بكثرة العطاء ، وكلما كثرت آلة العطاء كان العطاء أكثر ، فلما ذكر الله اليدين اثنتين فقط دل على أنه ليس له أكثر من اثنتين ، وسيأتينا إن شاء الله تعالى أن الله قال : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾ (يس :٧١) ، فأثبت الجمع ، وسيأتي إن شاء الله تعالى الجواب عنه .أهـ

* * *

وهما من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به ،

الشرح

الصفات الذاتية : هي التي لم يزل ولا يزال متصفا بها ، لكننا سبق أن قلنا إن الصفات الذاتية إما معنوية وإما خبرية ، فالمعنوية مثل السمع والبصر والعلم والقدرة ،

والخبرية مثل الوجه واليد والعين والقدم والساق والساعد وما أشبهها فهذه من الصفات الذاتية الخبرية .

وقوله الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به : قولنا حقيقة خلافا لمن قال مجازا ، فإنها حقيقة ثابتة لله تعالى له يدان اثنتان حقيقيتان ، ولا يلزم من إثبات ذلك حقيقة أن يكون الله تعالى مشابها للخلق ، لأننا نقول لمن ألزمنا بذلك وقال إذا أثبتم لله يدا حقيقية لزمكم أن يكون مماثلا للمخلوق .

نقول له وبكل بساطة : هل تثبت لله ذاتا؟ فسيقول نعم ، وهل لزم من إثباتك الذات أن تكون ذاته مماثلة للمخلوقين؟ لا ، فإذا كنت تقول هكذا فلماذا لا تثبت صفات لا تشبه صفات المخلوقين ، لأن القول في الصفات فرع عن القول في الذات؟ وهذا جواب بسيط وجواب مقحم مقنع لا خلاص منه ، هذه واحدة .

الثانية أن نقول : لا يلزم من تساوي الشيئين في الاسم أن يتساويا في الحقيقة أليس كذلك؟ فسيقول بلى ، وإن قال لا وأنه يلزم من تساويهما في الاسم أن يتساويا في الحقيقة ، قلنا له هل لك عين؟ سيقول نعم لي عين ، هل للجمل عين؟ سيقول نعم له عين ، هل عينك كعين الجمل؟ سيقول لا .

نقول هل لك يد؟ سيقول نعم ، هل للهر يد؟ سيقول نعم ، هل يدك كيد الهر؟ سيقول لا ، إذاً نقول : هذا الرجل نرد عليه من وجهين :

الوجه الأول أنك تثبت لله ذاتا وتؤمن بأنها لا تشبه ذوات المخلوقين ، والكلام عن الصفات كالكلام عن الذات .

ثانياً : أنك أنت الآن تعترف بأن الشيئين إذا تساويا في الاسم لا يلزم أن يتساويا في الحقيقة ، إذاً ما المانع من أن تقول إن لله يدا حقيقية لا تشبه أيدي المخلوقين ، والأصح أن نقول

لا تماثل أيدي المخلوقين لأن هذا هو التعبير القرآني : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى :١١) ، ولأن المشابهة من بعض الوجوه لابد أن تكون فيما اتفقا في الحقيقة ، لابد أن يكون هناك تشابه من بعض الوجوه ، فالسمع لله والسمع للإنسان فيه نوع من التشابه ، يتشابهان في إدراك المسموع لكن في الحقيقة والقدر لا يتشابهان بلا شك ، لكننا نقول التعبير بعدم المماثلة هو الأولى لأنه التعبير القرآني ، ولأنه منتفٍ قطعا بكل حال .

فنقول لهذا المحرف : لم لا تثبت لله يدا حقيقية لا تماثل أيدي المخلوقين ، وهل في ذلك من عيب أن نقول لله يد عظيمة جليلة مبسوطة بالعطاء والنعم ، السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن كخردلة في كف أحدنا ، هل في ذلك نقص؟

لا نقص في هذا ، وإذا لم يكن فيه نقص فلماذا ننكر ما أثبته الله لنفسه ونقول نحن أعلم بك منك يا ربنا؟ فإن حقيقة الأمر أن الذين ينكرون ما وصف الله به نفسه لسان حالهم يقول نحن أعلم بك منك يا ربنا ، والرسول ﷺ يقول : «سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1] وهم يقولون بل نحن نعرف الثناء عليك ، أنت تقول أن لك يدا ولكن ليس لك يد ، والمراد بيدك هذه النعم التي نأكلها ونشربها ونلبسها ، هذا هو المراد بيدك ـ نسأل الله السلامة ـ .أهـ

* * *

وقد دلّ على ثبوتهما الكتاب والسنة . فمن أدلّة الكتاب قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص :٧٥) .

(١) مسلم (٤٨٦) كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

الشرح

يخاطب الله إبليس ويقول أي شيء منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟ وما خلقه الله بيده الكريمة فله زيادة الشرف والفضل ، وقال ﴿ بِيَدَيَّ ﴾ أي بيدي الثنتين ، وهم يقولون : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص :٧٥) ، يعني بنعمتي أو بقدرتي ، فيا سبحان الله ، الله ليس له إلا قدرتان؟ وأين هذه القدرتين لله؟

القدرة قدرة عظيمة مالها نهاية ، وليس لله قدرتين بل قدرة واحدة لكن لا نهاية لها .

والله خلق الشيطان بقدرته والشيطان حجيج ، فلو كان المراد باليد القدرة لقال وأنا يا رب خلقتني بقدرتك ، لكنه احتج بحجة ثانية باطلة ، وهي أنه قاس في مقابلة النص فقال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ (ص :٧٦) ، فإذاً القياس يقتضي أن المخلوق من النار التي يطهى عليها الطعام وتطبخ عليها القهوة وما أشبه ذلك خير من طين يلوث الثياب ! فيقول : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ فأنا خير منه وأحق بالسجود منه .

لكن ابن القيم ـ رحمه الله ـ ذكر الفرق بين الطين والنار من عدة أوجه وأن الطين خير من النار ، فضلاً عن مادة الخلق التي احتج بها إبليس ، لكن هناك شيء لا يمكن لإبليس أن يحتج به وهو أن الله خلق آدم بيده وهذه مزية لم تكن لأحد من المخلوقين ، فكل المخلوقين خلقوا بالكلمة كن فيكون ، أما آدم فخلقه الله تعالى بيده حتى سواه ونفخ فيه من روحه .

وكلمة : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ صريح في أن المراد أن الشيء الذي خُلق به هو اليد ولم يقل : خَلقَتْ يداي حتى نقول إن اليد يراد بها الذات كما في قوله : ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (الشورى :٣٠) ، لأنه هنا أضاف الخلق لنفسه ثم جعل المخلوق به يدي فقال : ﴿ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص :٧٥) ، وليست هذه الآية كقوله :

﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾ (يس : ٧١) ، لأن ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾ ، مثل قوله ﴿ فبما كسبت أيديكم ﴾ فالمعنى مما خلقنا ، لكن هذه ﴿ خَلَقْتُ ﴾ أضاف الخلق إليه ثم قال : ﴿ بِيَدَيَّ ﴾أهـ

* * *

ومن أدلة السنة قوله ﷺ : «يد الله ملآى

الشرح

يعنى ممتلئة .أهـ

* * *

لا تغيضها نفقة

الشرح

مثلما أن علمه تعالى لا يغيضه شيء كذلك عطاؤه لا يغيظه شيء ، يقول الله تعالى في الحديث القدسي : «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئا إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر»[1] ، الله أكبر ، إئت المحيط الأطلسي واغمس فيه مخيط ، تبقى السفن طافحة على الأرض لأن المخيط شرب البحر كله !؟ ماذا ينقص البحر؟ لا شيء ، وهذا من باب المبالغة في النفي ، يعني أنه لا ينقص ذلك مما عندي شيئا أبداً ، إن كان المخيط إذا غمس في البحر ينقصه فهذا ينقصني ، ومعلوم أن

(١) مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ، من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

الجواب بداهة عند كل أحد أنه لا ينقصه ، إذاً «يد الله ملآى لا تغيظها نفقة» ثم ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلا .أهـ

* * *

سحَّاء

الشرح

السحاء كثيرة العطاء التي لا تمسك ، خلافا لقول اليهود : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (المائدة :٦٤) ، قاتلهم الله ، وقول بعضهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ (آل عمران :١٨١).أهـ

* * *

الليل والنهار ،

الشرح

الليل والناس نائمون فيه من مخلوقات الله ما لا يتعيش إلا في الليل ، من الذي ينفق عليه؟ الله تعالى ، وما أكثر الذي لا يعيش إلا في الليل ولا يدرك نفقته إلا في الليل ، ثم أنت نائم هنا وفي القارة الأخرى الناس يعيشون ، فيد الله سحاء الليل والنهار ، ثم قال .أهـ

* * *

أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض

الشرح

أحصوه لي ، قليل أم كثير؟ لا يحصيه إلا الذي أعطاه سبحانه وتعالى «أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض» وهذا أمر لا يحصيه إلا الرب تعالى.أهـ

فإنّه لم يغض ما في يمينه»[1] .

الشرح

يعني أن هذا الذي أنفقه ما نقص شيئا مما في يمينه «لم يغض ما في يمينه» ، فإذاً في هذا الحديث إثبات اليدين لله تعالى.

ويغيض بمعنى ينقص كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ ﴾ (الرعد :٨) ، ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ (هود :٤٤)

فكل هذا الذي أنفقه منذ خلق السماوات والأرض لم ينقص ما في يمينه ، وما ينفقه الله تعالى من قول الرسول ﷺ إلى يوم القيامة لا يغيض لأنه قال : «لا يغيضها نفقة» إلى يوم القيامة ، والله أعلم .أهـ

* * *

وقد أجمع أهل السنة على أنهما يدان حقيقيتان لا تُشبهان أيدي المخلوقين ،

الشرح

والصواب لا تماثلان .أهـ

ولا يصحّ تحريف معناهما إلى القوة ، أو النعمة أو نحو ذلك لوجوه منها :

أولاً ـ أنه صرف للكلام عن حقيقته إلى مجازه بلا دليل .

ثانياً ـ أنه معنى تأباه اللغة في مثل السياق الذي جاءت به مضافة إلى الله ـ تعالى ،

(١) البخاري (٤٦٨٤) كتاب التفسير ، باب «وكان عرشه على الماء» ، ومسلم (٩٩٣) كتاب الزكاة ، باب الحث على المنفق وتبشير المنفق بالخلف من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الشرح

وانتبه للقيود ، قوله : «معنى تأباه اللغة» أي اللغة العربية لأنها التي نزل بها القرآن كما قال الله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) ﴾ (الشعراء) ، فاللغة العربية تأبى أن يكون المراد باليد النعمة أو القوة لا مطلقا ولكن في مثل السياق الذي جاءت به مضافة إلى الله .أهـ

* * *

فإن الله قال : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص :٧٥)

الشرح

واللغة تأبى أن يكون المراد باليدين هنا النعمة أو القوة .أهـ

* * *

ولا يصح أن يكون المعنى : لما خلقت بنعمتي ، أو قوتي .

الشرح

لأن نعمة الله لا تعد ولا تحصى كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ (النحل :١٨) ، وليست نعمتين فقط ، وقوة الله واحدة وليست متعددة ، فكيف يقول بقوتي؟ !إذاً لا يصح أن يكون المراد باليد في هذا السياق بالذات أن يكون المراد بها النعمة أو القوة .

وقد مر علينا مراراً كثيرة أن تعيين المعنى للفظ يكون بحسب السياق ، فقد يكون هذا اللفظ محتملاً لمعنى في سياق لكن لا يحتمله في سياق آخر .أهـ

ثالثاً ـ أنه ورد إضافة اليد إلى الله بصيغة التثنية ،

الشرح

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة :٦٤) ، ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص :٧٥) .

* * *

ولم يرد في الكتاب والسنة ولا في موضع واحد إضافة النعمة والقوة إلى الله بصيغة التثنية ،

الشرح

وهذا يدل على أن بينهما فرقا .أهـ

* * *

فكيف يفسر هذا بهذا؟!

الشرح

وهو واضح أيضاً ، ولكنه يختلف عن الوجه الذي قبله .أهـ

* * *

رابعاً ـ أنه لو كان المراد بهما القوة لصح أن يُقال : إن الله خلق إبليس بيده ونحو ذلك ،

الشرح

لو كان المراد باليدين القوة لقلنا إن إبليس مخلوق بيد الله ، يعني بقوة الله ، ولصح أن نقول إن الجمل مخلوق بيد الله ولصح أن نقول إن الخنزير مخلوق بيد الله وهكذا ، وهذا أمر لا أحد يقره .

ما خلق الله شيئا بيده إلا آدم ، وورد في بعض الآثار أنه سبحانه وتعالى كتب التوراة بيده وأنه غرس جنة عدن بيده[1] .أهـ

* * *

وهذا ممتنع ، ولو كان جائزاً لاحتج به إبليس على ربه حين قال له : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ (ص :٧٥) .

الشرح

فيقول إبليس وأنا يا رب خلقتني بيدك فلا فضل له عليّ .أهـ

* * *

خامساً ـ أن اليد التي أضافها الله إلى نفسه وردت على وجوه تمنع أن يكون المراد بها النعمة أو القوة ، فجاءت بلفظ اليد والكفّ ،

الشرح

جاءت بلفظ اليد : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة :٦٤) ، كذلك أيضاً جاءت بلفظ الكف «السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن كخردلة في كف أحدنا» .أهـ

* * *

وجاء إثبات الأصابع لله تعالى

(١) السنة لعبدالله بن أحمد (٥٦٩) ١/ ٥٩٥ ، ما جحدته الجهمية الضلال من كلام رب العالمين .

الشرح

قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن»[١] .أهـ

* * *

والقبض والهزّ ،

الشرح

القبض والهز يكون باليد .أهـ

* * *

كقوله ﷺ : «يقبض الله سماواته بيده ، والأرض باليد الأخرى ، ثم يهزهن ويقول : أنا الملك»[٢] .

الشرح

كل هذا يدل على أن المراد باليد اليد الحقيقية .أهـ

* * *

وهذه الوجوه تمنع أن يكون المراد بهما النعمة أو القوة .

الشرح

هناك وجهان يُردّ بهما في كل مسألة فيها تأويل ، أشرنا إليهما في كتاب شرح لمعة

---

(١) مسلم (٢٦٥٤) كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء ، والترمذي (٢١٤٠) ، كتاب القدر ، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ، من حديث أنس واللفظ للترمذي .

(٢) البخاري (٤٨١٢) كتاب التفسير ، باب والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، ومسلم (٢٧٨٧) كتاب صفة القيامةوالجنة والنار من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الاعتقاد ـ كتاب مختصر ـ وهو أن كل تأويل نرده بأنه مخالف لظاهر اللفظ ولإجماع السلف ، هذا في كل تأويل ، في اليدين في العينين في الساق في القدم في كل شيء ، فأي إنسان يحرف هذه الأشياء نرد عليه أول ما نرد بأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف ، ثم يكون هناك وجوه خاصة في بعض الصفات المحرفة ترد بها أيضاً .أهـ

فالحاصل أن هؤلاء المحرفون ـ نسأل الله العافية ـ تعدوا ، حتى إن بعض السلف قال : «إني لأتحدث عن قول اليهود والنصارى ولا أتحدث عن قول الجهمية»[1] لأن قول الجهمية أعظم وأخبث .أهـ

(١) رواه عبدالله بن أحمد في السنة عن عبدالله بن المبارك ١/ ١١١ (٢٣) ، والسنة للخلال ٥ ـ ٨٦ ، الرد على الجهمية والطعن فيهم .

المناقشة

سؤال : لكن إذا قيل إن السلف ـ وأقصد بهم الصحابة والتابعون ـ ما تحدثوا فيه مطلقا ، فكُفُوا كما كَفوا؟

الجواب : الجواب على هذا أن السلف لم يتحدثوا بها لأنه ما وقع في زمنهم ما يوجب الكلام فيها ، فأبقوها على مقتضى دلالة اللغة العربية لأن القرآن نزل باللسان العربي ، ولهذا لا تجد عن الصحابة رضي الله عنهم خوضا كما تجده في كلام التابعين ومن بعدهم ، لأن الشيء إذا لم يثر يبقى على ما هو عليه ، ولذلك لا تجد لهم كلاما يصل إلى حد العمق الذي كان عند المتأخرين .أهـ

سؤال : الذين ينفون اليد لله ألا نقول لهم إن المشركين من اليهود قالوا : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ (المائدة :٦٤) ، فكيف نفسرها بالنعمة مع أن الكفار أقروا؟

الجواب : اليهود أقروا وهؤلاء أنكروا فصار اليهود في هذا الباب خيرا من هؤلاء ، فلا يستقيم أن يكون المعنى نعمة الله مغلولة ولا قوة الله مغلولة .أهـ

الباب السادس عشر

في عيني الله تعالى .

مذهب أهل السنة والجماعة : أن لله عينين اثنتين ، ينظر بهما حقيقة على الوجه اللائق به ،

الشرح

قوله ينظر بهما حقيقة : هذا إنما أخذ من المعنى لأن النظر إنما يكون بالعين ، وإلا فإنه ما جاء في القرآن أو في السنة أن لله عينين اثنين ينظر بهما بهذا اللفظ ، لكنه مأخوذ من المعنى ، ولذلك عبر ابن خزيمة في كتاب التوحيد بمثل هذا التعبير ، وقال إن لله عينين حقيقيتين ينظر بهما .

وقوله على الوجه اللائق به : احترازا من أن تكون هاتان العينان مماثلتين لأعين المخلوقين ، بل هو على الوجه اللائق به تبارك وتعالى ، وأعين المخلوقين مختلفة في الكبر والصغر واللون والقوة والضعف وكذلك أيضاً في نفس الشق ، فهل كل العيون عرض كعين الإنسان؟

وقد حقق بعض الإخوة أن عيون الجن مفروضة بالطول لا بالعرض وهذا يحتاج إلى إثبات ، فإن ادعى أنه قد شاهدهم قلنا فيك نظر ، وإن قال لم أشاهدهم ففي كلامه نظر ، وعلى كل حال نحن لم نشاهدهم ولكن هناك غير الجن .

وعلى كل حال فأعين المخلوقين مختلفة ، فإذا جاز الاختلاف بين أعين المخلوقين مع اتفاقهم في كونهم مخلوقين ، فالاختلاف بين عين الخالق وعين المخلوق من باب أولى ولا شك في هذا .أهـ

* * *

وهما من الصفات الذاتية الثابتة بالكتاب والسنة ، فمن أدلّة الكتاب قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ (القمر :١٤) .

الشرح

هما : الضمير يعود على العينين ، ﴿ تَجْرِي ﴾ أي تسير والضمير يعود على السفينة التي صنعها نوح عليه الصلاة والسلام ، فإن الله تعالى لما دعا نوح ربه قال : ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ (القمر :١٠) ، قال تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴿١٤﴾ ﴾ (القمر) .

ومعنى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، قال بعض المحرفين ؛ إن هذا يدل على أنه لابد أن في القرآن مجازا ، لأننا نعلم علم اليقين أن هذه السفينة لم تكن في عين الله ولا ملاصقة لعين الله ، فالباء ليست للظرفية وليست للملاصقة ، إذاً فلا بد من مجاز .

و لكننا نرد عليهم بأن هذا الأسلوب العربي «تجري بعيني» معناه أنه يلاحظها تعالى بعينه ويراها بعينه ويحفظها ويكلؤها وهذا أسلوب عربي ، وهكذا يقول الإنسان لمن يحبه أنت في عيني ، ومعناه أن من شدة محبتي لك ألاحظك بعيني ولا تغيب عني .

والحاصل أن قوله : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ لا أحد يعرف اللغة العربية يدعي أبداً أن ظاهر السفينة في عين الله أو عليها ، هذا شيء لا يمكن لأحد أن يدعيه ، فالمعنى إذاً تجري مصحوبة بنظرنا لها بأعيننا ، هذا معنى الآية ولا تحتمل غير هذا .

ولكن يبقى أن نقول : أنت أتيت بهذا الاستدلال على أن لله عينين مع أن أعين

جمع ، والجواب على ذلك كما سيأتي إن شاء الله تعالى أن نقول : إن الجمع في اللغة العربية من العلماء من يرى أن أقله اثنان كما في قوله : ﴿**إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما**﴾ (التحريم :٤) ، ومعلوم أنهما اثنتان وليس لهما إلا قلبان ، فقلوب هنا جمع ومع ذلك يراد بها الاثنان ﴿**تجري بأعيننا**﴾ أي بعينين لنا ، هذا وجه .

والوجه الثاني أن نقول : إن أقل الجمع ثلاثة ولا يمكن أن يكون أقل الجمع اثنين إلا بدليل شرعي أو حسي ﴿**صغت قلوبكما**﴾ الدليل على أنهما اثنان هو الحس والواقع ، وصلاة الجماعة أقلها اثنان بدليل شرعي ، أما إذا لم يوجد دليل فالأصل أن الجمع أقله ثلاثة وهذا هو المشهور .أهـ

* * *

ومن أدلّة السنة قول النبي ﷺ : «إن ربكم ليس بأعور»(١) .

الشرح

هذا قاله وهو ﷺ يتحدث عن الدجال ، الدجال الذي يأتي قرب قيام الساعة ، قبل نزول عيسى وقبل يأجوج ، وهذا الدجال يتبعه سبعون ألفا من يهود أصفهان عليهم الطيالسة(٢) كما قال الرسول ﷺ ، والحديث في صحيح مسلم ، وأصفهان في إيران ، فسيكون في إيران يهود وسيتبعه من يهود أصفهان سبعون ألفاً ، لأن اليهود أكثر من سبعين ألفا .

هذا الدجال يأتي بفتنة عظيمة جداً فتنة من أكبر ما يكون ، كما قال الرسول ﷺ :

---

(١) البخاري (٧١٣١) كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، ومسلم (٢٩٣٣) كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) مسلم (٧٣٤١) ، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ أصبهان .

«ما من فتنة بين خلق آدم إلى أن تقوم الساعة أكبر من فتنة الدجال»[1] لأنه يأتي إلى القوم يدعوهم ويقول أنا ربكم فاعبدون فيأبون عليه فإذا أبوا أصبحوا وأرضهم ممحلة ، بالأمس عشب ترعاه الإبل والبقر والغنم والآن يابسة هامدة ، ثم يأتي إلى القوم يدعوهم ويقول أنا ربكم فاعبدون فيعبدونه فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فيصبحون مخصبين ، وهذه فتنة كبيرة لا سيما للأعراب الذين لا هم لهم إلا الرعي والمواشي ، فتنة من أكبر الفتن لكنها لمن عصمه الله ليست بفتنة ، لأن له علامات ظاهرة منها هذه العلامة السيئة إذ أنه أعور .

فإن قال قائل : كيف يجعل الرسول ﷺ الفارق بين الرب والدجال أنه أعور مع أن العقل يعرف الفرق بينهما ، فهذا مخلوق وفي الأرض والرب تعالى في السماء ، فلماذا لم يذكر الأدلة العقلية؟

نقول لأنه في مقام الفتنة تغيب فيه دلالة العقل ولا يبقى عند الإنسان محل للتفكير ، ولهذا فالعقل الثابت من أحسن ما يكون عند حلول الشبهات ، فالدلالة العقلية لا شك أنها ثابتة على أن هذا الدجال ليس برب ، لكن الدلالة العقلية مع قوة المهاجم من هذه الفتنة قد تختفي ولا يذكرها الإنسان ، أما العور فظاهر ، بمجرد ما أرى هذا الخبيث ـ وأرجو الله أن يعصمني وإياكم من فتنته ـ بمجرد ما أراه أعرف أنه الدجال ، ولا حاجة إلى أن أعمل فكري ، والفتنة التي عندي الآن وقوة هجوم الشر من عنده هذا كله يزول بهذه العلامة الظاهرة ، «إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور» .

وقد ادعى بعض الناس أن هذا الحديث لا يدل على صفة العين ، وقال إن المراد بالعور هنا العيب ، يعني إنه معيب وإن الله ليس بمعيب .

---

(١) أحمد (١٣٨١٩) من حديث جابر رضي الله عنه ، (١٥٩٥٤) من حديث أنس رضي الله عنه .

لكن هذا القول باطل لأن كل أحد يعرف أن معنى أعور في اللغة العربية أنه ليس له إلا عين واحدة ، والرسول ﷺ يقول : «العوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها والعرجاء البين ضلعها»[1] فلو كان العور بمعنى العيب لكان في الحديث تكرار ، فالعور غير العيب ، ثم إن في ألفاظ الحديث الذي رواه ابن عمر وغيره : «أعور العين اليمنى»[3] وقال : «كأن عينه عنبة طافية»[3] وهذا واضح أن المراد بالعور هنا فساد إحدى العينين .أهـ

* * *

وقوله : «ينظر إليكم أزلين قنطين»[4] .

الشرح

الشاهد قوله «ينظر» والنظر يكون بالعين ، وهذا طرف من حديث قال فيه الرسول ﷺ : «عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غيره ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب» .

أزلين : أي واقعين في شدة ، قنطين : أي آيسين من فرجها ، لأن من عرف الله

(١) أبو داود (٢٦٨٤) كتاب الأضاحي ، باب ما يكره من الضحايا ، والترمذي (١٤٩٧) كتاب الأضاحي ، باب ما لا يجوز من الأضاحي من حديث البراء بن عازب ﷺ ، وصححه الألباني في الإرواء ١١٤٨ ـ والمشكاة ١٤٦٥ ، انظر صحيح سنن ابن ماجه ح (٣١٤٣) .

(٢) البخاري (٧١٢٣) كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، ومسلم (٢٩٣٢) ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) البخاري (٧١٢٣) كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، ومسلم (٢٩٣٢) ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) ابن ماجه باب فيما أنكرت الجهمية وقال البوصيري : هذا إسناد فيه مقال وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه (١٨١) والظلال (٤٥٤) .

تعالى فإنه لا ييأس ولا يقنط من رحمة ربه تبارك وتعالى ، كما قال إبراهيم : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الحجر :٥٦) ، التائهون الذين لا يعرفون قدر الله تعالى ، وإلا فمن عرف قدر الله فإنه لا يمكن أن يقنط .أهـ

* * *

وقوله : **«حجَابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**(١) .

الشرح

حجابه النور وهو جل وعلا نور ، هو ذاته نور وحجابه النور ، فالحجاب نور على نور ، هذا النور العظيم ، لو كشفه الله تعالى لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

سبحات يعني بهاء الوجه ونوره وعظمته ، تحرق ما انتهى إليه بصره من خلقه ، الشاهد قوله بصره ، وما لم ينته إليه بصره؟ هذا لا يكون ، لأن بصره ينتهي إلى كل شيء ، وعلى هذا فالمعنى لأحرقت سبحات وجهه كل شيء ، ولكن من رحمته جل وعلا ومن حكمته أن احتجب عن خلقه بهذه الحجب النورانية ، حجب عظيمة ولهذا لما قيل للرسول ﷺ : هل رأيت ربك؟ قال : «نور أنى أراه»(٢) يعني فيه نور عظيم فلا أستطيع أن أراه ، وقال : «رأيت نورا»(٣) وقد اختلف أهل العلم في معنى هذا الحديث :

---

(١) مسلم (١٧٨) كتاب الإيمان ، باب معنى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) مسلم (١٧٨) كتاب الإيمان ، باب معنى قول الله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ ، من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) مسلم (١٧٨) كتاب الإيمان ، باب معنى قول الله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ ، من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

فمنهم من قال «رأيت نورا» يعني رأيت الله لأن الله نور ، ومنهم من قال «رأيت نورا» يعني رأيت النور الذي احتجب به الله تعالى ، وهذا أقرب لأنه سئل هل رأيت ربك؟ فلو كان رآه لقال نعم رأيته ، أما أن يقول «رأيت نورا» فهذا فيه إخفاء وفيه إلغاز في الجواب ، والمعروف أن رسول الله ﷺ إذا أجاب بشيء فإنه يجيب بجواب واضح .أهـ

* * *

فهما عينان حقيقيتان لا تشبهان أعين المخلوقين ،

الشرح

والصواب لا تماثلان .أهـ

* * *

ولا يصح تحريف معناهما إلى العلم والرؤية لوجوه منها :

أولاً ـ أنه صرف للكلام عن حقيقته إلى مجازه بلا دليل .

الشرح

أفادنا المؤلف من قوله «بلا دليل» أنه يجوز صرف الكلام من حقيقته إلى مجازه بدليل ، وإذا وجد دليل يعين المجاز فهل نقول إنه مجاز صرف عن ظاهره بدليل ، أو نقول إن هذا الدليل جعل ما يخالف الظاهر هو الحقيقة؟

هذا هو الصحيح ، ومعلوم أن كتابتي لهذا الكتاب قبل أن يتبين لي صحة ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وجماعة من أهل العلم أنه لا مجاز في اللغة العربية ، لاسيما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والله أعلم .أهـ

ثانياً ـ أن في النصوص ما يمنع ذلك ، مثل قوله ﷺ : «ينظر إليكم»[1] . وقوله : «لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[2] . وقوله : «وإن ربكم ليس بأعور»[3] .

الشرح

وعلى هذا فيجب علينا أن نؤمن بأن لله عينين ، لكن لو قائل : هل تقول أن هذه العين كأعين الخلق فيها بياض وسواد وعروق؟

الجواب : لا ، لا يجوز أن نقول ذلك لأن الله ليس كمثله شيء ، بل نؤمن بعين ونؤمن بأنها تليق به ولا يمكن أن نمثلها بأعين المخلوقين .

ولا يمكن أن نكيفها لما سبق في أول الكتاب من أن التكييف قول على الله بغير علم .أهـ

---

(١) ابن ماجه باب فيما أنكرت الجهمية وقال البوصيري : هذا إسناد فيه مقال وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجة (١٨١) والظلال (٤٥٤) .

(٢) مسلم (١٧٨) كتاب الإيمان ، باب معنى قول الله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

(٣) البخاري (٧١٣١) كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، ومسلم (٢٩٣٣) كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

المناقشة

سؤال : ﴿ بأعيينا ﴾ ألا تفسر برعايتنا وبحفظنا؟

الجواب : لا ، لابد أن نفسرها بظاهر اللفظ .أهـ

سؤال : الشيخ عبد الرحمن السعدي فسرها؟

الجواب : ولو فسرها ، إلا إنسان يقول برعايتنا بأعيننا ، لأنه لو لم يأت بأعيننا صار تأويلا ، لأن الرعاية لا يلزم منها العين ، فإذا قال الإنسان تجري بمرآى منا فإن الرؤية تكون بالعين ، فإما أن يفسر بمرآى منا أي نراها بأعيننا ، أو الأحسن والأوضح أن يقول بمرأى منا بأعيننا ويؤكد ، لأن المسألة خطيرة .أهـ

الباب السابع عشر

في الوجوه التي وردت عليها صفتا اليدين والعينين .

الشرح

عندما أقرأ صفة اليدين والعينين هل أقول صفتا اليدين وإلا صفة اليدين؟ الأخير ، أحذف الألف لأن ابن مالك يقول :

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق   وإن يكن ليلاً فحذفه استحق

ولهذا عندما نقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ (النمل :١٥) ، لا نقرأ هكذا نقول وقال الحمد لله نحذف الألف .أهـ

* * *

وردت صفتا اليدين ، والعينين في النصوص مضافة إلى الله تعالى على ثلاثة أوجه : الإفراد والتثنية والجمع ، فمن أمثلة الإفراد : قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ (الملك :١) .

الشرح

«بيده» هذا مفرد .أهـ

* * *

وقوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ (طه : ٣٩) .

الشرح

تصنع بمعنى تُرَبى ، والخطاب لموسى وصناعة كل شيء بحسبها ، فصناعة

الإنسان تعني تربيته ، وقوله «على عيني» ولا يمكن لأحد أن يفهم أن معنى « ولتصنع على عيني» بمعنى أنك توضع عليها ، لا أحد يفهم ذلك أبداً لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى ، أما من حيث المعنى فلأننا نعلم أن موسى عليه الصلاة والسلام تربى في الأرض ليس على عين الله ، وأما من حيث اللفظ فإن مثل هذا التعبير : تصنع على عيني يعني أنني أراك بعيني وأراقبك وألاحظك هذا هو معناها الذي لا تقبل غيره ، ولكن الشاهد من هذه الآية جئنا بها للاستشهاد على الإفراد ، «على عيني» .أهـ

* * *

ومن أمثلة الجمع : قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ (يس : ٧١) .

الشرح

يروا بمعنى يعلموا ، لأن العلم أعم من المشاهدة ، فأنا أعلم سواء عن طريق السماع أو عن طريق المشاهدة ، ﴿ أَيْدِينَا ﴾ جمع ، ﴿ أَنْعَاماً ﴾ وهي الإبل وغيرها من الأنعام ، فهنا قال : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ (يس : ٧١) جَمَع .أهـ

* * *

وقوله تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ (القمر : ١٤) .

الشرح

«يعني سفينة نوح ، تجري ونحن نراها بأعيننا ونكلؤها ونحفظها .أهـ

ومن أمثلة التثنية : قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة : ٦٤) .

الشرح

يداه اثنتان ، هناك مثال أخر : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة :٦٤) والضمير يعود لله تعالى .أهـ

* * *

وقول النبي ﷺ : «إذا قام العبد في الصلاة قام بين عيني الرحمن»(١) . هكذا هو في «مختصر الصواعق» عن عطاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، ولم يعزه .

الشرح

هذا الحديث بحثنا عنه فلم نجده إلا في مختصر الصواعق لابن القيم ولكنه لم يعزه .أهـ

* * *

ولم ترد صفة العينين في القرآن بصورة التثنية .

الشرح

وإنما وردت بالجمع والإفراد فقط .أهـ

* * *

هذه هي الوجوه الثلاثة التي وردت عليها صفتا اليدين والعينين ، والجمع بين هذه الوجوه أن يقال :

---

(١) ذكره ابن القيم في «مختصر الصواعق» عند تفسير «فأينما تولوا فثم وجه الله» ٣٤٤ وتتمة الحديث «فإذا التفت قال له : ابن آدم إلى من التفتّ ؟ إلى خير لك مني تلتفت» .

الشرح

واعلم قبل أن نذكر الجمع أنه لا يوجد تناقض بين الكتاب والسنة ، لا بين الكتاب بعضه مع بعض ولا بين السنة بعضها مع بعض ولا بين القرآن والسنة ، لأن الكل من عند الله سبحانه وتعالى ولا يمكن أن يوجد تناقض ، فإن رأيت شيئاً ظاهره التعارض والتناقض وجب عليك أن تعيد النظر مرة بعد أخرى حتى يتبين لك وجه الجمع ، فإن لم يتبين لك فموقفك أن تكل ذلك إلى الله وأن تقول : ﴿ **آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾ (آل عمران :٧) ، لكنني أقول لكم إنه لا يوجد شيء من القرآن والسنة ظاهره التعارض إلا وجد له وجه جمع أو وجد له مخرج من هذا التعارض ، لكن الناس يختلفون في تخريج هذا الذي ظاهره التعارض .أهـ

* * *

إن الإفراد لا ينافي التثنية ولا الجمع ؛ لأن المفرد المضاف يعمّ فيتناول كل ما ثبت لله من يد أو عين ، واحدة كانت أو أكثر .

الشرح

المفرد المضاف لا يدل على أن المقصود به واحد فقط ، بمعنى لا يستلزم والدليل قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ (النحل :١٨) هنا قال ﴿ **نِعْمَةَ اللَّهِ** ﴾ ثم قال ﴿ **لا تُحْصُوهَا** ﴾ ، إذاً فنعمة مفرد لكن يراد بها الجمع والكثرة ، فمثلاً عين الله ويد الله حتى لو كانت مفردة فإنها تشمل كل ما ثبت لله من يد أو عين ، إذاً لا منافاة الآن بين المفرد وبين المثنى والجمع .

إذاً فالإفراد لا ينافي التثنية ولا ينافي الجمع لأن المفرد المضاف يعم فيصدق على الواحد والاثنين والثلاثة .أهـ

وأما الجمع بين ما جاء بلفظ التثنية وبلفظ الجمع

الشرح

هذا هو الذي فيه نوع من الإشكال ، ما جاء بلفظ التثنية مثل ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة :٦٤) وبلفظ الجمع مثل : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً ﴾ (يس :٧١) كيف نجمع؟ .أهـ

* * *

فإن قلنا : أقل الجمع اثنان ، فلا منافاة أصلاً

الشرح

هذا صحيح والسبب لأن أيدينا معناها يدان ، أعيننا معناها عينان فلا ينافي التثنية .أهـ

* * *

بين صيغتي التثنية والجمع ؛ لاتحاد مدلوليهما ، وإن قلنا : أقل الجمع ثلاثة وهو المشهور ، فالجمع بينهما أن يقال : إنه لا يراد من صيغة الجمع مدلولها الذي هو ثلاثة فأكثر ، وإنما أريد بها ـ والله أعلم ـ التعظيم والمناسبة ،

الشرح

التعظيم لأن الجمع دال على العظمة كما هو معلوم ، فالإنسان إذا قال : قلت أو قال : قلنا فإن قلنا أدل على العظمة ، فيكون المراد به التعظيم ، وما هي المناسبة؟ قال .أهـ

* * *

أعني مناسبة المضاف للمضاف إليه ؛ فإن المضاف إليه ، وهو «نا» يراد به هنا : التعظيم قطعاً ؛ فناسب أن يُؤتى بالمضاف بصيغة الجمع ليناسب المضاف إليه ؛ فإن الجمع أدلّ على التعظيم من الإفراد والتثنية ، وإذا كان كل من المضاف والمضاف إليه دالاً على التعظيم حصل من بينهما تعظيم أبلغ .

الشرح

فهذا هو وجه الجمع بين التثنية والجمع .

ونقول مرة ثانية : الجمع بين المفرد والمثنى والجمع أن يقال : إن المفرد إذا أضيف كان دالاً على العموم فيصدق على الواحد والاثنين والأكثر ، وأما الجمع بين التثنية والجمع فإن قلنا إن أقل الجمع اثنان فلا منافاة أصلاً ، لأن جمع بمعنى اثنين لاتحاد مدلوليهما ، وإن قلنا بأن أقل الجمع ثلاثة فإن الجمع هنا لا يراد به المدلول اللغوي وإنما يراد به التعظيم والمناسبة ، التعظيم لأن دلالة الجمع على العظمة أكثر وأقوى من دلالة المفرد والمثنى والمناسبة لأنه أضيف إلى ضمير دال على الجمع وهي «نا» فكان من المناسب أن يجمع لأجل أن يكون مثل الضمير .

لو قال قائل : لماذا لا تؤمنون بأن الله له أيدي كثيرة ، لأن من آمن بأيد كثيرة يدخل فيه الإيمان بالواحدة والثنتين ، كما لو قلت عندي شاتان ثم أقول بعد ذلك عندي شياه ، فما القول في الجواب عن هذا الإيراد؟

نقول يتعين أنهما اثنتان لأن الله تعالى قال في الرد على اليهود والمقام مقام تمدح بكثرة العطاء قال : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (المائدة :٦٤) ولو كان له أيدي كثيرة لناسب أن يقول بل أيديه مبسوطة ، لأن المقام يقتضي كثرة العطاء والمنح وهذا يكثر بكثرة ما يكون العطاء به ، هذا دليل من القرآن .

أما من السنة فكثيرة مثل قول آدم عليه الصلاة والسلام : « اخترت يمين ربي وكلتا

يدي ربي يمين مباركة »[1] وقال : « إن الله يقبض السماوات بيمينه وبيده الأخرى الأرض »[2] هذا أو معناه ، فدل ذلك على أن الله ليس له إلا يدان اثنتان فقط .

قوله ﷺ في الدجال : «إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور» وهذا يدل على أن لله عينين لأن العور لا يكون إلا في العينين ، وهذا صحيح لأنه لو كان لله ثلاثة أعين أو أكثر لقال النبي ﷺ إن لربكم ثلاثة أعين فأكثر ، وبهذا يحصل التمييز ويكون أيضاً أدل على الكمال لله تعالى ، لأنه لا شك أن الثلاث فأكثر في مقام يقتضي أن يكون الكمال بها أكمل من ذكر الثنتين ، وعلى هذا فنقول إن الله تعالى ليس له إلا عينان اثنتان ، ونجمع بين المفرد والجمع كما جمعنا ذلك في اليدين .أهـ

* * *

(١) الترمذي (٣٤٩٨) / باب ما جاء في الذي يفسر القرآن ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٤٨١٢) كتاب التفسير / باب والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، ومسلم (٢٧٨٧، ٢٧٨٨) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

المناقشة

سؤال : قلت إذا أضيف المفرد يدل على العموم وغالب العموم يكون للجمع وليس للتثنية؟

الجواب : لكن لا يمنع أن يكون دالا على التثنية ، إذا أضيف المفرد فإنه يتناول المفرد ويتناول المثنى ويتناول الجمع ، فمثلاً إذا قال الرجل : إمرأتي طالق وليس له إلا واحدة فإنها تطلق ، له اثنتان تطلقان ، له ثلاث أو أربع يطلقن ، كما ذكر ذلك أهل العلم ، قالوا لأن المفرد المضاف يصلح للواحد والاثنين والثلاثة فأكثر .أهـ

سؤال : لو كانت نيته يطلق واحدة؟

الجواب : دعنا من النية فالكلام على دلالة اللفظ ، فهو إذا قال امرأتي وأراد واحدة فهي واحدة .أهـ

سؤال : قول اليهود : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ (المائدة :٦٤) ، واحدة ثم قال : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة :٦٤) .

الجواب : وكذلك هذا يدل عليه ، ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ فقال : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ .أهـ

سؤال : بالنسبة لاختيار التعابير قول أن « ما يماثل » أحسن من « لا يشابه » ربما يقول قائل : إذا قلنا الآن عين الإنسان وعين البعير ، عين الإنسان لا تماثل عين البعير لكن الواضح أنها تشبهه ، فإذا اخترنا في التعبير عن صفات الخالق « لا تماثل » بدلا من « لا تشابه » ربما يتوهم المتوهم أن قدر الفرق الحاصل بين عين المخلوق وعين الإنسان والشمس مثل أو قدر الحاصل بين بعض المخلوقين؟

الجواب : هذا لا يمكن ، لأننا نعرف أنه كما أن الفرق الحاصل بين عين الإنسان

وعين الطير ليس كالفرق الحاصل بين عين الإنسان وعين الخروف وعين الذرة إن كان لها عين .أهـ

سؤال : ما هو المحذور في قولنا لا تشابه؟

الجواب : يقول شيخ الإسلام : إن المحذور من هؤلاء الجماعة الذين حرفوا أنهم قالوا إن أدنى مشابهة تقتضي النفي ، يعني أن أدنى مشابهة بين الخالق والمخلوق يجب أن تنفى .أهـ

سؤال : الأحسن أن نرفض هذه المقدمة؟

الجواب : الأحسن أن نمشي على ما جاء في القرآن هذا الأحسن : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى : ١١)أهـ

الباب الثامن عشر

في كلام الله سبحانه وتعالى

الشرح

وهذا الموضوع من أكثر ما كان فتنة بين السلف والأئمة وبين أهل البدع ، كلام الله ، لأن كلام الله تعالى عليه مدار الشرع كله ، فإن كلام الله سبحانه وتعالى هو الوحي الذي أنزله على الرسل ، والوحي الذي أنزله على الرسل هو الدين كله .أهـ

* * *

اتفق أهل السنة والجماعة على أن الله يتكلّم ، وأن كلامه صفة حقيقية ثابتة له على الوجه اللائق به .

الشرح

هذا ما اتفق عليه أهل السنة ، وقد نقل اتفاقهم على ذلك كل من صنف في هذا الباب .أهـ

* * *

وهو سبحانه يتكلم بحرف وصوت ، كيف شاء ، متى شاء ،

الشرح

ولكن اعلم أن صوت الله تعالى لا يشبه أصوات المخلوقين أبداً ، لكن الحرف الذي يتكلم به هو الحرف الذي يتكلم به الناس ، أما الصوت فإنه لا يشبه أصوات المخلوقين أبداً ، لا في قوته ولا في هيئته ولا في أي شيء مما يتعلق به فإنه لا يماثله ، والدليل على

أنه لا يماثل أصوات المخلوقين قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى :١١) أهـ

وقوله يتكلم كيف شاء : هذه الكيفية ، ونحن لا نعرف كيف يتكلم الله لكن نعرف أنه يتكلم ، فهذه الجلود تنطق يوم القيامة والأرض تحدث أخبارها ، لكن نحن لا نعلم كيف تنطق ولا نعلم كيف تحدث الأرض أخبارها ، وعلى هذا فنقول إن كيفية كلام الله غير معلومة .أهـ

* * *

فكلامه صفة ذات باعتبار جنسه ، وصفة فعل باعتبار آحاده .

الشرح

لأنه يتعلق بمشيئته ، وكل صفة تتعلق بالمشيئة فهي صفة فعل ، فالكلام في أصله صفة ذات لأن الله لم يزل ولا يزال متكلماً ، ولم يمر عليه زمن كان فيه عاجزاً عن الكلام أبداً ، بل هو سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال متكلماً ، أما باعتبار آحاده فإنها صفة فعل .

قوله باعتبار آحاده : نحن نعلم أن الله تعالى يوجد الأمور شيئاً فشيئاً وهو يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (يس :٨٢) ، وتكون كلمة كن عند إرادة الفعل ، إذاً فكلمة ﴿ كن ﴾ حدثت بعد أن لم تكن ، فآحاد كلام الله تعالى صفة فعل ، لأنه حادث بعد أن لم يكن .

وقد اختلف العلماء ، هل يجوز أن نطلق عليه اسم حادث أو نقول أنه محدث لقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ (الأنبياء :٢) ، ولكن إذا فهمنا

المعنى وأن معنى حادث أنه كائن بعد أن لم يكن زال الإشكال ، فعبر كما شئت محدث أو حادث .أهـ

* * *

وقد دل على هذا القول الكتاب والسنة . فمن أدلة الكتاب قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ (الأعراف : ١٤٣) .

الشرح

وقد كان الكلام حين جاء ، وقبل المجيء لم يكن كلام ، ويذكر أن بعض أهل البدع كان يقرأ : وكلم اللهَ موسى تكليما حتى يكون الكلام من موسى لا من الله ، فقال له بعض الحاضرين : ما تقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ (الأعراف :١٤٣) ما قال وكلم ربه قال : ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ فبهت ولم يستطع أن يجيب .أهـ

* * *

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ (آل عمران : ٥٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ (مريم : ٥٢) .

الشرح

هذه ثلاث آيات ولكن كل آية لها اتجاه .أهـ

* * *

ففي الآية الأولى : إثبات أن الكلام يتعلق بمشيئته ، وأن آحاده حادثة .

الشرح

وجهه أن الكلام بعد ما جاء ، ومجيء موسى بمشيئة الله ، فيكون الكلام أيضاً بمشيئته وتكون آحاده حادثة .أهـ

* * *

وفي الآية الثانية : دليل على أنه بحرف ، فإن مقول القول فيها حروف .

الشرح

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ ﴾ (آل عمران :٥٥) ماذا قال ﴿ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ (آل عمران :٥٥) وهذه الجملة حروف ، فدل هذا على أن كلام الله بحرف .أهـ

* * *

وفي الآية الثالثة : دليل على أنه بصوت ،

الشرح

﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ (مريم :٥٢) وجه الدلالة .أهـ

* * *

إذ لا يعقل النداء والمناجاة إلا بصوت .

الشرح

لكن المناجاة بصوت خفي والمناداة بصوت مرتفع .أهـ

* * *

ومن أدلة السنة قول النبي ﷺ : «يقول الله تعالى : يا آدم! فيقول : لبيك وسعديك .

الشرح

وهذا يوم القيامة ، يقول الله يا آدم فيوجه إليه النداء بالحروف يا آدم ، وسَمِعه ، إذاً فهو بصوت .

ومعنى لبيك أي إجابة وثبوتاً على طاعتك ، فإن معنى التلبية الإجابة والدوام والثبوت على الشيء ، فمعنى لبيك أي إجابة لما دعوتني له ، سعديك : قالوا اسم مصدر بمعنى إسعاد أي أطلبك أن تسعدني ، وقيل إن معنى الإسعاد المعاونة ، ومنه قولهم في النياحة في الجاهلية : فلانة أسعدت فلانة يعني أعانتها على نياحتها .أهـ

* * *

فينادي بصوت :

الشرح

كلمة بصوت بالنسبة لعاملها على الفعل مؤكِد فقط ، لأن المناداة لا تكون إلا بصوت .أهـ

* * *

إنّ الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار»[(١)] .

(١) البخاري (٧٤٨٣) كتاب التوحيد / باب قول الله تعالى ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له﴾ ، ومسلم (٢٢٢) كتاب الإيمان / باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

الشرح

فيخرجهم ويعلمهم بسيماهم لأن سيما الكفار والعياذ بالله يوم القيامة تتميز وتتبين ، وفي هذا الحديث دليل على أن كلام الله بمشيئته ، لأنه يتكلم في القيامة فيتعلق بمشيئته ، وفيه دليل على أنه بحرف لأن مقول القول : يا آدم حروف ، وفيه دليل على أنه بصوت «فينادي بصوت» ، ولكن هذا الصوت لا يشبه أصوات المخلوقين .أهـ

* * *

وكلامه سبحانه هو اللفظ والمعنى جميعاً ، ليس هو اللفظ وحده أو المعنى وحده . هذا هو قول أهل السنة والجماعة في كلام الله تعالى ، أما أقوال غيرهم فإليك ملخصها من «مختصر الصواعق المرسلة» :

الشرح

أصل الصواعق لابن القيم ، «الصواعق المرسلة على غزو الجهمية والمعطلة» العنوان ضخم ، صواعق مرسلة على الغزو وإذا أرسلت على الغزو تدمرهم ، ولهذا يعتبر كتابه هذا من أحسن الكتب في الموضوع ، لكن الكتاب الأصل غير مطبوع إلى الآن وهو موجود مخطوطاً لكنه غير مطبوع ، وأما المختصر فموجود ، وهذا ملخص من المختصر إذاً هو ابن الإبن .

فالأول قول الكرامية والثاني قول الكلابية والثالث قول الأشعرية والرابع قول السالمية والخامس قول الجهمية والسادس قول فلاسفة المتأخرين والسابع قول الاتحادية .أهـ

* * *

١ ـ قول الكرامية : وهو كقول أهل السنة ، إلا أنهم قالوا : «إنه حادث بعد أن لم يكن» ، فراراً من إثبات حوادث لا أول لها .

الشرح

وهؤلاء أقرب ما يكون إلى أهل السنة ، يقولون كلام الله بحرف وصوت ويتعلق بمشيئته ، لكنه حادث بعد أن لم يكن ، يعني كان الله بالأول ما يتكلم ثم صار يتكلم ، وهذا الأخير باطل لأننا نقول إذا كان الله لا يتكلم قبل أن يتكلم فهل هو عاجز؟ فقد وصفتموه بالعجز ، أو قادر؟ فإذا كان قادراً فإنه يتكلم وما الذي يمنعه من الكلام !؟ فالصواب خلاف ما قالوا ، لكن هم أقرب الناس إلى أهل السنة والجماعة ، ونقبل ما أصابوا فيه ونرد ما أخطأوا فيه .أهـ

* * *

٢ ـ قول الكلابية :

الشرح

أتباع محمد بن سعيد بن كلاب .أهـ

* * *

«إنه معنى قائم بذاته لازم لها كلزوم الحياة والعلم ، فلا يتعلق بمشيئته ، والحروف والأصوات حكاية عنه خلقها الله لتدل على ذلك المعنى القائم بذاته ،

الشرح

هذا كقول الأشعرية الذي يأتي إن شاء الله إلا أن بينهما فرقا ، يقول إن كلام الله هو معنى قائم بذاته لازم لها كلزوم الحياة والعلم ، وهذا القول ليس بصحيح لأننا قلنا

إن كلام الله لفظ ومعنى وليس معنى فقط ، ثم هو ليس بلازم لذات الله كلزوم الحياة والعلم بل هو يتعلق بمشيئته ، أما الحياة والعلم فإنها لا تتعلق بالمشيئة .أهـ

* * *

وهو أربعة معان : أمر ، ونهي ، وخبر ، واستخبار» .

الشرح

وعلى هذا تكون على رأيه أن هذا المعنى مركب من أربعة معاني هي : الأمر والنهي والخبر والاستخبار .

وكلام الله ليس منحصراً في هذه الأربعة ، بل في كلام الله ما هو للتمني وما هو للترجي فلا يكون هذا التقسيم حاصراً .أهـ

* * *

٣ ـ قول الأشعرية : وهو كقول الكلابية إلا أنهم يخالفونهم في شيئين :

أحدهما ـ في معاني الكلام ، فالكلابية يقولون : «إنه أربعة معان» والأشعرية يقولون : إنه معنى واحد ،

الشرح

وهذا شر غير معقول .أهـ

* * *

فالخبر والاستخبار والأمر والنهي ، كل واحد منها هو عين الآخر ، وليست أنواعاً للكلام ، بل صفات له ، بل التوراة والإنجيل والقرآن كل واحد منها عين الآخر ، لا تختلف إلا بالعبارة .

الشرح

هذا المذهب أعتقد أن تصوره كاف في رده ، يقولون إن كلام الله معنى قائم بنفسه لازم له ويسمونه الكلام النفسي ، ولا يؤمنون بأن الله يتكلم بحرف وصوت ، ويقولون هذه الحروف والأصوات خلقها الله لتعبر عن كلامه ، أما أنه هو سبحانه يتكلم فلا ، وكلامه معنى قائم بنفسه ، ثم أبطل من ذلك أن يقولوا إنه معنى واحد ، كل الكلام معنى واحد ، الخبر والاستخبار الذي هو الاستفهام والأمر والنهي كلهن شيء واحد ، بل نزيد على ذلك ونقول إن التوراة والانجيل والقرآن شيء واحد عندهم ، فمثلاً قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ (الإسراء :٣٢) ، هو عين قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ (البقرة :٤٣) ، وهذا ليس بمعقول أبداً ، ولولا أن هذا يذكر لقلنا إنه لا يمكن لأي إنسان عاقل أن يقوله وأن يجعل الخبر هو عين الاستخبار وعين الاستفهام ، وأن يجعل الأمر هو عين النهي والأمر والنهي هما عين الخبر والاستخبار ، لأنهم يقولون إنه معنى واحد لا يتجزأ ، كل هذا على زعمهم أنه لو كان يتجزأ للزم قيام الحوادث بالله تعالى ، والحوادث لا تقوم إلا بحادث ، وهذه مقدمات كلها باطلة لا دليل عليها ، وانظر الآن بماذا يخالفون الكلابية : الكلابية يقولون إنه أربعة معاني وهؤلاء يقولون إنه معنى واحد .أهـ

* * *

الثاني ـ أن الكلابية قالوا : «إن الحروف والأصوات حكاية عن كلام الله» ، وأما الأشعرية فقالوا : «إنها عبارة عن كلام الله» .

الشرح

والفرق بينهما أن الحكاية أن يحكى لفظ الصوت ، والعبارة أن يعبر عنه بمعنى آخر

وليس بأن يحكى لفظ الصوت ، فمثلاً لو قلت أنا : إن فلانا يقول كذا وكذا وما حكيت كلامه ، فأكون الآن معبرا ، لكن لو حكيت كلامه بالضبط لكنت حاكيا ، وهم يقولون إن القرآن عبارة عن كلام الله وليس كلام الله ولكن خلقه الله ليعبر عما في نفسه ، فموسى حينما سمع : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ (طه :١٧) لم يتكلم الله بها لأن كلامه معنى قائم بنفسه من الأصل ، لكنه خلق صوتاً سمعه موسى تعبيراً عن كلام الله تعالى ، وهذا المعنى باطل أيضاً .

وسبق لنا أن أهل السنة يقولون إن كلام الله ليس معنى قائماً بنفسه ولكنه كلام يسمع بحروف وأصوات ويتعلق بمشيئته ، متى شاء تكلم بما شاء سبحانه وتعالى ، وسبق لنا شيء من أقوال المخالفين لهؤلاء ، منها قول الكرامية وهم يوافقون أهل السنة إلا أنهم قالوا إنه حادث بعد أن لم يكن فجعلوه من الصفات الفعلية المحضة ، والثاني قول الكلابية يقولون إنه معنى قائم بنفس الله وليس شيئاً يسمع ، بل هو معنى قائم بذات الله كقيام الحياة والعلم ، مثلما أن الله حي وعليم ومتكلم فهو صفة معنوية قائمة بذات الله تعالى لازمة لحياته ، وما سمع من كلامه فهو مخلوق حكاية عنه ، وهو أربعة أنواع : أمر ونهي وخبر واستخبار ، أما الأشاعرة فقالوا نحواً من هذا القول ، إنه معنى قائم بنفس الله تعالى وأنه لازم لذاته كلزوم الحياة والعلم ولا يتعلق بمشيئته وأن ما يسمع من كلام الله ليس كلام الله ولكنه عبارة عنه ، ثم جاءوا بالطامة الكبرى بأن كلام الله كله معنى واحد فالأمر عين النهي والخبر عين الاستخبار ، ولا شك أن هذا كلام لا يعقل ، لا يعقله إلا من فسد عقله وقال به .أهـ

* * *

٤ ـ قول السالمية :

الشرح

واستمع لهذا القول العجيب .أهـ

«أنه صفة قائمة بذاته لازمة لها

الشرح

فيوافقون الأشاعرة والكلابية .أهـ

* * *

كلزوم الحياة والعلم ، فلا يتعلّق بمشيئته ، وهو حروف وأصوات

الشرح

بهذا يخالفون الأشاعرة والكلابية ، لكن يقولون .أهـ

* * *

متقارنة لا يسبق بعضها بعضاً ، فالباء والسين والميم في البسملة ـ مثلاً ـ كل حرف منها مقارن للآخر في آن واحد ، ومع ذلك لم تزل ولا تزال موجودة» .

الشرح

فقوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (النمل :٣٠) ، الباء والسين والميم كلها كما يقال ـ ولله المثل الأعلى ـ خرجت جميعاً لم تخرج مترتبة ، وقالوا لأنه لو خرجت كلمات الله مترتبة لزم أن تقوم الحوادث به ، فإذا جاءت السين بعد الباء فمعناه أنها حدثت بعده ، وإذا جاءت الميم بعد السين والباء فقد حدثت بعدها وقيام الحوادث عندهم بذات الله ممتنع ، ولكن الممتنع ما ذكروه ، فمن يمكنه أن يقول أن : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (النمل :٣٠) ، التي في أول الفاتحة وقوله ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾ (الناس :٦) وكل القرآن خرج مرة واحدة؟ بل أبلغ من ذلك أن كل كلمات الله تعالى التي لا يمكن أن تنفد كلها متقارنة وشيئا واحدا ، ولا شك أنه كما

قال شيخنا رحمه الله في توضيح الكافية الشافية يقول : تصور هذا المذهب كاف في رده ، فأنت إذا تصورت هذا المذهب عرفت أنه باطل لا يمكن القول به ، فهم وافقوا أهل السنة والجماعة بكونه حروفا وأصواتا ، لكنهم خالفوهم في كونه معنى قائما بنفسه لازما لها كلزوم الحياة والعلم وفي كونه متقارناً ، ومن يعقل هذا؟أهـ

* * *

٥ ـ قول الجهمية والمعتزلة : «إنه مخلوق من المخلوقات وليس من صفات الله» .

الشرح

الجهمية والمعتزلة تصادقا في مسألة الكلام وتوافقا ، بينما يختلفان في أسماء الإيمان والدين ويختلفان أيضاً في مسائل القدر ، الجهمية جبرية والمعتزلة قدرية ، في باب اسماء الإيمان والدين الجهمية يقولون إن الأعمال لا تدخل في مسمى الإيمان وأن الإيمان هو العرفان ، أن تعرف أن الله واحد ، والمعتزلة يقولون إن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان وأن الإنسان لو فعل كبيرة خرج من الإيمان لكن لم يدخل في الكفر بل هو في منزلة بين المنزلتين .

وانظر الفرق : فالجهمية يقولون إزن واسرق وتلوط واشرب الخمر واقتل النفس وافعل كل محرم لا يخرجك من الإسلام وأنت مؤمن كامل الإيمان ، ولا نقول أنت مؤمن كامل الإيمان فقط بل نقول إن كل الناس في الإيمان سواء ، حتى إيمان أفسق الناس وإيمان جبريل على حد سواء ، والإيمان عندهم هو المعرفة ، وابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية رد عليهم في ذلك رداً قوياً ومقنعاً ، قال إذا كان الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فاسأل إبليس هل هو يعرف ربه أم لا؟

نعم يعرف ربه ، ولهذا سأل ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) ﴾ (الحجر :٣٦) ، واسأل كل أولئك الذين فعلوا المعاصي هل يعرفون الله؟ الجواب يعرفونه ، يقول ابن القيم : فهم عند جهم كاملوا الإيمان .

المعتزلة والجهمية توافقوا في مسألة الصفات ، كلهم نفاة معطلة لكنهم يختلفون في الغلو ، فالجهمية أشد غلواً في النفي من المعتزلة ، وفي الكلام اتفقوا على أن كلام الله مخلوق من المخلوقات ، أما الله (فلا يتكلم لكن يخلق كلاماً ، قد يخلقه في الشجرة ، كما في قوله تعالى عن موسى : ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (القصص :٣٠) ، قالوا خلق الله كلاماً في الشجرة فسمعه موسى فقال هذا كلام الله ، أو يخلقه الله تعالى في الهواء ويسمع ، أما أن الله يتكلم بكلام هو صفته فلا ، إذا كان مخلوقاً فهل يتعلق بمشيئته؟

الجواب نعم ، فهم يوافقون أهل السنة في كون الكلام متعلقاً بمشيئته ، لكن يخالفونه في كونه مخلوقاً ، ولننظر الآن أيهما أشد في مسألة الكلام قول الأشعرية أم قول الجهمية؟

الأشعرية يقولون إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس ، والجهمية والمعتزلة يقولون الكلام هو هذا الذي نسمع في المصحف ، هذا كلام الله لفظه ومعناه ، ولذلك يقولون ليس كلام الله بلفظه ومعناه ، كلام الله بمعناه فقط وأما اللفظ فإن الله تعالى خلق أصواتاً ليعبر بها عما في نفسه .

إذاً فالأشعرية يقولون ما في المصحف ليس كلام الله ولكنه عبارة عنه ، والجهمية يقولون إنه كلام الله حقيقة ليس عبارة عنه ، فالجهمية من هذا الوجه خير من الأشعرية .

نأتي إلى الخلق : الأشعرية يقولون هذه الحروف التي في القرآن والأصوات التي سمعها الرسول أو سمعها جبريل يقولون إنها مخلوقة ، والجهمية يقولون أيضاً إنها مخلوقة ، ولهذا قال بعض المحققين منهم إنه ليس بيننا وبين الجهمية والمعتزلة فرق لأننا

كلنا متفقون على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق ، لكن نحن نقول مخلوق وهو كلام الله وأنتم تقولون مخلوق وهو عبارة عن كلام الله .أهـ

* * *

ثم من الجهمية من صرح بنفي الكلام عن الله ، ومنهم من أقرّبه ، وقال : إنه مخلوق .

الشرح

يعني منهم من صرح وقال إن الله لا يتكلم لكن يخلق كلاماً ، ومنهم من قال إنه يتكلم ولكن الكلام مخلوق .أهـ

* * *

٦ ـ قول فلاسفة المتأخرين أتباع أرسطو : «أنه فيض من العقل الفعال على النفوس الفاضلة الزكية

الشرح

والعقل الفعال عندهم هو الذي خلق الكون وليس الله ، ولهذا يعبرون عن الله بأنه العلة الفاعلة أو العقل الفعال أو ما أشبه ذلك ، هذا العقل الفعال ـ الإلكتروني ـ على رأيهم يقولون أنه يفيض على النفوس الفاضلة الزكية .أهـ

* * *

بحسب استعدادها وقبولها ، فيوجب لها تصورات وتصديقات ، بحسب ما قبلته منه ،

الشرح

الفرق بين التصور والتصديق أن التصور يعرف الإنسان الصورة والتصديق يحكم عليها ، فالتصديق بمعنى الحكم على الشيء .أهـ

وهذه التصورات والتصديقات المتخيلة تقوى حتى تصور الشيء المعقول صوراً نورانية تخاطبها بكلام تسمعه الآذان» .

الشرح

يقولون عندنا عقل فعال هو الذي يدبر الكون ، يفيض على النفوس الفاضلة الزكية مما عنده ـ لا نقول مما أعطاه الله لأنه هو الله عندهم ـ يفيض عليها تصورات وتصديقات بحسب استعدادها ، فلقوة التصور والتصديق يتخيل هذا الذي أعطي هذه التصورات والتصديقات أن أحداً يخاطبه بكلام تسمعه الآذان ، هذا المتخيل عندهم هو الله الذي يتكلم ، وهذا في الحقيقة قول باطل ، أولاً : لأن العقل الفعال غير موجود ، وثانياً : أن هذه التصورات والتخيلات إذا أردنا أن نطبقها على الواقع نقول هؤلاء مجانين ، مثل ما يتصور الإنسان أن جنياً يخاطبه أو يتكلم معه .أهـ

* * *

٧ ـ قول الاتحادية : «القائلين بوحدة الوجود :

الشرح

نسأل الله العافية ، هؤلاء الاتحاديون يقولون إن المخلوق عين الخالق ، وبعضهم يقولون إن المخلوق ليس عين الخالق لكن اتحد بعين الخالق ، كانوا في الأول اثنين ثم صاروا واحداً ، والأولون يقولون لا يوجد اثنان في الأصل ، كل الكون هو الرب والمربوب ، ولهذا قال لهم ابن القيم إذا قلتم إن الرب هو هذا الكون فمعنى ذلك أن مربوبكم موطؤكم ، الزوج الذي يطأ زوجته يطأ ربه ـ والعياذ بالله ـ مادام أنكم تقولون كل الكون هو الله فمعنى ذلك أنكم تطؤون ربكم ولهذا قال :

يـــا أمـــة مـــعـــبـــودهـــا مـــوطـــوؤهـــا

تـــبـــاً لـــذي الـــعـــقـــول والأذهـــان[1]

هؤلاء أهل وحدة الوجود يقول مثلاً أنت رب وأنا رب والكلب رب والحمار رب والسماء رب والأرض رب وكل شيء فهو رب ، هؤلاء يقولون إذاً كل كلام في الوجود فهو كلام الله ، مادام أن الإنسان رب فإذا تكلم فهو كلام الرب ولهذا يقولون .أهـ

* * *

إن كل كلام في الوجود كلام الله» كما قال قائلهم :

وكـــل كـــلام فـــي الـــوجـــود كـــلامـــه

ســـواء عـــلـــيـــنـــا نـــثـــره ونـــظـــامـــه

الشرح

فامرؤ القيس قصيدته كلام الله والقس بن ساعدة خطبته كلام الله وكل من تكلم فإن كلامه هو كلام الله ، يتكلم بالقبيح أو بالحسن أو بأي شيء فهو كلام الله ، وإذا مات فقد مات جزء من الله ، ولا يموت بل يقولون تحول من وصف إلى وصف فقط .أهـ

* * *

وكل هذه الأقوال مخالفة لما دل عليه الكتاب والسنة والعقل ، ومن رزقه الله علماً وحكمة فهم ذلك .

---

(١) النونية لابن القيم .

المناقشة

سؤال : قول النبي ﷺ « كأنه سلسلة على صفوان »؟

الجواب : ليس المعنى أن صوت الله تعالى كذلك ، بعضهم يقول إنه صوت الملك أو صوت الوحي ، وبعضهم يقول « كأنه سلسلة على صفوان »[1] في الإفزاع فقط لا في الكيفية .أهـ

سؤال : إذا قالوا إنه بمعنى واحد فكيف يفسرون الأمر بمقتضاه؟

الجواب : هو يقول الأمر مقتضاه الفعل والنهي مقتضاه الترك ، لكن هما شيء واحد لأنه ليس عندهم أن الله سبحانه وتعالى يجزأ كلاماً ، نفس الكلام هذا هو الكلام هذا لكن اختلفت الصورة بحسب ما سمع الناس من هذا التعبير .أهـ

سؤال : هم يفسرونه على أن الله قاله؟

الجواب : نعم ، هم يقولون قال : أمر ، أقم الصلاة أمر لا تقربوا الزنا نهي لكن هذا هو عين هذا ، ولذلك فإن كلامهم لا يتصوره الإنسان أبداً ، كيف يكون الأمر هو عين النهي؟

قالوا نعم ، لأنه لا يمكن أن نقول إن الله تكلم بكلامين قال «أقم الصلاة» «ولا تقربوا الزنا» لأن الكلام عندهم لا يمكن أن يتجزأ إطلاقاً ، فكما أن العلم الذي وصف الله به نفسه لا يتجزأ كذلك الكلام لأنهم يرون أنه معنى قائم بالنفس ، وهذه الأشياء الأمر والنهي والخبر الاستخبار أشياء خلقها الله تعالى لتعبر عما في نفسه .

والله أعلم .

---

(١) البخاري (٤٨٠٠) كتاب التفسير / باب (حتى إذا فزع عن قلوبهم) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

سؤال : قيام الحوادث ما معناه؟

الجواب : قيام الحوادث معناها الأفعال ، يعني مثلاً استوى على العرش ، ينزل إلى السماء الدنيا ، يتكلم ، هذه أشياء حادثة ، وهم يقولون قيام الحوادث بذات الله ممنوع لأن الحادث لا يقوم إلا بحادث ، فأنت على زعمهم إذا أثبت أن الله تقوم به الحوادث لزم من ذلك أن يكون الله تعالى حادثاً ، وهذا ليس بصحيح ، فهو سبحانه وتعالى الأول الذي ليس قبله شيء ومع ذلك فإنه يفعل ما يشاء .أهـ

فصل

في أن القرآن كلام الله

الشرح

وهذا أيضاً مما حصل فيه النزاع بين أهل السنة والجماعة وبين المعتزلة وأتباعهم .أهـ

* * *

مذهب أهل السنة والجماعة : أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ،

الشرح

كلمة «غير مخلوق» هذه جاءت حين حدث القول بخلق القرآن ، وإلا فالمعروف في عهد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أنهم يقولون القرآن كلام الله منزل ، لكن لما حدث القول بأن القرآن مخلوق قال أهل السنة إنه غير مخلوق ، كما قال أهل السنة إن الله استوى على العرش بذاته لما حدث القول بأنه بمعنى استولى ، وقالوا ينزل إلى السماء الدنيا بذاته حين حدث القول بأنه ينزل ملك من ملائكته أو رحمته ، منه بدأ أي من الله .أهـ

* * *

تكلّم به حقيقة ، وألقاه إلى جبريل ، فنزل به على قلب محمد ﷺ ،

الشرح

كما قال الله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ

(١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) ﴾ (الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٥) ، فقولهم إنه كلام الله يعني لا كلام جبريل ولا كلام محمد ﷺ .

فإن قلت : كيف تجمع بين هذا وبين قوله تعالى عن القرآن : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) ﴾ (التكوير : ١٩ ـ ٢٠) ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) ﴾ (الحاقة : ٤٠ ـ ٤١) ، فأضاف الله هذا القول إلى الرسول ، إلى الرسول الملكي في قوله : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) ﴾ (التكوير : ٢٠) ، وإلى الرسول البشري في قوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ (الحاقة : ٤١) .

قلنا هذه الإضافة باعتبار التبليغ ، فجبريل بلغه محمداً ﷺ فيكون بالنسبة إلى محمد ﷺ قول جبريل فهو القائل ، ومحمد ﷺ بلغه إلينا فيكون قوله باعتبار تبليغه إلينا ، ويدل لهذا أنه لا يمكن أن يكون القول الواحد قولاً لاثنين وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) ﴾ (التكوير : ١٩ ـ ٢٠) ، وقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ فلا يمكن أن يكون القول الواحد قولاً لاثنين ، إذاً هو قول لله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ (التوبة : ٦) أهـ

* * *

وقد دل على هذا القول الكتاب ، والسنة ، فمن أدلة الكتاب قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ (التوبة : ٦) ، يعني القرآن ،

الشرح

يعني هو ليس المعنى حتى يسمع كلام الله من ذات الله ، ولكن حتى يسمع كلام

الله من تالي كلام الله وهو القرآن .أهـ

وقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ (ص : ٢٩) .

الشرح

فصرح بأن الله أنزله .أهـ

* * *

وقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (الشعراء :١٩٥) .

الشرح

فهذا واضح أنه نزل وأنه غير مخلوق ، فإن قلت لا يلزم من النزول أن يكون غير مخلوق ، فهناك أشياء ذكر الله أنه أنزلها وهي مخلوقة ، كما في قوله تعالى ؛ ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ (الأنعام :٩٩) ، ومعلوم أن هذا الماء مخلوق ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ (الحديد :٢٥) ، ومعلوم أن الحديد مخلوق وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ (الزمر :٦) ، ومعلوم أن هذه الثمانية مخلوقة ، فلا يلزم من كونه نازلاً من الله أن يكون غير مخلوق ، لأنا وجدنا أشياء أضيف إنزالها إلى الله تعالى وهي مخلوقة ، فما هو الجواب؟

الجواب أن يقال : إن هذه الأشياء التي أضاف الله إنزالها إليه أعيان قائمة بنفسها ، الحديد والماء والأنعام أعيان قائمة بنفسها فنعلم بأنها مخلوقة ، وأما الكلام فإنه لا يقوم بنفسه بل لا يقوم إلا بالمتكلم به ، وإذا كان لا يقوم إلا بالمتكلم به صار من صفاته ، وصفات الخالق غير مخلوقة .أهـ

* * *

ومن أدلة السنة قوله ﷺ ـ وهو يعرض نفسه على الناس في الموقف ـ : «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؛ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي تعالى»[1] .

الشرح

واضح أنه يريد بذلك القرآن .أهـ

* * *

وقوله ﷺ للبراء بن عازب : «إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيك الذي أرسلت»[2] .

الشرح

الشاهد قوله : « بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت » ، هذا يقوله الإنسان إذا أوى إلى فراشه ، وقد جاء في هذا الحديث أن البراء لما أعادها على النبي ﷺ قال : آمنت برسولك الذي أرسلت فقال له : «بنبيك الذي أرسلت» والمعروف أن كل رسول نبي لأن الرسول أخص ، لكن أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره فقالوا : إنه إذا قال

(١) أبو داود (٤٥٦٧) كتاب السنة / باب في القرآن ، والترمذي (٢٩٢٥) كتاب فضائل القرآن عن جابر رضي الله عنه وصححه الألباني انظر السلسلة الصحيحة (١٩٤٧) .

(٢) البخاري (٢٤٧) كتاب الوضوء / باب فضل من بات على الوضوء من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

برسولك الذي أرسلت يحتمل أن يكون يراد به الرسول الملكي لأنه يسمى رسولاً ، فإذا قال بنبيك الذي أرسلت تعين أن يكون الرسول البشري الذي أرسلت هذا من جهة ، من جهة أخرى أنه إذا قال برسولك الذي أرسلت دخلت النبوة ضمناً ، لكن إذا قال بنبيك الذي أرسلت دخلت النبوة صراحة وهذا أوكد وأبين .أهـ

* * *

وقال عمرو بن دينار : «أدركت الناس منذ سبعين سنة ، يقولون : الله الخالق وما سواه مخلوق ، إلا القرآن فإنه كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود»[1] . اهـ .

الشرح

فإن قلت لماذا لا تقول إن القرآن مخلوق والله عز وجل يقول : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الزمر :٦٢) ، فهل القرآن شيء أو ليس بشيء؟

شيء بلا شك ، لكن الذي يخرجه عن هذا العموم أنه من صفات الله وصفات الله تعالى غير مخلوقة ، ولو أخذنا بهذا العموم لقلنا إن الله خالق نفسه أيضاً لأن الله سمى نفسه شيئاً فقال : ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ (الأنعام :١٩) ، إذاً فالله خالق كل شيء يعني ما عدا ذاته وصفاته ، أما ذاته فظاهر لأنه لا يمكن أن يكون الخالق مخلوقاً أو المخلوق خالقاً ، وأما صفاته فلأنها صفة في ذاته ، فإذا كانت الذات غير مخلوقة كانت الصفات غير مخلوقة .أهـ

* * *

ومعنى قولهم : «منه بدأ» ؛ أن الله تكلم به ابتداء ، وفيه رد على الجهمية القائلين : بأنه خلقه في غيره ، وأما قولهم : «وإليه يعود» ؛ فيحتمل معنيين :

(١) السنن الكبرى للبيهقي كتاب الشهادات / باب ما ترد به شهادة أهل الأهواء ١٠/ ٢٠٣ .

أحدهما ـ أنه تعود صفة الكلام بالقرآن إليه ، بمعنى : أن أحداً لا يوصف بأنه تكلّم به غير الله ؛ لأنه هو المتكلّم به ، والكلام صفة للمتكلّم .

الشرح

إذاً إليه يعود وصفاً لا يوصف به غيره ، ويحتمل معنى أخر .أهـ

* * *

الثاني ـ أنه يرفع إلى الله تعالى كما جاء في بعض الآثار أنه يسري به من المصاحف والصدور[1] ، وذلك إنما يقع ـ والله أعلم ـ حين يعرض الناس عن العمل بالقرآن إعراضاً كليًا ، فيرفع عنهم تكريماً له ، والله المستعان .

(١) ابن ماجه (٤٠٩٩) كتاب الفتن / باب ذهاب القرآن والعلم عن أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه والسلسلة الصحيحة ١/ ٨٧ .

فصل

في اللفظ والملفوظ .

الكلام في هذا الفصل يتعلّق بالقرآن ؛ فإنه قد سبق أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، لكن اللفظ بالقرآن هل يصح أن نقول : إنه مخلوق ، أو غير مخلوق ، أو يجب السكوت؟!

فالجواب : أن يقال : أن إطـــلاق القول في هذا نفياً أو إثباتاً غير صحيح .

الشرح

يعني لا تقل مخلوق ولا غير مخلوق فلا يصح الإطلاق ، ولهذا ورد عن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أنه قال : «من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع»(١) إذاً فالواجب السكوت وأن لا نطلق ، لا نقول على الإطلاق إنه مخلوق ولا نقول إنه غير مخلوق ، لأنك إذا قلت إنه مخلوق طبل الجهمية والمعتزلة لذلك ودفقوا وقالوا هذا رجل منا ، وإذا قلت غير مخلوق فإنه يطبل لذلك القدرية وقالوا هذا يقول إن فعله غير مخلوق لله ، وسبق لنا أن القدرية يرون أن الإنسان مستقل بعمله ، فأنت الآن إن أطلقت مخلوق فرح بك الجهمية والمعتزلة ، وإن أطلقت غير مخلوق فرح بك القدرية ، إذاً لا تطلق ويجب أن تفصل ، ولهذا قال المؤلف .أهـ

* * *

وأما عند التفصيل فيقال : إن أُريـــد باللفظ التلفظ الذي هو فعل العبد فهو مخلوق ؛

الشرح

(١) السنة لعبد الله بن أحمد ١/ ١٦٤ .

أفادنا المؤلف أن اللفظ مصدر ، والمصدر يصح أن يراد به الفعل الذي هو معنى المصدر ، ويصح أن يراد به المفعول الناتج عن المصدر ، فمثلاً إذا قلت لفظي بالقرآن ، إن أردت به التلفظ الذي هو فعلك فهذا مخلوق ، وإن أردت به الملفوظ به ـ اسم المفعول ـ فهو غير مخلوق ، وكون المصدر يراد به معناه شائع كثير في اللغة العربية وهو الأصل ، وكون المصدر يراد به اسم المفعول وارد في اللغة العربية وإن كان ليس بكثير ، ومنه قوله ﷺ في الحديث الصحيح : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[1] يعني مردود ، إذاً اللفظ صالح للأمرين ، فإن أريد به التلفظ الذي هو فعل العبد فهو مخلوق . التعليل .أهـ

* * *

لأن العبد وفعله مخلوقان ،

الشرح

عندما أقول : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ (الفاتحة :٢) ، فالصوت وحركات الفم واللسان مخلوقة لأن هذا من أوصافي أنا وأنا مخلوق وصفاتي مخلوقة ، لكن هذا المقروء غير مخلوق وهو الملفوظ به لأنه كلام الله .أهـ

* * *

وإن أُريد باللفظ الملفوظ به فهو كلام الله غير مخلوق ؛ لأن كلام الله من صفاته ، وصفاته غير مخلوقة .

الشرح

(١) مسلم (١٧١٨) كتاب الأقضيه / باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور من حديث عائشة .

كل صفات الله غير مخلوقة حتى الفعلية كالاستواء على العرش النزول إلى السماء الدنيا وما أشبه ذلك لا نقول إنها مخلوقة لأنها من صفاته وكل صفاته غير مخلوقة .أهـ

* * *

ويشير إلى هذا التفصيل قول الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ : «من قال : لفظي بالقرآن مخلوق يريد به القرآن ؛ فهو جهمي»[1] .

فقوله : «يريد به القرآن» ؛ يدل على أنه إن أراد به غير القرآن وهو التلفظ الذي هو فعل الإنسان فليس بجهمي ، والله أعلم .

الشرح

وهذه الرواية عن أحمد تبين المطلق من كلامه ، لأنه رحمه الله ورد عنه في هذه المسألة روايتان : رواية يقول : «من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع» وهذا مطلق ، لكن الرواية التي معنا « من قال لفظي بالقرآن مخلوق يريد به القرآن فهو جهمي» لأن الجهمية يقولون إن القرآن مخلوق ، فيكون المطلق مما ورد عن الإمام أحمد يجب أن يحمل على المقيد ، وهو أن المراد «من قال لفظي بالقرآن» يريد بذلك القرآن فإنه في هذه الحال يكون جهمياً .

فإذا قال قائل : أصل البحث في هذا الأمر هل هو من الأمور المطلوبة أو من الأمور التي ينبغي أن يُعرض عنها؟

نقول ليس من الأمور المطلوبة بل هو من الأمور التي ينبغي السكوت عنها والإعراض عنها ، والدليل أن الصحابة رضي الله عنهم وهم أحرص منا على العلم لا

(١) السنة لعبد الله بن أحمد ١/ ١٦٥ .

سيما فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته لم يبحثوا في هذا أبداً ، لكن الذي أوجب للسلف أن يبحثوا فيه هو كلام أهل البدع ، فإن أهل البدع تكلموا في هذا الشيء ، فلا يسوغ لنا عندما يتكلمون في هذا الأمر أن نسكت ونربط أفوهنا وندع هؤلاء يصولون ويجولون ويتكلمون بما يريدون ، بل الواجب أن ننزل الميدان ونخوض الغمار ونبين الحق ونبطل الباطل ، وأما السكوت لهؤلاء يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون ولا نتكلم معهم بشيء فإن هذا خلاف ما أوجب الله علينا نحن معشر أهل العلم ، ولذلك تكلم الإمام أحمد ومحمد بن يحيى الذهلي والبخاري وغيرهم من أهل العلم في هذه المسألة لأنهم ابتلوا بها ، كما قلنا فيما سبق في مسألة الجسم والحيز والجهة وما أشبه ذلك ، كلها مما أحدث القول به ولكن السلف رأوا أنه لابد من الكلام وأن لا ندع المجال لهؤلاء يتكلمون كما يشاءون .أهـ

* * *

الباب التاسع عشر

في ظهور مقالة التعطيل واستمدادها .

الشرح

وهذا له رحلة تاريخية .أهـ

* * *

شاعت مقالة التعطيل بعد القرون المفضلة ـ الصحابة والتابعين وتابعيهم ـ وإن كان أصلها قد نبغ في أواخر عصر التابعين ،

الشرح

ويجب أن نعرف ما هو التعطيل؟

التعطيل في اللغة : التخلية ، وأما في الشرع فهو تعطيل الله تعالى عما يجب له من الأسماء أو الصفات سواء كان كليا أم جزئيا ، فالذين ينكرون الرحمة والمحبة والغضب والكراهة والسخط نسميهم معطلة لأن هذا تعطيل ، وكذلك الذين ينكرون جميع الصفات نسميهم معطلة ، وكذلك الذين ينكرون الأسماء والصفات نسميهم معطلة ، وكذلك الذين لا يصفون الله إلا بالنفي نسميهم معطلة ، وكذلك الذين لا يصفون الله لا بالنفي ولا بالإثبات نسميهم أيضاً معطلة .

والحاصل أن التعطيل هو تخلية الله تعالى عما يجب له من الأسماء والصفات .أهـ

* * *

وأول من تكلم بالتعطيل الجعد بن درهم .

الشرح

الجعد بن درهم هوأول من تكلم بالتعطيل فعليه وزر هذه البدعة ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة والعياذ بالله ، وما أكثر الذين عملوا بها ، فما أكثر أوزار هذا الرجل نسأل الله السلامة والعافية .أهـ

* * *

فقال : «إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً» .

الشرح

مقالة التعطيل ظهرت في أصلين : في الكلام والمحبة ، لأن عليهما مدار الشرع كله ، فالكلام هو الوحي وهو الشرع ، والمحبة عليها أساس العبادة ، إذ لا يمكن للإنسان أن يعبد الله إلا وهو يحبه .

وعلى هذا فأقول : إنه نفى صفتين من صفات الله تعالى فقط ، لكن هاتين الصفتين عليهما مدار الشرع كله ، كيف ذلك؟

لأنه إذا نفى أن الله يتكلم فقد نفى الوحى ، وإذا نفى أن الله يحب ويحَب فقد نفى العبادة ، لأن العبادة مبنية على المحبة ، لولا محبة الله ما عبدناه ، فحينئذ يكون هذان الأصلان من أخبث الأصول والعياذ بالله .

ومع ذلك لم يقتصر متبعوه على نفي المحبة ونفي الكلام ، بل نفوا كثيرا من الصفات ، لكن هذا أول ما قال .

قيل له : كيف تقول إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا وقد قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥) ﴾ (النساء :١٢٥) فأنت الآن مكذب للقرآن .

فقال : حاشا ، أنا لا أكذب القرآن ولكني أقول إن المراد بالخلة الفقر ، والفقر بمعنى الاختلال ، فهو محتاج إلى الله تعالى .

وهذا غير صحيح ، إذ لو كان هو المراد بالخليل لكان الشيطان وإبراهيم سواءً ، كلاهما محتاج إلى الله تعالى ، ولكان أفسق الناس وإبراهيم على حد سواء ، وهذا لا يمكن أن يقوله عاقل .

والكلام : قال إن الله لم يكلم موسى تكليما ، وفي القرآن : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) ﴾ (النساء :١٦٤) ، قال لا أنكر ، ولكن المراد بالتكليم الجرح وعندي شاهد من الحديث ، قال الرسول ﷺ : « ما من مكلوم يكلم في سبيل الله »[1] ومكلوم يكلم يعني مجروحا يجرح ، فمعنى كلم الله موسى : يعني جرّحه بمخالب الحكمة ، هذا على سبيل التخييل ، كما قال الشاعر :

وإذا المنية أنشبت أظفارها

ألفيت كل تميمة لا تنفع

لكن ما معنى جرحه بمخالب الحكمة والله تعالى يقول : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) ﴾ (مريم :٥٢)؟ لكن الضلال هو الضلال والعياذ بالله ، ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون .

وعلى هذا يكون أصل هذه المقالة ـ مقالة التعطيل ـ مأخوذة من رجل يقال له الجعد بن درهم ، وسيأتي إن شاء الله بيان حياة هذا الرجل .أهـ

(١) البخاري (٢٨٠٣) كتاب الجهاد / باب من يجرح في سبيل الله تعالى ، (٥٥٣٣) كتاب الذبائح والصيد / باب المسك ، ومسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة / باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فقتله خالد بن عبد الله القسري الذي كان والياً على العراق لهشام بن عبدالملك ، خرج به إلى مصلى العيد بوثاقه ثم خطب الناس ، وقال : «أيها الناس ! ضحوا ، تقبّل الله ضحاياكم ، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم ،

الشرح

جزاه الله خيرا ، فالناس يضحون بالغنم ، بالشاة والمعز والبعير والبقر وهذا ضحى بشر منها ، فإنه شر من الإبل والبقر والغنم والحمير والكلاب والخنازير ، لأن الله يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾ (البينة : ٦) ، ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾ ﴾ (الفرقان :٤٤) ، وإني أسأل الآن : البعير عن سبع والبقرة عن سبع وهذا الرجل عن كم؟ عن آلاف الآلاف ، وقى الله به شرا كثيرا ، لكن بعض الناس ـ والعياذ بالله ـ يقولون إن هذا العمل من خالد بن عبد الله القسري ليس دينا ولكنه سياسي ، ونقول لهم هذا كذب لأن الرجل صرح أمام الناس أنه قتله من أجل هذه البدعة .أهـ

* * *

إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يُكلّم موسى تكليماً» ، ثم نزل وذبحه[1] ، وذلك في عيد الأضحى سنة ١١٩هـ .

وفي ذلك يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «النونية» :

---

(١) رواه الذهبي في مختصر العلو ١١٥ وقال الألباني ورجاله ثقات غير عبد الرحمن بن محمد بن حبيب وأبيه وجده قال المؤلف في الميزان : ولا يعرف هؤلاء قلت : لكنه يتقوى بالذي بعده فإن إسناده خير منه .

ولأجـل ذا ضـحـى بـجـعـد خـالـد الـقـ
سـري يـوم ذبـائـح الـقـربـان
إذ قـال إبـراهـيـم لـيـس خـلـيـلـه
كـلا ولا مـوسـى الـكـلـيـم الـدانـي
شـكـر الـضـحـيـة كـل صـاحـب سـنـة
لـلـه درّك مـن أخـي قـربـان

الشرح

يعني خالد بن عبد الله ، لله درك من أخي قربان يعني من صاحب قربان ، فإن ذبح هذا تقربا إلى الله أعظم من ذبح الشاة أو البعير تقربا إلى الله تعالى ، لما في ذلك من النكال بأصحاب البدع وإتلافهم .أهـ

* * *

ثم أخذها عن الجعد رجل يقال له : الجهم بن صفوان ، وهو الذي ينسب إليه مذهب الجهمية المعطلة لأنه نشره ، فقتله سلم بن أحوز صاحب شرطة نصر بن سيار ، وذلك في خراسان سنة ١٢٨هـ .

الشرح

بينهما تسع سنوات .أهـ

* * *

وفي حدود المائة الثانية عربت الكتب اليونانية والرومانية ؛ فازداد الأمر بلاء وشدة ، ثم في حدود المائة الثالثة انتشرت مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته الذين أجمع الأئمة على ذمهم ، وأكثرهم كفّروهم أو ضلّلوهم .

الشرح

عربت على يد المأمون ، المأمون الذي يمدح الأدباء عصره مدحا عظيما ويسمونه العصر الذهبي ، مع أن شيخ الإسلام يقول : أنا لا أظن أن الله يغفر للمأمون على ما أدخل على الأمة الإسلامية من البلاء ، فهذا الرجل ـ والعياذ بالله ـ حصل على يده من الأذى لأئمة أهل السنة ما هو معلوم ، ومن أكبر من آذى الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ .

في حدود المائة الثالثة انتشرت مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسي ، وهذا الرجل من علماء الكلام وعنده فلسفة وعنده إقناع ، فهو حجة باطلة لكنه صاحب بيان .

يقول شيخ الإسلام : الذين أجمع الأئمة على ذمهم ، وأكثرهم كفّروهم أو ضلّلوهم ، فكان الناس بالنسبة إليهم ما بين مضلل ومكفر ، وهذا التنوع يظهر أنه باعتبار حال المبتدع ، إن كان داعية فإنهم يكفرونه ، وإن كان مقلدا فإنهم يضللونه .أهـ

* * *

وصنّف عثمان بن سعيد الدارمي كتاباً رد به على المريسي سماه : «نقض عثمان بن سعيد على الكافر العنيد فيما افترى على الله من التوحيد»

الشرح

وهذا الكتاب موجود ومطبوع ، وهو كتاب جيد ومفيد لطالب العلم ، وأسلوبه على نفس الأساليب السابقة في الرد والأخذ والمناقشة .أهـ

* * *

من طالع هذا الكتاب بعلم وعدل ، تبين له ضعف حجة هؤلاء المعطلة ، بل

بطلانها ، وأن هذه التأويلات التي توجد في كلام كثير من المتأخرين كالرازي والغزالي وابن عقيل وغيرهم ، هي بعينها تأويلات بشر ، وأما استمداد مقالة التعطيل فكان من اليهود والمشركين وضلال الصابئين والفلاسفة ؛

الشرح

وبئس المدد ، من اليهود ومن المشركين وضلال الصابئين والفلاسفة ؛ وجه ذلك .أهـ

* * *

فإن الجعد بن درهم أخذ مقالته ـ على ما قيل ـ من أبان بن سمعان عن طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ .

الشرح

إذاً وجه استمدادها من اليهود ، وهذه سلسلة العطب ـ والعياذ بالله ـ لا سلسلة الذهب فإنها كلها شر .أهـ

* * *

ثم إن الجعد كان ـ على ما قيل ـ من أرض حَرَّان وفيها خلق كثير من المشركين والصابئة والفلاسفة ، ولا ريب أن للبيئة تأثيراً قويًا في عقيدة الإنسان وأخلاقه ، وكان مذهب النفاة من هؤلاء أن الله ليس له صفات ثبوتية ؛ لأن ثبوت الصفات يقتضي ـ على زعمهم ـ أن الله مشابه لخلقه ، وإنما يثبتون له صفات سلبية أو إضافية أو مركبة منهما ،

الشرح

يقولون لا يمكن أن نثبت لله صفات ثبوتية ، والصفات الثبوتية كالسمع والبصر

والكلام والقدرة والعلم والخلق وما أشبه ذلك ، قالوا لا نثبت هذه الصفات لأن إثباتها يستلزم أن يكون مشابها للمخلوق ومماثلا له وهذا ممتنع ، وبعضهم يقول : لأن هذه الصفات أعراض والأعراض لا تقوم إلا بأجسام والأجسام متماثلة ، فيلزم إذا أثبت هذه الصفات أن تكون قد مثلت الله بخلقه ، وسيأتي الرد عليهم إن شاء الله فيما بعد .أهـ

* * *

فالسلبية : ما كان مدلولها عدم أمر لا يليق بالله تعالى مثل قولهم : «إن الله واحد»

الشرح

كلمة واحد نحن نرى أنها صفة ثبوتية ، وهم يقولون إنها صفة سلبية ، كيف ذلك؟ .أهـ

* * *

بمعنى أنه مسلوب عنه القسمة بالكم ، أو القول ، ومسلوب عنه الشريك .

الشرح

يقولون إن الله واحد ، وليس معنى واحد ثبوت صفة الوحدانية له ، وإنما واحد بمعنى أنه مسلوب عنه القسمة سواء كان ذالك بالتعدد أو بالتجزؤ ، ومسلوب عنه الشريك ، يعني أنه لا يقبل القسمة بالتجزؤ ولا بالتعدد يعني بالكمية ، فليس باثنين ولا هو واحد يتجزأ ، فصار الواحد عندهم الآن ليس معناه من ثبتت له الوحدانية ولكن معناه من سلب عنه القسمة فلا يتقسم ولا يتجزأ لا بالكم بحيث يكون واحدا واثنين وثلاثة وأربعة ، ولا بالقول بحيث يكون له ربع ونصف وثمن وما أشبه ذلك ، وكذلك مسلوبا عنه الشريك يعني أنه لا شريك له .

والمثال الثاني في النسخة الأخرى : يقولون إن الله عالم لكن ليس معنى العالم من كان متصفا بالعلم ولكن عالم أي ليس بجاهل ، ويقولون قدير أي ليس بعاجز وليس معناه إثبات صفة القدرة ، ومن المعلوم أن هذا كلام لا يعقل ، لأنه إذا لم يكن جاهلا فهو عالم ، لأن العلم والجهل متناقضان إذا انتفى أحدهما ثبت الآخر وإذا ثبت أحدهما انتفى الآخر .أهـ

* * *

والإضافية : هي التي لا يوصف الله بها على أنها صفة ثابتة له ، ولكن يوصف بها باعتبار إضافتها إلى الغير ، كقولهم عن الله تعالى : «إنه مبدأ وعلة» فهو مبدأ وعلة ، باعتبار أن الأشياء صدرت منه ، لا باعتبار صفة ثابتة له هي البداء والعلية ،

الشرح

هؤلاء يقولون إن الله سبحانه وتعالى هو المبدأ والعلة ولهذا يسمونه العلة الفاعلة ومَبدأ الأكوان والأشياء .

وما معنى المبدأ والعلة هل معناه ثبوت البداءة له والعلية؟ لا ، حتى على هذه التسمية الباطلة لا يجعلونها ثبوتية ، ويقولون معناه أن الأشياء صدرت منه فهو بالإضافة إلى غيره ، وكذلك الخلق ، يقولون : إن الله تعالى له صفة الخلق لكن لا بمعنى أنه متصف به ، ولكن بمعنى أن له مخلوقا .أهـ

* * *

والمركبة منها هي : التي تكون سلبية باعتبار ، وإضافية باعتبار ، كقولهم عن الله تعالى : «أنه أول» فهي سلبية باعتبار أنه مسلوب عنه الحدوث ، إضافية باعتبار أن الأشياء بعده ، فإذا كان هذا هو ما تستمد منه طريقة النفاة ، فكيف تطيب نفس مؤمن أو

عاقل أن يأخذ به ويترك سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟ .

الشرح

هذا الفصل يعتبر فصلا تاريخيا لكنه مع ذلك يبين أن مبدأ هؤلاء النفاة كله باطل ، لأنه كما رأيتم مأخوذ من الفلاسفة واليهود وضلال المشركين ، فلا يمكن أن يكون مبنىً لعقيدة إسلامية يدين المرء بها لله تعالى .أهـ

المناقشة

سؤال : ما الذي أباح دماءهما ـ الجعد والجهم ـ؟

الجواب : لأنهم دعاة كفر .أهـ

سؤال : يعني فارقوا الجماعة؟

الجواب : نعم ودعاة كفر أيضاً ، لأنهم كذبوا القرآن .أهـ

الباب العشرون

في طريقة النفاة فيما يجب إثباته أو نفيه من صفات الله .

اتفق النفاة على أن يُثبتوا لله من الصفات ما اقتضت عقولهم إثباته ،

الشرح

يعني يقولون كل ما يقتضي العقل إثباته من الصفات فهو ثابت لله ، نثبته ولا ننكره .أهـ

* * *

وأن ينفوا عنه ما اقتضت عقولهم نفيه ،

الشرح

أن ينفوا عنه يعني عن الله ، فما اقتضت عقولهم نفيه وجب نفيه عن الله .أهـ

* * *

سواء وافق الكتاب والسنة أم خالفهما ، فطريق إثبات الصفات لله أو نفيها عنه عندهم هو العقل ،

الشرح

فجعلوا أنفسهم حاكمين على الله سبحانه وتعالى بما يجب له وما يمتنع عليه ، فإذا قيل لهم عن صفة من الصفات هذه في الكتاب والسنة قالوا لكن العقل لا يثبتها فيجب إنكارها ، وإذا أثبتوا لله صفة ليست موجودة في الكتاب والسنة قالوا العقل يثبتها فيجب إثباتها لله ، ولهذا سموا الله بأسماء غير موجودة في القرآن والسنة ، فسموا الله بالقديم وهو غير موجود في الكتاب والسنة ، سموه بالعلة وهو غير

موجود بالكتاب والسنة ، سموه بالعقل الفعال وهو غير موجود بالكتاب والسنة لأنهم يرون أن المدار على العقل ، ولا ريب أن هذه القاعدة متداعية وباطلة إذ أن مقياس العقول يختلف ، فقد أكون أنا أرى أن العقل يثبت هذا وأنت ترى أن العقل ينكر هذا ، ولذلك تجدهم هم بأنفسهم مضطربين ، تارة يقررون بأن هذه الصفة واجبة لله وتارة يقررون بأن هذه الصفة ممتنعة عن الله ، ولهذا أنكر الإمام مالك ذلك وقال : ليت شعري بأي شيء يوزن الكتاب والسنة أفكلما جاءنا رجل أجدل من رجل أخذنا بقوله وتركنا الكتاب والسنة[1] ، وصدق لأننا لو رجعنا إلى هذه العقول وهي عقول متداعية ليس لها أصل ولا أساس حصل التناقض فيما بيننا ، بل حصل التناقض في كلام الإنسان الواحد ، إذ أن الإنسان لا شك أنه ليس على تفكير واحد دائماً بل يختلف التفكير بين حين وآخر ، فأحياناً يكون الإنسان صافي الذهن ليس هناك مؤثرات خارجية تؤثر عليه فيفتح الله عليه من الحق مالا يفتحه عليه إذا كان مشغولاً ، ولهذا قال النبي ﷺ : «لا يقضي القاضي وهو غضبان»[2] فإذا كان كذلك فمعنى هذا أن ما يجب لله ويمتنع ويجوز راجع إلى عقول متداعية متناقضة متنافرة ، وعلى كل حال سيأتي إن شاء الله بيان بطلان قولهم وما يلزم عليه ، لكن الآن نعرف القاعدة عندهم ، القاعدة : ما اقتضى العقل ثبوته وجب إثباته لله وما اقتضى العقل نفيه وجب نفيه عن الله ولا ننظر للكتاب والسنة ، حتى لو جاء في الكتاب والسنة ما يخالف ذلك .أهـ

* * *

ثم اختلفوا فيما لا يقتضي العقل إثباته أو نفيه ، فأكثرهم نفوه

---

(١) الإبانة لابن بطة ٢ / ٥٠٧ ، باب ذم المراء والخصومات في الدين .

(٢) البخاري (٧١٥٨) كتاب الأحكام / باب هل يقضي القاضي وهو غضبان ، مسلم (١٧١٧) كتاب الأقضية / باب كراهة قضاء القاضي وهو غضبان ، وابن ماجه (١٨٧٤) كتاب الأحكام / باب لا يحكم الحاكم وهو غضبان واللفظ له ، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه .

الشرح

وبعضهم توقف فيه ، لكن لا يثبته ، لأن القاعدة الأساسية عندهم أن ما اقتضى العقل نفيه نفوه وما اقتضى إثباته أثبتوه ، فإذا جاءت صفة في القرآن أو في السنة والعقل لا يقتضي إثباتها ولا نفيها اختلفوا ، فأكثرهم قال يجب إنكارها لأن العقل لا يثبتها ، لا لأن العقل نفاها ، بل لأن العقل لا يثبتها وإذا لم يثبتها العقل فإنه يجب إنكارها ، وبعضهم قال مادام أن العقل لم يثبتها ولم ينفها فالواجب التوقف ، فنقول لا نثبتها ولا ننفيها ، هذه القاعدة .أهـ

* * *

وخرجوا ما جاء منه على المجاز ، وبعضهم توقف فيه وفوض علمه إلى الله مع نفي دلالته على شيء من الصفات ،

الشرح

انقسموا فيما لا يقتضي العقل إثباته ولا نفيه إلى قسمين :

قسم ـ وهم الأكثر ـ نفوه ، وتعليلهم أن العقل لا يقتضي إثباته وحينئذ يكون لا دليل عليه ، وما جاء في الكتاب والسنة من إثباته يخرجونه على المجاز ، يقولون هذا مجاز عن كذا وهذا مجاز عن كذا ، مثلاً استوى على العرش يقولون هذا مجاز عن الاستيلاء ، اليد مجاز عن القدرة أو النعمة وعلى هذا فقس ، ومعلوم أن الأشاعرة يثبتون من الصفات سبعاً يقولون إن العقل دل عليها وينكرون الباقي يقولون لأن العقل لم يدل عليها أو لأن العقل ينفيها ، والصفات السبع التي يثبتونها أنشدناكم بيتاً فيما سبق في إثباتها :

له الحياة والكلام والبصر
سمع إرادة وعلم واقتدر

يقولون لأن العقل دل عليها ، كيف دلالة العقل عليها؟

يقولون : الحوادث دلت على القدرة والإحكام دل على العلم والتخصيص دل على الإرادة ، ومعنى التخصيص دل على الإرادة : يعني كون هذه سماء وهذه أرض وهذا نجم وهذه شمس وهذا قمر وهذا إنسان وهذا جمل هذا يدل على الإرادة ، فعندنا علم وإرادة وقدرة ويقولون : هذه الثلاث لا تقوم إلا بحي فتثبت صفة الحياة ، والحي إما أن يكون سميعاً بصيراً متكلماً أو أصم أعمى أخرس والثاني ممتنع فلزم أن يكون سميعاً بصيراً متكلماً .

بماذا نرد عليهم بالطريق العقلي؟

نرد عليهم بالطريق العقلي من وجهين :

الوجه الأول : أن نقول هب أن العقل لا يدل على ما نفيتم من الصفات فإن السمع دل عليه فيجب إثباته ، لأن انتفاء الدليل المعين لا يلزم منه انتفاء المدلول ، لأن الشيء قد يكون له أدلة متعددة ، فانتفاء دليل واحد عنه لا يعني أنه انتفى .

الوجه الثاني : أن نقول إنه يمكن إثبات ما نفيتم بطريقة العقل على الوجه الذي ذكرتم فيما أثبتموه ، فأنتم ذكرتم أن التخصيص يدل على الإرادة ونحن نقول إن إثابة الطائعين يدل على المحبة ، والانتقام من المجرمين يدل على البغض والكراهة ، والإنعام المتواتر على الأمم يدل على الرحمة ، وأيهما أدل على الصفة الإنعام المتواتر على العباد من نزول المطر ونبات الأرض وزوال النقم ، أيهم أبلغ دلالة هذه الأشياء على الرحمة أو دلالة التخصيص على الإرادة؟

الأول أبلغ وأبين وأظهر ، لأن الأول حتى العامي الذي في السوق لو تقول له هذا المطر من آثار ماذا؟ يقول من آثار رحمة الله ، ودليل على ماذا؟ قال على رحمة الله بعباده ، لكن لو تأتي للعامي وتقول له السماء والأرض والنجم والشمس يدل على

ماذا؟ سيقول على القدرة لأنه لا يستطيع أحد أن يصنع مثلها ، لكن هل يدري أنها دليل على الإرادة؟ لا يدري أبداً ، فالحاصل أننا نرد على هؤلاء بمثل ذلك ، والمقام ليس مقامه ولكن على سبيل التمثيل .

أما المعتزلة والجهمية ـ المقتصدون من الجهمية ـ يقولون إن الله تعالى لا يمكن أن يوصف بصفة ثبوتية أبداً ، لأنك إن أثبت له صفة ثبوتية شبهته بالموجودات .

فنقول لهم وإذا وصفتموه بالصفات العدمية شبهتموه بالمعدومات ، فتكايس بعضهم وقال أنا أنفي عنه الأمرين ، لا أثبت ولا أنفي ، فلا أقول إن الله موجود ولا معدوم ، ولا سميع ولا أصم ، ولا أبكم ولا متكلم ، ولا أعمى ولا بصير .

نقول الآن شبهته بالممتنعات ، يمتنع أن يكون الشيء لا موجوداً ولا معدوماً ، فالشيء إما موجود أو معدوم ، يمتنع أن يكون الشيء لا سميعاً ولا بصيراً .

يقول : أما قولك لا سميعاً ولا بصيراً فليس بممتنع ، بل يوجد شيء لا سميع ولا بصير وهو مالا يقبل السمع والبصر مثل الجدار ، عندي جدار ليس سميعاً ولا بصيراً وهذا يصح لأن نفي النقيضين عما ليس بقابل لهما ممكن .

نقول له : أولاً أن قولك إن هذا يقبل أو لا يقبل هذا اصطلاح عندك أنت فقط ، وإلا فإن الله تعالى قال في الأصنام : ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ (النحل :٢١) ، ومعلوم أن الصنم جماد ، فعندك أنه لا يقبل الحياة ولا الموت ووصفهم الله تعالى بأنهم أموات غير أحياء ، فقولك هذا قابل وغير قابل هذا اصطلاح اصطلحته أنت وليس هو الواقع الموافق لما تقتضيه اللغة العربية ، وإذا سلمنا لك جدلاً وقلنا إنه يمكن أن يكون الشيء لا سميعاً ولا أصم إذا كان غير قابل للإتصاف بهما ؛ ولكن ما قولك في الوجود والعدم ، فأنت تقول أني لا أصف الله بالوجود ولا بالعدم ، والوجود والعدم متقابلان تقابل السلب والإيجاب، لا تقابل الملكة والعدم ، والمتقابلان تقابل

السلب والإيجاب لابد من وجود أحدهما عقلاً ، فلا يمكن أن تصف الشيء بأنه لا موجود ولا معدوم أبداً ، بل لا بد أن يكون إما موجوداً وإما معدوماً ، كما لو قلت هذا الشيء ليس ساكناً ولا متحركاً فإن هذا لا يمكن ، فالمتقابلان تقابل السلب والإيجاب لا يمكن رفع أحدهما أبداً ، أما المتقابلان تقابل العدم والملكة فإنه يمكن أن ينفيا جميعاً كما قلنا في الجدار إنه لا سميع ولا أصم . والحاصل أن النفاة أمرهم عجيب في الحقيقة ، والغريب أنهم يسمون أنفسهم بالفلاسفة والعقلاء والحكماء ، ويسمون أهل السنة والجماعة أو السلف يسمونهم الحشوية والنوابت والغثاء والسطحيين وما أشبه ذلك لأنه ليس عندهم العمق الذي عند هؤلاء ، ومعلوم أن كل إنسان يريد أن يدعي لنفسه مرتقىً صعباً ويدعي لغيره نزولاً فإنه يفعل هذا ، لكن الكلام على الحقائق .

كل النفاة الآن اتفقوا على مسألتين ، على أن ما أثبته العقل وجب إثباته وما نفاه وجب نفيه ، ثم اختلفوا فيما لا يقتضي العقل إثباته ولا نفيه فأكثرهم نفاه ، ويخرج ما جاء في الكتاب والسنة على المجاز وبعضهم توقف فيه وفوض علمه إلى الله قال : الله أعلم ، مع نفي دلالته على شيء من الصفات ، يقول أنا أقول الله أعلم لكنه لا يدل على صفة من الصفات ، وهذا تناقض ، إذ كيف تفوض العلم إلى الله ثم تقول لا يدل على شيء ، إذاً ما فوضت بل حكمت بأنه لا يدل وحكمت بالنفي ، وهذا أيضاً من التناقض الذي أشار إليه المؤلف عند هؤلاء الطائفة الواقفة .

فما أثبته العقل أثبتوه بقطع النظر عن كونه موجوداً في الكتاب والسنة وما نفاه نفوه سواء كان موجوداً في الكتاب والسنة أم لا ، وما لم يقتضِ العقل إثباته ولا نفيه فأكثرهم نفاه وبعضهم توقف فيه وقال لا أثبته لأن العقل لا يثبته ولا انفيه لأن العقل لا ينفيه ، وتقدم أن هذه الطريقة طريقة فاسدة وأننا لو أخذنا بها لكانت صفات الله سبحانه وتعالى موكولة إلى عقول البشر ، وعقول البشر لا شك أنها مختلفة اختلافاً

كثيراً ، حتى إن الواحد من هؤلاء المتكلمين يثبت في بعض كتبه ما كان ينفيه في الكتب الأخرى ويثبت لله ما كان يقول فيما سبق إنه مستحيل عليه ويحيل على الله ما كان يقول من قبل إنه واجب له ، فهذه الطريقة باطلة .أهـ

* * *

وهم يزعمون أنهم وفقوا بهذه الطريقة بين الأدلة العقلية والنقلية ، ولكنهم كذبوا في ذلك ؛ لأن الأدلة العقلية والنقلية متفقة على إثبات صفات الكمال لله ، وكل ما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله ، فإنه لا يخالف العقل ، وإن كان العقل يعجز عن إدراك التفصيل في ذلك ،

الشرح

هذه القاعدة الأخيرة مهمة ، كل ما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله فإنه لا يخالف العقل ، لكن هل العقل يثبت ذلك؟ قد يعجز عن إدراكه ، فإدراك التفصيل في صفات الله تعجز عنه العقول ، ولهذا لو سألك سائل هل العقل يدرك أو يثبت استواء الله على العرش؟

فالجواب لا ، لولا السمع ما علمنا بذلك ، لكن العقل يدرك أن الله تعالى عال على خلقه لأن العلو من صفات الكمال والعقل يدرك أن الله تعالى متصف بصفات الكمال ، لو قال لك قائل هل العقل يثبت أن لله قوة؟

تقول نعم لأن هذا من الكمال ، فهو يدرك أن لله تعالى قوة لا تشبهها قوة ، هل يدرك أن لله وجهاً؟

لا ، لولا الشرع ما علمنا بذلك ، ولهذا لا نثبت أن لله أذناً ، وذلك لأن الشرع لم يرد به والعقل لا يمكن أن يثبت لله تعالى من الصفات ما لم يثبته الله لنفسه ، فالحاصل

أن العقل لا يخالف ما جاء به الشرع من صفات الله وإن كان بعض التفاصيل لا يدركها لكن إذا جاء بها الشرع قبلها العقل .أهـ

* * *

وقد شابه هؤلاء النفاة في طريقتهم طريقة من قال الله فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

الشرح

ما حالهم؟ .أهـ

* * *

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾

الشرح

الاستفهام هنا للتعجب ، يعني ألا تتعجب من حال هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ومع ذلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، هؤلاء الذين يقولون نحن نؤمن بالله ونؤمن بما أنزل الله من الكتب السابقة لكنهم يقولون نريد أن نتحاكم على غير شرع الله ، والطاغوت هنا كل ما خالف شرع الله فهو طاغوت ، لأنه من الطغيان وهو مجاوزة الحد ، ومجاوزة الحد أن تتحاكم إلى غير شريعة الله وموافقة الحد أن تتحاكم إلى شريعة الله ، فتعجب من هؤلاء الذين يزعمون وكلمة يزعمون تدل على أنهم غير صادقين لأن الزعم دعوى ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وهو كل ما خالف شريعة الله ومع ذلك قد أمروا أن يكفروا به ، ما سُكت عن هذا ، ما قيل آمنوا بالله ورسوله وسُكت بل قال آمنوا بالله واكفروا بالطاغوت ولهذا قال تعالى﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ**

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾ (البقرة :٢٥٦) ، ومع هذا يقولون نحن نؤمن .أهـ

* * *

﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ .

الشرح

والشيطان قد نفذ إرادته فيهم لأنه أمرهم فأتمروا .أهـ

* * *

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً ﴾

الشرح

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعني قال لهم الناس تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ودعوا الحكم بالطاغوت أو التحاكم إليه ﴿ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ وهنا إظهار في موضع الإضمار إذ مقتضى السياق أن يقول وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيتهم يصدون لكن قال ﴿ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ ﴾ ، ليحكم على هؤلاء بالنفاق وليتبين أن هذا وصف كل منافق وإن لم يكن من هؤلاء المعينين ، فكل منافق في قرارة نفسه لا يريد أن يتحاكم إلى الله ورسوله ، وإن كان يقول أنه مؤمن بالله ورسوله ، وإنما يريد أن يكون التحاكم إلى الطاغوت .

﴿ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً ﴾ ، يصدون متعدي والدليل أن المصدر صدوداً إنما هو للفعل اللازم ، صد يصد صدوداً كـقعد يقعد قعوداً ، ولو كان المراد يصدون الناس عنك لقال يصدون عنك صداً كـيردون رداً ، فكلمة صدود تدل على

أن المراد بقوله يصدون أي بأنفسهم هم ، إذا قلت لهم تعالوا أعرضوا وصدوا ولم يقبلوا ، خلاف المؤمنين ، المؤمنون إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صم وعمياناً بل يأتون إليها مقبلين بآذان سامعة وأعين باصرة ، وأتى بصدود لفائدتين :

أولاً : تأكيد الصد ، يعني صدوداً حقيقياً مثل : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) ﴾ (النساء :١٦٤) ، فالمصدر مؤكد .

ثانياً : إفادة أن هذا الصدود صدود عظيم لتنكيره ، يعني يصدون عنك صدوداً بالغاً لا يرجى فيه إقبال بعد .أهـ

* * *

﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾

الشرح

وذلك بأن يعثر على نفاقهم ، فإذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم وعثر على نفاقهم يقول الله تعالى .أهـ

* * *

﴿ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً ﴾ النساء :٦٠ ـ ٦٢) .

الشرح

إذا عثر عليهم جاءوا يركضون ، والله ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق ، الإحسان بماذا؟

الإحسان لأجل ألا يقتلوا وتوفيقاً لأجل أن يمشوا مع الكفار ويمشوا مع المسلمين ، نوفق بين الرأيين ونجمع ، وهذا ـ والعياذ بالله ـ من النفاق ، من أعظم المداهنة ، لأنهم

يقولون نريد أن نوفق بين هؤلاء وهؤلاء : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ (البقرة :١٤) ، نرى المطابقة في المشابهة بين هؤلاء النفاة وبين هؤلاء المنافقين .أهـ

* * *

ووجه مشابهتهم لهم من وجوه :

الأول : أن كل واحد من الفريقين

الشرح

المراد بالفريقين : النفاة والمنافقون ، النفاة الذين نفوا ما أخبر الله به عن نفسه وما أخبر به عنه رسوله ﷺ والمنافقون في عهد الرسول ﷺ كلٌ منهم .أهـ

* * *

يزعم أنّه مؤمن بما أنزل على النبي ﷺ ، مع أنهم لا يقبلون كل ما جاء به .

الشرح

وجه واضح ، هؤلاء النفاة يقولون آمنا بالله وآمنا بكتاب الله وآمنا برسول الله وآمنا بسنة رسول الله ومع ذلك إذا جاءهم شيء من آيات الصفات لا يقبلون ، إذا قال : ﴿ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ ﴾ قالوا لا يستوي على العرش ، وكيف استوى على العرش ، الله جسم ! مثل الإنسان يجلس على الكرسي هذا شيء حرام ، أنت مجسم أنت كافر هكذا يقولون صراحةً : أي إنسان يثبت أن الله استوى حقيقة على العرش يقولون أنت مجسم وأنت كافر لأنك اعتقدت أن الله جسم ، هل هذا قبل بما جاء به القرآن؟

أبداً لم يقبل ، فالله ـ عز وجل ـ أضاف الاستواء إلى نفسه المقدسة : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۞ ﴾ (طه :٥) ، فكيف تقول أنه ما استوى؟ قال : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ

بِيَدَيَّ﴾ (ص :٧٥) ، قال ما نقبل أن الله له يدان ـ أعوذ بالله ـ هذا حرام وتجسيم وكفر وضلال ، وأقول باليدين القدرتين لما خلقت بقدرتي ، قلنا لا نقبل ، قال لما خلقت بنعمتي واليد تطلق بمعنى النعمة ، قلنا الله ليس له إلا نعمتان : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (النحل :١٨) وما هما النعمتان التي خلق الله فيهما آدم؟ وهكذا ما جاء في الصفات ، ينزل إلى السماء الدنيا قال هذا الكفر بعينه ، إذاً ما الذي ينزل؟ قال الذي ينزل أمره ، ينزل أمره إلى السماء الدنيا ، قلنا والأمر لا يصل إلى الأرض والله يقول : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ﴾ (السجدة :٥) ، قال الأرض لا تقبل ، قلنا لا نقبل الأمر ، قال الذي ينزل الرحمة ، تنزل رحمته إلى السماء الدنيا ، ورحمته إلى الأرض ألا تنزل؟ : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم :٥٠) ، وما فائدة نفي رحمة تنزل إلى السماء الدنيا ولا تصلنا؟ لا نقبل هذا ، قال ينزل ملك من ملائكته ، والملائكة لا تصل إلى الأرض والرسول يخبر بأنه يتعاقب فينا ملائكة بالليل وملائكة بالنهار[1] يقول لا نقبل أن الله ينزل بنفسه ، وهل الملائكة يمكن أن تقول : من يدعوني فأستجيب له؟ لأن الذي ينزل يقول ينزل ربنا إلى السماء الدنيا فيقول : من يدعوني ، هل يمكن أن تقول الملائكة : من يدعوني؟ لو تقول الملائكة من يدعوني فأستجيب له كفرت لأنها ادعت لنفسها الربوبية ، وهل يمكن أن تقول الرحمة من يدعوني فأستجيب له؟ لا يمكن ، فقال لا نقبل أن الله ينزل بنفسه ومع ذلك يقول نحن نؤمن بما جاء عن الله ورسوله ، ثم يأتون بمثل هذه الأمور العظيمة التي تُبنى العقيدة عليها ثم ينكرونها ، إما متأولين إذا لم يستطيعوا رد النص وإما مكذبين للنص ، فهم يشبهون هؤلاء المنافقين .أهـ

(١) البخاري (٥٥) كتاب مواقيت الصلاة / باب فضل صلاة العصر ، ومسلم (٦٣٢) كتاب المساجد مواضع الصلاة / باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الثاني : أن هؤلاء النفاة إذا دعوا إلى ما جاء به الكتاب والسنة من إثبات صفات الكمال لله أعرضوا وامتنعوا ،

الشرح

إذا قيل له أثبت ما أثبته لنفسه ، أثبت اليد ، أثبت الوجه ، أثبت العين ، أثبت الساق ، أثبت القدم فيقول لا نثبت ، يعرض وينسل وينخنس ثم يقول دع الكلام في هذا : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ (البقرة :١٣٤) ، لا تثر هذا الكلام بين الناس هؤلاء ذهبوا فاسكت واجعل التبن على النار ، وما علم أن النار إذا كانت فوق التبن تأكله حتى تخرج وتهلك الناس ، فهؤلاء يعرضون إذا قيل أثبتوا لله ما أثبت لنفسه من صفات الكمال أعرضوا ، وإذا كان الذي يريد أن يجادلهم يعرفون أن عنده من العلم ما يفحمهم تسللوا لواذاً وصاروا يقاطعون الكلام ويأتون بغيره ، وإن علموا أن الذي يريد أن يجادلهم ليس عنده علم أو ما عنده شجاعة ، إما أنه ليس بيده سيف وإما أن بيده سيف ولكن لا يستطيع أن يضرب به قاموا يصرخون به ويقولون اسمعوا لهذا الرجل المجسم الممثل ، ثم إن هذا المسكين يرتبك ولا يستطيع أن يتكلم ، أما أن يقبلوا الحق فهذا بعيد منهم .أهـ

* * *

كما أن أولئك المنافقين إذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ؛ صدّوا وأعرضوا .

الشرح

هؤلاء المنافقون إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ، بل أعظم من ذلك والعياذ بالله في المنافقين نسأل الله العافية عدم قبولهم للحق : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ

يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ (المنافقون :٥) ، قالوا نحن في غنى عن استغفار هذا الرجل ولا حاجة بنا إليه ـ نسأل الله العافية ـ .أهـ

* * *

الثالث : أن هؤلاء النفاة لهم طواغيت يقلدونهم

الشرح

هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وجزاه خيرا ، فلا تقولوا أنت شديد تقول لهم طواغيت ، وتسمي علماءهم الذين يقلدونهم طواغيت .أهـ

* * *

ويقدمونهم على ما جاءت به الرسل ، ويريدون أن يكون التحاكم عند النزاع إليهم لا إلى الكتاب والسنة ، كما أن أولئك المنافقين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أُمروا أن يكفروا به .

الشرح

تأتي إليهم وتقول تعالوا إلى ما قاله الله وقال رسوله يقولون قال فلان وقال فلان من علمائهم الذين يتبعونهم ، قال ابن عربي قال التلمساني قال ابن سينا قال فلان قال فلان من هؤلاء الطواغيت ، ولا يقبلون ما جاء به الرسول ، لأنهم كيف يتوصلون إلى رد ما جاء به الرسول ، ما يقولون ما نقبل محمد ﷺ لأنه منافق يقولوا هل أنت أعلم أم فلان؟ فإن قلت أنا أعلم قالوا كذبت ، فلان أعلم منك فلان البحر الذي لا ساحل له ، ومن أنت حتى تعترض على فلان ، ثم يقولون هذا القول هو الصواب لأنه لا علم عندك وإن كان عندك علم فما عندك فهم وهؤلاء هم العلماء الفطاحل فالقول قولهم .أهـ

الرابع : أن هؤلاء النفاة زعموا أنهم أرادوا بطريقتهم هذه عملاً حسناً ، وتوفيقاً بين العقل والسمع ، كما أن أولئك المنافقين يحلفون أنهم ما أرادوا إلا إحساناً وتوفيقاً ،

الشرح

هذه أيضاً مشابهة واضحة ، فالمتكلمون من المعتزلة والجهمية والأشاعرة ونحوهم يقولون نحن سلكنا هذه الطريقة للجمع بين العقل والسمع ، فنحن نقول في يدي الله المراد بهما النعمة لأن العقل ينكر أن تكون له يدان حسيتان حقيقيتان ، والسمع قد جاء بهذا فيما ظاهره أنهما يدان حقيقيتان حسيتان فيجب أن نوفق بين العقل وبين السمع ونقول المراد باليدين النعمتان . فالذين قالوا المراد كذا لم يؤمنوا بالسمع أبداً ، فكيف يقولون نحن نوفق بين السمع والعقل؟ .

إذا أردتم أن توفقوا بين السمع والعقل فاقبلوا ما جاء به السمع حتى تكونوا عقلاء ، لأن العاقل هو الذي يقول فيما لا يمكنه إدراكه بما جاء به الكتاب والسنة على ظاهره ، بلا قياس ولا تأويل ولا أي شيء ، فالأمور الغيبية التي لا يمكن للعقل إدراكها يجب أن تقبلها على ما جاءت به ، وليست من الأمور الاجتهادية التي للرأي فيها مجال ، بل هذه أمور غيبية يقتصر فيها على ما جاء به الشرع .أهـ

* * *

وكل مبطل يتستر في باطله ، ويتظاهر بالحق فإنه يأتي بالدعاوى الباطلة التي يروج بها باطله ، ولكن من وهبه الله علماً وفهماً وحكمة وحسن قصد فإنه لا يلتبس عليه الباطل ، ولا تروج عليه الدعاوى الكاذبة ، والله المستعان .

الشرح

كل إنسان يتستر ويتظاهر بأنه محق فإنه يأتي بالدعاوي الباطلة مثل أن يقول هذا

قول المحققين ، هذا ما أجمع عليه الناس ، هذا ما دل عليه العقل ، هذا ما يقتضيه الكمال وما أشبه ذلك ، ولهذا لما ذكر المبتدعة أن هذا هو إجماع أهل الحق ، نُقل هذا للإمام أحمد فقال : «وما يدريه ، من ادعى الإجماع فهو كاذب وما يدريه لعلهم اختلفوا»[1] وبين رحمه الله أن مثل هذه الدعاوي كلها يقولها من كان على باطل ، يقول هذا قول المحققين ، هذا هو الصواب ، هذا هو الحق . . إلخ ، وكلٌ يستطيع أن يدعي هذه الدعوى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ (البقرة : ١١) ، المنافقون ﴿ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ﴾ (البقرة : ١١) ، ماذا يقولون ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) ﴾ (البقرة : ١١) ، سبحان الله ، كل إنسان يدعي أنه على إصلاح حتى الشيوعية الملحدة الكافرة تدعي الإصلاح بسلوكها هذا المسلك أن هذا هو الإصلاح في الأرض وأن طريقة ماركس ولينين هي الإصلاح ، أما ما جاءت به الرسل فهذا خرافة وليس فيه إصلاح وما هو إلا عقول بالية أكل عليها الدهر وشرب ونفدت ، فالحاصل أن هذه الوجوه الأربعة التي اشترك فيها أولئك القوم الذين حكى الله عنهم مع هؤلاء النفاة ، وأما طريقة أهل السنة والجماعة والحمد لله فإنها سليمة تتمشى على ما جاء به الكتاب والسنة والله أعلم .أهـ

(١) المسودة في أصول الفقه لابن تيمية / ٢ - ٦١٦ .

فصل

فيما يلزم على طريقة النفاة من اللوازم الباطلة .

الشرح

ونحن لا بد أن نعرف ما معنى اللازم؟

معنى اللازم : الشيء الذي يترتب على الشيء لزوماً لا محيد عنه ، يعني إذا أحد يقول يلزم من كذا كذا وكذا ، واللازم قد يلتزمه الملزم ويقول نعم أنا أقول بذلك ويطرد قوله ، وقد لا يلتزمه ويقول إن هذا ليس بلازم ثم يذكر العلة ويقول ليس بلازم لأنه كذا وكذا ، وقد يكون اللازم لم يطرأ على بال الملزَم إطلاقاً ، بأن يقول الإنسان قولاً ولا يتصور ماذا يترتب على هذا القول من اللوازم ولو أنه تصور ذلك أو نُبه له لكان بين ثلاثة أمور : إما أن يجيب ويبقى على قوله ، وإما أن يلتزم باللازم ويبقى على قوله ، وإما أن يرجع عن قوله ، وهذا كثير .

كثير من الأقوال يقولها أهل العلم ثم إذا رأوا أنه يترتب على هذا القول لوازم باطلة سلكوا أحد المسالك الثلاثة إما أن يلتزموا بهذا اللازم ويقولوا غير باطل ، أو يجيبوا عنه ويقولوا هذا غير لازم ، أو يعترفوا بأنه لازم باطل فيرجعون عن قولهم ، لأن القول إذا ترتب عليه أمر باطل كان دليلاً على أنه باطل ، ولهذا نقول هل لازم القول قول أو ليس بقول؟

نقول أما إذا كان القول من كلام الله وكلام رسوله فلازم قولهما قول ، وذلك لأن قول الله ورسوله صادر عن علم وحق ، فالله تعالى عندما يقول قولاً يعلم ماذا يترتب عليه وماذا يلزم منه وكذلك النبي ﷺ فيكون لازم قولهما قول .

وإن كان القول من كلام غير الله ورسوله ﷺ [1] فليس بقول للملزَم ، فليس

---

(١) فراغ من الأصل ، والظاهر أن الشارح يتكلم عن قول غير الله ورسوله ﷺ هل لازم قوله قول وقد زدناه للتوضيح .

قولاً له ولا يمكن أن ينسب إليه ، وذلك كما قلت لأنه إذا قيل بهذا اللازم فإنه يحتمل من هذا الملزَم أن يقبله ويلتزم به وحينئذ يكون قولاً له ، ويحتمل أن يجيب عنه ويبين أنه ليس بلازم لقوله وحينئذ لا يكون قولاً له ولا يلزم به إذا صح أنه لا يلزمه ، والثالث أن يتبين له أنه لازم لقوله وأنه باطل وحينئذ يرجع عن قوله ، ولذلك نقول إن لازم القول بالنسبة لغير الله ورسوله ليس بقول لما علمتم .

ننظر الآن إلى اللوازم الباطلة التي تلزم على أقوال هؤلاء النفاة لكنهم لا يلتزمون بها ، لكن نحن نرى أنها لازمة وإن لم يلتزموا بها .أهـ

* * *

يلزم على طريقة النفاة لوازم باطلة منها :

أولاً ـ أنّ الكتاب والسنة صرحا بالكفر والدعوة إليه ؛

الشرح

لأنهم يرون أن ظواهر النصوص تدل على التمثيل وتمثيل الله بخلقه كفر ، فيقولون مثلاً : ﴿ استوى على العرش ﴾ ظاهره أنه استوى استواءً حقيقياً أي علا عليه كما يعلو السلطان على عرش مملكته قالوا وهذا تمثيل وكفر ، مع أن هذا هو ظاهر القرآن أن الله استوى على العرش استواءً حقيقياً أي علا عليه علواً يليق بجلاله ، وهم يقولون إن هذا الظاهر كفر لأنه على زعمهم تجسيم والتجسيم تمثيل والتمثيل كفر ، فعلى هذا نقول الكتاب والسنة صرحا بالكفر والدعوة إليه .أهـ

* * *

لأنهما مملوءان من إثبات صفات الله التي زعم هؤلاء النفاة أن إثباتها تشبيه وكفر .

الشرح

الأولى أن نقول تمثيل ولكن هم يقولون تشبيه ، إذاً هذا اللازم نقول فيه أنه باطل ، أن يقول قائل إن القرآن والسنة يدعوان للكفر هذا من أبطل الباطل ، لكنه على قولهم لازم له ، يقولون مثلاً إثبات اليد الحقيقية التي بها يخلق ويأخذ ويقبض هذا تمثيل والتمثيل كفر ، نقول إذاً القرآن والسنة يدلان على الكفر ، ولا أحد يتجاسر وهو يدعي الإسلام أن يقول أن القرآن يدعو إلى الكفر .أهـ

* * *

ثانياً ـ أن الكتاب والسنة لم يُبينا الحقّ ؛ لأن الحقّ عند هؤلاء هو نفي الصفات ، وليس في الكتاب ولا في السنة ما يدلّ على نفي صفات الكمال عن الله لا نصًا ولا ظاهراً ،

الشرح

هم يقولون مثلاً إن الحق أن الله ليس له رحمة ، الحق أن الله لا يغضب ، الحق أن الله لا يرضى ، الحق أن الله لا يسخط ، وليس في القرآن والسنة أن الله لا رحمة له بل بالعكس ، فأنتم الآن تعتقدون أن نفي الرحمة عن الله هو الحق ونفي الغضب عنه هو الحق ونفي الرضا عنه هو الحق ونفي السخط عنه هو الحق ونفي اليد الحقيقية عنه هو الحق ، هذا الذي هم يعتقدون ! فهل في القرآن والسنة أن الله سبحانه وتعالى لا يرحم بمعنى أنه نفى عن نفسه الرحمة؟

لا ، ولا الغضب ولا السخط ولا الكراهة ولا البغض بل إن الكتاب والسنة دلا على إثبات ذلك ، فنقول هذا الذي زعمتم أنه الحق وهو نفي الصفات أرونا في كتاب الله ما يدل على ذلك .

فإذا طالبناهم وقلنا أرونا في كتاب الله وسنة رسوله ما يدل على نفي الصفات قالوا : عندنا لكم دليل من القرآن والسنة على النفي .أهـ

* * *

وغاية المتحذلق من هؤلاء

الشرح

المتحذلق يعني الذي يدعي الحذق ، والحذق قوة الذكاء والفهم ، والمتحذلق بزيادة اللام هو الذي ينسب نفسه للحذق وليس كذلك .أهـ

* * *

أن يستنتج ذلك

الشرح

أي ما يدعيه من نفي الصفات .أهـ

* * *

من مثل قوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ (مريم : ٦٥) وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ (الإخلاص :٤) .

الشرح

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى :١١) ، ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ (البقرة :٢٢) ، وما أشبه ذلك مما فيه النفي ، يقولون هذا الدليل على النفي .

فنقول : فكر أنت في الموضوع هل فيه دليل؟ هل قال الله إنه لا يرضى ، لا يغضب ، لم يستو على العرش ، لا ينزل إلى السماء الدنيا وما أشبه ذلك؟

لا ، قال ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ (مريم :٦٥) ، أي هل تعلم له أحد يساميه ويشابهه ،﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ (الإخلاص :٤) لا أحد يكافؤه في قوته ولا في

سمعه ولا في بصره ولا في غير ذلك من الصفات ، هذا معنى الآية الذي لا يحتمل سواه .أهـ

* * *

ومن المعلوم لكل عاقل أن المقصود من أمثال هذه النصوص إثبات كمال الله تعالى ، وأنه لا شبيه له في صفاته ،

الشرح

يعني لكماله لا مثيل له في صفاته ، إذا قلت لم يكن له كفواً أحد فليس المعنى أنه ليس له صفة بل بالعكس ، المعنى : لا يماثله أحد في صفاته إذ نفي المماثلة عن الشيء دليل على وجود أصل الشيء ، ولو لم يكن أصل الشيء موجوداً لكان نفي المماثلة لغواً من القول لا فائدة منه ، فهذه الآيات وأشباهها على عكس ما قال هؤلاء ، تدل على إثبات الصفات لكن تدل على الكمال الذي لا يساويه فيه أحد ، ولهذا لما قال القائل : ليس كمثل الفتى زهير ، هل يفهم المخاطب أن زهيرا أصم أعمى أبكم بخيل جبان زمن مشلول؟ بل بالعكس ، لا أحد يفهم من مثل هذا التعبير أنه ليس له صفات ، لا يفهم من هذا التعبير إلا أنه لكمال صفاته ليس له مثيل ، فزهير هذا رجل يُمدح ، ليس كمثل الفتى زهير أحد يعني ما مثله أحد في أنه كامل الصفات ، هكذا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى :١١) ، يعني في كمال صفاته .أهـ

* * *

ولا يمكن أن يُراد بها بيان انتفاء الصفات عنه ، إذ لا ريب أن من دلّ الناس على انتفاء الصفات عن الله بمثل هذا الكلام ، فهو إما ملغز في كلامه ، أو مدلس ، أو عاجز عن البيان ،

الشرح

لو أراد أحد أن يدل الناس على أن الله لا صفات له بمثل هذه العبارة لكان إما ملغزاً ، والإلغاز : أن يأتي الإنسان بأمر على خلاف الواقع في ظاهره ولكنه عند التأمل يكون حقاً .

قال رجل : نهق حمار فبطلت صلاتي ، هذا لغز ، ذهب رجل ليأتي بالماء على حمار ، فلما أقبل الحمار على الرجل وهو يصلي نهق ، فلما نهق الحمار التفت إليه الرجل وإذا القرب مملؤة عليه فإنه تبطل صلاته لأنه متييم ، إذا وجد الماء ولو في أثناء الصلاة بطلت صلاته ، والألغاز كثيرة وهناك كتاب اسمه «الطراز في حل الألغاز» مخطوط في مكتبتنا على أبواب الفقه ، في الطهارة مثلاً يأتي بكل الألغاز التي في الطهارة ، في الصلاة ، في الصيام ، في الجنائز وما أشبه ذلك ، هذا الإلغاز .

وهناك أيضاً مدلس ، والمدلس : الغاش الذي يأتي بالكلام وهو لا يريده إنما يريد معنى آخر لكن يغش الناس ويغرهم .

والثالث عاجز عن البيان لا يقدر أن يبين لأنه عاجز معه عي ، كل هذه الأوصاف الثلاثة : الإلغاز والتدليس والعجز عن البيان .أهـ

* * *

وكل هذه الأمور ممتنعة في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ، فإن كلامهما قد تضمّن كمال البيان والإرادة ، فليس المقصود به إرادة ضلال الخلق والتعمية عليهم ، وليس فيه نقص في البيان والفصاحة .

الشرح

بل الأمر بالعكس ، فالله تعالى يقول : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ (النساء :٢٦) ،

ويقول : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴾ (النساء :١٧٦) ، فهذا ما أراد الله تعالى في كلامه لعباده ، أراد أن يبين لهم الحق حتى لا يضلوا ، فإذا قلنا إن الله تعالى أراد بقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى :١١) ، أنه لا صفة له ، فليس هذا ببيان بل هذا عكس البيان .أهـ

* * *

ثالثاً ـ إن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان كانوا قائلين بالباطل وكاتمين للحق أو جاهلين به ؛

الشرح

كانوا قائلين بالباطل لأنهم يقولون بإثبات الصفات الذي يدعي هؤلاء أنه باطل .

وكانوا كاتمين للحق لأنهم لم يبينوا نفي الصفات الذي زعم هؤلاء أنه حق .

أو جاهلين به يعني لا يدرون عن الحق ، فصاروا يتكلمون بالباطل ولا يبينون الحق لأنهم جاهلون .

وأنت إن وصفتهم بالجهل أو بالكتمان فكلاهما قدح عظيم في الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فإذا قلت إنهم لا يدرون عن الحق فلم يتكلموا بالنفي لأنهم لا يدرون أن هذا هو الحق ، أو تكلموا بالإثبات لأنهم لا يدرون أن هذا هو الباطل فهذا كله عيب لهم .أهـ

* * *

فإنه قد تواتر النقل عنهم بإثبات صفات الكمال لله ، الذي زعم هؤلاء أنه باطل ، ولم يتكلموا مرة واحدة بنفي الصفات الذي زعم هؤلاء أنه الحق ، وهذا اللازم ممتنع على خير القرون وأفضل الأمة .

الشرح

فإذا امتنع عليهم جهل الحق وامتنع عليهم القول بالباطل وكتمان الحق دل هذا على أن ما قالوه هو الحق وهو إثبات الصفات .أهـ

* * *

رابعاً ـ أنه إذا انتفت صفة الكمال عن الله لزم أن يكون متصفاً بصفات النقص ،

الشرح

هذا صحيح ، الله تعالى موجود حقيقة ، فإذا انتفت عنه صفات الكمال لزم أن يكون متصفاً بالنقص ، فإذا قلنا لا رحمة له ولا كلام له وقلنا على رأي النفاة المحض لا سمع له ولا بصر له ولا حياة له لأن المعتزلة يقولون الله سميع بلا سمع وبصير بلا بصر وما أشبه ذلك ويلزم أن يكون متصفاً بالنقص ، إذا قلت ليس بسميع لزم أن يكون أصم ولهذا قال إبراهيم لأبيه : ﴿ **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا** (٤٢) ﴾ (مريم :٤٢) فأنت إذا نفيت صفات الكمال عن الله لزم أن يكون متصفاً بالنقص .أهـ

* * *

فإن كل موجود في الخارج فلا بد له من صفة ،

الشرح

كيف كل موجود في الخارج؟

عندنا التقدير الذهني والوجود العيني ، التقدير الذهني : قد يقدر الإنسان ذاتاً ليس لها صفات ، يعني لربما تتصور أنه يوجد ذات ما لها صفات ، كما أنك ربما تتصور

أن هناك مخلوقاً له مئة رجل وله ألف وجه وفي كل وجه ألف عين وفي كل عين ألف سواد وهكذا ويمكن أن تتصور ما هو أعظم من ذلك ، التصور هذا لا يدل على الوجود ، لكن كل موجود في الخارج يعني قائم بعينه فلابد له من صفة ولو لم يكن من صفاته إلا أنه موجود لكفى .أهـ

* * *

فإذا انتفت عنه صفات الكمال لزم أن يكون متصفاً بصفات النقص ، وبهذا ينعكس الأمر على هؤلاء النفاة ، ويقعون في شرّ مما فروا منه .

الشرح

هذه اللوازم لا شك أنها لازمة على قول أهل الباطل وأنهم لا محيد لهم عنها وبهذا نعرف أن القول الحق هو إثبات ما أثبته الله لنفسه ونفي ما نفى الله عن نفسه والله أعلم .أهـ

المناقشة

سؤال : ما الفرق بين اللغز والتورية؟

الجواب : التورية لا يراد بها الإعجاز ، الإلغاز غالباً يريد الإعجاز إعجاز الخصم ، والتورية يريد ألا يبين له الأمر .أهـ

فصل

فيما يعتمد عليه النفاة من الشبهات .

الشرح

النفاة بالتاء المربوطة والشبهات بالتاء المطلقة لماذا؟

لأن التاء في الشبهات ليست تاء جمع ، ولكنها تاء التأنيث إذا أن نفاة ليست جمع مؤنث سالماً لكنها جمع نافي ، كغازي وغزاة وقاضي وقضاة ، لكن شبهات جمع مؤنث إذ أنها جمع شبهة ، فالتاء في نفاة للتأنيث وتاء التأنيث مربوطة بخلاف تاء الجمع ، فإن تاء جمع المؤنث مفتوحة .

وقوله من الشبهات هذا باعتبار حقيقتها أما باعتبارها عند هؤلاء فهي عندهم دلائل وحجج لكنها حقيقةً شبهات وليست بينات ، وكل إنسان يدعي قولاً فإنه يدعي عليه دليلاً لأن قولاً بلا دليل مرفوض من أصله ، ولكن ينظر هل هذا الدليل حقيقي صحيح أو ليس بصحيح ، هذا هو محك النظر والميزان في الأشياء هل تقبل أو ترفض .

والمراد بالنفاة هنا نفاة صفات الله تعالى سواء كانوا من النفاة المطلقين الذين ينكرون كل صفة أو من النفاة المقيدين الذين ينكرون بعض الصفات ويثبتون بعضها .أهـ

يعتمد نفاة الصفات على شبهات باطلة يعرف بطلانها كل من رزقه الله علماً صحيحاً وفهماً سليماً ،

الشرح

هذه الشبهات التي يعتمدون عليها إما دلائل نقلية وإما دلائل عقلية يدعون أنها

عقلية ، فالدلائل النقلية تجدهم يستدلون بآيات مجملة ويدعون الآيات المبينة الموضحة ، يتبعون ما تشابه منه ويدعون المحكم ، فمثلاً يقول نحن لا نثبت أي صفة لله لأن أي صفة تثبتها لله فهي مناقضة لقوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ (مريم :٦٥) ، ولقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى :١١) ، ولقوله : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ (الإخلاص :٤) ، إدعاءً منهم أن إثبات الصفة يستلزم التمثيل ، فيقول مثلاً إذا أثبت لله سمعاً أثبت له مثيلاً ، إذا أثبت له رضىً أثبت له مثيلاً وهذا خلاف دلالة القرآن ، لأن الله يقول : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ ، وما أشبه ذلك ، وقد سبق الجواب عن هذه الشبهة وبيان أنها باطلة وأن إثبات الصفات لا يستلزم التمثيل ، لأننا نقول له سمع ليس كمثل سمعنا ، وله بصر لا مثل بصرنا وهكذا ، كما أننا نشاهد المخلوقات بعضها لا يماثل بعضاً مع اتفاقها في الحدوث ـ كلها حادثة ـ واتفاقها في تلك الصفة ، فسمع الإنسان ليس كسمع الحيوان الآخر وبصره كذلك ، فالطائر يرى الحبة وهو في جو السماء وهي في الأرض وأنت لا تراها ، وهكذا بقية الصفات التي للمخلوقات كلها لا يلزم من اشتراكها في الاسم أن تكون متماثلة في الحقيقة . وسبق لنا أيضاً أنه إذا نفينا عنه الصفات شبهناه بالمعدومات ، وسبق لنا أن بعضهم كابر وقال لا أثبت ولا أنفي ، فقلنا إن هذا تشبيه بالممتنعات لأن الشيء إما ثابت وإما منتفي .

والمهم الآن أننا انتهينا من الكلام على شبهاتهم النقلية وهي الدلائل السمعية ، وبقينا في الشبهات التي يدعونها عقليات وهي ليست بعقليات ولكنها وهميات .أهـ

* * *

وغالب ما يعتمدون عليه ما يأتي :

١ ـ دعوى كاذبة ،

الشرح

يعني يدعون دعوى لكنها باطلة وليست بصواب ، .أهـ

* * *

مثل أن يدعي الإجماع على قوله ،

الشرح

فيقول أجمع أهل الحق على كذا وكذا ، أجمع أهل الحق ويدع السلف ومن تبعهم على الجانب الأيسر ، والذي يسمع قوله أجمع أهل الحق على كذا فإنه يقول خلاف الإجماع كفر ، إذاً لا يجوز أن نخالف هذا الإجماع ، مادام «أجمع» و «أهل الحق» ، وفي الحقيقة أن أهل الحق أجمعوا على خلاف ذلك ، لكن هو يدعي هذا الشيء فإما أن يصادف قلباً خالياً من العلوم فتشتبه عليه هذه العبارة ويأخذ بها ، أو يصادف قلباً واعياً عالماً يعرف الباطل .أهـ

* * *

أو أنه هو التحقيق ، أو أنه قول المحققين ،

الشرح

الذي يقرأ الكتاب وهو لا يعرف المذهب المقابل يظن أن مادام هذا التحقيق من هذا المؤلف فيقبل ، أو قول المحققين أيضاً فيقبل ، فإن قلت هذه العبارة أيضاً يوجد مثلها في كلام السلف ويقولون هذا التحقيق وهذا هو الحق وهذا أجمع عليه الصحابة وما أشبه ذلك ، فهم يقولون أنتم أيضاً ادعيتم مثل ما ادعينا !

نقول بيننا وبينكم كتاب الله وسنة رسوله ، وإلا حقيقة أن دعوانا عليكم

كدعواكم علينا ، ولكن نقول المرجع في هذا إلى كلام الله وكلام رسوله ولننظر أينا أحق في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .أهـ

* * *

أو أن قول خصمه خلاف الإجماع ، ونحو ذلك .

الشرح

فيقول مثلاً عن مذهب السلف أن هذا خلاف إجماع أهل التحقيق أو أهل الحق أو خلاف إجماع العقلاء وما أشبه ذلك ، فالدعوى الأولى لإثبات قوله والدعوى الثانية لنفي قول غيره ورده ، ومع ذلك فهي دعاوى كاذبة لا أساس لها من الصحة .أهـ

* * *

٢ ـ شبهة مركبة من قياس فاسد ، مثل قولهم : إثبات الصفات لله يستلزم التشبيه ، لأن الصفات أعراض ، والعرض لا يقوم إلا بجسم ، والأجسام متماثلة .

الشرح

هذه الشبهة مركبة من قياس فاسد ، لأنهم يقولون إثبات الصفات لله يستلزم التشبيه ، وهذه دعوى معللة ، لأن الصفات أعراض والعرض لا يقوم إلا بالجسم والأجسام متماثلة ، وكل هذه النتائج والمقدمات باطلة ، فقولهم الصفات أعراض هذا غير صحيح ، قد تكون الصفات أعراضاً وقد تكون لازمة لأن الأعراض جمع عرض وهو الذي يعرض ويزول كالمرض والشبع والعطش وما أشبه ذلك ، فهل الصفات كلها أعراض؟ أبداً ، ليست كلها أعراضا .

ثم قولهم العرض لا يقوم إلا بجسم غير صحيح لأن العرض يكون للجسم ولغير الجسم ، فنحن نقول اليوم يومٌ طويل ، والحر حرٌ شديد وما أشبه ذلك وهل

هذه أجسام؟ لا ، اليوم زمن والحر حالة للجو ليست أجساماً ومع ذلك وصفت بالعرض .

وقولهم الأجسام متماثلة أيضاً غير صحيح وبطلانه ظاهر فإنا نجد الأجسام غير متماثلة وهم يقرون بذلك أيضاً ، لا يمكن أن يقولوا إن جسم البعير كجسم الذرة ، ولا أن جسم الزبدة كجسم الحديدة فالزبدة ألين من الحديدة ، والمهم أن قولهم إن الأجسام متماثلة ليس بصحيح ، لكن هذه الشبهة إذا قرأها القاريء ربما تشتبه عليه ويظن أن هذا تعليل صحيح وقياس صحيح ، ولكنه عند التأمل يتبين أنه ليس بصواب وهذا موجود في كتبهم ، وقد تقولون الآن كيف يقولون هذا الكلام؟ كيف يقدمون على هذا الكلام الذي يعرف بطلانه كل شخص؟

نقول هذا موجود في كتبهم وهو إما ملتبس عليهم أو هم ملبسون على غيرهم ، الله أعلم .أهـ

* * *

٣ ـ تمسك بألفاظ مشتركة بين معان يصحّ نسبتها إلى الله تعالى ومعان لا يصح نسبتها إليه ، مثل : الجسم والحيز

الشرح

يأتون بألفاظ مشتركة تدل على معنى يصح لله وعلى معنى لا يصح له فينفون ذلك ، ومادام أن الإنسان يعقل بأن هناك معنى في هذا اللفظ يجب نفيه عن الله فإذا جعلوا الأمر مبني على نفي هذا المعنى قبلوه ، مثال ذلك الجسم يقولون إن الله تعالى ليس له جسم ، ويريدون بذلك أن ينكروا علو الله بذاته ونزوله بذاته ويده ووجهه وعينه وقدمه وساقه وما أشبه ذلك ، يقول كل هذه تدل على أن الله جسم والله تعالى منزه عن الجسمية ، وعندما يأتيك هذا الكلام لأول وهلة تقول هؤلاء هم الذين نزهوا

الله تعالى عن النقص ، قالوا ليس بجسم ولكن الحقيقة أنهم هم الذين جعلوا الله لا شيء وإنما جعلوه معنى معقولاً يدرك بالخيال فقط ، ونحن نقول لهم كما سبق إن عنيتم بالجسم الجسم المركب الذي يفتقر بعضه إلى بعض في التركيب والقيام فهذا منتف عن الله ولا نثبت لله تعالى جسماً بهذا المعنى ، وإن أردتم بالجسم القائم بنفسه المتصف بما يستحقه من الصفات الذي له أفعال تحت مشيئته وإرادته فهو يأخذ يرضى ويغضب ويضحك ويستوي ويجيء وينزل ، إن أردتم بالجسم هذا المعنى فهو حق ومع هذا لا نطلق لفظ الجسم لا نفياً ولا إثباتاً ، لا نقول إن لله جسماً ولا نقول إنه ليس له جسم ، هذا باعتبار اللفظ ، أما باعتبار المعنى فيجب أن نستفصل ، إذا أردنا بالجسم المعنى الأول فهذا ممتنع على الله ، وإن أردنا بالجسم المعنى الثاني أنه ذات مقدسة تقوم بها الأفعال وله يد ووجه وعين وما أشبه ذلك فهو حق بل واجب ، يجب علينا أن نعتقد ذلك ، ولكن يجب علينا أن نحذر من تخيل هذه الذات لأنك مهما تخيلت فإنك لن تدرك هذا ، وإذا كان الله تعالى لا يُدرك بالقوى الحسية فكيف يدرك بالقوى المعنوية العقلية ، قال الله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ (الأنعام : ١٠٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا(١١٠) ﴾ (طه ١١٠) ، فإياك أن تتخيل أن الله سبحانه وتعالى على جسم معين تقدره لأن هذا يؤدي بك إلى مفاوز تعجز عن الخلاص منها ، ولكن أنت تؤمن بأن الله تعالى له ذات مقدسة عظيمة ، أما أن تتصور لها كيفية معينة فهذا لا يجوز ، كذلك الحيز ، هل نقول إن الله تعالى له حيز أو لا؟

هم يقولون إنك إذا أثبت أن الله فوق عرشه بذاته لزم من ذلك التحيز ، والتحيز ممنوع لأنه يقتضي أن يكون الله محصوراً والله تعالى واسع عليم ، فيجب أن تنكر علوه بذاته لئلا تقع في هذه الشبهة ، وسبق لنا أن قلنا إن الحيز إن أريد به أن الله تحوزه المخلوقات وتحيط به فهذا باطل ، وكيف يمكن هذا وقد وسع كرسيه السماوات والأرض وكرسيه موضع القدمين؟ وإن أريد بالحيز أنه منحاز عن الخلائق بائن منها

فهذا حق وصحيح ومع هذا لا نطلق هذا اللفظ لا نفياً ولا إثباتاً لأنه لم يرد في الكتاب والسنة إثباته لله ولا نفيه عنه ، فعلينا أن نتأدب وأن لا نتقدم بين يدي الله ورسوله ، لكن مع هذا لا يمكن أن نتخذ من نفي هذا الاسم نفي ما وصف الله به نفسه من الأفعال والصفات .

وهنا عبارتان : هل نحن لا نقول بالحيز أو نقول بعدم الحيز؟

لا نقول بالحيز على سبيل الإطلاق لأننا لو قلنا بعدم الحيز لكنا قد نفيناه ، ففرق بين أن يقول الإنسان بالنفي وبين أن ينفي القول ، وانتبهوا لهذه النقطة :

نفي القول ليس قولاً بالنفي ، فأنا لا أقول إنه حيز بخلاف ما إذا قلت أقول إنه ليس بحيز ، إذاً لو سئلت هل أنت تقول بنفي الحيز أو لا تقول بالحيز؟

لا أقول بالحيز لأنه فرق بين نفي القول وبين القول بالنفي .أهـ



والجهة

الشرح

يقولون إن الله تعالى ليس في جهة ، والذين قالوا إن الله ليس في جهة انقسموا إلى قسمين : قسم قالوا إن الله تعالى في كل جهة وفي كل مكان ، وهذا يقول به قدماء الجهمية وكل من يقول بالحلول من المعتزلة وغيرهم ، يقولون إن الله في كل مكان وحينئذ تنتفي الجهة ، لأنه إن قلت أمام أخطأت ، إن قلت فوق أخطأت ، إن قلت تحت أخطأت ، إن قلت يمين أخطأت ، إن قلت شمال أخطأت بل هو في كل شيء فلا تقيد ، أو يقولون ـ الذين ينكرون الجهة ـ إن الله تعالى ليس في جهة إطلاقاً ، فليس فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف ، إذاً يصح أن نقول بأنه

معدوم ، لأنه إذا كان موجوداً فلابد أن يكون بأحد هذه الجهات ، فإذا قلت ليس في هذه الجهات فمعناه العدم ، ولهذا قال بعض العلماء لو قيل لنا صفوا العدم ما وجدنا أدق من هذا الوصف ، العدم من ليس داخل العالم ولا خارجه ولا متصلاً ولا منفصلاً ولا يميناً ولا شمالاً ولا فوق ولا تحت ولا خلف ولا أمام هذا العدم ، فإذاً الذين ينكرون الجهة صاروا ينقسمون إلى قسمين ، وقد سبق لنا أيضاً بطلان هذا القول الثاني والأول ، فماذا نقول نحن في الجهة؟ لو قال لك قائل هل تقول إن الله في جهة؟

إن قلت نعم أخطأت وإن قلت لا أخطأت وإن فصلت أصبت ، فإذا قلت في جهة أي أنه سبحانه وتعالى فوق السماوات وما حوله عدم لا يحيط به شيء ، كل الخليقة تحته والفوق جهة عدمية لا يحوده شيء من أي المخلوقات فهذا صحيح لأن الله تعالى فوق كل شيء لا يحاديه شيء أبداً ، وإن أردت بالجهة جهةً تحيط به فهذا باطل لأن الله لا يحيط به شيء من مخلوقاته ، وإن أردت جهة السفل فهو أيضاً باطل لأن الله تعالى فوق ، والدليل على ذلك ـ على ثبوت الجهة فوق لكنه جهة عدمية بمعنى أنه لا يحيط بالله شيء في مكانه ـ أن النبي ﷺ سأل الجارية قال لها : «أين الله؟ وأين يستفهم بها عن المكان ـ قالت : في السماء قال أعتقها فإنها مؤمنة»[1] والغريب أن المنكرين لهذا منهم من يرد الحديث ورد النصوص عندهم سهل إذا لم تكن متواترة ، ومنهم من يقول إن الاستفهام هنا عن الذات ، فـ«أين الله» يعني أي شيء الله؟ وهل يعقل أن تكون أين في ميزان السياق للاستفهام عن الذات؟

أبداً ، الرسول ﷺ أعلم الخلق باللغة العربية وسألها بلفظ أين ولو كان أراد استفهام الذات لقال من الله؟ ولم يقل أين الله .أهـ

* * *

(١) مسلم (٥٣٧) كتاب المساجد / باب تحريم الكلام في الصلاة ، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه .

فهذه الألفاظ المجملة يتوصلون بإطلاق نفيها عن الله إلى نفي صفاته عنه ،

الشرح

عندما تقول أنا أؤمن بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا قال إذاً آمنت بأن الله جسم ، فيلزمك بهذا ، فماذا تجيبه؟

أقول أولاً : إن أردت بالجسم الجسم المركب المفتقر بعضه إلى بعض كافتقار الرأس إلى الجسد وافتقار الجسد إلى الرأس وإلى القلب وإلى اليد وما أشبه ذلك إن أردت بالجسم هذا المعنى فهذا باطل ولا ألتزمه ولا يلزمني أيضاً ، وإن أردت بالجسم الذات القائمة بنفسها المتصفة بما يليق بها فهو حق وأنا ألتزم به وليس في هذا شيء ، وكذلك لو قال إذا قلت ينزل معناه أنه في جهة فأقول كما قلت ، الجهة إذا أردت بها كذا فهي حق وإذا أردت بها كذا فهي باطل ولا تلزم .أهـ

* * *

ثم هم يصوغون هذه الشّبهات بعبارات مزخرفة طويلة غريبة يحسبها الجاهل بها حقّا بما كسيته من زخارف القول ، فإذا حقق الأمر تبين له أنها شبهات باطلة ، كما قيل :

حجج تهافت كالزجاج تخالها
حقّاً وكل كاسر مكسور

الشرح

الزجاج لا يقوم للحجر والحديد أبداً ، بل ولا يقوم بعضه لبعض ، كلٌ كاسر ومكسور ، لو ضربت الزجاجة بأخرى انكسرت ، وأيهم الذي كسر الثاني؟ كل واحد كاسر ومكسور ، هذه حجج أهل الباطل ، تظن أنها حق ولكنها باطلة تتهافت أمام

الحق وكل واحد منها يكسر الأخرى ، ولو رجعت إلى كتبهم لوجدت التناقض العظيمَ بينهم ، حتى إن الواحد منهم يبطل ما قاله من قبل لكنه يبطله بحجة باطلة لأنه لا يبطله بحق ، فهي كلها باطلة .أهـ

* * *

والرد على هؤلاء من وجوه :

الأول ـ نقض شبهاتهم وحججهم ، وأنه يلزمهم فيما أثبتوه نظير ما فروا منه فيما نفوه .

الشرح

وهذا مهم جداً ، نقض الشبهات والحجج ، مثال ذلك إذا قالوا المراد باليد القوة دون الحقيقة لأننا لو أثبتانا لله يداً حقيقية لزم أن يكون مماثلا للمخلوق حيث إن للمخلوق يداً ، نقول لهم بكل بساطة وللمخلوق قوة ، فإذا أثبتم أن لله قوة لزم على قاعدتكم أن يكون مماثلاً للمخلوق ، لأن القوى عندكم مماثلة كما أن الأيدي عندكم متماثلة ، فيلزمكم إذاً فيما أثبتموه نظير ما يلزمكم فيما نفيتموه بل شر منه ، لأنه يلزمكم على هذا الوقوع فيما فررتم منه وزيادة تحريف النص ، وأما الذين قالوا بظاهره فهم على تسليم أن ذلك تشبيه لم يقعوا إلا في التشبه فقط ، أما أنتم فوقعتم في التشبيه وفي تحريف النصوص ، وهذا هو معنى قول يلزمهم فيما أثبتوه نظير ما فروا منه فيما نفوه .أهـ

* * *

الثاني ـ بيان تناقض أقوالهم واضطرابها ، حيث كان كل طائفة منهم تدعي أن العقل يوجب ما تدعي الأخرى أنه يمنعه ونحو ذلك ، بل الواحد منهم ربما يقول قولاً

يدعي أن العقل يوجبه ، ثم ينقضه في محل آخر ، وتناقض الأقوال من أقوى الأدلة على فسادها .

الثالث ـ بيان ما يلزم على نفيهم من اللوازم الباطلة ، فإن فساد اللازم يدل على فساد الملزوم .

الرابع ـ أن النصوص الواردة في الصفات لا تحتمل التأويل ، ولئن احتمله بعضها فليس فيه ما يمنع إرادة الظاهر ، فتعين المصير إليه .

الخامس ـ أن عامة هذه الأمور من الصفات ، يعلم بالضرورة من دين الإسلام أن الرسول ﷺ جاء بها ، فتأويلها بمنزلة تأويل القرامطة والباطنية للصلاة والصوم والحج ونحو ذلك .

السادس ـ أن العقل الصريح ـ أي : السالم من الشبهات والشهوات ـ لا يحيل ما جاءت به النصوص من صفات الله ، بل إنه يدل على ثبوت صفات الكمال لله في الجملة ، وإن كان في النصوص من التفاصيل في هذا الباب ما تعجز العقول عن إدراكه والإحاطة به .

وقد اعترف الفحول من هؤلاء أن العقل لا يمكنه الوصول إلى اليقين في عامة المطالب الإلهية ، وعلى هذا فالواجب تلقّي ذلك من النبوات على ما هو عليه من غير تحريف ، والله أعلم .

الباب الحادي والعشرون

في أن كل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل قد جمع بين التعطيل والتمثيل

الشرح

المعطل مثلاً : هو الذي نفى شيئاً من أسماء الله وصفاته سواءٌ كلياً أو جزئياً نسمي هذا معطلاً ، وقد مر علينا أن من المعطلة من ينكر الأسماء والصفات ، ومنهم من ينكر الصفات دون الأسماء ، ومنهم من ينكر بعض الصفات ويقر بالأسماء وبعض الصفات ، ثلاثة أقسام ، وهناك معطلة أبلغ من هذا غلاة ينكرون الأسماء والصفات جميعاً ، وهناك غلاة أشد يقولون إن الله لا يوصف لا بإثبات ولا نفي فينكرون الإثبات والنفي ، لكن المشهور من ينكر الأسماء والصفات ومن ينكر الصفات دون الأسماء ومن ينكر بعض الصفات .أهـ

* * *

المعطل : هو من نفى شيئاً من أسماء الله ، أو صفاته ، كالجهمية والمعتزلة والأشعرية ونحوهم .

الشرح

الجهمية أتباع الجهم بن صفوان ، والمعتزلة أتباع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، والأشعرية الذين ينتسبون ـ لا نقول أتباع أبي الحسن ـ الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري وليسوا من أتباعه في الواقع ، لأن أبا الحسن الأشعري رحمه الله صرح في آخر كتبه أنه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل وأنه مثبت لصفات الله تعالى وأنكر على المعتزلة والمعطلة وهذا رجوع منه عن مذهبه الذي كان عليه ، لأنه كان أربعين سنة

على مذهب المعتزلة ، أربعون سنة من عمره وهو على مذهب المعتزلة يناظر عنه ويدافع ويقرره ويثبته ، ثم كان له حالة انتقال ، فترة انتقال من هذا المذهب إلى مذهب وسط ، بين مذهب أهل السنة والجماعة وبين مذهب المعطلة ، ثم استقر أمره على مذهب أهل السنة والجماعة ، فله رحمه الله ثلاث مراحل ، وأتباعه الذين يدعون أنهم أتباعه كانوا على مذهبه الوسط ، أخذوا بالمذهب المتوسط وصاروا يقولون هذا مذهب الأشعري ونحن عليه ، ولكنهم في الواقع منتسبون لا متبعون .

ونحوهم : مثل الماتريدية وغيرهم ، يعني العلماء كثير في هذا الباب اختلافهم ، حتى الذين ينتسبون إلى الإمام أحمد رحمه الله منهم أشاعرة ومنهم أناس متذبذبون بين الأشاعرة وبين مذهب السلف ، لكن الحمد لله مذهب السلف بين واضح ، أقول هذا المعطل .أهـ

* * *

والممثل : هو من أثبت الصفات لله ممثلاً له بخلقه ، كمتقدمي الرافضة ونحوهم ،

الشرح

الرافضة الذين يدعون أنهم شيعة علي بن أبي طالب وآل البيت ، هؤلاء مذهبهم معروف وهم أقسام وفرق منهم من بلغ الكفر ومنهم دون ذلك ، فهؤلاء الرافضة كان متقدموهم يقولون بالتمثيل ، ويقولون إن الله سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا إن الله تعالى على صورة شاب أمرد وأنه ينزل إلى الأرض ويفعل ويفعل ، لكن بعد ذلك رأوا أن هذا كلام لا يعقل فصاروا على مذهب أهل التعطيل ، على مذهب المعتزلة ، أما متقدموهم فكانوا يمثلون ، لكن فيه من يمثل الله بخلقه لأنهم غلوا في الإثبات وقالوا لله يد ونحن لا نعقل يدا إلا ما نشاهد ، لله وجه ونحن لا نعقل وجها إلا ما نشاهد وهكذا ، وسيأتي الرد عليهم إن شاء الله فيما بعد .أهـ

وحقيقة الأمر أن كل معطّل ممثّل ، وكل ممثل معطل ،

الشرح

كل معطل ممثل ، المعطل لماذا عطل؟ عطل فرارا من التمثيل ، كيف تقول أنك أنت معطل ممثل؟ لا يمكن أن يكون معطلا ممثلا وهو ما عطل إلا فرارا من التمثيل .

الممثل نقول إنه معطل ، كيف نقول إنه يعطل وهو يثبت الصفات ويقول أشهد بالله أن لله وجها ويدا وعينا وقدما أشهد بذلك ، لكنها مثل ما للمخلوقين ، فكيف نقول إنه معطل؟

المهم أن هذا في أول الوهلة تقول : هذا تناقض ، كيف يكون المعطل ممثلا وكيف يكون الممثل معطلا؟ استمع إلى التقرير .أهـ

* * *

أما المعطل فتعطيله ظاهر ؛

الشرح

المعطل تعطيله ظاهر لأنه ينكر ، يقول ما لله وجه ولا يد ولا سمع ولا بصر ولا علم ولا شيء من الصفات .أهـ

* * *

وأما تمثيله فوجهه : أنه إنما عطّل ؛ لأنه اعتقد أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه ، فأخذ ينفي الصفات فراراً من ذلك ، فمثّل أولاً ، وعطّل ثانياً ،

الشرح

قلنا للمعطل : لماذا أنكرت أن يكون لله يد؟

قال : لأنني لو أثبت لله يدا لمثلته بخلقه ، فالآن بنى تعطيله على تمثيل فمثل أولاً وعطل ثانيا ، هذا من وجه .

من وجه آخر : ما ذكرناه لكنه واضح ، إذا عطل الله من صفاته فقد مثله بما هو ناقص ، إذا قال ليس لله يد مثله بمن لا يد له ، إذا قال ما لله وجه مثله بمن لا وجه له وهكذا ، فهو لو قال أنا أقف موقفا سلبيا لا أثبت ولا أنفي لكان الأمر أهون ، لكن هو ينفي ، فإذاً يكون قد مثل الله تعالى بمن لا يتصف بهذه الصفات ، فيكون تمثيله في الواقع من وجهين : من فهمه أن الإثبات يستسلزم التمثيل فنفى ، ومن كونه إذا نفى هذه الصفات فقد مثل الله بمن لا يتصف بهذه الصفات ، فصح أن نقول للمعطل إنك ممثل .أهـ

* * *

وأما الممثل فتمثيله ظاهر ، وأما تعطيله فمن وجوه ثلاثة :

أحدها - أنه عطَّل نفس النص الذي أثبت به الصفة حيث صرفه عن مقتضى ما يدل عليه ؛ فإن النص دال على إثبات صفة تليق بالله ، لا على مشابهة الله لخلقه .

الشرح

وهذا تعطيل ، نقول للممثل أنت إذا قلت إن قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص :٧٥) ، يدل على أن لله تعالى يدين مثل أيدي المخلوق ، فقد عطلت النص ولم تقل بمدلول النص ، لأننا نعلم علم اليقين أن النصوص الواردة في إثبات الصفات لله تعالى إنما تدل على صفات تليق به ولا تماثل صفات المخلوقين ، فإذا جعلها دالة على صفات تماثل صفات المخلوقين فقد عطلها عن مدلولها ، ومن قال إن النصوص الواردة في الصفات تدل على التمثيل فقد كفر لأنه كذب قول الله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى :١١) ، فحينئذ نقول أنت عطلت النص عن مدلوله لأننا نعلم علم اليقين أن النص لا يدل على إثبات المثيل لله تعالى ، هذا واحد .أهـ

الثاني - أنه إذا مثّل الله بخلقه فقد عطّل كل نصّ يدل على نفي مشابهته لخلقه ، مثل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾(الشورى : ١١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص :٤) .

الشرح

وهذا واضح أيضاً ، إذا مثل الله بخلقه فقد عطل جميع النصوص الدالة على نفي المماثلة ، كيف ذلك؟

لأن إقرار النصوص الدالة على نفي المماثلة أن تقرها على أنها نافية للمماثلة ، فإذا قلت إن الله مماثل لخلقه عطلت هذا النص : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى :١١) ، وأنت تقول بل مثله شيء ، وحينئذ تكون معطلا لكل نص دل على نفي المماثلة لله ، مثاله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى :١١) ، ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص :٤) ، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ (مريم : ٦٥) ، ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنداداً ﴾ (البقرة :٢٢) ، وما أشبه ذلك ، فأنت الآن عطلت كل نص يدل على نفي المماثلة لله تعالى .أهـ

* * *

الثالث - أنه إذا مثّل الله بخلقه فقد عطله عن كماله الواجب ، حيث شبّه الرب الكامل من جميع الوجوه بالمخلوق الناقص .

الشرح

من جميع الوجوه ، أقول إذا مثل الله بخلقه فقد عطله عن كماله الواجب ، لأنه مثل الكامل بالناقص فيكون في ذلك تعطيل ، تعطيل لكمال الكامل ، ومعلوم أن تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصا ، بل المقارنة بين الكامل والناقص لغير الإلزام يجعله ناقصا ، قال الشاعر :

ألــم تــر أن الــســيــف يــنــقــص قــدره

إذا قــيــل إن الــســيــف أمــضــى مــن الــعــصــا

لو أنك جئت تفتخر بسيفك وتقول عندي سيف حاد عظيم بتار أمضى من عصا فلان التي أجبر من الذراع ، هذا عيب بالسيف بلا شك ، لأنك إذا قلت هذا الكلام تصورت أن هذا السيف لا يقطع الحبل ، لأنه مادام أمضى من العصا ، والعصا إضرب به الحبل فإنه لا ينقطع ، فإذاً تشبيه الكامل بالناقص يجعله ناقصا ، أقول إن مدلول البيت أن المقارنة بين الكامل والناقص يجعل الكامل ناقصا ، فكيف إذا سوي بينهما؟

وقولنا إن المقارنة بين الكامل والناقص تجعل الكامل ناقصا إذا لم يكن على سبيل الإلزام ، فإن كان على سبيل الإلزام فإنه لا يجعله ناقصا ، قال الله تعالى : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) ﴾ (النمل :٥٩) ، هل نقول إن الله لما قال : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) ﴾ ، يدل على أن الله مماثل لهذه الأصنام؟ لا ، لكن هذا من باب الإلزام ، إلزام الخصم ، يقال أنت الآن تقر بأن الله خير فكيف تجعلها شريكة مع الله تعالى .

لو قال الممثل إن الله سبحانه وتعالى خاطبنا بأن له يداً ووجها ونحن لا نعقل يدا ووجها إلا مثل أيدينا ووجوهنا .

قلنا ألست تقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ (النور :٤٥) ، سيقول نعم أقرأ هذا ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾ أنت تمشي على رجلين والدجاجة تمشي على رجلين ، هل رجلك أنت كرجل الدجاجة؟

لا ، فهذان رجلان مختلفان في القرآن ، فكذلك أيضاً إذا قال الله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ

بِيَدَيَّ﴾ (ص :٧٥) ، لا يمكن أن نقول إن يدي الله مثل يديك ، فيد الدجاجة تليق بها ويد الإنسان تليق به ويد الخالق تليق به ويد المخلوق تليق به ، فلا يلزم من التشابه في الاسم أن تتشابه الحقائق .

وهذا الباب مهم جدا ، أن نقول للممثلين أنتم معطلون وأن نقول للمعطلين أنتم ممثلون .أهـ

الباب الثاني والعشرون

في تحذير السلف عن علم الكلام

علم الكلام : هو ما أحدثه المتكلّمون في أصول الدين من إثبات العقائد بالطرق التي ابتكروها ، وأعرضوا بها عما جاء الكتاب والسنة به ،

الشرح

هذا تعريف ، فعلم الكلام هو عبارة عن إثبات العقائد بالطرق الكلامية المبنية على الجدل الذي يسمونه عقلاً ، عبارة عن إثبات العقائد بالطرق الكلامية ، ولذلك سميناه علم الكلام لكثرة الكلام فيه ، فعلماء الكلام تجد الواحد منهم يكتب صفحتين وثلاث صفحات لأجل مسألة واحدة ، فكله هذر وهذيان ، ولهذا نسميه بعلم الكلام فهو إثبات العقائد بالطرق الكلامية المبنية على الجدل الذي يسمونه عقلاً ، هذا علم الكلام .

ولم يحدث علم الكلام إلا بعد انقراض الصحابة لما دخل هؤلاء الذين أرغم بعضهم على الدخول في الإسلام حاولوا أن يفسدوا العقائد ، وأتوا بهذه الطرق المبنية على الجدل والخصومة والنزاع والتشويش ، حتى إن بعضهم يقول :لا تصح عقيدة الإنسان حتى يتقدمها شك ، فيشك أولاً ثم يحاول أن يزيل ذلك الشك ـ أعوذ بالله ـ ، ولكن من يأمن نفسه إذا شك أن يرجع إلى اليقين ، أخشى أنه إذا شك رجع إلى الكفر ، وعلى كل حال فكلامهم باطل من أصله .أهـ

* * *

وقد تنوعت عبارات السلف في التحذير عن الكلام وأهله ، لما يفضي إليه من الشّبهات والشّكوك ، حتى قال الإمام أحمد : «لا يفلح صاحب كلام أبداً»[1] .

---

(١) الإبانة لابن بطة ٢ / ٥٣٩ ، باب ذم المراء والخصومات في الدين والتّحذير من أهل الجدال والكلام ، ورواه عن الشافعي أيضاً ١/ ٥٣٦ ، وابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل ٧/ ١٤٧ .

الشرح

صاحب الكلام لا يفلح ، لأننا إذا رجعنا إلى أحوال المتكلمين وجدنا أنهم في حيرة وشك وقلق ، وأن الإنسان منهم يموت وهو شاك في دينه ، قال بعض السلف : أكثر الناس شكا عند الموت أهل الكلام(١) ، وكان بعضهم يقول عند موته : أنا أموت على دين العجائز(٢) لأن دين العجائز مبني على الفطرة والتسليم للنصوص ، فالعجوز لا تعرف أن تجادل ولا تعرف أن تبني عقيدتها على الجدل ، تقرأ الكتاب والسنة وتأخذ بهما ، فهم يتمنون أن يعودوا إلى دين العجائز ولكنه لا يحصل لهم لما في قلوبهم من الفتنة ، وقال بعضهم أيضاً : من طلب علم الكلام تزندق(٣) أي صار زنديقاً ، ويكفي مثل هذه العبارات تحذيراً عنه .أهـ

* * *

وقال الشافعي : «حُكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ، والنعال ، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام» اهـ(٤) .

الشرح

رحمه الله ، وهم مستحقون لهذا الأمر ، لأنهم أفسدوا العقائد بهذا الكلام الذي أتوا به وهم يزعمون أنهم حققوا العقائد ولكنهم خرقوا العقائد في الواقع .

---

(١) الصواعق المرسلة ٤/ ١٢٦١ ـ ١٢٦٢ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٨ ـ ٤٧ عن الجويني .

(٣) الإبانة لابن بطة ، باب ذم المراء والخصومات في الدين والتحذير من أهل الجدال والكلام ، وعزاه ابن أبي العز الحنفي إلى أبي يوسف شرح الطحاوية ٢٠٩ .

(٤) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ١٤٧ ، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ٢٩ قال الذهبي : لعل هذا متواتر عن الإمام ، وابن أبي العز في شرح الطحاوية ٢١٠ .

يضربون بالجريد والنعال كما ضرب شارب الخمر في عهد النبي ﷺ ، زيادة على ذلك يطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام ، لماذا؟

تعزيراً وتحذيراً ، تعزيراً لهم وتحذيراً لغيرهم لأنهم ارتكبوا أمراً محرماً ، لماذا لم يأخذوا عقيدتهم من الكتاب والسنة ، قال شيخ الإسلام رحمه الله .أهـ

* * *

وهم مستحقون لما قاله الإمام الشافعي من وجه ؛ ليتوبوا إلى الله ، ويرتدع غيرهم عن اتباع مذهبهم ، وإذا نظرنا إليهم من وجه آخر ، وقد استولت عليهم الحيرة ، واستحوذ عليهم الشيطان ، فإننا نرحمهم ونرقّ لهم ، ونحمد الله الذي عافانا مما ابتلاهم به .

الشرح

لكن كلام الشيخ أطول من هذا ، يقول فإن هؤلاء أوتوا فهوما وما أوتوا علوما وأوتوا ذكاء وما أوتوا زكاء وأوتوا سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون ، هذا كلام الشيخ في الفتوى الحموية في الأصل ، وليتني نقلته لكنه فاتنا ، لأن فيه فائدة عظيمة أن هؤلاء الجماعة عندهم ذكاء ولكن ما عندهم زكاء ، ما زكيت نفوسهم والعياذ بالله ، عندهم فهم ولكن ما عندهم علم لأنهم هم أقل الناس معرفة بالكتاب والسنة ، حتى هم بأنفسهم مقرون على أنهم لا يعرفون شيئا من ذلك .

أوتوا سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من

شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون ، فنحن إذا نظرنا إليهم من جهة الشرع ماذا نصنع بهم؟ نؤدبهم كما قال الشافعي ، وإذا نظرنا إليهم بعين القدر رحمناهم ورققنا عليهم .

ولكن إذا اجتمع عندنا نظران ، نظر الشرع ونظر القدر نغلب جانب الشرع ، ولهذا لو جيء إلينا بشيخ كبير مريض ما يشتغل إلا بيده اليمنى وهو سارق ، إن نظرنا إليه بعين الشرع قلنا اقطعوا يده ، وإن نظرنا إليه بعين القدر وإذا هو شيخ كبير وعاجز ولا يعمل إلا بيده اليمنى وليس لأهله كافل يكفلهم فإننا نتركه ونرق له ونقول هذا مسكين إذا قطعنا يده ما بقى له كافل لا له ولا لأهله ، لكن الله تعالى يقول : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ (النور :٢) ، فالدين مقدم على القدر .أهـ

* * *

فلنا فيهم نظران :

نظر من جهة الشرع : نؤدبهم ونمنعهم به من نشر مذهبهم ونظر من جهة القدر : نرحمهم ، ونسأل الله لهم العافية ، ونحمد الله الذي عافانا من حالهم . وأكثر من يخاف عليهم الضلال هم الذين دخلوا في علم الكلام ولم يصلوا إلى غايته ،

الشرح

هكذا قال شيخ الإسلام ، أكثر من يخاف عليه الضلال الذين دخلوا في علم الكلام ولم يصلوا إلى غايته ، لماذا؟ استمع .أهـ

* * *

ووجه ذلك أن من لم يدخل فيه فهو في عافية منه[1] ، ومن وصل إلى غايته فقد تبين له فساده ، ورجع إلى الكتاب والسنة ، كما جرى لبعض كبارهم ، فيبقى الخطر على من خرج عن الصّراط المستقيم ، ولم يتبين له حقيقة الأمر .

الشرح

هل عندنا شاهد يدل على أن من بلغ الغاية منه فقد رجع إلى الحق؟

نعم عندنا من كلام رؤسائهم مثل الرازي والغزالي وغيرهم كثير أقروا على أنفسهم بالجهل والضلال والحيرة ، ومن أحسن ما رأيت كلام الرازي في ذلك حيث قال : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥ ﴾ (طه :٥) ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ (فاطر :١٠) ، وأقرأ في النفي : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى :١١) ، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ۝١١٠ ﴾ (طه :١١٠) ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي[2] .

فإن هذا واضح جدا بأن هذه الطرق التي سلكوها والمناهج لا تغني شيئا ، وقال آخر :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها
وصرفت طرفي بين تلك العوالم

فلم أر إلا واضعا كف حائر
على ذقن أو قارعا سن نادم

والمراد أن كلهم حيارى مضطربين نسأل الله العافية .أهـ

---

(١) إضافة من الشيخ رحمه الله .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٦٠ ، والصواعق المرسلة ٤/ ١٢٦٢ .

وقد نقل المؤلف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في هذه الفتوى كثيراً من كلام من تكلم في هذا الباب من المتكلمين . قال : «وإن كنا مستغنين بالكتاب والسنة وآثار السلف عن كل كلام ،

الشرح

وهذا صحيح ، يعني أن الإنسان يستغني بالكتاب والسنة وكلام السلف الصالح عن كل كلام من كلام المتأخرين ، لكن المؤلف بين وجه نقله .أهـ

* * *

ولكن كثيراً من الناس قد صار منتسباً إلى بعض طوائف المتكلمين ومحسناً للظن بهم دون غيرهم ، ومتوهّماً أنهم حقّقوا في هذا الباب ما لم يحقّقه غيرهم ، فلو أتى بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشيء من كلامهم» .

الشرح

هذا واقع ، بعض الناس ينتسب إلى طائفة معينة ويحسن الظن بها ويرى أنها حققت في هذا الباب ما لم يحققه غيرها ، حتى إن بعض الناس تقول قال رسول الله ﷺ كذا وكذا ثم يقول لك ماذا يقول الشيخ الفلاني ، وهذا خطأ ، ولما سئل الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ عن مسألة فقال : قال فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا ، قال له السائل : ما تقول أنت؟

فغضب ، قال : أتراني في كنيسة ، أتراني في بيعة ، أتراني كذا وكذا ، أقول لك قال رسول الله ﷺ ثم تقول ما تقول أنت؟[(١)] فوبخه على ذلك ، لأن هذا هو المؤمن ، المؤمن هو الذي لا يقول ماذا قال فلان ، يقول ماذا قال الله ورسوله ، هذا

(١) حلية الأولياء ٩/ ١١٣ .

المؤمن :﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦) ﴾ (الأحزاب :٣٦) ، نعم الإنسان القاصر صحيح أنه إذا رأى عالما من أهل العلم الموثوق بعلمهم وأمانتهم يحترم هذا القول ولا يجزم بمخالفته حتى يتبين له أنه على خطأ ، ولهذا كثيرا ما نطالع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أو كلام ابن القيم وغيرهم من المحققين ونستضيء بآرائهم ونهتدي بها ، لكن إذا علمنا أنها مخالفة للكتاب والسنة فإننا لا نقدمها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .أهـ

* * *

ثم قال : «وليس كل من ذكرنا قوله من المتكلمين وغيرهم ، نقول بجميع ما يقوله في هذا وغيره ، ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به» . اهـ .

الشرح

المؤلف رحمه الله نقل عن المتكلمين ـ عن أكابرهم ـ وعمن هم محترمون عند أتباعهم في كتاب الفتوى الحموية نقل شيئا كثيرا ، بعضهم ينقل عنه الصفحات وليس صفحة واحدة ، وبعضهم ينقل عنه كلاما قليلا ، المهم أنه في أثناء الكلام الذي ينقله ما نعلم علم اليقين أن شيخ الإسلام لا يراه ، ولهذا هو قال عن نفسه : ليس كل من ذكرنا قوله من المتكلمين وغيرهم ، نقول بجميع ما يقوله في هذا وغيره ، ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به ، حتى ولو كان كافرا ، إذا جاء الإنسان بالحق فاقبله لا لأنه جاء به فلان ولكن لأنه الحق ، كما أن من جاء بالباطل نرده ولو كان من قاله من أهل الحق ، لأن الواجب أن نتبع الحق حيثما كان ، ويُعرف الحق بالرجال أو الرجال بالحق؟

يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال ، لكن لا شك أن من كان مأمونا فإن

قوله له قيمته ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (الحجرات :٦) ، فأمر بالتبين في خبر الفاسق لأنه ليس أهلا لأن يقبل قوله ، ولكن العدل أمر بقبول قوله .أهـ

* * *

فبيّن رحمه الله أن الغرض من نقله بيان الحق من أي إنسان ، وإقامة الحجة على هؤلاء من كلام أئمتهم ، والله أعلم .

الشرح

وهذا موجود الآن ، إذا أتيت بحكم مسألة من المسائل واستنكرها ، من يقول هذا؟ ! فإذا قلت هذا مذهب الإمام أحمد ، يصير كأنه مصبوب على رأسه ماء بارد ، فيطمئن ويفرح ويستقر ، وهو في أول الأمر مستنكره ، أو تقول لمن يقلد الشافعي مثلا هذا القول ثم يستنكره ويستغربه ، كيف يكون هذا؟ ! فتقول هذا مذهب الشافعي ، هذا ما قاله النووي في المجموع وما أشبه ذلك فيهدأ ويسكت مع أنه في الأول كان سينكر عليك أشد الإنكار ، وهذا موجود في كل وقت وحتى الآن ، فالإنسان ينبغي له إذا أمكنه إقناع الغير ولو بنقل كلام من ليس قوله حجة فلا بأس .أهـ

الباب الثالث والعشرون

في أقسام المنحرفين عن الاستقامة ، في باب الإيمان بالله واليوم الآخر

الشرح

نحن ذكرنا كثيرا أن الله تعالى يقرن بين الإيمان به واليوم الآخر ،لأن الإيمان به أصل كل الإيمان ، والإيمان باليوم الآخر هو السبب الذي يحدوا الإنسان إلى العمل ، لأن العامل إذا لم يعتقد بأن هناك مبعثا يجازى الناس فيه بأعمالهم فإنه لن يعمل ، إذا لم يعتقد ذلك ويؤمن به فإنه لن يعمل ، لو كان الإنسان لا يرى إلا أنها الحياة الدنيا يحيا قوم ويموت آخرون ؛ ما عمل أبداً للآخرة ولأطلق لنفسه الحرية التامة للشيطان والهوى ، فلهذا يقرن الله دائما بين الإيمان به الذي هو أصل كل الإيمان والإيمان باليوم الآخر ، الذي هو السبب الوحيد للعمل .

الناس انقسموا في هذا الباب إلى ثلاثة أقسام ، بل إلى أربعة أقسام :

قسم على الحق وقسم أهل تخييل وقسم أهل تجهيل وقسم أهل تأويل ، أربعة أقسام ، أما القسم الأول فإليك بيانه .أهـ

* * *

طريقة النبي ﷺ وأصحابه والتابعين لهم بإحسان على الصراط المستقيم علماً ، وعملاً ،

الشرح

علما : هذا يعود إلى الأمور العلمية العقدية ، وعملا : يعود إلى الأمور العملية الجوارحية التي تتعلق بالجوارح ، فهم على الصراط المستقيم في العلم والعمل .أهـ

* * *

يعرف ذلك من تتبعها بعلم وعدل ،

الشرح

انتبه لهاتين الكلمتين ، النظر إلى الناس إذا لم يكن بعلم وعدل صار سببا للجور والظلم ، إذا نظرت إلى غيرك فانظر إليه بعلم وعدل لأجل أن تعطيه ما يليق به من الحكم ، لأنك إن نظرت بجهل فإنك قد تحكم بالشيء وهو لا يستحقه ، وإن نظرت إليه بجور فإنك قد تحكم عليه بالشيء الذي ترى أنه بريء منه لأنك جائر ، حتى لو وجد قرائن تدل على ما حكمت به وهو من الأمور التي تخفى فإنه لا يجوز لك الحكم عليه ، ألم تروا إلى أسامة بن زيد رضي الله عنه حين لحق المشرك بالسيف فوقف المشرك وقال لا إله إلا الله ، فظن أسامة أنه قال ذلك تعوذا من القتل فقتله ثم أخبر النبي ﷺ بذلك فقال : « قتلته بعد أن قال لا إله إلا الله » قال نعم يا رسول الله إنما قالها تعوذا ـ لا حقيقة ولا من قلب ـ فقال : « قتلته بعد أن قال لا إله إلا الله » فما زال يكررها حتى قال أسامة : تمنيت أني لم أكن أسلمت من بعد[1] ، إذاً الحكم على الناس يحتاج إلى علم وعدل ، فمن قال بجهل ظلم ومن قال بجور ظلم ، وكثيراً ما نظن في الإنسان ظنا فإذا الأمر بخلافه ، لو وجدت رجلا معه امرأة يمشي في السوق ويكلمها ويحادثها ، فقلت هذا الرجل يكلم النساء في الأسواق ويمشي معهن ما فيه خير وحكمت عليه بأنه رجل ساقط سافل لأنه يمشي مع امرأة في السوق ويكلمها ، ماذا نقول في هذا الحكم؟

غير صحيح ،لأنه مبني على الجهل ، هل علمت أنها أجنبية منه؟ لا ، إذاً كيف تحكم؟ لو أنك رأيت إنساناً تعرف أن الذي تمشي معه امرأة من محارمه فذهبت إلى

(١) البخاري (٤٢٦٩) كتاب المغازي / باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد رضي الله عنه إلى الحرقات من جهينة ، ومسلم (٩٦) كتاب الإيمان / باب تحريم قتل الكافر بعد قول لا إله إلا الله ، من حديث أسامة رضي الله عنه .

الوالي وقلت تعال انظر إلى هذا الرجل ـ والعياذ بالله ـ معه امرأة أجنبية منه ، عليك به ابطش به ، ماذا يكون هذا؟ جور أم جهل؟ جور وظلم ، هذا خلاف العدل ، ولهذا لا بد أن تنظر إلى الناس حين الحكم عليهم بالعلم والعدل ، أما أن تحكم بجهل فهذا خطأ ، أما أن تحكم بجور فهذا خطأ ، وكثير من الناس تجده يتكلم بجهل وربما يتكلم بجور في الحكم على الناس وهذا حرام ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء :٥٨) .

ومن نظر إلى طريق النبي عليه الصلاة والسلام بعلم وعدل فإنه يحكم بأنها على الصراط المستقيم .أهـ

* * *

فقد حقّقوا الإيمان بالله واليوم الآخر ، وأقرّوا بأن ذلك حق على حقيقته ، وهم في عملهم مخلصون لله ، متّبعون لشرعه ، فلا شرك ولا ابتداع ولا تحريف ولا تكذيب ،

الشرح

هذه طريق النبي ﷺ ، بل من نظر إلى هذه الطريقة بالعلم والعدل علم أنها أفضل طريقة وأنها الطريق الوحيد إلى سعادة الدنيا والآخرة .أهـ

* * *

وأما المنحرفون عن طريقتهم فهم ثلاث طوائف :

أهل التخييل ، وأهل التأويل وأهل التجهيل .

الشرح

انتبه لهذا الباب لأنه مهم جداً .

المنحرفون عن طريق النبي ﷺ في أمر الإيمان بالله واليوم الآخر طوائف ثلاثة : أهل التخييل ، وأهل التأويل وأهل التجهيل .

أهل التخيل سمو بذلك لأنهم يقولون إن ما جاء به النبي ﷺ من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر كله أمثال وتخييلات لا حقيقة لها ، فليس هناك رب ولا بعث ولا جنة ولا نار ، لكن الرسل جاءوا بذلك على سبيل ضرب الأمثال وعلى سبيل التخييلات ، حتى يتخيل الناس أن هناك رباً ويوما آخر وجزاءً وعقاباً ، ولهذا سموا بهذا الاسم ، سموا أهل التخييل لأنهم يقولون به ، من هؤلاء؟ .أهـ

* * *

١ - فأما أهل التخييل : فهم الفلاسفة ، والباطنية ، ومن سلك سبيلهم من المتكلمين وغيرهم ،

الشرح

الفلاسفة هؤلاء هم الذين يدعون أنهم الحكماء العقلاء ، ويرون أن العلوم التي سوى علومهم ليست بشيء حتى علوم الأنبياء عندهم ليست بشيء ، يقولون هذه علوم عجائز ولا تصلح لأهل العقل ، وطبعاً هم ينكرون الخالق وينكرون اليوم الآخر لأنهم ماديون دهريون لا يؤمنون بشيء والعياذ بالله ، ومع ذلك عندهم من الكبرياء والغطرسة ما يجعلهم يرون الناس كأمثال الذر ولا يعبئون بهم ، هؤلاء الفلاسفة .

والباطنية هم الذين يقولون إن الدين له ظهر وبطن ، أو ظاهر وباطن ، فالظاهر لأهل الظاهر والباطن لأهل الباطن ، من هم أهل الظاهر؟

أهل الظاهر هم السذج الذين يلعب الناس بعقولهم ، يقولون فيه جنة وفيه نار

وفيه صلاة وصوم وحج وما أشبه ذلك ويمشون ، هؤلاء عوام ، والباطن هو الذي عليه أئمتهم ، وسيأتي إن شاء الله بيان مذهبهم وطريقتهم في العمل .أهـ

* * *

وحقيقة مذهبهم : أن ما جاءت به الأنبياء مما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر أمثال وتخييلات لا حقيقة لها في الواقع ،

الشرح

يعني الواقع عندهم أنه لا رب ولا بعث ولا جزاء ، وإنما هي أرحام تدفع وأراض تبلع فقط ولا فيه شيء .أهـ

* * *

وإنما المقصود بها انتفاع العامة وجمهور الناس ؛ لأن الناس إذا قيل لهم : إن لكم ربًا عظيماً قادراً رحيماً قاهراً ، وإن أمامكم يوماً عظيماً تبعثون فيه ، وتُجازون بأعمالكم ونحو ذلك ، استقاموا على الطريقة المطلوبة منهم ، وإن كان هذا لا حقيقة له على زعم هؤلاء .

الشرح

يقولون هذا لا حقيقة له ، إذاً لماذا الرسل تأتي وتقول للناس إن لكم رباً وإن هناك جنة وإن هناك ناراً؟

قالوا : هذا لأجل أن يسير الناس على ما وجهوهم إليه ، لأنه إذا قيل للناس إن لكم رباً رحيماً قادراً عظيماً شديد العقاب وما أشبه ذلك ، ولكن افعلوا كذا وافعلوا كذا واتركوا كذا واتركوا كذا وإلا فسيعاقبكم هذا الرب فإنهم ينصاعون لهذه الأوامر ويطيعون ، لكن إذا لم يقل لهم ذلك كل ركب رأسه ولا يهمه أحد ، إذاً فعلى هؤلاء

يكون ذكر الله تعالى وذكر اليوم الآخر ما هو إلا تخويف وترويع فقط ، مثل ما تقول للصبي أسكت وإلا سيأتيك البعبع وإلا سينزل عليك من السماء صفيحة حامية ، والعامة يقولون مقرصة حامية ، المقرصة التي يصنع بها القرص ، هل صحيح هذا؟

لا ، لكن قلنا له هذا الشيء من أجل أن يتروع ويسكت ، هذا هو الأمر عند هؤلاء الفلاسفة والباطنية ومن تابعهم وإلا ليس هناك رب ولا جزاء ولا بعث نسأل الله العافية والسلامة ، ثم هل ما قالوه هو ما استقر في فطرهم؟

الجواب لا ، لأنه لا يمكن لأحد أن ينكر الخالق ، قد ينكر الجزاء ولكن إنكار الخالق لا يمكن أبداً ، لأن أي عاقل لا يمكن أن يقول إن الحادث يحدث بدون محدث أبداً ، لكن هذا كلامهم .أهـ

* * *

ثم إن هؤلاء على قسمين : غلاة ، وغير غلاة .

فأما الغلاة :

الشرح

الغلاة الموغلون في مذهبهم .أهـ

* * *

فيزعمون أن الأنبياء لا يعلمون حقائق هذه الأمور ، وأن من المتفلسفة الإلهية - ومن يزعمونهم أولياء - من يعلم هذه الحقائق ،

الشرح

قوله المتفلسفة الإلهية ، هناك فلاسفة طبائعيون لا يتكلمون في الإلهيات ، يتكلمون في الطبيعة وأحوالها ونتائجها ، وأما مسألة الإلهيات والعبادات فلا يبحثون

فيها ، وهناك فلاسفة في الإلهية يتكلمون في الله تعالى على زعمهم ويجعلونه على ما يريدون ، فالغلاة يقولون إن الأنبياء لا يعلمون الحقيقة ، سمعوا وحياً أوحي إليهم وقيل لهم اصنعوا كذا وأمروا الناس بكذا .أهـ

* * *

فزعموا أن من الفلاسفة من هو أعلم بالله واليوم الآخر من النبيين الذين هم أعلم الناس بذلك ، وأما غير الغلاة فيزعمون أن الأنبياء يعلمون حقائق هذه الأمور ، ولكنهم ذكروا للناس أموراً تخييلية لا تُطابق الحق ؛ لتقوم مصلحة الناس ، فزعموا أن مصلحة العباد لا تقوم إلا بهذه الطريقة التي تتضمن كذب الأنبياء في أعظم الأمور وأهمها ،

الشرح

هؤلاء الطائفة الثانية من الفلاسفة يقولون إن الرسل يعلمون أن ما هناك رب ولا بعث ، لكن رأوا أن المصلحة لا تكون إلا بهذا أي بأن يقولوا أن هناك رباً وبعثاً لأجل مصلحة الخلق حتى يوافقونهم على ما يقولون ، وهؤلاء يزعمون أن الأنبياء عباقرة أذكياء عقلاء وليس لهم صلة بالله لأنه لا إله عندهم ، لكن هذا النبي عندهم رجل من العباقرة الأذكياء اصطنع بنفسه أموراً يرى أنها مصلحة كالقوانين الوضعية فدعا الناس إليها وحذرهم من مخالفتها بهذا الرب وهذا البعث وليس هناك بعث ولا جزاء .أهـ

* * *

فالطائفة الأولى حكمت على الرسل بالجهل ،

الشرح

الطائفة الأولى الذين يقولون إن الرسل لا يعلمون الحقائق على ما هي عليه ، هؤلاء قالوا إن الرسل جهال فدعوا إلى الجهل ودعوا بجهل .أهـ

والطائفة الثانية حكمت عليهم بالخيانة والكذب .

الشرح

لأن الرسل على زعمهم يعلمون أنه ليس هناك رب ولا جزاء ولكن قالوا للناس إن لكم رباً وجزاءً وهم يكذبون عليه ، فحكموا عليهم بالكذب والخيانة ، وكلاهما سيء ، ولكن أيهما أشد وأعظم قدحاً في الرسل؟

إن قلت الأول لأنه كيف يدعون إلى أمر يجهلونه ، وإن قلت الثاني وهو أنهم كذبوا على الناس وخانوهم ، والطائفة الثانية يقولون إن الرسل يعلمون الحقائق على ما هي عليه وأنه ما فيه رب ولا جزاء لكن كذبوا على الناس من أجل المصلحة ، إذاً هم كذبوا وخانوا ، كذبوا على الناس وقالوا إن لكم رباً وخانوهم حيث لم يعلموهم بالحقيقة ، أما الأولون فإنهم جهلاء ، جهلوا النبي ، فباعتبار حال النبي وضعفه وعجزه فالطائفة الأولى أشد ، وباعتبار خيانة النبي وكذبه فالطائفة الثانية أشد .أهـ

* * *

هذا هو قول أهل التخييل فيما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر ، أما في الأعمال فمنهم من يجعلها حقائق يؤمر بها كل أحد ، ومنهم من يجعلها تخييلات ورموزاً يؤمر بها العامة دون الخاصة ،

الشرح

نحن فهمنا الاعتقاد عندكم أنه ما فيه رب ولا جزاء ، لكن في العمل تؤمنون بالصلاة؟

انقسموا ، بعضهم قال نعم نؤمن بالصلاة والزكاة والصيام والحج ونقول إن هذه الأعمال مصلحة للعامة وللخاصة وكل يؤمر بها ، فنقول للعامة صلوا ونقول للخاصة

صلوا ، ونقول للعامة زكوا وللخاصة زكوا ، ونقول للعامة صوموا وللخاصة صوموا ، ونقول للعامة حجوا ونقول للخاصة حجوا ، لأن هذه أعمال تؤثر على الإنسان انطباعاً خاصاً يكون منقاداً للفضائل فنأمر بها كل أحد .

ومنهم من يقول لا ، حتى الأعمال لا حقيقة لها وإنما يؤمر بها العامة دون الخاصة ، فعندهم أن الرسل من العوام لأنهم هم الذين يصلون ويزكون ويصومون ويحجون ، كل العالم الذي يتعبد لله عندهم من العوام الذين لا يعرفون الحقائق ولا يعرفون الأمور ، وأما الخواص فإنهم لا يؤمرون بهذه الصلوات ولا بهذا الصيام ولا بالزكاة ولا بغيرها ، لا يؤمر لأنه وصل إلى مرحلة تسقط التكليف ، لأن الله يقول : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ (الحجر :٩٩) ، وهؤلاء وصلوا إلى درجة اليقين فانتهت العبادة في حقهم لأن ﴿ حَتَّى ﴾ للغاية وما بعد الغاية يخالف ما قبلها ، فأنت لو سافرت إلى بلد فإن سفرك ينتهي بوصولك إليها وحينئذ تضع العصا وتنيخ الناقة ولا تعمل أي عمل من أعمال السفر ، هكذا يقول هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ إن الإنسان إذا بلغ الغاية سقطت عنه الوسيلة ، وهذه العبادات وسائل توصلك إلى اليقين ثم بعد ذلك لا تعمل .

إذاً ما هي عبادات الخاصة؟ استمع إليها .أهـ

* * *

فيؤولون الصلاة بمعرفة أسرارهم ، والصيام بكتمانها ، والحج بالسفر إلى شيوخهم ونحو ذلك ،

الشرح

يقولون إن الصيام الذي يؤمر به العامة أن يمسكوا عن الطعام والشراب من طلوع الفجر إلى غروب الشمس والذي يؤمر به الخاصة أن يكتموا أسرارهم ، أسرار الفرقة

والطائفة ، والصلاة صلة بين العبد وبين الله ذات ركوع وسجود وهذه صلاة العوام ، وصلاتهم هم أن تعرف أسرارهم ، ولهذا فإن هؤلاء الفرقة الباطنية وأشباههم ـ وهم موجودون الآن ـ لا يأذنون لكل أحد أن يدخل معهم حتى يتمرن ، ولهم مراتب عشر ينقلون الإنسان من مرتبة إلى مرتبة ولا يمكن أن يخبر بالمرتبة الثانية حتى يتقن المرتبة الأولى ، كلها مبنية على أسرار عظيمة أشد من أسرار الحرب ، لأنه لو اطلع الناس على أسرارهم هذه لقتلوهم قتلاً وما أبقوا لهم على الأرض دياراً ، لكن يتسترون فيقولون إن الصلاة ليست الصلة بين الإنسان وبين الله لأنه ما فيه إله ، الصلاة أن يكون بينك وبين أولياءهم صلة بحيث يخبرونك بأسرارهم ، تريد أن تصوم فكيف تصوم؟

قال أكتم هذا السر ، لأن الصيام في اللغة الإمساك ، والصيام عندنا هو الإمساك عن إظهار الأسرار ، أمسك ولا تعلم أحدا ، فيكون هذا الإمساك بالليل والنهار إلى أن يموت لأنه لابد أن يكتم الأسرار وإلا ما صام ، وقالوا الحج ليس أن تسافر إلى بيت الله لأنه ليس هناك إله حتى يكون له بيت ، الحج أن تسافر إلى الولي فلان ، في كربلاء ، في قم ، في المكان الفلاني في المكان الفلاني هذا هو الحج ، إن أردت حجا يغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فاذهب إلى الولي الفلاني واخضع بين يديه واسجد له وامشِ إليه راكعاً ، أما أن تذهب إلى مكة لتقصد بيت الله فهذا ليس بحج .

فأقسام المنحرفين عن الصراط المستقيم فيما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر ثلاثة : أهل التخييل وأهل التأويل وأهل التجهيل .

أهل التخييل : في الأعمال منهم من يجعلها حقائق يؤمر بها كل أحد[١] وهي مقصودة ومرادة وتطلب من كل إنسان لما فيها من ترويض النفس والتحمل والصبر والمصلحة وما أشبه ذلك ، وقسم آخر قالوا إن هذه العبادات لا حقيقة لها وليست

(١) فراغ من الأصل وزدناه من كلام شيخ الإسلام السابق للتوضيح .

مقصودة لذاتها إنما تقصد لغاية إذا بلغها الإنسان سقطت عنه ، وعلى هذا يؤمر بها العامة دون الخاصة ، أما الخاصة الذين بلغوا الذروة فإنهم لا يؤمرون بها ولا تطلب منهم ، ولهذا هم من حيث الأعمال إباحيون ، يقول لا تصل ، لا تزك ، لا تصم ، لا تحج ، لا تتزوج ، أزن بمن شئت ـ والعياذ بالله ـ لأنهم يقولون كل هذه التقيدات إنما يؤمر بها العوام الذين لا يصلحون إلا بها ، أما الخواص الذين بلغوا الغاية فإنهم لا يؤمرون لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ (الحجر :٩٩) ، واليقين هو الجزم بلا شك ولا تردد فإذا وصلت إلى هذه الغاية فلا تعبد ربك ، كما نقول للرجل استأجر السيارة إلى مكة وهو يريد مكة ، فإذا وصل إلى مكة يدع السيارة ، هذه طريقتهم في باب العبادات فصاروا ـ والعياذ بالله ـ في الاعتقادات والأمور العلمية متفقين على إنكارها لكنهم اختلفوا هل الرسل يعلمونها أم لا؟ أما في العبادات فمختلفون فمنهم من قال إنها مرادة ومصلحة للخلق عامتهم وخاصتهم ، ومنهم من قال إنها ليست مرادة وإنما يؤمر بها العامة ليصلوا إلى درجة اليقين فإذا وصلوا إلى درجة اليقين سقطت عنهم ولهذا لا نأمر الخاصة بذلك .أهـ

* * *

وهؤلاء هم الملاحدة من الإسماعيلية والباطنية ونحوهم .

الشرح

وهم موجودون الآن ، الاسماعيلية موجودون والباطنية موجودون والنصيرية وغيرهم كل هؤلاء على هذا الطريق ـ والعياذ بالله ـ ولهذا تجد رد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره من أهل العلم على هؤلاء رداً مفحماً شديدا وسيأتي إن شاء الله بيان بطلان مذهبهم ، إنما هذه هي الفرقة الأولى وتسمى أهل التخييل لأنهم يرون أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى تخييلات فقط وليس حقيقة ، وإذا أردت أن تبحث عن هؤلاء فارجع إلى «الملل والنحل» للشهرستاني لأنه أحسن ما رأيت في جمعها .

وهم ـ الملاحدة من الإسماعيلية والباطنية ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «أكفر من اليهود والنصارى» لأن اليهود والنصارى يؤمنون بالله وباليوم الآخر ، وإن كان هذا الإيمان لا ينفعهم لأنهم كافرون بمحمد رسول الله ﷺ لكن الاسماعيلية والباطنية ومن أشبههم هؤلاء ملحدون غاية الإلحاد .أهـ

* * *

وفساد قول هؤلاء معلوم بضرورة الحس ، والعقل ، والشرع ،

الشرح

ما معنى بضرورة الحس؟

الضرورة ما يضطر الإنسان إلى التصديق به ، أما الإيمان بالله فدلالة الحس عليه معلومة ، دلالة الحس على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته معلومة ، فنحن نسمع فيمن مضى وفيمن حضر أن من الناس من دعا الله فاستجاب لهم ، وابدأ بأول الرسل : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ (الأنبياء :٧٦) ، ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ (الأنبياء :٨٣ ، ٨٤) ، ومحمد عليه الصلاة والسلام دعا الله فاستجاب له دعا على قريش وقال : «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف»[(١)] فاستجاب الله له ، ودعا بالغيث فاستجيب له[(٢)] ، وأمثلة ذلك لا تحصى ، وهذا دليل حسي معروف ، هل هناك دليل حسي ملموس؟

---

(١) البخاري (٢٩٣٢) كتاب الجهاد / باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة ، (١٠٠٦) كتاب الإستسقاء / باب دعاء النبي ﷺ «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف» .

(٢) البخاري (١٠١٤) كتاب الإستسقاء / باب الإستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة ، ومسلم (٨٩٦) كتاب صلاة الإستسقاء / باب الدعاء في صلاة الإستسقاء ، من حديث أنس رضي الله عنه .

اسأل نفسك ، هل دعوت الله يوماً من الأيام فاستجاب لك؟ نعم والحمد لله ، كثيراً ما يدعو الإنسان ربه فيستجيب الله له ، رأي العين ، إذاً هذا دليل حسي على وجود الله وعلمه وقدرته ورحمته وسمعه وبصره وغير ذلك مما تدل عليه الإجابة دلالة مطابقة أو تضمن أو التزام .

أما دلالة العقل على وجود الله فأيضاً واضح جدا : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) ﴾ (الطور :٣٥) ، هذه دلالة عقلية قطعية برهانية سبر وتقسيم ، إما أن يُخلقوا بدون خالق أو أن يخلقوا أنفسهم وكلاهما محال ، بقي أن يكونوا خلقوا بخالق ، فمن هو هذا الخالق؟

أبوك وأمك !! نطفة المني خرجت من أبيك والبويضة التي تلقت هذه النطفة من أمك ، إذاً : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) ﴾ (الرحمن :١٩) ، ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) ﴾ (الرحمن :٢٢) ، التقت هذه بهذه فتكوّن الجنين فصار أبوك وأمك هما اللذان خلقاك ، العجينة المختلطة هي التي أتت بالولد ، أصحيح هذا أم لا؟

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾ (الواقعة) .

ما هو الجواب؟

إذاً الأب ما خلق منيه والأم ما خلقت البويضة فالخالق الله ، وأنا لا أظن أن عاقلاً يقول إن أباه دخل في رحم زوجته وصار يصنع بيده الولد ، هذا شيء مستحيل ، فتبين الآن أن الخالق الله ، هذا دليل عقلي على وجود الله ، فكل الحوادث دليل على وجود الله سبحانه وتعالى ، لأننا نعلم علم اليقين أنها لم توجد نفسها ولم توجد بغير موجد ، وعلى هذا فضرورة الدلالة العقلية تدل على هذا ، أما الشرع فالشرع أدلته أكثر من أن تحصى على وجود الله وعلى الإيمان باليوم الآخر .أهـ

* * *

فإننا نشاهد من الآيات الدالة على وجود الله وكمال صفاته ما لا يمكن حصره :

وفـــي كـــل شــــيء لـــه آيـــة

تــــدل عـــلـــى أنـــه واحـــد

الشرح

وقبل هذا البيت :

فـواعـجـبـا كـيـف يـعـصـى الإلـه

أم كـيـف يـجـحـده الجـاحـد

استنكار كيف أنك تعصي ربك أو تجحده؟

وفـــي كـــل شــــيء لـــه آيـــة

تــــدل عـــلـــى أنـــه واحـــد

إبدأ بنفسك وارجع إلى علماء الأحياء لتنظر ما في نفسك من عجائب الخلقة ، وارجع إلى علماء النفس لتنظر ما في نفسك من عجائب الإرادات والانفعالات وغير ذلك تجد العجب العجاب ، نحن الآن نأكل الأكلة على أنها خبزة أُدمت بعسل ومشت مع هذا الحلق ، ما الذي تلقاها؟ تلقاها عمال أخصائيون كل واحد له اختصاص حتى يكيف هذه المضغة لتكون صالحة لتغذية هذا الجسم ، ثم هناك موزعون أشد من موزعي البريد والبرقيات ، موزعون لا يدعون صغيرة ولا كبيرة في الجسم إلا أعطوه نصيبه من هذا الغذاء ، وسبحان الله لو أن إحدى الغدد في جزء من البدن تعدت على أخواتها وأخذت حظاً من الغذاء أكثر من أخواتها ماذا يكون؟ يتضخم هذا العضو ويكبر ، وقد شوهد أناس تكون أيديهم ـ نسأل الله العافية ـ أكبر من نصف الجسم ، نعم أنا شاهدت إنساناً قبل زمن طويل معه يده

حوالي نصف جسمه ، يحملها حملاً بيده الأخرى ليضعها على كتفه ـ نسأل الله العافية والسلامة ـ وبعض الأصابع أحياناً تأخذ حظاً أكثر من الغذاء وبعدئذ تتضخم حتى يكون الإصبع الواحد كالذراع ، إذاً في كل شيء لله آية تدل على وحدانيته ، وقد بحث ابن القيم ـ رحمه الله ـ بحثاً دقيقاً في كتابه «مفتاح دار السعادة» في هذا الأمر ، وبحث ابن القيم رحمه الله تطور بعد ذلك إلى أكثر من هذا ، فلينظر الإنسان حكمة الله تعالى وما في نفسه من الآيات الدالة على وجود خالقه سبحانه وتعالى وحكمته وقدرته : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ (الذاريات :٢١) ، حاجة بسيطة : نطقنا الآن عبارة عن هواء يحصل من ضغط الرئتين فيمر على مجاري ، يمر على مجرى فيكون حرفاً ويمر على مجرى آخر فيكون حرفاً آخر وهكذا في آن واحد وفي سرعة فائقة ، تتعاقب الحروف بلحظة وكل واحد من هذه الحروف له مجرى خاص يختلف عن الأول مع أن الأصل الذي أثار هذه الحروف شيء واحد ، وآيات الله سبحانه وتعالى كثيرة : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ (الذاريات :٢١)أهـ

* * *

فإن هذه الحوادث المنتظمة لا يمكن أن تحدث إلا بمدبر حكيم قادر على كل شيء ،

الشرح

لا شك .أهـ

* * *

والإيمان باليوم الآخر دلت عليه جميع الشرائع ، واقتضته حكمة الله البالغة ، ولا ينكره إلا مكابر أو مجنون ،

الشرح

الإيمان باليوم الآخر دلت عليه جميع الشرائع ، فكل الكتب السماوية أثبتت اليوم الآخر وآمن به كل من ينتسب إلى الأديان السماوية ، أيضاً الحكمة تقتضيه ، وجه ذلك أنه من السفه البالغ أن يُحدث هذا الخلق ، ترسل إليه الرسل وتنزل إليه الكتب ويباح دماء بعضهم لبعض وأموال بعضهم لبعض ونساء بعضهم لبعض ليقاتَلوا على دين الله ثم في النهاية موت بلا بعث ، هذا سفه ولا فائدة الآن ، فلولا أن هناك يوماً يجازى فيه العاملون بما عملوا لكان إيجاد الخليقة عبثاً ، ولا يظن ظان بالله هذا الظن إلا كافر قال الله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) ﴾ (ص :٢٧) ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) ﴾ (الدخان :٣٨ ، ٤٠) ، فلما نفى عن نفسه اللعب وأنه إنما خلقهما بالحق بين أن هذا له غاية : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الدخان : ٤٠) ، ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠) ﴾ (القيامة : ٣٦ ـ ٤٠) ، فإذاً هذه الخليقة وهذه الشرائع ما جاءت إلا ليوم آخر ، فلو أنها جاءت هكذا ليقتل الناس بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً ويأخذ بعضهم مال بعض ثم النتيجة أن يموتوا جميعاً وتأكلهم الأرض لكان هذا من أسفه السفه ، إذاً فالإيمان باليوم الآخر اقتضته الشرائع والحكمة والعقل ، ولا ينكره إلا مكابر أو مجنون ، من هو المكابر؟

المكابر : هو الذي يعاند ولا يقبل مهما كان ، والمجنون فاقد العقل ، أما الإنسان العاقل فإن عقله يهديه إلى وجوب وجود اليوم الآخر وأنه أمر لا بد منه ، ومن حكمة الله تعالى ورحمته بنا أنه قرر هذا اليوم الآخر ، قرره بعدة أدلة عقلية وحسية لأن

الإيمان باليوم الآخر هو الذي يحمل الإنسان على العمل بالطاعات وترك المعاصي وإلا ما آمن أحد .أهـ

* * *

وأهل التخييل لا يحتاجون في الرد عليهم إلى شيء كثير ؛ لأن نفور الناس عنهم معلوم ظاهر .

الشرح

سبق لنا التفصيل في مذهب أهل التخييل وبيان الرد عليهم وأن فساد قولهم معلوم بضرورة العقل والحس والشرع ، وهم لا يحتاجون في الرد عليهم إلى عناء كبير لأن نفور الناس منهم أمر ظاهر معلوم ، ولهذا كانوا أقل الطوائف عدداً وإن كانوا قد يكونون أكثر الطوائف عُدداً يبتلي الله بهم العباد لكن هم أقل الطوائف عدداً لأن النفور منهم ظاهر معلوم .أهـ

* * *

٢ - وأما أهل التأويل : فهم المتكلمون من الجهمية والمعتزلة وأتباعهم .

الشرح

وقوله «وأتباعهم» يشمل من تبعهم اتباعا كاملا ومن تبعهم اتباعاً جزئياً كالأشاعرة ، فإن الأشاعرة بلا شك من أهل التأويل ، واعلم أنهم إنما سموا أنفسهم بأهل التأويل من باب التغرير بالناس والدعوة إلى مذهبهم وإلا ففي الحقيقة أنهم هم أهل التحريف ، لأن التأويل الذي يريدونه صرف الكلام عن ظاهره إلى المعنى المخالف للظاهر ، وهذا إذا لم يكن له دليل كان تحريفاً ، وهذا هو الواقع في مذهبهم فإنهم ذهبوا في باب أسماء الله وصفاته مذهباً لا دليل عليه بل الدليل على خلافه ، وتسمية

أنفسهم بأهل التأويل من باب التزيين والتلطيف والتغرير ، لأنه من المعلوم أنه لو سموا أنفسهم أهل التحريف ـ ولا يمكن أن يسموا أنفسهم أهل التحريف ـ لنفر الناس منهم ، لكن أهل التأويل لا شك أنها ألين وألطف ولا توجب النفور .

الجهمية أتباع جهم بن صفوان ، والمعتزلة أتباع واصل بن عطاء ، وأتباعهم من سائر الطوائف ، فكل من تأول في شيء من صفات الله وأسمائه فهو داخل في هذا .أهـ

* * *

وحقيقة مذهبهم أن ما جاء به النبي ﷺ من نصوص الصفات مجاز لم يقصد به ظاهره ، وإنما المقصود به معان تُخالفه ،

الشرح

أي تخالف الظاهر .أهـ

* * *

يعلمها النبي ﷺ ، لكنه تركها للناس يستنتجونها بعقولهم ، ثم يحاولون صرف ظواهر النصوص إليها ، وغرضه بذلك امتحان عقولهم ، وكثرة الثواب بما يعانونه من محاولة صرف الكلام عن ظاهره ، وتنزيله على شواذ اللغة وغرائب الكلام .

الشرح

هذا مذهب أهل التأويل ، يقولون إن نصوص الصفات لا يراد بها ظاهرها : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ (طه :٥) ما أريد بها ظاهر الاستواء ، اليد ما أريد بها ظاهرها ، الوجه وعلى هذا فقس ، ما المراد بها؟ قالوا المراد بها معان تخالف الظاهر .

من يعلم هذه المعاني؟ يعلمها النبي ﷺ .

فهنا ثلاثة أمور :

أولاً : لم يرد بها ظاهرها .

ثانياً : أراد بها معان تخالف الظاهر .

ثالثاً : هذه المعاني كان النبي ﷺ يعلمها .

هذا مذهبهم مركب من هذه الأمور الثلاثة ، وكلها كما مر علينا تحتاج إلى دليل وليس عندهم دليل ، فقولهم إنه لم يرد بها ظاهرها نقول هذا خلاف الظاهر بل إن الظاهر أن الله ورسوله إذا تكلما بكلام كان المراد به ظاهر الكلام ، وكما أننا نحمل كلام الناس في بيعهم وشرائهم وأوقافهم ورهونهم و جميع معاملاتهم على ظاهره ، فلماذا لا نحمل كلام الله ورسوله على ظاهره في أمور غيبية لا مجال للاجتهاد فيها ، أليس الأجدر بنا أن نستسلم لهذه النصوص ونحملها على ظاهرها؟

بلى ، لأن هذه أمور غيبية ليس للرأي فيها مجال ، تكلم الله بها عن نفسه وتكلم بها النبي ﷺ عن ربه فكان الواجب علينا أن نأخذها على ظاهرها ، ولكن يجب أن نعلم أن ظاهرها ليس هو التمثيل لأن التمثيل منفي عن الله تعالى .

أراد بها معان تخالف الظاهر : من قال إنه أراد بها معان تخالف الظاهر؟ إذ من الجائز أن لا يراد بها الظاهر ولا يراد بها معاني أخرى وتكون ألفاظاً همـلاً لا معنى لها وهذا جائز ، إذاً نطالبكم بالدليل على أن المراد بها معاني أخرى تخالف الظاهر ولا دليل لهم في ذلك .

الرسول ﷺ يعلمها ولم يبينها للأمة : هذه أيضاً دعوى لو شعر الإنسان القائل بها ماذا يترتب عليها لنكص على عقبيه ، إذا كان الرسول ﷺ يعلم المراد بهذه النصوص

التي لم يدل عليها ظاهرها ولم يبينه للناس مع أن ما يتعلق بأسماء الله وصفاته هو أعظم ما جاءت به الرسل ، ماذا تكون حال الرسول ﷺ؟ يكون مبلغاً؟

غير مبلغ أبداً ، بل يكون من أعظم الناس كتماناً للحق لأن الحق لا يعلم إلا من عنده فكتمه ، كتم العالم للحق أهون من كتم الرسول ﷺ للحق ، لأن العالم المعين إذا كتمه ذهبنا إلى عالم آخر وأخبرنا به ، لكن الرسول ﷺ لا نعلم الحق إلا من عنده ، فإذا كان النبي ﷺ يعلم معاني هذه النصوص ولم يبينها للناس كان هذا أعظم الطعن في الرسول ﷺ ، إذاً انظر إلى هذا المذهب الباطل - والعياذ بالله - ماذا يترتب عليه؟

كذب وتكذيب واتهام ، كذب لأنهم يقولون المراد بها معان أخرى وهم ما يعلمونها ، تكذيب لأنهم نفوا الظواهر ، اتهام لأنهم اتهموا الرسول ﷺ بكتم بيان الحق في هذا والله جل وعلا يقول لرسوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ (المائدة :٦٧) ، انظر إلى المذاهب الباطلة ماذا يترتب عليها؟ فهذا المذهب الآن مذهب أهل التأويل ترتب عليه هذه اللوازم الباطلة التي هي من أبطل ما يقال من الباطل .

نسألهم لماذا لم يعلم النبي ﷺ أمته بمعانيها؟

قالوا لأجل أن يمتحن عقول الناس أيهم يعلمها ، هذه واحدة ، ثانياً لأجل أن يكثر الثواب في طلب الوصول إلى معناها ، لأن المعنى الذي يخالف الظاهر يحتاج إلى مقدمات حتى نصل إليه ، لأنه يحتاج إلى أدلة تدل على أن الظاهر غير مراد ثم يحتاج إلى أدلة تدل على أن هذا الذي زعم أنه مراد يحتمله اللفظ ثم أدلة إلى تعيين المعنى الخاص ، فالمهم أن النبي ﷺ على زعمهم لم يبينها من أجل أن يتعب الناس في الوصول إلى هذه المعاني بتخريجها على شواذ اللغة وطلب الأدلة الدالة عليها فينالون

بذلك الثواب ، لأنه كلما كثر العمل من أجل الوصول إلى الحق علماً أو عملاً كان ذلك أكثر للثواب .

نقول لهم هذان الغرضان غرضان باطلان ، أما الأول فقولكم إن النبي ﷺ لم يبينها لأجل امتحان العقول ؛ هذا إنما يصح لو كنت تلغز على أقوام حاضرين يجيبون عما ألغزت به فإن كان حقاً قبلته وإن كان باطلاً فندته ، أما والأمر ليس كذلك فهذا لا يمكن ، الرسول ﷺ ألغز ذات يوم على أصحابه حيث قال : «إن من الأشجار شجرة مثلها مثل المؤمن»[1] ولا بينها ، لكنه صار الناس يذكرون أشياء من شجر البوادي ولم يصيبوا الغرض فعلمهم النبي ﷺ بذلك وقال إنها النخلة ، هذا ممكن أن الشارع يختبر الناس ، ويختبر ذكاءهم في أمر يبينه لهم بعد ، أما أن يجعل الأمر عائماً ويختبر ذكاءهم إلى يوم القيامة فهذا مستحيل .

وأما قولهم من أجل أن ينالوا كثرة الثواب فنقول إن محاولة كثرة الثواب في التعمية على الخلق هو عقاب في الواقع وذنب يستحق العقاب لا الثواب ، لأن الناس سوف يتخبطون في هذه المعاني كما هو الواقع ، تخبطوا فيها وتناقضوا فيها حتى كان بعضهم يناقض بعضاً وحتى كان الواحد منهم يؤلف تأليفاً في معنى ثم ينقضه مرة ثانية ، فتبين أيها الإخوة أن هذا المذهب باطل ومن أبطل المذاهب ، وسيأتينا إن شاء الله في الفصل التالي ما يترتب عليه من الإلزامات .أهـ

* * *

وهؤلاء هم أكثر الناس اضطراباً وتناقضاً ؛ لأنهم ليس لهم قدم ثابت فيما يمكن تأويله وما لا يمكن ، ولا في تعيين المعنى المراد .

---

(١) البخاري (٦١) كتاب العلم / باب قول المحدث حدثنا و (٦٢) / باب طرح الإمام المسألة على أصحابة يختبر ما عندهم من العلم ، ومسلم (٢٨١١) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم / باب مثل المؤمن كالزروع ، من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

الشرح

هذا صحيح ، هؤلاء أكثر الناس اضطراباً لأنهم ليس لهم قدم ثابت في الذي يمكن تأويله والذي لا يمكن ، ولهذا تجد بعضهم ولاسيما الأشاعرة أثبتوا شيئا من الصفات وأنكروا شيئا لأنهم يقولون هذا يمكن تأويله وهذا لا يمكن ، وكذلك أيضاً المعتزلة اضطربوا فمنهم من أنكر الصفات دون الأسماء ومنهم من أنكر الأسماء والصفات أيضاً فلم يكن لهم قدم ثابت فيما[1] يمكن تأويله وما لا يمكن .

كذلك أيضاً ليس لهم قدم ثابت في تعيين المراد ، ما المراد بهذا؟ القدرة ، النعمة ، القوة وما أشبه ذلك ، وهذا يدل على بطلان أقوالهم لأن تناقض الأقوال من أقوى الأدلة على بطلانه .أهـ

* * *

ثم إن غالب ما يزعمونه من المعاني يعلم من حال المتكلم وسياق كلامه أنه لم يرده في ذلك الخطاب المعين الذي أولوه ،

الشرح

يعني مثلاً قوله تعالى : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص :٧٥) ، هم يقولون إن المراد باليد هنا النعمة أو القوة ، نقول لهم لا شك أن اليد تطلق في اللغة العربية على النعمة وعلى القوة كما في حديث غزوة الحديبية يخاطب أبا بكر يقول : «لولا يدٌ لك عندي لم أجزك بها لأجبتك»[2] يعني يد بمعنى نعمة ، وكما قال المتنبي :

(١) إضافة من الشيخ رحمه الله .

(٢) البخاري (٢٧٣١) كتاب الشروط / باب الشروط في الجهاد ، من حديث المسور بن مخرمة ومروان .

وكـــم لـــظـــلام الـــلـــيـــل عـــنـــدك مـــن يـــد

تـــخـــبـــر أن المـــانـــويـــة تـــكـــذب

المانوية قسم من المجوس يقولون إن الظلمة تخلق الشر ، فهو يقول أنت تعطي العطايا في الليل والليل ظلمة ، فقوله من يد أي من نعمة ، ويقولون مالي بهذا الأمر يدان أي قوة ، نقول لا شك أن اليد تطلق على القوة لكن هل يمكن أن يراد بها القوة في مثل قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص :٧٥) ، سياق الكلام يمنع هذا منعاً باتاً ، إذ ما المعنى بيدي أي بنعمتي أو بقوتي؟ هذا لا يمكن ، فالحاصل أن شيخ الإسلام يقول أيضاً إن ما يزعمونه من المعاني يعلم من حال المتكلم وسياق كلامه أنه لم يرده ، وحينئذ تكون دعوى باطلة .أهـ

* * *

وهؤلاء كانوا يتظاهرون بنصر السنة ، ويتسترون بالتنزيه ،

الشرح

يقولون نحن الذين ننصر السنة لأننا دافعنا المعطلة من الجهمية والمعتزلة والفلاسفة من أهل التخييل وغيرهم ، وأقررنا بالنصوص على وجه التنزيه لله تعالى ، لأننا لا نقول . . . . . .[1]

حقيقة لأن هذا من صفات الأجسام ، ولا نقول نزل إلى السماء الدنيا حقيقة لأن هذا من صفات الأجسام ، ولا نقول له وجه ولا يد وما أشبه ذلك لأن هذا من صفات الأجسام ، فنحن منزهون لله عما لا يليق به ، ونحن ندافع عن عقيدتنا ونبطل أقوال المعتزلة والجهمية والفلاسفة وما أشبه ذلك ، فهم يتظاهرون بنصر السنة ، لكن شيخ

(١) فراغ من الأصل ، ولعله : لا نقول بإثبات الصفات حقيقة . . .والله أعلم .

الإسلام يقول : إنهم لا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا ، بل ما ازداد أمرهم الأمر إلا شدة ولم ينتفع الناس بعلومهم ، وما زالوا إلى الآن يقولون إن أهل السنة ثلاثة : السلفيون والأشعريون والماتريديون ، وهذا في الحقيقية لا يصح لأن لقب أهل السنة إنما ينطبق على من تمسك بالسنة ، والذين يخالفون الرسول ﷺ والسلف الصالح في منهاجهم في العقيدة هل يكونون من أهل السنة؟ لا .

لا يصح أن نسميهم من أهل السنة بهذه البدعة التي أحدثوها ، وإن كانوا من أهل السنة من حيث الجملة لكن في نفس الأسماء والصفات ليسوا من أهل السنة ، بل هم مخالفون للسنة فيما ذهبوا إليه في أسماء الله وصفاته .أهـ

* * *

ولكن الله تعالى هتك أستارهم برد شبهاتهم ودحض حججهم ، فلقد تصدى شيخ الإسلام وغيره للرد عليهم أكثر من غيرهم ؛ لأن الاغترار بهم أكثر من الاغترار بغيرهم ؛ لما يتظاهرون به من نصر السنة .

الشرح

ومعلوم أن مدافعة هؤلاء أكثر إلحاحاً من مدافعة المعتزلة والجهمية والمعطلة ، لماذا؟

لأنهم يتسترون على باطلهم ويتظاهرون بنصر السنة وهذا هو البلاء ، فالمخالف لك إذا قال أنا على خلاف معك فهذا أمره أهون من رجل يقول أنا على الحق ويحاول أن يجعل نفسه من أهل الحق وهو دعي فيهم فإن هذا أشد ضرراً ، ولهذا أكثر العلماء رحمهم الله من الرد عليهم حتى لا يغتر الناس بهم .أهـ

المناقشة

سؤال : كيف نقول أنهم من أهل السنة في الجملة؟

الجواب : في الجملة لأنه في كثير من الأشياء من العقائد كاليوم الآخر وما فيه وافقوا أهل السنة فيه ، ولا يمكن أن نخرجهم من أهل السنة إخراجاً مطلقاً لأنه مشكل ، لو أخرجت مثلاً النووي وابن حجر وغيرهم من الأشعرية فهذا لا أحد يقرك عليه .أهـ

سؤال : أليسوا مثلاً جبرية في مسائل أفعال العباد؟

الجواب : لا ، هم ليسوا جبرية في الحقيقة لكن لهم مذهب لا أصل له يعني ليس له حقيقة ، وإلا هم خالفوا أهل السنة في القدر وخالفوهم أيضاً في الإيمان لأنهم مرجئة وخالفوهم في بعض المسائل من اليوم الآخر ، إنما نفي كونهم من أهل السنة على سبيل الإطلاق ما أستطيع أن أنفيهم .أهـ

سؤال : هل يفرق بين الطائفة وبين الفرد ، فالأشاعرة ممكن أن نقول إنهم ليسوا من أهل السنة لكن النووي وابن حجر لا نحكم عليهم أفرادا لأنه قد لا يكون مذهبهم هو مذهب الأشاعرة؟

الجواب : لا ، في باب الصفات هم على مذهب الأشاعرة ماشون عليه ـ التأويل ـ .أهـ

سؤال : ابن حجر يخالف الأشاعرة في كثير من الأشياء؟

الجواب : ابن حجر في الواقع متذبذب ولا سيما في فتح الباري متذبذب ، أحيانا يؤيد مذهب أهل السنة وأحيانا يؤيد مذهب الأشاعرة ، لكن بقطع النظر عن الرجلين ، أنا جئت بهما مثلا ، إنما هذا المذهب من حيث هو بعضه صحيح وبعضه ليس

بصحيح ، لكن في باب الصفات ليس بصحيح ، حتى ما أثبتوه من الصفات لا يثبتونه على ما يثبته أهل السنة والجماعة ، انظر إلى قولهم في الكلام مخالف لمذهب أهل السنة والجماعة .أهـ

سؤال : لكن المنهج الذي ساروا عليه بصرف النظر عن تطبيقهم لمسألة الصفات ، أصل المنهج أنه تقديم العقل ، أليس هذا هو الذي يحكم الإنسان عليه أكثر من مسألة التطبيق في الصفات؟

الجواب : لكن تقديم العقل في باب الصفات ، أما في الأمور العملية فهم موافقون ولايجعلون للعقل مجالا فيما لا مجال له فيه .

على كل حال يجب أن نزن بالقسط ، فمن معه حق قلنا معك حق والباطل معك باطل ، ومن كان على غير حق قلنا إنك لست على حق في كل ما تقول .أهـ

فصل

مذهب أهل التأويل في نصوص المعاد : الإيمان بها على حقيقتها من غير تأويل ،

الشرح

يعني فيؤمنون بالبعث والجزاء والجنة والنار وما أشبه ذلك ، ويقولون هذا حق على حقيقته والناس سيبعثون ويحاسبون ويجزون ويعاقبون أو يثابون لا نشك في هذا ، وهذا حق .أهـ

* * *

ولما كان مذهبهم في نصوص الصفات صرفها عن حقائقها إلى معانٍ مجازية تُخالف ظاهرها ، استطال عليهم أهل التخييل

الشرح

استطال عليهم يعني تطاولوا عليهم واستعلوا عليهم وقالوا لهم أنتم تقولون إنه لا يراد بنصوص الصفات ظاهرها وإنما يراد بها معاني أخرى ، وتنكرون علينا إذا قلنا إنه لا يراد بنصوص المعاد ظاهرها وإنما هي تخييل ، والآن سيحصل نزاع بين أهل التخييل وأهل التأويل في باب الأسماء والصفات ، يقولون أنتم تأولون في الصفات ولا تأولون في المعاد ونحن نأول في البابين ونقول كلها ليست على حقيقتها ولا يراد بها الحقيقة ، فالنزاع بينهما في باب الصفات لأجل أن يلزمهم أهل التخييل بإنكار المعاد .أهـ

* * *

فألزموهم القول بتأويل نصوص المعاد كما فعلوا في نصوص الصفات ،

الشرح

هم قالوا إنكم أنتم يا أهل التأويل تقرون بنصوص المعاد على حقيقتها ولا تأولون ،

وهكذا كان حال أهل التأويل ، فحال أهل التأويل بالنسبة للمعاد على أنه حق على حقيقته ، يؤمنون بالبعث وبالجزاء وبالجنة وبالنار وبالثواب وبالعقاب يؤمنون بها ، وفي باب الصفات لا يؤمنون بها ويأولونها ، فقال لهم أهل التخييل أولوا في نصوص المعاد لأن العقل يستبعد وقوع هذا الشيء ، يستبعد إذا مزق الإنسان كل ممزق أن يبعث خلقاً جديداً ، هذا بعيد ، بعيد أن يكون هناك جنة ونار لا تفنى أبداً هذا لا يمكن ، فأنتم يجب عليكم أن تأولوا في نصوص المعاد كما أولتم في نصوص الصفات .

استمع لجواب أهل التأويل .أهـ

* * *

فقال أهل التأويل لهم : نحن نعلم بالاضطرار أن الرسول ﷺ ، جاء بإثبات المعاد ، وقد علمنا فساد الشبهة المانعة منه ، فلزم القول بثبوته . اهـ .

الشرح

الجواب مركب من إيجاب وسلب ، علمنا بالاضطرار ، ما معنى بالاضطرار؟

أي أن علمنا بذلك علم ضروري يقيني لا اشتباه عندنا أن النبي ﷺ جاء بإثبات المعاد في الكتاب وفي السنة وقامت الأدلة والبراهين على إثباته ، وقد علمنا فساد الشبهة المانعة منه ، ما هي الشبهة؟

الشبهة ما قاله زعيمهم : ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ (يس :٧٨) ، هذه الشبهة ، هذه الشبهة فاسدة لأنا نقول : ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ (يس :٧٩) فالشبهة المانعة الآن من القول بالحقيقة فاسدة فوجب علينا أن نقول بأنه حقيقة ، الجواب هذا صحيح أو غير صحيح؟ .أهـ

* * *

وهذا جواب صحيح ، وحجة قاطعة ، تتضمن الدفاع عنهم في عدم تأويلهم نصوص المعاد وإلزام أهل التخييل أن يقولوا بإثبات المعاد ، وإجراء نصوصه على حقائقها ؛ لأنه إذا قام الدليل ، وانتفى المانع وجب ثبوت المدلول ، وقد احتج أهل السنة على أهل التأويل بهذه الحجة نفسها ؛ ليقولوا بثبوت الصفات وإجراء نصوصها على حقيقتها ، فقالوا لأهل التأويل : «نحن نعلم بالاضطرار أن الرسول ﷺ ، جاء بإثبات الصفات لله ، وقد علمنا فساد الشبهة المانعة منه ، فلزم القول بثبوتها» . وهذا إلزام صحيح وحجة قائمة لا محيد لأهل التأويل عنها ؛ فإن من منع صرف الكلام عن حقيقته في نصوص المعاد يلزمه أن يمنعه في نصوص الصفات التي هي أعظم وأكثر إثباتاً في الكتب الإلهية من إثبات المعاد ،

الشرح

سبق لنا أن هناك فرقا بين أهل التخييل وأهل التأويل بالنسبة لنصوص المعاد ، فأهل التأويل يقولون إنها على حقيقتها ، وأهل التخييل يقولون إنها تخييلات لا حقيقة لها ويصرفون النصوص الدالة على إثباتها عن ظاهرها .

يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ إن نصوص الصفات في الكتب الإلهية أكثر بكثير من نصوص المعاد ، وصدق رحمه الله لأنه ما من آية في القرآن إلا وتجد فيها صفة من صفات الله ، كل آية فهي كلام الله وكل كلام الله فهو صفة من صفاته ، لكن قارن بين نصوص المعاد ونصوص الصفات أيها أكثر؟ نصوص الصفات أكثر بكثير ، فإذا امتنع تأويل نصوص المعاد مع قلتها بالنسبة لنصوص الصفات فامتناع نصوص الصفات من باب أولى .أهـ

وإن لم يفعل فقد تبين تناقضه وفساد عقله .

الشرح

يعني إذا أجاز التأويل في الصفات ولم يجزه في المعاد فقد تناقض .أهـ

فصل

٣ - وأما أهل التجهيل فهم : كثير من المنتسبين إلى السنة وأتباع السلف ،

الشرح

حتى إن بعض الناس قال إن هذا ـ التجهيل ـ هو مذهب السلف .أهـ

* * *

وحقيقة مذهبهم : أن ما جاء به النبي ﷺ ، من نصوص الصفات ألفاظ مجهولة لا يعرف معناها ،

الشرح

هذا مذهب أهل التجهيل ، يعني الذين يصفون الخلق بالجهل ، يجهلون الخلق ، يقول مثلاً الرسول ﷺ لا يدري ما معنى آيات الصفات ، لو سألته ما معنى استوى الله على العرش قال لا أدري ، لو سألته حين قال ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ما معنى ينزل؟ قال لا أدري ، لو سألته ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ (الرحمن :٢٧) ، قال لا أدري ، ما معنى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص :٧٥) ، ما معنى اليدين قال لا أدري ، الرسول ﷺ يقول لا أدري ! يقولون كل الناس لا يعرفون معاني آيات الصفات ، وإنما هي عندهم بمنزلة ألف ، باء ، تاء ، ثاء ، جيم ، حاء ، خاء . . إلخ ، ما معنى ألف؟

ليس لها معنى ، هم يقولون استوى على العرش مثل ألف ، باء ، تاء ، ثاء لا ندري ما معناها ، وهذا في الحقيقة إذا تأملته وجدت أنه من شر أقوال الناس لأنه يقتضي أن هذه الآيات العظيمة والأحاديث الكثيرة في صفات الله كلها نزلت لهواً ولعباً وليس لها معنى ، ما الفائدة من أن تكلم إنساناً بكلام لا يعرف معناه ، ولو جاءنا

الآن رجل غير عربي وأخذ يخطب خطبة فصيحة ونعرف أنها مؤثرة بأنه ينفعل ويمد يده ويردها ويتغير وجهه وهو يخطب بأعلى صوته ، لكن نحن عرب لا نعرف لغته فما استفدنا ، وما استفدنا إلا أننا رأينا انفعاله وحركاته فقلنا هذا رجل خطيب وفصيح ، أما أن نعرف مدلول خطبته فلا نعرف ، هم يقولون هذه الألفاظ العربية باللسان العربي المبين هي بلسان عربي غير مبين ، شيخ الإسلام يقول : هؤلاء أضر على الإسلام من جميع الطوائف لأنهم هم الذين فتحوا الباب للفلاسفة والمناطقة فدخلوا ، لما رأوا هؤلاء يتكلمون بالقرآن والسنة ولا يعرفون ما معناها قالوا نحن الذين سنريكم المعنى ، إذا سألناكم ما معنى اليد وقلتم لا ندري نقول نحن الذين ندري ونحن الذين سنجعل لكلام الله معنى ، المراد باليد القوة ، ومعلوم أن من أثبت معنى خير ممن لم يثبت بلا شك لأن هذا معه علم وهذا ليس معه علم سواء صح ما أثبته أو لم يصح ، إنما المهم أنه لا يمكن أن ينزل قرآن بدون معنى أو سنة بدون معنى ، فتجد هؤلاء هم أهل التجهيل ويسمون أنفسهم تلبيساً وتزويراً بأهل التفويض ، لأنه معلوم إذا قال هذا مفوض أهون من إذا قيل هذا مجهل ، إذا قيل هذا مجهل يجهل الرسول وأصحابه ليس مثل الذي يقول هذا مفوض يفوض الأمر إلى الله ، والحاصل أن هذا هو مذهب أهل التجهيل .أهـ

* * *

حتى النبي ﷺ يتكلّم بأحاديث الصفات ولا يعرف معناها .

الشرح

سبحان الله أن نصف الرسول عليه الصلاة والسلام محمداً بهذا الوصف ، يتكلم بالكلام وهو لا يدري ما معناه ! ! لا أظن أحداً يتكلم بكلام لا يعلم معناه إلا سكران أو مجنوناً أو مبرسماً وكل هذه في حق الرسول منفية قطعاً ، كيف يتكلم بكلام وهو لا يدري ما معناه؟ .أهـ

ثم هم مع ذلك يقولون : ليس للعقل مدخل في باب الصفات ،

الشرح

مشكل ، النصوص ما تثبت الصفات والعقول ليس لها مدخل في الصفات .أهـ

* * *

فيلزم على قولهم أن لا يكون عند النبي ﷺ وأصحابه وأئمة السلف في هذا الباب علوم عقلية ولا سمعية ، وهذا من أبطل الأقوال ،

الشرح

وهذا صحيح ، فالسمع معزول عن دلالته والعقل معزول عن تدخله ، إذاً الرسول ﷺ وأصحابه وأئمة الأمة ليس عندهم علوم عقلية في باب الصفات ولا علوم سمعية ، لماذا؟ لأن العلم السمعي متعذر حيث إنهم يقرأون ولا يفهمون ، ومن قرأ ألفاظاً بدون معنى فهو جاهل بلا شك ، والعلوم العقلية أيضاً عندهم منتفية لأن العقل ليس له مجال في باب الصفات على العكس من أهل التأويل ، أهل التأويل يقولون العقل له مدخل في باب الصفات بل هو أصل عندهم ، عند أهل التأويل يرجعون في إثبات الصفات ونفيها إلى العقل ، وهؤلاء يقولون ليس هناك عقل ولا فهم للمعنى ، فالأمة معزولة عن معاني أسماء الله وصفاته بالعقل والسمع ليس لها مدخل .أهـ

* * *

وطريقتهم في نصوص الصفات : إمرار لفظها مع تفويض معناها ،

الشرح

يقول نثبت لفظها ، نقرأ : ﴿ثم استوى على العرش﴾ ، نقرأ «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا» و نثبت هذا لكن معناه لا نثبته ، وحرام عليك أن تثبت أن معنى استوى

علا أو أن معنى النزول النزول الحقيقي ، وحرام عليك أن تأول لأن العقل ليس له مدخل ، إذاً ماذا أقول؟ إقرأ واسكت ولا تقل شيئا ، وكن مثل العجوز التي لا تعلم ماذا تقول ، إقرأ ولا تتكلم في المعنى إطلاقاً وكل ما قيل لك فقل الله أعلم ، وهل هذا يمكن أن يبني الإنسان عقيدته عليه؟ على جهل لا يدي ما هي أسماء المعبود ولا صفات المعبود؟ هذا لا يمكن أبداً ، والحقيقة أنه كلما تأملت هذا المذهب وجدته من أفسد المذاهب .أهـ

* * *

ومنهم من يتناقض فيقول : تجري على ظاهرها مع أن لها تأويلاً يخالفه لا يعلمه إلا الله ، وهذا ظاهر التناقض ،

الشرح

هل هذا متناقض؟ يقول تجري على ظاهرها ، إذاً إذا كانت تجرى على ظاهرها فدعها على ظاهرها ! يقول لا ، لها تأويل لا يعلمه إلا الله ، وجه التناقض .أهـ

* * *

فإنه إذا كان المقصود بها التأويل الذي يخالف الظاهر وهو لا يعلمه إلا الله ، فكيف يمكن إجراؤها على ظاهرها؟

الشرح

إذاً نقول إن الذي جاء بهذه العبارة لا يريد إلا المداهنة فقط ، يقول تجرى على ظاهرها ثم يقول لها تأويل هو المراد لا يعلمه إلا الله ، فإذا كانت تجرى على ظاهرها ولها تأويل لا يعلمه إلا الله وهو المراد منها ، فكيف يتفق هذا وهذا ، نقول لا شك أن هذا تناقض .أهـ

وقد قال الشيخ - رحمه الله - عن طريقة هؤلاء في كتاب «العقل والنقل» ص١٢١ ج١ :

الشرح

هذا في الطبعة التي على هامش منهاج السنة ، ليست الطبعة الأخيرة ، لأن هذا مكتوب قبل الطبعة الأخيرة .أهـ

* * *

«فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد»اهـ .

الشرح

العجيب أن كثير من الناس الذين لا يدرون عن مذهب السلف يقولون إن أهل السنة ينقسمون إلى قسمين لا ثالث لهما : أهل التأويل وأهل التفويض ، ويعنون بالتفويض تفويض المعنى الذي هو التجهيل في الواقع ، إذا قلنا إن أهل السنة لا يخرجون عن هذين القسمين فمعناه أن السلف ليسوا من أهل السنة ، والسبب لأن السلف يثبتون المعنى ولا يأولون ، فهم ليسوا مفوضة كأهل التجهيل وليسوا مأولة كأهل التعطيل ، فنقول هناك قسم ثالث تركتموه وهم أهل السنة وهم الذي يفوضون الكيفية ويقرون بالمعنى وهم السلف ، يقولون نحن نعلم معنى الاستواء ولكن نجهل كيفيته ، نعلم معنى اليد ولكن نجهل كيفيتها ، ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله عن الاستواء فقيل له الرحمن على العرش استوى كيف استوى؟ فقال : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، ما معنى الاستواء غير مجهول؟ أي أنه معلوم المعنى في اللغة العربية ، كلٌ يعرف معنى استوى على الشيء ، والكيف غير معقول يعني لا ندركه بعقولنا ، وهل هو معلوم بالنص ـ يعني الكيف ـ؟

غير معلوم فاستوى عنه الدليلان العقلي والسمعي فوجب التوقف فيه أي في الكيف ، والإيمان به واجب ، الإيمان بالاستواء على حقيقته واجب ، والسؤال عنه أي عن كيفيته بدعة وما أراك إلا مبتدعاً[1] ، وهكذا نقول في بقية الصفات ، النزول إلى السماء الدنيا غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، وهكذا نقول في بقية الصفات .أهـ

* * *

والشبهة التي احتج بها أهل التجهيل هي وقف أكثر السلف على (إلا اللَّهُ) من قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران :٧) .

الشرح

هذه الآية الكريمة اختلف السلف فيها على قراءتين ، القراءة الأولى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ (آل عمران :٧) ، وهذه قراءة الوصل ، والقراءة الثانية : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ ويقف ثم يقول : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ أي القراءتين في المصحف؟

الوقف أولى فقط لماذا؟ لأن الوقف أو الوصل مبني على معنى التأويل ، فإن كان المراد بالتأويل التفسير يعني تفسير المعنى وإيضاح المعنى فالوصل أولى ، وإن كان المراد بالتأويل الحقيقة التي عليها الشيء فالقطع أولى .أهـ

---

(١) اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٦٦٤) والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٦) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٦، ٣٢٥) والذهبي في مختصر العلو ص (١٣١ ـ ١٣٢) وصححه وقال : هذا ثابت عن مالك ، وقواه الألباني ، وجود إسناده الحافظ بن حجر في الفتح ١٣/ ٤٠٦، ٤٠٧ .

وقد بنوا شبهتهم على مقدمتين :

الأولى - أن آيات الصفات من المتشابه .

الشرح

المتشابه الذي قال الله فيه :﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران :٧) قالوا وآيات الصفات من المتشابه .أهـ

* * *

الثانية - أن التأويل المذكور في الآية : هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى المعنى الذي يخالف الظاهر ، فتكون النتيجة أن لآيات الصفات معنى يُخالف ظاهرها لا يعلمه إلا الله .

الشرح

إذاً ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ﴾ أي معناه المخالف الظاهر ﴿ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ وحينئذ تكون آيات الصفات ليست على ظاهرها بل لها تأويل يخالف الظاهر لا يعلمه إلا الله ، وتكون النتيجة أن آيات الصفات لا يعلم معناها ، لماذا؟ لأنه لا يراد بها ظاهرها ، بل المراد المعنى المخالف للظاهر ، وهذا المعنى المخالف للظاهر غير معلوم لا يعلمه إلا الله ، هذا تقرير استدلالهم بهذه الآيات الكريمة .أهـ

* * *

والرد عليهم من وجوه :

الأول - أن نسألهم ماذا يُريدون بالتشابه الذي أطلقوه على آيات الصفات ،

الشرح

لأجل أن ننظر حتى نرد عليهم بعد أن يتقرر مذهبهم .أهـ

أيُريدون اشتباه المعنى وخفاءه ، أم يُريدون اشتباه الحقيقة وخفاءها؟

الشرح

نقول أنتم الآن تقولون إن آيات الصفات من المتشابه فماذا تعنون بالمتشابه؟ هل تريدون اشتباه الحقيقة وأننا يشتبه علينا أن نعرف حقيقة هذه الأسماء والصفات ، أو تريدون بالاشتباه اشتباه المعنى يعني أن المعنى مشتبه علينا لا ندري ما المراد؟ وأظننا نعرف الفرق بين المعنى وبين الحقيقة التي يؤول إليها الشيء ، فنحن نعرف معنى اليد ومعنى الاستواء لكن هل نحن عرفنا حقيقة يد الله وكيفيتها؟ أبداً ، فيجب أن نعرف الفرق بين المعنى وبين الحقيقة ، فنسأل هؤلاء ماذا تريدون بالتشابه؟ هل تريدون اشتباه المعنى وخفاءه؟ أم تريدون اشتباه الحقيقة وخفاءها؟ .أهـ

* * *

فإن أرادوا المعنى الأول - وهو مرادهم -

الشرح

هم يريدون بالمتشابه يعني لا يعرف معناه .أهـ

* * *

فليست آيات الصفات منه لأنها ظاهرة المعنى ،

الشرح

لقول مالك : «الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول» ، و قولنا إن أرادوا المعنى الأول وهو مرادهم ، كيف نعلق بالأول ثم نثبت في الثاني؟ لأجل التفصيل ، فإنهم هم إذا قالوا نحن نريد المعنى الأول وهي أن آيات الصفات وأحاديثها مشتبهة المعنى هذا هو مرادهم .أهـ

وإن أرادوا المعنى الثاني فآيات الصفات منه ، لأنه لا يعلم حقيقتها وكيفيتها إلا الله تعالى ، وبهذا عرف أنه لا يصحّ إطلاق التشابه على آيات الصفات ، بل لا بد من التفصيل السابق .

الشرح

التفصيل السابق هو أنه إن أريد بذلك اشتباه المعنى وخفاؤه فآيات الصفات واضحة المعنى وليست منه ، وإن أريد بذلك اشتباه الحقيقة التي يكون عليها الأمر فهذا حق وهي من المتشابه ، وما الذي يريد هؤلاء؟ يريدون المعنى الأول .أهـ

* * *

الثاني - أن قولهم : «إن التأويل المذكور في الآية هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى المعنى الذي يُخالف الظاهر» ؛ غير صحيح ،

الشرح

لأنهم يقولون آيات الصفات لها معنى يخالف ظاهرها فلا نجريها على ظاهرها ، لماذا؟ لأن الله قال : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أي ما يعلم المعنى المخالف للظاهر إلا الله ـ عز وجل ـ ، إذاً فنحن الآن لا نجريها على ظاهرها لأن لها معنى يخالف الظاهر لا يعلمه إلا الله .أهـ

* * *

فإن هذا المعنى للتأويل اصطلاح حادث لم يعرفه العرب والصحابة الذين نزل القرآن بلغتهم ، وإنما المعروف عندهم أن التأويل يراد به معنيان :

١ ـ إما التفسير ويكون التأويل على هذا معلوماً لأولي العلم ، كما قال ابن

عبـاس ـ رضي الله عنهما ـ : «أنا من الراسخـين في العلـم الـذين يعلمون تأويلـه»[1] وعليه يحمل وقف كثير من السلف

الشرح

لا أكثرهم .أهـ

* * *

على قوله تعالى : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ (آل عمران : ٧) من الآية السابقة .

الشرح

أظن أنه إذا كان التأويل بمعنى التفسير فهذا معلوم لأهل العلم لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ معطوفة على الله وموصولة به ، فالراسخون في العلم يعلمون التأويل بناءً على أن المراد بالتأويل المعنى .أهـ

* * *

٢ – وإما حقيقة الشيء ومآله ، وعلى هذا يكون تأويل ما أخبر الله به عن نفسه ، وعن اليوم الآخر غير معلوم لنا ؛ لأن ذلك هو الحقيقة والكيفية التي هو عليها ، وهو مجهول لنا ، كما قاله مالك وغيره في الاستواء وغيره ،

الشرح

صحيح ، إذا أردانا بالتأويل الحقيقة والمآل الذي عليه الشيء فإن هذا غير معلوم لنا لأننا لا نستطيع أن نعرف حقيقة ما أخبر الله به عن نفسه ، نعم نعرف المعنى أما أن نعرف كيف ذلك وما حقيقته فهذا لا يمكن .أهـ

---

(١) تفسير ابن كثير / آل عمران آية ٧ .

وعليه يحمل وقف جمهور السلف على قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ (آل عمران : ٧) من الآية السابقة .

الشرح

وبهذا تبين أن للسلف في هذه الآية وقفين ، الوقف الأول على ﴿ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ فماذا يكون معنى التأويل عندهم؟ الحقيقة ، إذا وقفنا على ﴿ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ ، صار المراد بالتأويل الحقيقة التي يؤول إليها الكلام ، وأما إذا وصلنا وهو قول لبعض السلف وقلنا ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ صار المراد به التفسير وهو معلوم لأهل العلم ، لأن قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ إذا جعلناه معطوفا على الله صاروا من الذين يعلمون تأويله وهو التفسير كما قال ابن عباس رضي الله عنه عن نفسه .أهـ

* * *

الوجه الثالث - أن الله أنزل القرآن للتدبّر ،

الشرح

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ (ص) أهـ

* * *

وحثنا على تدبره كله ، ولم يستثن آيات الصفات ، والحثّ على تدبره يقتضي أنه يمكن الوصول إلى معناه وإلا لم يكن للحث على تدبره معنى ؛ لأن الحث على شيء لا يمكن الوصول إليه لغو من القول ، ينزه كلام الله وكلام رسوله ﷺ عنه ، وهذا - أعني الحث على تدبره كله من غير استثناء - يدل على أن لآيات الصفات معنى يمكن الوصول إليه بالتدبر ، وأقرب الناس إلى فهم ذلك المعنى هو النبي ﷺ وأصحابه ؛ لأن

القرآن نـزل بلغتهم ، ولأنّـهم أسرع الناس إلى امـتثال الحثّ على الـتدبّر ، خصوصاً فيما هو أهم مقاصد الدين .

الشرح

نقول لهؤلاء الذين يقولون إننا لا نعلم معاني آيات الصفات ، نـرد عليهم فنقول : إن الله أمرنا بتدبر القرآن : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ (ص :٢٩) اللام هنا للتعليل ، وكذلك قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ (المؤمنون :٦٨) وهذا لا شك أنه إنكار عليهم حيث لم يتدبروه ولم يعرفوا معناه ، فإذا كان الله تعالى حثنا على التدبر وأمرنا به فهل يمكن الوصول إلى المعنى؟

يمكن ، لولا أنه يمكن الوصول إلى المعنى لكان الأمر بالتدبر لغواً لا فائدة منه ، هل استثنى الله آيات الصفات وقال لا تدبروها فإنكم لن تصلوا إلى معناها؟ الجواب لا ، بل آيات الصفات هي أول وأولى ما يدخل في ذلك ، لأنه ليس من المعقول أن تعرف معنى الوضوء والركوع والسجود والصيام والزكاة والحج ثم يقال إن أعظم من ذلك وهو أسماء الله وصفاته لا يمكن أن تتدبرها ، أنا لو لم أتدبر معنى السميع ومعنى الاستواء على العرش ومعنى الوجه الموصوف بالجلال والإكرام لو لم أتدبر ذلك ما ازددت إيماناً ، وأظن أن هذا ظاهر .أهـ

* * *

وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ ، عشر آيات لا يتجاوزونها حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل ، قالوا[1] : «فتعلمنا القرآن ،

(١) تصحيح من الشيخ رحمه الله وقال : هذا هو الصواب .

والعلم ، والعمل جميعاً»[1] فكيف يجوز مع هذا أن يكونوا جاهلين بمعاني نصوص الصفات التي هي أهم شيء في الدين ؟ !

الشرح

بل نقول مع كونها أهم شيء في الدين هي أكثر ما يكون في القرآن ، لا تكاد تجد آية في القرآن إلا وفيها اسم من أسماء الله أو صفة من صفاته ، فإذا كان الصحابة رضي الله عنهم إذا قرأوا على النبي ﷺ لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل ، إذا كانوا كذلك فإنه يشمل آيات الصفات بلا شك ، ومن ادعى أنهم لا يعلمون معاني آيات الصفات فليأت بالدليل الذي يمنع هذا العموم .أهـ

* * *

الرابع : أن قولهم يستلزم أن يكون الله قد أنزل في كتابه المبين ألفاظاً جوفاء لا يبين بها الحق ، وإنما هي بمنزلة الحروف الهجائية والأبجدية ، وهذا ينافي حكمة الله التي أنزل الله الكتاب وأرسل الرسول من أجلها .

الشرح

هذا صحيح ، على رأيهم يستلزم أن هذه الحروف والكلمات والجمل المتعلقة بأسماء الله وصفاته ألفاظ جوفاء ليس لها معنى ، لأنهم يقولون ليس لها معنى ، يعني أننا لا نصل إليه فهي بمنزلة الحروف الهجائية أ ب ت ث . . . إلخ ، والأبجدية هي نفس الحروف الهجائية لكنها رتبت على ترتيب آخر ، الأبجدية : أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ ، يعني أنهم يركبون كلمات ولو لم يكن لها معنى لأجل ضبط الحروف إلا أن هذه الحرف لا تخرج عن الحروف الهجائية ، على كل حال

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره ١/ ٨٠ دون قوله العلم ، وقال أحمد شاكر : هذا إسناد صحيح متصل .

هم يرون أن نصوص الصفات من القرآن والسنة بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يعلم لها معنى ، وهذا من أكبر القدح والطعن في الله ـ عز وجل ـ وفي كتابه وفي رسوله حيث يتكلمون بكلمات ليس لها معنى ، فأنتم الآن تبين لكم أن مذهب أهل التجهيل باطل من وجوه أربعة .أهـ

* * *

تنبيه : عُلم مما سبق أن معاني التأويل ثلاثة :

الأول - التفسير وهو إيضاح المعنى وبيانه ، وهذا اصطلاح جمهور المفسرين ، ومنه قوله ﷺ لابن عباس : «اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل»[1] ، وهذا معلوم عند العلماء في آيات الصفات وغيرها .

الشرح

من الذي أنكره في آيات الصفات؟ أهل التجهيل ، قالوا إن هذا غير معلوم ، فهم يقولون نحن نعلم معنى الركوع والسجود والقيام والقعود والصيام والحج نعلم معناها ، لكن ما يتعلق بالعقيدة على زعمهم لا يعلم معناه .أهـ

* * *

الثاني - الحقيقة التي يؤول الشيء إليها ، وهذا هو المعروف من معنى التأويل في الكتاب والسنة ، كما قال تعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾ (الأعراف : ٥٣) ، وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء : ٥٩) . فتأويل آيات الصفات بهذا المعنى هو الكنه والحقيقة التي هي عليها ، وهذا لا يعلمه إلا الله .

---

(١) البخاري (١٤٣) كتاب الوضوء / باب وضع الماء عند الخلاء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

الشرح

لأنه لو قال لك قائل كيف استوى على العرش؟ أقول ليس بمعلوم ، لكن ما معنى استوى على العرش؟ أقول إنه معلوم .أهـ

* * *

الثالث - صرف اللفظ عن ظاهره إلى المعنى الذي يُخالف الظاهر ، وهو اصطلاح المتأخرين من المتكلمين وغيرهم .

الشرح

يعني قد يطلق التأويل على صرف اللفظ عن الظاهر إلى المعنى الذي يخالفه فما حكم ذلك؟ .أهـ

* * *

وهذان نوعان ؛ صحيح وفاسد :

فالصحيح : ما دلّ الدليل عليه ، مثل تأويل قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل :٩٨) . إلى أن المعنى إذا أردت أن تقرأ .

الشرح

لا إذا انتهيت من القراءة .أهـ

* * *

والفاسد : ما لا دليل عليه ؛ كتأويل استواء الله على عرشه باستيلائه ، ويده

الشرح

أي تأويل يده .أهـ

بقوته ونعمته ، ونحو ذلك .

الشرح

وهذا التأويل غير جائز والله أعلم .أهـ

* * *

المناقشة

سؤال : يلزم إذا عبرت أن أقول في الحقيقة أو الكيفية؟

الجواب : الحقيقة أحسن لأن الكيفية من الحقيقة .أهـ

سؤال : لكن يشتبه قولنا الحقيقة في نفس المعنى؟

الجواب : لا ، لأن المعنى شيء والحقيقة شيء آخر ، وإنما قلنا الحقيقة لأجل أن يشمل ما أخبر الله به عن اليوم الآخر من ثواب الجنة ونعيمها وما فيها من النعيم ، فإن هذا النعيم لا نعلم حقيقته ولا كنهه ، مثلاً طعمه لا ندركه ، صحيح أننا نعرف معنى السمع على سبيل العموم وهو إدراك المسموع لكن لا نعلم حقيقة سمع الله على ما هو عليه ، والحقيقة منها الكيفية ، الكيفية جزء من الحقيقة .أهـ

سؤال : في تعريف الأسماء والصفات ألا نضيف إليه ونقول : من غير تفويض؟

الجواب : لا ، لأنه إذا قلنا : الإيمان بها من غير تحريف ولا تعطيل ، التفويض تعطيل ، التفويض بلا شك نوع من التعطيل ، ولا نقول ذلك لأن التفويض إن أردت به تفويض المعنى فخطأ ، إن أردت تفويض الحقيقة والكيفية فهذا صواب ، ولهذا السلف أو العلماء لم يقولوا من غير تفويض لأنه فيه احتمال .أهـ

فصل

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «تفسير القرآن على أربعة أوجه :
تفسير تعرفه العرب من كلامها ،

الشرح

يعني تفسير يرجع فيه إلى اللغة العربية ، تعرفه العرب من كلامها .أهـ

* * *

وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته ،

الشرح

يعني أنه يحتاج إلى معرفة ولابد أن يعرف ويجب على كل أحد أن يعرفه .أهـ

* * *

وتفسير يعلمه العلماء ،

الشرح

يعني دون غيرهم ، ولا يلزم كل واحد أن يعرفه ، لكن العلماء يجب عليهم أن يعرفوه لأنه فرض كفاية .أهـ

وتفسير لا يعلمه إلا الله ، فمن ادعى علمه فهو كاذب» . اهـ[(١)] .

* * *

١ - فالتفسير الذي تعرفه العرب من كلامها هو : تفسير مفردات اللغة ، كمعرفة معنى القرء ، والنمارق ، والكهف ونحوها .

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٧٥ ، وتفسير ابن كثير - آل عمران ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ﴾ .

الشرح

عندما نبحث عن معنى القَرء نرجع إلى اللغة ، فهل تطلق القرء على الحيض أو على الطهر ؟ عندما نرجع إلى تفسير النمارق والنمارق الوسائد نرجع في هذا إلى اللغة فمثلاً نرجع إلى القاموس ، إلى لسان العرب أو غيرهما مما ألف في معنى الكلمات ، الكهف عندما نُسأل عن معناه نرجع إلى اللغة ، إلى المعاجم اللغوية مثل القاموس وغيره ، والكهف هو الغار الذي في الجبل .أهـ

* * *

٢ - والتفسير الذي لا يُعذر أحد بجهالته ، وهو تفسير الآيات المكلّف بها اعتقاداً أو عملاً ، كمعرفة الله بأسمائه وصفاته ، ومعرفة اليوم الآخر ، والطهارة ، والصلاة ، والزكاة وغيرها .

الشرح

كل ما كلفنا به اعتقاداً أو عملاً فإنه لا عذر لنا في جهله ويجب علينا أن نعرفه ، مثل معرفة الله بأسمائه وصفاته فهذا كلفنا به اعتقاداً ، كذلك معرفة اليوم الآخر وما فيه هذا اعتقاداً ، الطهارة عملاً ، الصلاة عملا ، الزكاة عملا ، الصوم عملا ، الحج عملا ، فكل ما يجب على المكلف اعتقاده أو عمله فإنه لا يعذر بجهالته ، لأنه يجب عليه أن يتعلم حتى يبني عقيدته على أسس سليمة وكذلك أفعاله .أهـ

* * *

٣ - والتفسير الذي يعلمه العلماء : هو ما يخفى على غيرهم مما يمكن الوصول إلى معرفته ، كمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمحكم والمتشابه ونحو ذلك .

الشرح

هذا لا يعلمه إلا أهل العلم ، معرفة أسباب النزول : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ (المجادلة :١) ، سببها الظهار الذي وقع من أوس بن الصامت على زوجته[١] ، وكذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (البقرة :١٨٧) إلخ سبب نزول الآية أن أحد الصحابة رضي الله عنهم أتى إلى أهله في ليالي الصيام وجامعها بعد أن صلى العشاء الآخرة وكانوا إذا نام الرجل قبل العشاء أو صلى العشاء فإنه يجب عليه الإمساك إلى اليوم الثاني ، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٢] ، المهم أن أسباب النزول لا يجب على كل أحد أن يعرفها لأنه يمكن أن يعرف المعنى بدونها وإن كان سبب النزول لا شك أنه يقوي على معرفة المعنى ، الناسخ والمنسوخ هل يجب على كل واحد أن يعرف ذلك ؟ لا ، إذا عرف الحكم الشرعي كفى ، لكن الناسخ من المنسوخ هذا لا يعرفه إلا أهل العلم ، العام والخاص مثله والمحكم والمتشابه ونحو ذلك هذا لا يعلمه إلا العلماء .أهـ

* * *

٤ - وأما التفسير الذي لا يعلمه إلا الله : فهو حقائق ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر ، فإن هذه الأشياء نفهم معناها ، لكن لا ندرك حقيقة ما هي عليه في الواقع .

مثال ذلك : أننا نفهم معنى استواء الله على عرشه ،

(١) أبو داود (٢١٢٧) كتاب الطلاق / باب في الظهار عن خويلة بنت مالك بن ثعلبة رضي الله عنها .

(٢) البخاري (١٩١٥) كتاب الصوم / باب قول الله جل ذكره (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) ، من حديث البراء رضي الله عنه .

الشرح

معناه العلو والاستقرار .أهـ

* * *

ولكننا لا ندرك كيفيته التي هي حقيقة ما هو عليه في الواقع ،

الشرح

لا نفهم كيفية ذلك ، فكيفية الصفة من صفات الله غير معلومة ، ولو أن أحداً ادعى أنه يعلم كيفية استواء الله على العرش لقلنا هو كاذب ولا يمكن ، ولو ادعى أحد أنه يعرف كيفية يد الله سبحانه وتعالى قلنا كاذب ، ولهذا قلنا فمن ادعى علمه فهو كاذب .أهـ

* * *

وكذلك نفهم معنى الفاكهة والعسل والماء واللبن وغيرها مما أخبر الله أنه في الجنة ، ولكن لا ندرك حقيقته في الواقع ، كما قال تعالى : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة :١٧) .

الشرح

نحن نعرف المعنى ، نعرف معنى اللبن والعسل والماء والخمر والفاكهة ونحو ذلك ، لكن هل نحن ندرك حقائق هذه الأشياء ؟ لا ، فلو ادعى إنسان ، قال : إني أدرك العسل الذي في الجنة وأن كيفيته كذا وطعمه كذا وما أشبه ذلك قلنا هذا كاذب لأن حقائق هذه الأشياء غير معلومة لقوله تعالى : **﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (السجدة :١٧) ، ولهذا يقول : نفهم معنى الفاكهة والعسل والماء واللبن وغيرها مما أخبر الله أنه في الجنة ، ولكن لا ندرك حقيقته

في الواقع ، كما قال تعالى : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة :١٧) فإذا كنت لا تعلم الكيفية فمن ادعى علمها فإنه كاذب .أهـ

* * *

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء[١] .

الشرح

معنى الكلام أن الفاكهة موجودة في الدنيا وموجودة في الآخرة ، الاسم واحد لكن الحقيقة مختلفة ، النخل والرمان موجود في الدنيا وموجود في الآخرة لكن يتفقان في الاسم فقط ، أما في الحقيقة التي هو عليها فإنهما لا يتفقان ، هذا معنى قوله ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء .أهـ

* * *

وبهذا تبين أن في القرآن ما لا يعلم تأويله إلا الله ؛ كحقائق أسمائه وصفاته وما أخبر الله به عن اليوم الآخر ، وأما معاني هذه الأشياء فإنها معلومة لنا ، و إلا لما كان للخطاب بها فائدة . والله أعلم .

الشرح

أتينا بهذا الكلام عن ابن عباس رضي الله عنهما ليتبين أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن أسماء الله وصفاته معلومة لنا من وجه مجهولة لنا من وجه ، فمن جهة

(١) تفسير ابن كثير ، سورة البقرة آية (٢٥) ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٤٧٣ : رواه البيهقي موقوفا بسند جيد .

المعنى معلومة ومن جهة الحقائق والكيفية مجهولة ، وكذلك نقول في أمور الغيب الأخرى مثل ما أخبر الله به عن الجنة من النعيم أو عن النار من الجحيم ، المعنى معلوم لنا لكن الحقيقة مجهولة ، وهذا يمكن أن يكون ، بمعنى يمكن أن يكون الشيء معلوماً من وجه ومجهولاً من وجه آخر .أهـ

الباب الرابع والعشرون

في انقسام أهل القبلة في آيات الصفات وأحاديثها .

الشرح

أولاً نسأل من هم أهل القبلة ؟ استمع إلى المعنى .أهـ

* * *

المراد بأهل القبلة : من يصلي إلى القبلة ، وهم كل من ينتسب إلى الإسلام .

الشرح

هذا معنى أهل القبلة عند أهل السنة ، إذا قالوا أهل القبلة فهم كل من يصلي إلى القبلة ولا يصلي إلى القبلة إلا من ينتسب إلى الإسلام ، هل الجهمية من أهل القبلة ؟ نعم ، يصلون إلى القبلة والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم ، هؤلاء كلهم من أهل القبلة لأنهم يصلون إليها وينتسبون إلى الإسلام ، أما هل هم مسلمون أو غير مسلمين فهذا شيء أخر ، المهم أن هؤلاء يقولون إنهم مسلمون ويصلون إلى القبلة .أهـ

* * *

وقد انقسم أهل القبلة في آيات الصفات وأحاديثها إلى ست طوائف :

طائفتان قالوا : تُجرى على ظاهرها . وطائفتان قالوا : تُجرى على خلاف ظاهرها . وطائفتان واقفتان . فالطائفتان الذين قالوا : تجرى على ظاهرها ، هم :

١ ـ طائفة المشبهة الذين جعلوها من جنس صفات المخلوقين ، ومذهبهم باطل أنكره عليهم السلف .

الشرح

هؤلاء قالوا تجرى على ظاهرها لكن جعلوا ظاهرها من جنس صفات المخلوقين ، قالوا نؤمن بأن الله يجيء وأن له رحمة وأن له وجها وأن له يداً لكن كل هذا مشابه للمخلوقين من ذلك ، فيد الله تعالى كيد الإنسان ووجهه هكذا ، ونحن إذا سمينا هذا ظاهراً فإنما نسميه من باب التنزل ، وإلا فليس ظاهر كلام الله ورسوله في صفاته التشبيه ، لكن تنزلاً معهم .أهـ

* * *

٢ ـ طائفة السلف الذين أجروها على ظاهرها اللائق بالله تعالى ، ومذهبهم هو الصواب المقطوع به لدلالة الكتاب والسنة والعقل عليه دلالة ظاهرة ، إما قطعية وإما ظنية ، كما تقدم دليل وجوبها وصحتها في البابين : الثالث والرابع ،

الشرح

فمثلاً يقولون : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ على ظاهرها ، هو جاء ، لكنه جاء مجيئاً يليق بجلاله ، يضحك الله إلى رجلين ، نعم هو يضحك لكنه ضحك يليق بجلاله ، فالفرق إذاً بينهم وبين المشبهه أن المشبهه يجعلونها دالة على التشبيه فيقولون يجيء على كيفية كذا وكذا يضحك على كيفية كذا وكذا ، وليسوا ينزهون الله تعالى عن المماثلة فلذلك كانوا ضالين في هذه الناحية .أهـ

* * *

والفرق بين هاتين الطائفتين ، أن الأولى تقول بالتشبيه والثانية تنكره ،

الشرح

وإلا فكل منهم يجريها على الظاهر .أهـ

فإن قال المشبه في علم الله ونزوله ويده - مثلاً - : أنا لا أعقل من العلم والنزول واليد إلا مثل ما يكون للمخلوق من ذلك ،

الشرح

يقول المشبه أنا لا أعقل من اليد إلا مثل أيدي المخلوقين ، لا أعقل من الاستواء إلا مثل استواء المخلوقين ، لأن هذا هو المعروف في اللغة العربية .أهـ

* * *

فجوابه من وجوه :

الأول ـ أن العقل والسمع قد دلّ كل منهما على مباينة الخالق للمخلوق في جميع صفاته ، فصفات الخالق تليق به ، وصفات المخلوق تليق به ،

الشرح

فإذا دل السمع والعقل على مباينة الخالق للمخلوق فإن الصفات التي تثبت للخالق يجب أن تكون مباينة للصفات التي تكون للمخلوق لأن صفة كل شيء تناسبه .أهـ

* * *

فمن أدلة السمع على مباينة الخالق للمخلوق قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى : ١١) ، وقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل :١٧) .

الشرح

وهذا واضح أن المماثلة منتفية في حق الله ، والكاف في قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ ﴾

اختلف فيها العلماء ، لأننا لو أخذنا بظاهر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾ لكان ظاهره أن الله أثبت لنفسه مثيلاً وليس لهذا المثيل مثيل والأمر ليس كذلك ، فإن الله تعالى ليس له مثيل إطلاقاً ، قالوا فالكاف هنا زائدة ، والتقدير ليس مثله شيء ، وقيل إن الزائد مثل ، والتقدير : ليس كهو شيء ، وقيل إنه ليس هناك زيادة لا في الكاف ولا في مثل ، ولكنه نفى مماثلة المثل من باب المبالغة ، وإذا انتفى مثل المثل انتفى الأصل لأنه لو كان الأصل موجودا لكان للمثل مثل ، وقيل إن «مثل» هنا بمعنى صفة ، أي ليس كصفته شيء ، ولكن الأقرب والله أعلم أن المثل على ما هو عليه وأن الكاف زيدت للمبالغة ، يعني كأنه نفى المثل مرتين مرة بصيغة الكاف ومرة بصيغة مثل وهذا هو الأقرب ، والحاصل أن في هذا رداً على المشبهة ، لأنه يقول : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى : ١١)أهـ

* * *

ومن أدلة العقل أن يقال : كيف يكون الخالق الكامل من جميع الوجوه ، الذي الكمال من لوازم ذاته ، وهو معطي الكمال مشابهاً للمخلوق الناقص ، الذي النقص من لوازم ذاته ، وهو مفتقر إلى من يكمله؟ !

الشرح

يقال أنت أيها المشبه هل تعتقد أن الخالق أكمل من المخلوق ؟ فسيقول : نعم أعتقد ذلك ، وإذا كنت تعتقد أن الخالق أكمل من المخلوق فكيف يمكن أن تكون صفاته مثل صفات المخلوق ؟ فيجب أن تكون صفاته أكمل لأنك أنت بنفسك تقول إن الخالق أكمل من المخلوق ، وهذا في الحقيقة رد عليك ، فإنه إذا كان أكمل لزم ألا تكون صفاته مماثلة لصفات المخلوق .أهـ

* * *

الثاني ـ أن يُقال له : ألست تعقل لله ذاتاً لا تشبه ذات المخلوقين؟ فسيقول : بلى! فيقال له : فلتعقل إذن أن لله صفات لا تشبه صفات المخلوقين ؛ فإن القول في الصفات كالقول في الذات ، ومن فرق بينهما فقد تناقض .

الشرح

نحن الآن نخاصم المشبه ، نقول هل تعتقد أن لله ذاتاً لا تشبه الذوات ؟ فسيقول : نعم أعتقد ذلك ، فنقول : إذا كنت تعتقد أن له ذاتاً لا تشبه الذوات فلتعتقد أن له صفات لا تشبه الصفات ، لماذا ؟ لأن صفة كل موصوف تليق به ، فالجمل مثلاً قوي وقوته أقوى من الإنسان والذرة قوية وقوتها دون قوة الإنسان ، هي قوية في القوة التي تليق بها لكن لا تشبه قوة الإنسان لأن قوة كل شيء تناسبه ، فكذلك قوة الخالق لا يمكن أن تكون مماثلة لقوة المخلوق ، ونقول في بقية الصفات كذلك .أهـ

* * *

الثالث - أن يُقال : نحن نشاهد من صفات المخلوقات صفات اتفقت في أسمائها ، وتباينت في كيفيتها ؛ فليست يد الإنسان كيد الحيوان الآخر ،

الشرح

ولا وجه الإنسان كوجه الحيوان الآخر ، فالمخلوقات تتفق في الصفة وتختلف في الكيفية .أهـ

* * *

فإذا جاز اختلاف الكيفية في صفات المخلوقات مع اتحادها في الاسم ؛ فاختلاف ذلك بين صفات الخالق والمخلوق من باب أولى ، بل التباين بين صفات الخالق

والمخلوق واجب كما تقدم ! !

الشرح

وبهذا يندحر المشبه ، فقد أجبنا عنه ورددنا عليه بثلاثة أوجه .أهـ

* * *

وأما الطائفتان الذين قالوا تُجرى على خلاف ظاهرها ، وأنكروا أن يكون لله صفات ثبوتية ، أو أنكروا بعض الصفات ، أو أثبتوا الأحوال دون الصفات

الشرح

الذين قالوا تُجرى على خلاف ظاهرها ، وأنكروا أن يكون لله صفات ثبوتية ، قالوا لا يمكن أن يكون لله صفات ثبوتية بل صفاته كلها سلبية ، قالوا لا نقول إن لله سمعاً لكن نقول إنه ليس بأصم ، لا نقول لله علم لكن نقول ليس بجاهل ، لا نقول لله قدرة لكن نقول ليس بعاجز ، لماذا ؟ قالوا لأننا لو أثبتنا الصفات الثبوتية شبهناه بالموجودات وهذا تمثيل والتمثيل حرام ، نقول لهم والصفات السلبية ، النفي عدم ، فإذا نفيتم شبهتموه بالمعدومات ، ولهذا لجأ بعضهم إلى الالتزام بهذا وقال : ننفي عنه الإثبات والنفي ، فلا نقول سميع ولا ليس بسميع لا نقول لا هذا ولا هذا ، ولا موجود ولا ليس بموجود ، وطبعاً هذا خلاف العقل ومتناقض ، المهم أن منهم من ينكر الصفات الثبوتية ، ولهذا إذا أرادوا أن يصفوا الله بأعظم الصفات عندهم قالوا : إن الله ليس بميت ولا جاهل ولا عاجز ولا ضعيف ولا أصم ولا أعمى ومن هذا فقس ، فيأتون بالصفات السلبية ومعلوم أن الصفات الثبوتية أكمل ، ولهذا لو جئت إلى ملك وقلت ما شاء الله أنت لست بزبال ولا كساح ولا جزار ولا بناء ولا ميكانيكي ولا كناس إلخ ، ماذا يقول لك ؟ هل يعطيك جائزة ؟ نعم يعطيك جائزة ولكن سجن وصفع على الوجه ، لكن لو تأتي إليه وتقول أنت ملك قوي قدير ذكي

عاقل وما أشبه ذلك ، هل تحظى بجائزته ؟ ، لأن هذه الأخيرة صفات ثبوتية والأولى صفات سلبية ، صفات نفي ، والعجيب أن هؤلاء يرون أن كمال الله أن يوصف بالصفات السلبية والعياذ بالله .

أو أنكروا بعض الصفات : مثل الأشاعرة أنكروا بعض الصفات واثبتوا بعضا .

أو أثبتوا الأحوال دون الصفات : مثل المعتزلة وكذلك الأشاعرة أيضاً ، ما معنى الأحوال ؟ قالوا مثلاً إن الله سميع وليس المعنى أن له سمعاً لكن هو ذو سمع يعني حاله أن يكون سميعاً ، ولكن تريد أن تثبت أنه له سمع فلا ، فقل هو ذو سمع وليس المعنى أنه متصف بسمع ، فيقولون إن الله عليم وكونه عليماً هذه هي الحال أما أن له علماً فلا ، ولاشك أن هذا تناقض لأنه ما من إنسان نقول كونه عالماً إلا وهو متصف بالعلم .أهـ

* * *

فهم :

١ - أهل التأويل من الجهمية وغيرهم الذين أوّلوا نصوص الصفات إلى معانٍ عينوها ، كتأويلهم اليد بالنعمة ، والاستواء بالاستيلاء ، ونحو ذلك .

الشرح

فهل هؤلاء أجروها على ظاهرها ؟ قالوا المراد باليد القوة أو النعمة ، وبالاستواء الاستيلاء ، أجروها على خلاف ظاهرها لكن جعلوا لها معنى ، معنى مأولاً .أهـ

* * *

٢ - أهل التجهيل المفوضة الذين قالوا : الله أعلم بما أراد بنصوص الصفات ،

الشرح

قالوا لا نجريها على ظاهرها ولكن نقول الله أعلم بما أراد ، تقول له : ﴿ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ، تجريها على ظاهرها ؟ يقول : لا أجريها ، إذاً ما معناها ؟ قال : الله أعلم ، فأهل التأويل خير منهم لأنهم أثبتوا لها معنى ، وإن كانوا أشد منهم عدواناً لأنهم تجرأوا وأثبتوا ما لا علم لهم به ، لكن هم من حيث النظر أحسن من هؤلاء ، تأتي للمفوض تقول : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ (الرحمن :١٧) ، ما المراد بوجه ربك ؟ قال : لا يراد به ظاهره ، إذاً ما المراد ؟ قال : الله أعلم أنا أفوض فأقول الله أعلم ، وأنت إذا تأملت وجدت أن قولهم متناقض ، ما دمت تقول الله أعلم أليس من الممكن أن الله أراد الظاهر ؟ نقول : بلى ، فإذا كان ممكناً أن يكون الله أراد الظاهر فلم تجزم بالنفي وتقول لا يراد الظاهر ؟ .أهـ

* * *

لكننا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجية له تعالى ،

الشرح

يعني مثلاً : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ (الفجر :٢٢) ، تسألهم ما معنى جاء ربك ؟ قالوا : الله أعلم بما أراد ، لكننا نعلم أنه لم يرد المجيء الحقيقي ، وهذا تناقض ، إذا كنت تقول الله أعلم فلماذا تقول نعلم أنه لم يرد . . ؟ أليس من الجائز أن يكون أراد المعنى الحقيقي الظاهر ؟ بلى ، ومع ذلك يقول : لا ، ما أراد أنه يجيء ، ما أراد أنه استوى ، ما أراد أن له سمعاً وبصراً وما أشبه ذلك ، نعلم هذا ثم نقول الله أعلم بما أراد ، كلٌ يعلم أن هذا تناقض .أهـ

* * *

وهذا القول متناقض ، فإن قولهم : نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجية له يناقض التفويض ؛ لأن حقيقة التفويض أن لا يحكم المفوض بنفي ولا إثبات ، وهذا

ظاهر ،

الشرح

إذاً كلتا الطائفتين ضالتان ، لأنهما قالا على الله بلا علم ولأنهما نفيا ما هو ظاهر من كلام الله وكلام رسوله .أهـ

* * *

والفرق بين هاتين الطائفتين : أن الأولى أثبتوا لنصوص الصفات معنى ، لكنه خلاف ظاهرها ، وأما الثانية فيفوضون ذلك إلى الله من غير إثبات معنى ، مع قولهم : «أنه لا يراد من تلك النصوص إثبات صفة لله تعالى» .

الشرح

هذا هو الفرق بين الطائفتين ، ولا شك أن الطائفة التي تثبت لها معنى خير في العقل والنظر ممن لا تثبت ، ولا شك أن التي تثبت معنى يخالف الظاهر أشد جرأة من الذين توقفوا ، فكل واحد من الطائفتين خير من الأخرى من وجه .

أما الرد على الطائفتين جميعاً فقد سبق الرد على أهل التجهيل وسبق الرد على أهل التأويل في نفس الكتاب هذا فليرجع إلى ذلك ، والرد الإجمالي على الطائفتين أن نقول : لا يمكن أن الله تعالى يتكلم بكلام لا يريد من العباد إثبات معناه على ظاهره أبداً ، بل لا يتكلم سبحانه وتعالى بكلام إلا وهو يريد أن يأخذ الناس بظاهره .أهـ

* * *

وأما الطائفتان الذين توقفوا فهم :

١ ـ طائفة جوزوا أن يكون المراد بنصوص الصفات إثبات صفة تليق بالله ، وأن لا يكون المراد ذلك ، وهؤلاء كثير من الفقهاء وغيرهم .

٢ ـ طائفة أعرضوا بقلوبهم وألسنتهم عن هذا كله ، ولم يزيدوا على قراءة القرآن والحديث .

الشرح

هاتان الطائفتان واقفتان ، والفرق بينهما أن الطائفة الأولى تقول : إنه يمكن أو يجوز أن يكون المراد إثبات صفة ويجوز ألا يكون المراد إثبات صفة ، فهم يحكمون بتجويز الأمرين .

أما الثانية فيقولون : لا نتعرض للمعنى إطلاقاً ، نقرأ القرآن والحديث ونمسك بقلوبنا وألسنتنا عن التعرض لما يدل عليه القرآن والسنة ، فالفرق بينهما ظاهر الآن ، الطائفة الأولى تقول : إننا متوقفون ، لأننا نرى أنه يجوز أن يكون المراد إثبات صفات ويجوز أن يكون المراد عدم ذلك ، الله أعلم ، الثانية تقول : أعرض عن هذا كله ، لا تتكلم ، لا تقل يجوز ولا لا يجوز ولا تثبت ولا تنفِ .أهـ

* * *

والفرق بين هذه الطائفة والتي قبلها : أن الأولى تحكم بتجويز الأمرين : الإثبات وعدمه ، وأما الثانية ، فلا تحكم بشيء أبداً ، والله أعلم .

الشرح

تجده يقرأ القرآن ، فتقول : ما معنى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝ ﴾ (طه :٥) ، لا يتكلم ويقول : أعرض عن هذا ولا تتكلم بشيء ، وتقول للطائفة الأولى : هل أراد الله بقوله ﴿ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أي علا واستقر أو أراد استولى عليه ؟ يقول : يجوز هذا وهذا ، ويجوز أنه لم يرد شيئاً ، يمكن هذا وهذا ، وهذا لا شك أنه حكم ، هذا حكم على الشيء بأنه يجوز أن يكون المراد به كذا أو كذا ، أو كذا

أو كذا إلخ ، أما الثانية : فإذا سألته : تعرف ما معنى استوى الله على العرش؟ قال : أنا معرض عن هذا ، لا أحكم بشيء أبداً ولا أتكلم بشيء في هذا الباب إطلاقاً ، وكلتا الطائفتين ضالتان ، لأن كوننا نجوّز هذا وهذا وهذا في أشياء لا تليق بالله فهذا حرام ، فما لا يليق بالله لا يمكن أن يجوز .

والثانية : كوننا نعرض عن هذا كله مخالف لقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ (ص :٢٩) ، ووقوع فيما أنكر الله حيث قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ (المؤمنون :٦٨) ، وهذا الاستفهام للإنكار ، فالله أمرنا بالتدبر لنثبت المعنى الذي دل عليه اللفظ .

وبهذا عرفنا أن خير الأقسام وأوجب الأقسام بالاتباع هم الذين قالوا تجرى على ظاهرها اللائق بالله سبحانه وتعالى ، فعندما تقرأ : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) ﴾ (طه :٥) ، تثبت أنه علا على العرش ، لكن لا يجوز أن يدور في ذهنك أنه كاستوائنا على السرير ، لا يجوز هذا إطلاقاً ، لماذا ؟ لتباين ما بين الخالق والمخلوق ، كذلك عندما تقرأ : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة :٦٤) ،لا يمكن أبداً أن تتصور أن هاتين اليدين كأيدينا أبداً ولا يحل لك أن تقرن هذا بهذا ، لأن الله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى :١١) ، حتى لو قال لك الذهن إن يدي الله تعالى كيد الإنسان يجب أن تطرد هذا عن ذهنك وأن لا تفكر فيه ، إذ من الجائز أن تكون يد الله تعالى ليست كيد الإنسان ، وتكون كيد شيء آخر غير الإنسان ، وإذا كان الأمر هكذا فالواجب أن نتوقف عن تقدير التمثيل وتخيله ، فنقول لله تعالى يد حقيقية يأخذ بها ويقبض ولكنها لا تشبه أيدي المخلوقين ، ويجب علينا أيها الإخوة أن نبعد عن مخيلتنا تصور كل شيء من صفات الله سواء كانت فعلية أو خبرية لأننا لا نحيط به سبحانه وتعالى .أهـ

* * *

المناقشة

سؤال : الطائفتان الأخيرتان هل هم من المفوضة ؟

الجواب : لا ، المفوضة غير ، هؤلاء يتوقفون والمفوضة يقولون إن الله أراد معنى معين لكننا لا نعلمه .أهـ

سؤال : هل من الممكن أن نجعل الأخيرتين والقسم الثالث من التي قبلها مفوضة جميعاً ؟

الجواب : لا ، شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في الفتوى الحموية قسمهم هذا التقسيم وجعل المفوضة ممن يجرونها على خلاف الظاهر ، لأنهم يجزمون بما قالوا أما هؤلاء فهم دراويش فلا يعرفون شيء أبداً ، الطائفة الأولى تقول كل شيء ممكن ، والطائفة الثانية تقول لا تتكلم بشيء ، اقرأ القرآن والحديث وكن مثل الصبي الذي لا يعرف ماذا يقول .أهـ

الباب الخامس والعشرون

في ألقاب السوء التي وضعها المبتدعة على أهل السنة .

الشرح

اللقب عند العلماء كل ما أشعر بمدح أو ذم ، فإذا قالوا : علي زين العابدين ، زين العابدين هذا لقب مدح ، سعيد كُرز ، هذا ذم ، وأهل السنة والجماعة ـ والحمد لله ـ كل ألقابهم ألقاب مدح ، لو لم يكن من ذلك إلا أنهم يسمون أهل السنة والجماعة ، فلا بدعة عندهم ولا تفرق ، بل كل أمرهم مبني على سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى الاجتماع عليها ، فهم الذين أخذوا بأكبر نصيب من قول النبي ﷺ : «عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة»[1] .أهـ

* * *

من حكمة الله تعالى أن جعل لكل نبي عدواً من المجرمين ، يصدون عن الحق بما استطاعوا من قول وفعل ، بأنواع المكائد والشبهات والدعاوى الباطلة ليتبين بذلك الحق ، و يتضح ويعلو على الباطل ،

الشرح

جعل الله تعالى لكل نبي عدواً من المجرمين يلقبونه بألقاب السوء ويعيبون دينه وشرعه ويقولون فيه كذا وكذا وكذا لماذا ؟ لأجل أن يتبين الحق ، لأن الحق لو لم يجد مصادما ما تبين ، ولأخذه الناس هكذا ساذجا ولا يدرون هل هو حق أو غير حق ؟ فإذا عورض تبينت محاسنه ، مثلاً دين الجاهلية مبني على الشرك بالله فجاء الإسلام يدعو

(١) الحاكم ١/ ٢٠٠ كتاب العلم ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وابن بطة في الإبانة ١/ ٣٤٨ ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

إلى التوحيد ، وُجد أناس يقاومون هذه الدعوة وينكرون التوحيد ، فإذا وجد هؤلاء المقاومون تبين أن التوحيد خير من الشرك ، لأن مقاومة هؤلاء إذا عرضت على العاقل تبين فسادها .

كذلك من أجل أن يعلو الحق على الباطل ، لأنه إذا كان هناك خصمان وتبين الحق مع أحدهما صار العلو لمن كان معه الحق ، فيعلو على الباطل .

وكذلك أيضاً هناك فائدة أخرى وهي امتحان المعتنقين للشريعة هل يصبرون على هذه الألقاب والأذية ويبقون على ما هم عليه من الحق أو يرجعون وينكصون على أعقابهم ؟ كما وجد لبعض الناس الذين ذموا وعيبوا بعد إسلامهم رجعوا عن الإسلام والعياذ بالله ، وهذا أبو طالب يقول :

لولا الملامة أو حِذار مسبة

لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

فهذا أيضاً من الحكمة في أن الله تعالى جعل للأنبياء وأتباعهم أعداءً يقدحون فيهم وفيما هم عليه .أهـ

* * *

وقد لقي النبي ﷺ وأصحابه من هذا شيئاً كثيراً ،

الشرح

وهو واضح للجميع .أهـ

* * *

كما قال تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ

أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً﴾ (آل عمران :١٨٦) فقد وضع أولئك الظالمون المشركون للنبي ﷺ ، وأصحابه ألقاب التشنيع والسخرية . مثل : ساحر ، مجنون ، كاهن ، كذّاب ، ونحو ذلك ،

الشرح

مثل هذا ليس للحصر ، لكن وضعوا ألقابا كثيرة تدل على استهجان الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى القدح فيه ، بينما كانوا قبل النبوة يسمونه الصادق الأمين ، لكن لما جاء بما يضاد ما هم عليه وضعوا له ألقاب السوء .أهـ

* * *

ولما كان أهل العلم والإيمان هم ورثة النبي ﷺ ، لقوا من أهل الكلام والبدع مثل ما لقيه النبي ﷺ وأصحابه من أولئك المشركين ، فكانت كل طائفة من هذه الطوائف تلقّب أهل السنة بما برأهم الله منه من ألقاب التشنيع والسخرية ، إما لجهلهم بالحق ، حيث ظنوا صحة ما هم عليه وبطلان ما عليه أهل السنة ، وإما لسوء القصد حيث أرادوا بذلك التنفير عن أهل السنة ، والتعصب لآرائهم مع علمهم بفسادها .

الشرح

أهل البدع لقبوا أهل السنة والجماعة بألقاب السوء ، فكل طائفة تلقبهم بما يناسب ضد ما هم عليه أي ما هذه الطائفة عليه ، والحامل على ذلك إما الجهل بالحق وظنهم أن ماهم عليه هو الحق وأن ما سواه باطل فيقدحون فيه ، وهذا موجود مع الأسف في عصرنا الآن ، تجد بعض الناس يعمل عملاً ـ حتى وإن كان من غير العقيدة ـ يرى أنه الحق فإذا خالفه شخص فيه ذهب يقدح فيه ويسخر به ويقول فلان يقول كذا وفلان يقول كذا ، وإما أن يكون الحامل لهم على هذه الألقاب سوء القصد حيث أرادوا بذلك

إبطال الحق وإثبات الباطل ، فزعماء المبتدعة الغالب عليهم أن الذي حملهم على ذلك سوء القصد ، لأن الجهل بالحق وهم أئمة كبار دعاة بعيد من هؤلاء ، لكن عوامهم هم الذين قد يجهلون ، فالحاصل أن الذين اتبعوا الرسول عليه الصلاة والسلام لم يسلموا من أهل الشر وأهل البدع ، بل جعل أهل البدع يلقبونهم بألقاب السوء تنفيراً للناس عما هم عليه ، إما لجهلهم بالحق وظنهم أن ماهم عليه هو الحق وأن هؤلاء مخالفون له ، وإما لسوء القصد وإرادة العدوان .

وقد سبق أن هذه سنة الله تعالى في خلقه وأنه كما أن للرسل قوما مجرمين يصفونهم بألقاب العيب فلأتباع الرسل قوم مجرمون يلقبونهم بأوصاف العيب .أهـ

* * *

فالجهمية ومن تبعهم من المعطلة سمُّوا أهل السنة «مشبهة» ، زعماً منهم أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه

الشرح

كل المعطلة سواء من الجهمية أو المعتزلة أو الأشعرية أو غيرهم ، كل معطل يقول لأهل السنة إنهم مشبهة زعماً منهم أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه ، ويسمونهم أيضاً مجسمة زعماً منهم كذلك أن إثبات الصفات يستلزم التجسيم ، وهذا لا شك أنه لقب سوء ، إذا قلت للعامي : لا تأخذ من هذا الرجل فإنه مشبه لله ، لا تأخذ منه فإنه مجسم ، فإن العامي سوف ينكر ويقاطعهم ولا يلتفت إليهم وهذا أمر موجود ، لأن كل صاحب بدعة يريد أن تنتصر بدعته والعياذ بالله .أهـ

* * *

والروافض سمُّوا أهل السنة «نواصب» ؛

الشرح

والناصبي هو الذي يبغض آل البيت وينصب العداوة لهم ، فالروافض يقولون لأهل السنة أنتم نواصب ، ويقول الشاعر :

إن كان نصباً حب صحب محمد

فليشهد الثقلان أني ناصبي

إن كان حب صحب الرسول عليه الصلاة والسلام نصباً فليشهد الثقلان أني ناصبي يعني إني أحب أصحاب الرسول ، فالروافض يقولون إن أهل السنة نواصب ، لماذا .أهـ

* * *

لأنهم يُوالون أبا بكر وعمر ، كما كانوا يوالون آل النبي ﷺ ، والروافض تزعم أن من والى أبا بكر وعمر فقد نصب العداوة لآل البيت ، ولذلك كانوا يقولون : «لا ولاء إلا ببراء» . أي لا ولاية لآل البيت إلا بالبراءة من أبي بكر وعمر ! !

الشرح

لأنهم يوالون أبا بكر وعمر ويحبون أبا بكر وعمر ، وأهل السنة والجماعة يقولون نحن نوالي أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ، ونرى أن لقرابة النبي ﷺ المؤمنين حقين : حق القرابة وحق الإيمان ، أما حق القرابة فإنه لا يشاركهم فيه من ليس بقريب ، وأما حق الإيمان فيشاركهم فيه كل من كان مؤمناً ، ومن كان منهم أقوى إيماناً وأكثر عملاً فهو أحق بالولاء منهم من هذه الناحية ، فمثلاً هم يقولون : أبو بكر وعمر عندنا أعلى من علي بن أبي طالب وغيره من آل النبي عليه الصلاة والسلام من حيث الإيمان والعمل الصالح أما من حيث القرابة فإنه ليس لأبي بكر وعمر من القرابة مثل ما لعلي

بن أبي طالب وآل النبي ، فهم يقولون نحن نزن بالقسطاس المستقيم ونعطي كل ذي حق حقه ، فآل الرسول المؤمنين لهم علينا حق القرابة وحق الإيمان ، ونرى أن قرابتهم لها من المزية والفضل ما لا يشاركهم فيها من ليس بقريب ، لكن مع ذلك لا نتبرأ من غيرهم من الصحابة ، وهم يقولون إن لم تتبرأ من أبي بكر وعمر وبقية الصحابة فأنت ناصب العداوة لآل البيت ، ولهذا عندهم هذه القاعدة المنكرة الكاذبة يقولون : لا ولاء إلا ببراء ، يعني لا ولاية لآل البيت إلا بالبراءة من أبي بكر وعمر ، وهذه والله أكذب قاعدة على وجه الأرض ، فنحن نتولى أبا بكر وعمر ونتولى علياً وحمزة والعباس وغيرهم من آل الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولو قالوا لا ولاء لله ورسوله إلا بالبراءة من عدو الله ورسوله لكان ذلك صواباً صحيحاً ، لأن ذلك ليس فيه صحة أبداً ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (الممتحنة :٤) ، هذا صحيح ، لا يمكن الولاء لله ورسوله إلا بالبراءة من أعداء الله ورسوله ، أما أن لا تكون ولاية لآل البيت إلا بالبراءة من أبي بكر وعمر فكذبوا والله أعظم الكذب .

علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يتولى أبا بكر وعمر ، وهما أحب إليه من جميع الصحابة بلا شك عنده ، حتى كان رضي الله عنه يعلن على منبر الكوفة ، يقول : «خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر»[1] هو نفسه يقول هذا ، وكذب من ادعى ولاية علي بن أبي طالب وهو لا يقر بالفضل لأبي بكر وعمر ، بل إن من يدعي ولاية علي بن أبي طالب وهو لا يقر بفضل أبي بكر وعمر قد رمى علي بن أبي طالب بالمجاهرة بالمنكر ، لأنه يخطب على منبر الكوفة ويقول هذا الكلام الذي يقول هؤلاء إنه كلام كذب وساقط ، إذاً ما هو اللقب السيء الذي لقبه الرافضة لأهل السنة؟

(١) البخاري (٣٦٧١) كتاب فضائل الصحابة / باب فضائل أبي بكر رضي الله عنه بعد النبي ﷺ ، من حديث علي رضي الله عنه .

نواصب ، وهم أيضاً يسمونهم مجسمة ومشبهه لأنهم ـ أي الروافض ـ ينكرون الصفات .أهـ

* * *

والقدرية النفاة قالوا : أهل السنة «مجبرة» ،

الشرح

القدرية النفاة ، احترازا من القدرية المثبتة ، لأن هناك قدرية مثبتة وقدرية نفاة ، القدرية المثبتة الذين يغلون في القدر ، والقدرية النفاة الذين يقولون إن أفعال العبد لا علاقة لله تعالى بها ، ونحن نتكلم عن القدرية النفاة؟ فالقدرية النفاة للقدر قالوا أهل السنة مجبرة يعني يقولون بالجبر .أهـ

* * *

لأن إثبات القدر جبر عند هؤلاء النفاة ! !

الشرح

وماذا يقولون للمجبرة ؟ يقولون مجبرة المجبرة ، أهل السنة مجبرة والمجبرة الحقيقيون مجبرة المجبرة .أهـ

* * *

والمرجئة المانعون من الاستثناء في الإيمان يسمون أهل السنة «شكاكاً» ؛

الشرح

هناك مرجئة يقولون لا تستثنِ في الإيمان ولا تقل أنا مؤمن إن شاء الله ـ وسيأتي إن شاء الله الكلام على هذه المسألة ، هؤلاء مرجئة يقولون إذا قلت أنا مؤمن إن شاء الله فأنت شاك ، وأهل السنة والجماعة يجوزون الاستثناء في الإيمان كما قال السفاريني :

ونـــحـــن فـــي إيمـــانـــنـــا نـــســـتـــثـــنـــي

مـــن غـيـــر شـــك فـــاســـتـــمـــع واســـتـــبـــنـــي

يقولون أنتم مادمتم تجوزون الاستثناء في الإيمان فأنتم شكاك ، يقول أحدكم أنا مؤمن إن شاء الله ، ولماذا لا تقول أنا مؤمن وتسكت؟ فإذا قلت إن شاء الله يعني أنك شاك في إيمانك ، فأنتم شكاك ، لماذا ؟ .أهـ

* * *

لأن الإيمان عندهم هو إقرار القلب ، والاستثناء شك فيه عند هؤلاء المرجئة ! !

وأهل الكلام والمنطق يُسمون أهل السنة «حشوية» . من الحشو ، وهو : ما لا خير فيه ،

الشرح

أومن الحشو وهم أطراف الناس ، إذا سمعت في كلام أهل المنطق والكلام هذا حشوي أو هذا رأي الحشوية فإنهم يعنون بذلك أهل السنة والجماعة ، مساكين أهل السنة والجماعة هدف لكل ضال .أهـ

* * *

ويسمونهم «نوابت» . وهي بذور الزرع التي تنبت معه ولا خير فيها .

الشرح

النوابت معروفة لا خير فيها وتضر بالزرع ، ولذلك الآن الزراع إذا حصدوا الزرع أوقدوا في الأرض النيران حتى تقتل هذه النوابت ، هم يقولون أنتم يا أهل السنة والجماعة نوابت لا خير فيكم لا تعرفون المنطق ولا تعرفون الطرق الكلامية والمناظرات

والمجادلات ، فنقول لهم : الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاكم به ، هذه الجدليات والمناظرات ما زادتكم إلا شكاً واسمعوا إلى قول رؤسائكم ، وقد سبق لنا كلام الرازي وغيره ممن هم من فطاحلة أهل الكلام وكيف وصلوا إلى الشك والتوتر .أهـ

* * *

ويسمونهم «غثاء» ، وهو ما تحمله الأودية من الأوساخ ، لأن هؤلاء المناطقة زعموا أن من لم يحط علماً بالمنطق فليس على يقين من أمره ،

الشرح

ولهذا يسمون المنطق عندهم الميزان ، الميزان الذي توزن به الأشياء ، ويقولون : لا يمكن أن تصل إلى اليقين في المطالب الإلهية حتى تقرأ علم المنطق ، وهذه فرية فارية والعياذ بالله ، لأنه على كلامكم الرسول عليه الصلاة والسلام والصحابة والتابعون لهم بإحسان ومن لم يدرس المنطق كلهم لم يصلوا إلى اليقين في المطالب الإلهية ، وهل هذا معقول ؟ هم والله أعظم منكم يقيناً وأشد وأقوى إيماناً ، لكن مع ذلك يقولون لا يمكن أن تصل إلى اليقين إلا إذا درست من المنطق وبدأت تأخذ بالجدل والمناظرات التي ليس فيها إلا تطويل الوقت ثم الشك والحيرة في الأخير .أهـ

* * *

بل هو من الرعاع الذين لا خير فيهم ، والحقّ أن هذا العلم الذي فخروا به لا يغني من الحق شيئاً ،

الشرح

وهذا حقيقة ، بل أنا نقول إنه لا يزيد اليقين إلا شكا ، فتجد الإنسان الذي على فطرته وعلى سلامة معتقده الأمر عنده واضح بدون تردد ، لكن هؤلاء المناطقة

والمتكلمين عندهم من الشك والحيرة والترديد ما يوجب أن ينتهي أمرهم إلى لا شيء ، ومع ذلك يقولون نحن أصحاب الميزان ونحن أصحاب العقول ونحن الذين لا يمكن أن نزل بل كل ما عندنا فهو يقين ، ولكن ليس الأمر كذلك .أهـ

* * *

كما قال الشيخ - رحمه الله ـ في كتابه : «الرد على المنطقيين» :

الشرح

شيخ الإسلام رأيت له كتابين أحدهما «الرد على المنطقيين» وهو كتاب واسع والثاني : «نقض المنطق» كتاب صغير أصغر منه ، لكنه مركز وأفيد لطالب العلم من كتاب «الرد على المنطقيين» لأن كتاب «الرد على المنطقيين» واسع بعض السعة لكن هذا «نقض المنطق» كتاب مختصر مركز مذكور فيه الأدلة التي تبطل علم المنطق .أهـ

* * *

«إني كنت دائماً أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ، ولا ينتفع به البليد» . اهـ .

الشرح

لأنه ضياع وقت ، مادام أن الذكي لا يحتاج إليه والبليد لا ينتفع به ، إن اشتغل به ذكي ضاع وقته لأنه غير محتاج له ، وإن اشتغل به بليد ضاع وقته لأنه لن ينتفع به ، إذاً فهو ضياع وقت ، والعلماء رحمهم الله اختلفوا في جواز تعلم المنطق ، فمنهم من حرمه ، ومنهم من قال أنه مستحب ، بل ومنهم من أوجبه ، فالنووي وابن الصلاح حرماه ، وقال قوم : ينبغي أن يعلم وأنه لا ينبغي للإنسان أن يدعه ، ولكن القول الصحيح عند بعض العلماء أنه جائز للإنسان الصافي القريحة الصافي المعتقد .

وعندي أنه لا يجوز ، لأنه مادام ضياع وقت ولا ينتفع به فإن النبي عليه الصلاة والسلام يقول : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»(١) ، نعم إن احتاج الإنسان إليه بأن كان يريد أن يرد على قوم لا يعرفون الرد إلا عن طريق المنطق فحينئذ يتعين عليه أن يتعلمه ، فيكون تعلمه ابتداء لا يجوز ، وتعلمه عند الضرورة للرد على أهله وغيرهم يكون جائزا ولا بأس به ، بل وقد يكون واجباً ، ولهذا نجد أن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ مع أنه يتكلم عن المنطق بهذا الكلام نجد أنه يحاج أهل المنطق بمنطقهم وبلسانهم حتى يبين لهم الحق .أهـ

(٤٩) البخاري (٦٠١٨) كتاب الأدب / باب «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره» ، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان / باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الباب السادس والعشرون

في الإسلام والإيمان

الشرح

وهذا الباب من أكثر ما خاض الناس فيه ، وهل الإسلام الإيمان والإيمان الإسلام أو أن بينهما فرقاً ، وهذا الباب يبين فيه هذا الحكم .أهـ

* * *

الإسلام لغة : الانقياد . وشرعاً : استسلام العبد لله ظاهراً وباطناً ، بفعل أوامره ، واجتناب نواهيه . فيشمل الدين كله ،

الشرح

الإسلام في اللغة الانقياد مثل قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (البقرة :١١٢) ، ومثل قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (الصافات :١٠٣) ، أسلما يعني انقادا واستسلما .

وأما في الشرع فهو استسلام العبد لله ظاهراً وباطناً ، بفعل أوامره ، واجتناب نواهيه ، ظاهرا مثل الأقوال وأفعال الجوارح ، باطنا كأقوال القلوب وأعمال القلوب ، فالاستسلام لله ظاهراً وباطناً هذا هو الإسلام ، وعلى هذا فيشمل الدين كله .أهـ

* * *

قال الله تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (المائدة : ٣) ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (آل عمران : ١٩) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران : ٨٥)

الشرح

ما المراد بالإسلام في هذه الآيات الثلاث ؟ كل الدين ، وهوالاستسلام لله ظاهراً وباطناً بفعل أوامره ، واجتناب نواهيه .أهـ

* * *

وأما الإيمان فهو لغة : التصديق . قال الله تعالى :﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ (يوسف : ١٧) .

الشرح

أي بمصدق .أهـ

* * *

وفي الشرع : إقرار القلب المستلزم للقول والعمل ،

الشرح

إقرار القلب هذا باطني أم ظاهري ؟ باطني ، مستلزم للقول والعمل الظاهر والباطن ، أما إيمان لا يستلزمه فليس بإيمان شرعا ، فالذي يؤمن بالله وأنه خالق السماوات والأرض ورازق ومحيي ومميت لكنه ـ أي إيمانه ـ لم يستلزم القول والعمل فهذا ليس بمؤمن شرعا ، وما أكثر ما نسمع من العامة وأشباههم يتكلمون عن ملحد طاغية ويقولون هذا رجل مؤمن يقر بالله ، يقر بأن السماوات والأرض خلقت من قبل خالق عظيم ، فيصفونه بأنه مؤمن وهذا غير صحيح شرعاً .أهـ

* * *

فهو اعتقاد وقول وعمل ، اعتقاد القلب ، وقول اللسان ، وعمل القلب والجوارح .

الشرح

اعتقاد القلب مبني على ستة أشياء بينها الرسول ﷺ بقوله : «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»[1] هذا إقرار القلب ، قول القلب يعني حركة القلب ، وتعرفون أن الإيمان إقرار وطمأنينة بالشيء ، لكن عمل القلب هو أن يتحرك القلب لشيء ما ، مثل المحبة والكراهة والخوف والرجاء والتوكل والمراقبة وما أشبه ذلك هذا نسميه عمل القلب ، لأن المحبة مثلاً إذا أحببت شيئاً ملت إليه ، الكراهة إذا كرهت شيئاً نفرت عنه وهكذا ، فأعمال القلوب غير أقوال القلوب ، والفرق بينهما أن القول إقرار وركون إلى الشيء وهو الاعتقاد ، والعمل لابد فيه من حركه واتجاه وفعل ما لكنه فعل قلبي لا يبين ، وأما عمل الجوارح فهو إما قول وإما فعل ، القول مثل الذكر وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودراسة العلم وما أشبهه ، والفعل ما يكون بالجوارح الأربعة الأعضاء مثل الركوع والسجود والقيام والقعود والصدقة والصيام والطواف والسعي والوقوف بعرفة وما أشبهه هذا نسميه عمل الجوارح ، كل هذا داخل في الإيمان ، لكن نقول هذا في المعنى العام .أهـ



والدليل على دخول هذه الأشياء كلها في الإيمان ، قوله ﷺ : «الإيمان : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره»[2] . وقوله : «الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن

(١) البخاري (٥٠) كتاب الإيمان / باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٥٠) كتاب الإيمان / باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان»[١] . فالإيمان بالله وملائكته . . . إلخ ؛ اعتقاد القلب . وقول لا إله إلا الله ؛ قول اللسان ، وإماطة الأذى عن الطريق عمل الجوارح ، والحياء عمل القلب ،

الشرح

هل الصلاة إيمان ؟ نعم بالمعنى العام إيمان لا شك ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ (البقرة :١٤٣) ، قال العلماء صلاتكم إلى بيت المقدس .أهـ

* * *

وبذلك عرف أن الإيمان يشمل الدين كله ، وحينئذ لا فرق بينه وبين الإسلام ، وهذا حينما ينفرد أحدهما عن الآخر ، أما إذا اقترن أحدهما بالآخر فإن الإسلام يفسر بالاستسلام الظاهر الذي هو قول اللسان ، وعمل الجوارح ، ويصدر من المؤمن كامل الإيمان ، وضعيف الإيمان ، قال الله تعالى : ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات : ١٤) . ومن المنافق لكن يُسمّى مسلماً ظاهراً ، ولكنه كافر باطناً ، ويفسر الإيمان بالاستسلام الباطن الذي هو إقرار القلب وعمله ،

الشرح

إذا اقترنا افترقا ، إذا اقترنا صار الإسلام هو الأعمال الظاهرة والإيمان هو الأعمال الباطنة ، الدليل : إستمع إلى حديث عمر في سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان ماذا قال له في الإسلام ؟ «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت» وهذا عمل ظاهر عمل

(١) مسلم (٣٥) كتاب الإيمان / باب عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

جوارح ، وقال له في الإيمان : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» وهذا إيمان باطن ، هذا من إقرار القلب ، فإذا اجتمعا افترقا وإن افترقا اجتمعا ، فالإسلام بهذا المعنى يصدر من المؤمن حقاً ومن ضعيف الإيمان بل ومن المنافق ، واستمع إلى قول الله تعالى : ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ (الحجرات :١٤) ، الأعراب سكان البادية قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام آمنا ، فقال الله لنبيه : ﴿ **قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا** ﴾ يعني ما آمنتم ﴿ **وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا** ﴾ فإذا قلتم أسلمنا صدقتم وإذا قلتم آمنا كذبتم ، كيف ؟ قال : ﴿ **وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ لما هنا نافية يعني لم يدخل الإيمان في قلوبكم ، لكن لاحظوا أن لما النافية تفيد قرب ثبوت منفيها ، فهنا لما يدخل لكنه قريباً ما يدخل ، قال تعالى : ﴿ **بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ** ﴿٨﴾ ﴾ (ص :٨) ، يعني لم يذوقوه ولكن سيذوقونه قريباً ، وأظن أن الآية واضحة للتفريق بين الإيمان والإسلام لأنه قال : ﴿ **لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا** ﴾ ثم نفى أن يكون الإيمان دخل قلوبهم .

فإن قلت هذا ينتقض عليك بقوله تعالى : ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٣٥﴾ **فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴿٣٦﴾ ﴾ (الذاريات :٣٥ ، ٣٦) ، فهنا قال من المؤمنين ثم قال من المسلمين وهذا يدل على أن الإيمان والإسلام شيء واحد .

فالجواب أن هذا لا ينقض علي بل هذا يشهد لما أقول ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ وهذا حق ما نجا إلا المؤمنون ولا خرج إلا المؤمنون ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ ، ما قال فما وجدنا فيها غير مؤمنين أو غير مسلمين قال : ﴿ **فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ ومعلوم أن زوجة لوط كانت في بيته وكانت ظاهراً مستسلمة ، فهي من المسلمين ومن معها من المؤمنين مسلمون مؤمنون ، أما هي فمسلمة غير مؤمنة ، وهذا واضح أن هناك فرقاً بين الإيمان والإسلام .

وقوله : ويفسر الإيمان بالاستسلام الباطن الذي هو إقرار القلب وعمله يعني عند اجتماعهما .أهـ

* * *

ولا يصدر إلا من المؤمن حقًا ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ (الأنفال : ٢ - ٤) .

الشرح

يعني كاملوا الإيمان على وجه الحقيقة ، كم الأوصاف التي ذكر؟

﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ هذا واحد ، الثاني : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ ، الثالث : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ، الرابع : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ﴾ ، والخامس : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ، وهذا أعم من إيتاء الزكاة .

هذه الأوصاف الخمسة إذا اجتمعت في الإنسان صار مؤمنا حقا ، فإن تخلف بعضها نقص الإيمان ، فتش هل يوجل قلبك إذا ذكر الله ، إذا ذكر الله أي ذكرت عقوبته للمجرمين هل يخاف قلبك ؟ أو أنك تمر دائما بالوعيد في النار في الكتاب والسنة والقلب جامد لا يتحرك ، فإذا كان القلب جامدا في هذه الحال فاعلم أنك ضعيف الإيمان جدا ، عمر رضي الله عنه لما قرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) ﴾ (الطور : ٧ ، ٨) ، في سورة الطور مرض وصار الناس يعودونه من أجل هذه الآية(١) ، والعجيب أنا نقرأها نحن في صلاة الفجر وغير صلاة الفجر ، يتحرك القلب ؟ إلا من رحم ، لكن الواقع أننا في غفلة وقسوة قلوب ، ما رأينا أحدا

(١) تفسير ابن كثير / سورة الطور .

قرأها ومرض وجعل الناس يعودونه ، على قوة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في دين الله لكن خوفه من الله أوجب له أن يصل إلى هذه الحال .

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ إيمانا بالله تعالى وبشرعه وزادتهم قبولا له وزادتهم عملا به لأنها آيات الله تعالى .

﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ لا يعتمدون إلا على الله فيثبتون في مقام تزل فيه الأقدام ، لأنهم معتمدون على الله ولا يخشون في الله لومة لائم لأنهم معتمدون على ربهم .

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ﴾ يعني يأتون بها على وجه مستقيم .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ يعني ينفقون مما أعطاهم الله تعالى وأول ما يدخل فيه الزكاة .أهـ

* * *

وبهذا المعنى يكون الإيمان أعلى ، فكل مؤمن مسلم ؛ ولا عكس .

الشرح

معنى لا عكس : أي ليس كل مسلم مؤمنا .أهـ

فصل

في زيادة الإيمان ونقصانه

من أصول أهل السنة والجماعة : أن الإيمان يزيد وينقص ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة ،

الشرح

أظنه لا يخفى عليكم أن الأعمال تدخل في الإيمان ، فإذا زادت الأعمال زاد الإيمان بلا شك ، وإذا نقصت نقص .أهـ

* * *

فمن أدلة الكتاب ، قوله تعالى : ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (الفتح : ٤) .

الشرح

وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ (التوبة :١٢٤)أهـ

* * *

ومن أدلة السنة ، قوله ﷺ ، في النساء : «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكن»[١] .

الشرح

وصدق الرسول ﷺ ، الإنسان يرغب مثلا في الفرس ، يرغب في السيارة ،

(١) البخاري (٣٠٤) كتاب الحيض / باب ترك الحائض الصوم ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

يرغب في البعير ، يرغب في البيت ، لكن لا تستولي تلك الرغبة على مشاعره وعلى عقله وفطرته ، لكن يرغب في امرأة فتستولي على مشاعره وعقله حتى يتصرف في سبيل الوصول إلى هذه المرأة تصرفا لو تصرفه غيره لأنكر عليه ، وهذا مصداق قول النبي ﷺ : «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكن» تجد هذا ـ والعياذ بالله ـ تروق في نفسه امرأة فيتبعها في الأسواق ويحرص على أن يسمع كلامها وما أشبه ذلك ، وهذا لاشك أنه نقص في العقل ونقص في الدين ، فالرسول ﷺ يقول : «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ ـ لب بمعنى عقل ـ الرجل ـ ليس أي رجل الرجل الحازم» الذي عنده من الحَزم والعقل ما يمنعه من التصرف السيء ومع ذلك يذهب عقله في جانب النساء ، والشاهد من هذا الحديث قوله « من ناقصات عقل ودين » ناقصات عقل ودين ، والشاهد في دين أو عقل ؟ دين ، النساء رضي الله عنهن قلن يا رسول الله ما نقصان العقل وما نقصان الدين ؟ قال الرسول ﷺ : «أليست شهادة المرأتين بشهادة رجل واحد ؟ أو قال شهادة الرجل بشهادة المرأتين؟ ـ قلن : بلى ـ قال : فذلك نقصان عقلها أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ ـ قلن : بلى ـ قال : فذلك نقصان الدين»[1] لأن عملها الآن صار أقل من عمل الرجال فهذا نقص دين .

أسأل : هل قام أولئك النسوة يصرخن في وجه النبي ﷺ ظلمت وجرت ، النساء شقائق الرجال ، لماذا تصفهن بنقص العقل والدين ؟ أو قلن رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا ؟ هذا هو الذي حصل ، لكن أئمة الكفر وأتباع أئمة الكفر الآن وقبل

(١) البخاري (٣٠٤) كتاب الحيض / باب ترك الحائض الصوم ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

الآن يقولون هذا أمر منكر ولا نوافق ولا نسلم أن المرأة ناقصة عقل ودين ، بل يقولون الدين ليس عندنا بشيء ، ولتكن ناقصة الدين لا يهم ، لكن لا نسمح أبداً أن تقول إنها ناقصة عقل ، أختك من أمك وأبيك ناقصة عقل ! ! شقائق الرجال وبنات آدم ألا تخاف الله ! تقول ناقصات عقل ، يجب أن تكون مساوية للرجل في كل الأعمال حتى في أمور السياسة والتدبير والحرب وغير ذلك ، مع أنها لو كانت في الحرب وغمز لها رجل جميل قالت : الرأي عند هذا الرجل ، هذا رجل موفق وحكيم ما قال فهو الحق ، وإن كان عندها نوع من العقل سكتت لكن وافقته في مجلس آخر وقالت برأيه ، فمثل هذه المرأة التي عندها هذه العاطفة ـ وهذا أمر لا ينكر ولا يمكن لأحد أن ينكره ـ كيف نقول إنها مثل الرجل الحازم العاقل الثابت الراسخ .

أشد من ذلك الآن عندما يلقون الكلمات أوالخطابات يقولون : سيداتي وسادتي ! ! بعضهم يكتبون على أبواب الحمامات : حمام للسيدات وبجانبه حمام للرجال ، قولوا للسادة ، مادام أنكم قلتم للسيدات فالعدل أن تقولوا للسادة ، وإلا مادام أنكم قلتم للرجال فقولوا للنساء ، لكن كل هذا من التقليد الأعمى للغرب ، سواء قالوه عن جهل أو قالوه لأنهم معجبون بما عندهم من الثقافة البائدة التي الآن يتمنون أن يتخلصوا مما هم فيه لكنهم عاجزون كما أخبرنا الثقات ، فبدأ رفات العظام البالي من الثقافات بدء بعض المسلمين الآن يلتهمونها بقطع النظر عما فيها من الديدان والخبث والأنجاس ، وهذا أمر دفاعه على كاهل الشباب ، كاهل الشباب المسلم المثقف ثقافة دينية متلقاة من كتاب ربه وسنة نبيه ، ولا حرج علينا أن نقول كلمة الحق بدون عنف فنعرض الحق ونبينه ، ونحن والحمد لله واثقون من صحة ما نقول بأن المرأة ناقصة عقل ودين ، ومن أجل هذا الاعتقاد المبني على كتاب الله وسنة رسوله ؛ من أجل ذلك كنا نرحمها أكثر مما يرحمها أولئك ، وكنا نحميها أكثر مما يحميها أولئك ،

وكنا ننزلها في المنزلة اللائقة بها من الرأفة والرفق واللين أكثر مما ينزلها أولئك ، حتى قال الرسول ﷺ : «رفقاً بالقوارير»[1] يعني بالنساء ، فشبههن بالقارورة التي تنكسر مع الحركة والرج .

ونحن نشهد الله تعالى وملائكته ومن سمع كلامنا هذا أننا نقول ونرى أنه يلزم أن يقول كل مؤمن بما قاله النبي ﷺ «إنهن ناقصات عقل ودين» ، وأن من السفه والخطأ والخطر والخطل أن يوكل إليهن أمر تدبير المسلمين العام ، أما تدبير المنازل والبيوت فهذا إليهن ، لأن المرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها .أهـ

* * *

ففي الآية إثبات زيادة الإيمان ، وفي الحديث إثبات نقص الدين ، وكل نص يدل على زيادة الإيمان ، فإنه يتضمن الدلالة على نقصه وبالعكس ، لأن الزيادة والنقص متلازمان ، لا يعقل أحدهما دون الآخر .

الشرح

لأننا إذا قلنا الإيمان يزيد فهل تعقل زيادة بدون نقص ؟ إذاً كلمة يزيد معناه أن هناك نقصاً ، وكل نص يدل على النقصان فهو دال على الزيادة ، لأن النقص معناه أن فوقه شيئاً ، فعلى هذا نقول إن القرآن دل على نقص الإيمان لأن فيه تصريح بزيادته ، والسنة دلت على زيادته لأن فيها التصريح بنقصه ، وأما من توقف في إطلاق النقص في الإيمان لأنه لم يذكر في القرآن فإن هذا توقف في غير محله ، لأنه مادام قد ثبتت الزيادة فيلزم منها النقص .أهـ

---

(١) البخاري (٦١٤٩) كتاب الأدب / باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه ، ومسلم (٢٣٢٣) كتاب الفضائل / باب رحمته بالنساء والرفق بهن ، من حديث أنس رضي الله عنه .

وقد ثبت لفظ الزيادة والنقص منه عن الصحابة ، ولم يعرف منهم مخالف فيه ، وجمهور السلف على ذلك ، قال ابن عبد البر : وعلى أن الإيمان يزيد وينقص جماعة أهل الآثار والفقهاء أهل الفتيا في الأمصار .[1] وذكر عن مالك روايتين في إطلاق النقص إحداهما : التوقف .

والثانية : موافقة الجماعة[2] .

الشرح

التوقف ، يعني يقول لا أقول إنه ينقص ولكن أقول إنه يزيد ، أو التوقف أنه يقول : أقول لا ينقص ، فعندنا عبارتان الآن : لا أقول إنه ينقص ، أقول إنه لا ينقص ، بينها فرق ؟ إذا قال أقول إنه لا ينقص ، فهذا صرح بالنفي ، صرح بنفي النقصان ، وإذا قال : لا أقول إنه ينقص فمعناه نفى القول ، أي أني أتوقف ولست أقول بنفي النقصان .أهـ

* * *

وخالف في هذا الأصل

الشرح

الأصل هو الزيادة والنقصان .أهـ

* * *

---

(١) التمهيد ٩/ ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٥٢ .

(٢) روى الخلال في السنة عن أحمد بن القاسم قال : قلت يا أبا عبد الله تقول الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم ـ إلى قوله ـ ومالك بن أنس يقول : يزيد وينقص . فقلت له : مالك يحكون عنه أنه قال يزيد ولا ينقص ، فقال : بلى قد روي عنه يزيد وينقص كان ابن نافع يحكيه عن مالك فقلت له : ابن نافع حكى عن مالك ؟ قال : نعم ٣/ ٥٩٢ (١٤٠٣ تفسير الزيادة والنقصان في الإيمان) .

طائفتان :

الأولى - المرجئة الخالصة الذين يقولون : إن الإيمان إقرار القلب ، وزعموا أن إقرار القلب لا يتفاوت ؛ فالفاسق والعدل عندهم سواء في الإيمان .

الشرح

المرجئة تقدم الكلام عليهم وأن هذا اللفظ مأخوذ من الرجاء أو من الإرجاء ، من الرجاء لأنهم يُرَجّون الفاسق فيقولون ليس عليك عقوبة ، أو من الإرجاء لأنهم أرجئوا الأعمال عن الإيمان وأخروها عنه فلا يدخلونها فيه .

هؤلاء يقولون إن الإيمان إقرار القلب ، والمراد بالمرجئة الخالصة وهم مرجئة الجهمية ، الإيمان إقرار القلب ويدعون أن الإقرار لا يزيد ، فهذا مبني على أمرين : أن الإيمان الإقرار ، وأنه لا يزيد .أهـ

* * *

الثانية - الوعيدية من المعتزلة والخوارج

الشرح

الوعيدية ضد المرجئة ، لأن المرجئة يعملون بنصوص الرجاء ويعرضون عن نصوص الوعيد ، والوعيدية بالعكس يأخذون بنصوص الوعيد ويدعون نصوص الرجاء ، وهم أي الوعيدية .أهـ

* * *

الذين أخرجوا أهل الكبائر من الإيمان

الشرح

هذا مذهبهم ، يقولون صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ، من قتل نفساً خرج من

الإسلام ، من زنا خرج من الإسلام ، من شرب الخمر خرج من الإسلام ، من أكل الربا خرج من الإسلام إلخ ، كل كبيرة إذا فعلها الإنسان كان خارجاً من الإيمان ، لكن يختلفون فالمعتزلة يقولون إنه في منزلة بين المنزلتين ، والخوارج يقولون إنه كافر ، وهذا ليس لنا فيه تعلق ، المهم أنهم يقولون إن فاعل الكبيرة خارج من الإيمان .أهـ

* * *

وقالوا : إن الإيمان إما أن يوجد كله ، وإما أن يعدم كله ، ومنعوا من تفاضله ،

الشرح

قالوا الإيمان إما أن يوجد كله وإلا يعدم كله ، وهم يرون أن الكبيرة إذا فعلها الإنسان خرج من الإيمان لأنه ما يمكن أن يكون فيه إيمان وكفر ، إما إيمان وإما كفر .أهـ

* * *

وكل من هاتين الطائفتين محجوج بالسمع والعقل ،

الشرح

محجوج أي مغلوب ومردود عليه حجته ، ومنه قول النبي ﷺ : «فحج آدم موسى»[1] أي غلبه في الحجة .أهـ

* * *

أما السمع فقد تقدّم في النصوص ما دل على إثبات زيادة الإيمان ونقصه ،

---

(١) البخاري (٤٧٣٦) كتاب التفسير / باب واصطنعتك لنفسي ، (٦٦١٤) كتاب القدر / باب تحاج آدم وموسى عند الله ، ومسلم (٢٦٥٢) كتاب القدر / باب حجاج آدم وموسى صلى الله عليهما وسلم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الشرح

فنقول للمرجئة أنتم تقولون إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص والله تعالى يقول : ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ (المدثر : ٣١) وكذلك نقول للخوارج والمعتزلة أنتم تقولون إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص والله تعالى قد أثبت الزيادة له .أهـ

* * *

وأما العقل فنقول للمرجئة : قولكم : إن الإيمان هو إقرار القلب ، وإقرار القلب لا يتفاوت ، ممنوع في المقدمتين جميعاً ،

الشرح

عندنا مقدمتان الآن : الإيمان إقرار القلب ، وإقرار القلب لا يتفاوت ، النتيجة؟ الإيمان لا يزيد ولا ينقص هذه النتيجة .أهـ

* * *

أما المقدمة الأولى :

الشرح

وهي قولكم إن الإيمان إقرار القلب .أهـ

* * *

فتخصيصكم الإيمان بإقرار القلب مخالف لما دلّ عليه الكتاب والسنة من دخول القول والعمل في الإيمان .

الشرح

وهذا مر علينا أن الأعمال الصالحة من الإيمان ، فإذا قلتم إن الإيمان هو إقرار القلب خالفتم النص .أهـ

وأما المقدمة الثانية : فقولكم : إن إقرار القلب لا يتفاوت مخالف للحس ،

الشرح

مخالف للحس والواقع ، كيف ذلك ؟ قال .أهـ

* * *

فإن من المعلوم لكل أحد أن إقرار القلب إنما يتبع العلم ؛ ولا ريب أن العلم يتفاوت بتفاوت طرقه ، فإن خبر الواحد لا يفيد ما يفيده خبر الاثنين وهكذا ،

الشرح

إقرار القلب بالشيء وتصديقه به واطمئنانه به يتبع العلم ، والعلم يتفاوت بحسب طرقه ، فمثلاً إذا جاءك شخص ثقة وقال إن فلاناً قدم من السفر فإنك تؤمن بهذا لأنه ثقة ، فإذا جاء آخر وقال مثل هذا القول ، تزداد ثقتك أم أنه نفس الشيء ؟ تزداد ، وإذا قال ثالث مثل هذا القول ازددت أيضاً حتى تصل إلى درجة اليقين ، إذاً إقرار القلب يتفاوت ، وهذا كل أحد يشهد به .

قال إبراهيم ﷺ : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ (البقرة :٢٦٠) ، فتبين بهذا أن القلب تتفاوت طمأنينته بحسب ما حصل له من العلم .أهـ

* * *

وما أدركه الإنسان بالخبر لا يساوي في العلم ما أدركه بالمشاهدة ،

الشرح

ما تدركه بالخبر ليس كالذي تدركه بالمشاهدة ، ولهذا قال إبراهيم : ﴿ رَبِّ أَرِنِي

كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ مع أنه يؤمن ، لكن إذا شاهد فليس إدراكه لما شاهده كإدراكه لما أخبر عنه ، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : «ليس الخبر كالمعاينة»(١) فبينهما فرق .أهـ

* * *

فاليقين درجات متفاوتة ، وتفاوت الناس في اليقين أمر معلوم ، بل الإنسان الواحد يجد من نفسه أنه يكون في أوقات وحالات أقوى منه يقيناً في أوقات وحالات أخرى ،

الشرح

قد جاء ذلك في حديث حنظلة الذي رواه مسلم أنهم إذا كانوا عند النبي ﷺ يحدثهم يكون كأنهم يرون الجنة والنار رأي العين فإذا ذهبوا وعافسوا النساء واشتغلوا بالأولاد نسوا أو غفلوا ، فقال النبي ﷺ «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي في الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»(٢) أهـ

* * *

ونقول : كيف يصح لعاقل أن يحكم بتساوي رجلين في الإيمان أحدهما مثابر على طاعة الله تعالى فرضها ونفلها ، متباعد عن محارم الله ، وإذا بدرت منه المعصية بادر إلى الإقلاع عنها والتوبة منها ، والثاني : مُضيِّع لما أوجب الله عليه ، ومنهمك فيما حرّم الله عليه ، غير أنه لم يأت ما يكفره ، كيف يتساوى هذا وهذا؟!

---

(١) مسند أحمد ١/ ٢١٢ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) مسلم (٢٧٥٠) كتاب الرقاق / باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات ، من حديث حنظلة الأسيدي رضي الله عنه .

الشرح

انظر السؤال ، رجل مثابر على طاعة الله ، كل ما ذكرت له الطاعة بادر إليها ، متباعد عن معصية الله ، فهو يفر من المعصية فراره من الأسد ، ورجل آخر بالعكس يتهاون بالواجبات ويفعل المحرمات إلا أنه لم يفعل ما يقتضي الكفر ، هذان الرجلان عند المرجئة على حد سواء ، نقول هل يمكن لعاقل أن يقول إنهما على حد سواء ؟ لا يمكن ، كل يعرف أن من يحافظ على الشرع بفعل المأمور وترك المحظور أنه لا يمكن أن يساويه المضيع المهمل الفاسق .أهـ

* * *

وأما الوعيدية ،

الشرح

وهم الخوارج والمعتزلة .أهـ

* * *

فنقول لهم : قولكم : إن فاعل الكبيرة خارج من الإيمان مخالف لما دل عليه الكتاب والسنة ،

الشرح

هل دل الكتاب و السنة على أن فاعل الكبيرة لا يخرج من الإيمان ؟

نعم ، الدليل قال الله تعالى في آية القصاص : ﴿ **فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيهِ** ﴾ (البقرة :١٧٨) ، فجعل الله تعالى القاتل أخاً للمقتول مع أن قتل النفس محرم بالنص والإجماع ، ومن الكبائر لا من الصغائر ، وقال تعالى في

اقتتال المؤمنين بعضهم مع بعض : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ ﴾ (الحجرات : ٩ ، ١٠) ، فجعل الله الطائفتين المقتتلتين إخوة للطائفة المصلحة ، ومعلوم أن قتال المسلم كفر ، يعني نوع من الكفر ، ومع ذلك فسمى الله سبحانه وتعالى هاتين الطائفتين المقتتلتين سماهما إخوة للطائفة المصلحة ، إذا كان كذلك فنقول : قولكم مخالف لما دل عليه الكتاب والسنة .أهـ

* * *

فإذا تبين ذلك فكيف نحكم بتساوي رجلين في الإيمان؟! أحدهما : مقتصد فاعل للواجبات ، تارك للمحرّمات ، والثاني : ظالم لنفسه بفعل[1] ما حرم الله عليه ، وبترك[2] ما أوجب الله عليه من غير أن يفعل ما يكفر به؟!

الشرح

رجلان أحدهما مقتصد فاعل للواجبات تارك للمحرمات ، لكنه لا يفعل السنن إنما يقوم بالواجب فقط ، هذا مؤمن حتى عند الخوارج والمعتزلة ، كيف يتساوى مع رجل ظالم لنفسه يفعل ما حرم الله عليه ، ويترك ما أوجب الله عليه من غير أن يفعل ما يكفر به ؟ لا يمكن أن يتساويا ، والأول أكمل .أهـ

* * *

ونقول ثانياً : هب أننا أخرجنا فاعل الكبيرة من الإيمان ، فكيف يمكن أن نحكم على رجلين بتساويهما في الإيمان وأحدهما مقتصد ، والآخر سابق بالخيرات بإذن الله؟!

(١) تصحيح من الشيخ رحمه الله .

(٢) تصحيح من الشيخ رحمه الله .

الشرح

أحدهما مقتصد يعني يقتصر على الواجبات ويترك المحرمات ، والثاني سابق بالخيرات بإذن الله يعني يفعل الواجبات والمندوبات ، ويترك المحرمات والمحظورات فلا يمكن أن نقول إنهما سواء .أهـ

* * *

فصل

ولزيادة الإيمان أسباب منها :

١ ـ معرفة أسماء الله وصفاته ، فإن العبد كلما ازداد معرفة بها وبمقتضياتها وآثارها ، ازداد إيماناً بربه وحبًا له وتعظيماً .

الشرح

فمثلاً إذا عرفت اسم الغفور وأنه ذو المغفرة كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٦ ﴾ (الرعد :٦) ، أوجب لك أن تحب الله تعالى لكونه غفوراً ، وكذلك نقول في الرحيم وكذلك نقول في الحكيم وفي العزيز وفي غيرها ، كلما آمنت باسم من أسماء الله ازددت إيماناً بالله ومحبة له وتعظيماً له .أهـ

* * *

٢ ـ النظر في آيات الله الكونية والشرعية ، فإن العبد كلما نظر فيها وتأمل ما اشتملت عليه من القدرة الباهرة ، والحكمة البالغة ، ازداد إيمانه ويقينه بلا ريب .

الشرح

هذا أيضاً من أسباب الزيادة ، أنك تتفكر في الآيات الشرعية وهي القرآن والسنة وما دلا عليه من الأحكام ، تتفكر في الآيات الكونية وهي السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم وغير ذلك ، كلما تفكرت فيها فإنك سوف تزداد إيماناً ، ولهذا يأمر الله تعالى بالتفكر في خلق السماوات والأرض حتى يصل الإنسان إلى اليقين .أهـ

* * *

٣ - فعل الطاعة تقرباً إلى الله تعالى ، فإن الإيمان يزداد به

الشرح

أي بفعل الطاعة .أهـ

* * *

بحسب حسن العمل وجنسه وكثرته ، فكلما كان العمل أحسن كانت زيادة الإيمان به أعظم ، وحسن العمل يكون بحسب الإخلاص والمتابعة ،

الشرح

فعل الطاعة لا شك أنه يزيد في الإيمان ، لأن الإنسان عندما يعبد الله ويطيعه فإنما يفعل ذلك امتثالا لأمره ، وهذا يؤدي إلى أن يكون متيقناً بوجوده وبفضله وسعة كرمه ، ويتفاوت الإيمان بحسب حسن العمل ، ويكون العمل حسناً بالإخلاص والمتابعة ، باعتبار جنسه : مثل الصلاة أفضل الأعمال البدنية ثم الصدقة ثم الصيام ثم الحج ، ولهذا سئل النبي ﷺ : «أي العمل أحب إلى الله قال : الصلاة على وقتها قلت : ثم أي - يقول ابن مسعود وهو السائل - قال : بر الوالدين قلت : ثم أي قال : الجهاد في سبيل الله قال : ولو استزدته لزادني»[١] فكلما كان العمل من حيث الجنس أفضل كان زيادة الإيمان به أكمل ، من حيث الكثرة أيضاً ، فكثرة الأعمال الصالحة سبب لزيادة الإيمان ، لأنك كلما أكثرت العمل الصالح ازددت صلة بالله سبحانه وتعالى ، فازداد بذلك إيمانك .أهـ

* * *

---

(١) البخاري (٥٢٧) كتاب مواقيت الصلاة / باب فضل الصلاة لوقتها ، (٢٧٨٢) كتاب الجهاد والسير / باب فضل الجهاد والسير ، ومسلم (٨٥) كتاب الإيمان / باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

وأما جنس العمل فإن الواجب أفضل من المسنون ، وبعض الطاعات أوكد وأفضل من البعض الآخر ، وكلما كانت الطاعة أفضل كانت زيادة الإيمان بها أعظم ،

الشرح

الواجب أفضل من المسنون ، والدليل قوله ﷺ عن الله : «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه»(١) وهذا نص صريح وصحيح بأن العمل الواجب أحب إلى الله من العمل المستحب ، وهل العمل الواجب أوكد من العمل المستحب ؟

طبعاً نعم ، لأن الله ما أوجبه إلا لمحبته له وتأكده .أهـ

* * *

وأما كثرة العمل فإن الإيمان يزداد بها ؛ لأن العمل من الإيمان فلا جرم أن يزيد بزيادته .

٤ ـ ترك المعصية خوفاً من الله تعالى ، وكلما قوي الداعي إلى فعل المعصية كانت زيادة الإيمان بتركها أعظم ؛ لأن تركها مع قوة الداعي إليها دليل على قوة إيمان العبد ، وتقديمه ما يحبه الله ورسوله على ما تهواه نفسه .

الشرح

هذا أيضاً من أسباب زيادة الإيمان ترك المعصية ، ولكن بشرط أن يكون خوفاً من الله ، لأن تارك المعصية له ثلاث حالات ؛ إما أن يدعها لأن نفسه لم تطلبها ، فهذا ليس له أجر وليس عليه وزر ، وإما أن يدع المعصية خوفا من الله ، فهذا له أجر ، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح : «أن من هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى حسنة

(١) البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقائق / باب التواضع ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

كاملة» قال: «لأنه إنما تركها من جرائي»[1] أي من أجلي، الحالة الثالثة أن يدع المعصية عجزا عنها، هو حريص لكنه عجز، فهو الآن يراقب شخصاً ليسرق منه، وكلما هم أن يسرق التفت ذلك إليه فترك السرقة عجزاً عنها، فهذا له حكم الفاعل، لاسيما إن سعى بالأسباب الموصلة إليها، ولهذا قال النبي ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال: لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[2]، وأخبر النبي ﷺ أن الرجل الفقير إذا تمنى مثل مال فلان الذي يعمل بماله في المعصية قال النبي ﷺ: «فهو بنيته فهما في الوزر سواء»[3] إذاً تارك المعصية له ثلاث حالات: أن يتركها خوفاً من الله، أن يتركها عجزاً عنها، أن يتركها لأنها لم تطرأ على باله، إذا تركها خوفاً من الله أثيب على ذلك، إذا تركها عجزاً يعاقب على ذلك، إذا تركها لأنها لم تطرأ على باله فلا له ولا عليه، ولهذا قيدناها هنا، قال: ترك المعصية خوفاً من الله، وكلما كان داعي المعصية أقوى في الإنسان كان ترك المعصية في حقه أفضل، وانظر إلى قصة يوسف عليه الصلاة والسلام، كان داعي المعصية في حقه قوياً، لماذا؟

لأنها امرأة العزيز فهي سيدته وقد راودته عن نفسه، وكان مقتضى ذلك أن يطيعها حتى تنفعه، ثانيا: المرأة على جانب كبير من الجمال، والجمال يدعو للاتصال بها، ثالثاً: أنها أغلقت الأبواب فانتفى المانع، ومع ذلك فقد ترك هذه

---

(١) البخاري (٦٤٩١) كتاب الرقائق / باب من هم بحسنة أو بسيئة، ومسلم (٣٣١) كتاب الإيمان / باب بيان تجاوز الله تعالى، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البخاري (٧٠٨٣) كتاب الفتن / باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) الترمذي (٢٣٢٥) كتاب الزهد / باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، من حديث أبي كبشة الأنماري قال الترمذي حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢٢٨).

المعصية خوفاً من الله لقوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ (يوسف :٢٤) ، ثم انظر إلى قول الرسول ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله قال في أحدهم : « ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله »[1] إذاً ترك المعصية خوفاً من الله يثاب عليه الإنسان ويزداد به إيمانه ، وكلما كان داعي المعصية أقوى كان زيادة الإيمان بتركها أقوى أيضاً .أهـ

* * *

وأما نقص الإيمان فله أسباب منها :

١ ـ الجهل بالله تعالى وأسمائه وصفاته .

الشرح

لأنه لما كان العلم بأسماء الله وصفاته سبباً في الزيادة كان الجهل سبباً في النقص .أهـ

* * *

٢ ـ الغفلة والإعراض عن النظر في آيات الله وأحكامه الكونية والشرعية ، فإن ذلك يُوجب مرض القلب أو موته باستيلاء الشهوات والشبهات عليه .

الشرح

وأظن أن هذا ظاهر ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يكون دائما متفكراً في آيات الله ، فإن أعرض فاته خير كثير .أهـ

(١) البخاري (١٤٢٣) كتاب الزكاة / باب الصدقة باليمين ، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة / باب فضل إخفاء الصدقة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

٣ - فعل المعصية ، فينقص الإيمان بحسب جنسها ، وقدرها ، والتهاون بها ، وقوة الداعي إليها أو ضعفه ، فأما جنسها وقدرها فإن نقص الإيمان بالكبائر أعظم من نقصه بالصغائر ، ونقص الإيمان بقتل النفس المحرمة أعظم من نقصه بأخذ مال محترم ،

الشرح

لأن حرمة النفس أعظم من حرمة المال .أهـ

* * *

ونقصه بمعصيتين أكثر من نقصه بمعصية واحدة ، وهكذا .

الشرح

لأجل أن هذا أكثر .أهـ

* * *

وأما التهاون بها فإن المعصية إذا صدرت من قلب متهاون بمن عصاه ضعيف الخوف منه ، كان نقص الإيمان بها أعظم من نقصه إذا صدرت من قلب معظم لله تعالى شديد الخوف منه ، لكن فرطت منه المعصية .

الشرح

وهذا صحيح ، قد يكون رجلان فعلا معصية من المعاصي متفقة الجنس والكم والكيف لكن أحدهما فعل هذه المعصية متهاوناً بها غير مبال بها ، والثاني فعلها مع تعظيمها والخوف من عاقبتها ، فإن نقص الإيمان مع الأول أشد وأعظم ، والفرق بينهما واضح .أهـ

* * *

وأما قوة الداعي إليها ، فإن المعصية إذا صدرت ممن ضعفت منه دواعيها كان نقص الإيمان بها أعظم من نقصه إذا صدرت ممن قويت منه دواعيها ، ولذلك كان استكبار الفقير ، وزنى الشيخ أعظم إثماً من استكبار الغني ، وزنى الشاب ، كما في الحديث : «ثلاثة لا يُكلّمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم» . وذكر منهم الأشيمط الزاني ، والعائل المستكبر[1] ، لقلة داعي تلك المعصية فيهما .

٤ ـ ترك الطاعة ، فإن الإيمان ينقص به ، والنقص به على حسب تأكد الطاعة ، فكلما كانت الطاعة أوكد كان نقص الإيمان بتركها أعظم ، وربما فقد الإيمان كله كترك الصلاة ، ثم إن نقص الإيمان بترك الطاعة على نوعين : نوع يعاقب عليه ، وهو : ترك الواجب بلا عذر . ونوع لا يعاقب عليه وهو : ترك الواجب لعذر شرعي ، أو حسي ، وترك المستحب ،

الشرح

نقص الإيمان بترك الطاعة يقول إنه يتنوع نوع يعاقب عليه ، وهو ترك الواجب بلا عذر ، مثاله لو ترك الصلاة مع الجماعة بلا عذر فإنه يعاقب عليه ، ونوع لا يعاقب عليه وهو ترك الواجب لعذر شرعي أو حسي ، ترك الواجب لعذر شرعي كترك المرأة الصلاة في زمن الحيض ، هذا العذر شرعي ، وترك الواجب الحسي كأن يصلي المريض العاجز عن القيام قاعداً ، فهذا عجز حسي .

وترك المستحب أيضاً لأنه قال : ونوع لا يعاقب عليه وهو : ترك الواجب لعذر شرعي أوترك المستحب .أهـ

فالأول كترك المرأة الصلاة أيام الحيض ، والثاني كترك صلاة الضحى ، والله أعلم .

---

(١) النسائي كتاب الزكاة / باب الفقير المختال وصححه الألباني في صحيح النسائي (٢٤١٣) والسلسلة الصحيحة (٣٦٣) وصحيح الجامع (٨٨) .

فصل

في الاستثناء في الإيمان

الاستثناء في الإيمان : أن يقول : أنا مؤمن إن شاء الله .

الشرح

هو مما حدث القول فيه بعد الصحابة ، ولم يكن شائعا بينهم ، وهو أن يقول الإنسان : أنا مؤمن إن شاء الله .

واعلم أن الأشياء إما أن تكون أفعالا محققة ، وإما أن تكون أشياء غير محققة ، فإن كانت أشياء محققة فلا ينبغي الاستثناء فيها ، لأن الاستثناء فيها لغو ، مثل أن تقول : أنا لابس ثوبي إن شاء الله ، فهذا لغو لا حاجة منه ، لأن مجرد كون الثوب عليك دليل على أن الله قد شاءه فلا وجه للتعليق ، إذا صليت فقيل لك هل صليت قلت : صليت إن شاء الله ، فإن أردت أن المشيئة تعود على فعلك فهي لغو لأنك قد فعلت وصليت ، وإن أردت أن المشيئة تعود إلى صلاة كاملة مقبولة فالاستثناء هنا له وجه وليس بلغو ، لأنه ما كل مصلٍ يكون مصلياً ، قال النبي ﷺ للرجل الذي أساء في صلاته : «إرجع فصل فإنك لم تصل»[1] وقال : «لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافع الأخبثان»[2] لو قيل لك مثلاً هذه الحقيبة من جلد ؟ فقلت : إن شاء الله فإن هذا يكون لغواً لاداعي له ، لأن الحقيبة واضح أنها من جلد ، ولو قال لك قائل

(١) البخاري (٧٩٣) كتاب الأذان / باب أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة ، ومسلم (٣٩٧) كتاب الصلاة / باب قراءة الفاتحة في كل ركعة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٥٦٠) كتاب المساجد مواضع الصلاة / باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

وأنت الآن تغسل بعد الغداء : تغديت ؟ فقلت إن شاء الله ، يكون لغواً لأنه قد شاء الله فأنت الآن تغديت ، ولهذا لو أنك عبرت بهذا التعبير عند الناس لاستغربوا منك هذا الشيء ، كيف تقول تغديت إن شاء الله وأنت متغد ، لكن لو جاء رجل جدلي وقال : أردت بقولي إن شاء الله الغداء النافع ، لأني قد أملأ بطني من الغداء ولكن لا أنتفع به ، فهل يكون له وجه أم لا ؟ يكون له وجه ، قال الله تعالى : ﴿ **لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ** ﴾ (الغاشية :٧) ، ما فيه نفع للبدن ولا دفع للضرورة ، إذاً نقول : الأشياء المعلومة المحققة يكون الاستثناء فيها عبثاً ولغواً ، والأشياء غير المحققة يكون الاستثناء فيها له محل .

بقينا في الإيمان هل تستثني في الإيمان بأن تقول أنا مؤمن إن شاء الله أو لا تستثني ؟ فيه خلاف بين العلماء طويل عريض ، فمنهم من قال : إن الاستثناء في الإيمان لا يجوز ، لأن الإيمان معلوم محقق وهو إقرار القلب والأعمال لا تدخل فيه ، وأنت إذا استثنيت في أمر محقق فهو دليل على شكك فيه ، فالاستثناء في الإيمان إذاً شك في الإيمان لأنه أمر معلوم والشك في الإيمان كفر ، وعلى هذا فلا يجوز أن تقول : أنا مؤمن إن شاء الله ، حرام .أهـ

* * *

وقد اختلف الناس فيه على ثلاثة أقوال :

القول الأول – تحريم الاستثناء ، وهو قول المرجئة والجهمية ونحوهم ، ومأخذ هذا القول : أن الإيمان شيء واحد ، يعلمه الإنسان من نفسه ، وهو التصديق الذي في القلب ، فإذا استثنى فيه كان دليلاً على شكه ، ولذلك كانوا يسمون الذين يستثنون في الإيمان «شكاكاً» .

الشرح

قال لك أنت مؤمن ؟ قلت : إن شاء الله ، قال كفرت : لأن الإيمان شيء في القلب ، فإما أن يكون معلوماً مجزوماً به ، وأما إذا قلت إن شاء الله فهذا تردد ، والتردد فيما يجب الجزم به مناف للجزم فيكون كفراً ، ولهذا يسمون من يستثني في الإيمان الشكاك ، وقد أشار السّفاريني إلى نفي ذلك في أرجوزته فقال :

ونحن في إيماننا نستثني

من غير شك فاستمع واستبني

من غير شك ، أما لو كان مع الشك فهذا معروف أنه كفر ، فهذا رأي يقول أن الاستثناء في الإيمان حرام لأن الإيمان شيء معلوم فالاستثناء فيه تردد ، فيكون حراما .أهـ

* * *

القول الثاني ـ وجوب الاستثناء ،

الشرح

على العكس ، قال : لا يجوز أن تقول : أنا مؤمن فهذا حرام ، قل : إن شاء الله ، لازم ، لو قلت أنا مؤمن فقط كان ذلك حراماً ، فالواجب أن تقول : أنا مؤمن إن شاء الله .أهـ

* * *

وهذا القول له مأخذان :

١ ـ أن الإيمان هو ما مات الإنسان عليه ، فالإنسان إنما يكون مؤمناً وكافراً بحسب الوفاة ، وهذا شيء مستقبل غير معلوم ، فلا يجوز الجزم به ،

الشرح

هذا وجه القول بوجوب الاستثناء ، يقول لأن الإيمان هو ما مات عليه الإنسان ، وأنت الآن حي لا تدري ماذا يحدث لك ، ربما تعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينك وبينها إلا ذراع فيسبق عليك الكتاب فتعمل بعمل أهل النار فتدخلها ، هل أحد منا يجزم بأنه سيموت على الإيمان ؟ لا والله ، لكن نرجو الله تعالى أن يميتنا على الإيمان وألا يزيغ قلوبنا ونحن على خوف ، هم يقولون يجب الاستثناء لأن الإيمان ما مات عليه الإنسان ، وأنت لا تعلم هل تموت عليه أم لا فيجب عليك أن تقول : إن شاء الله ، لأن الله قال لنبيه : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (الكهف : ٢٣ ، ٢٤) ، فالمستقبل لا تدري عنه ، قل إن شاء الله وإلا فأنت آثم .أهـ

* * *

وهذا مأخذ كثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم ، لكن هذا المأخذ لم يعلم أن أحداً من السلف علل به ، وإنما كانوا يُعللون بالمأخذ الثاني ، وهو :

٢ - أن الإيمان المطلق يتضمن فعل جميع المأمورات ، وترك جميع المحظورات ،

الشرح

انتبه للمأخذ الدقيق ، يقول : إنك إذا قلت أنا مؤمن فقط وأطلقت ، فالإيمان المطلق يتضمن فعل المأمورات كلها وترك المحظورات كلها : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (الأنفال : ٢ ـ ٤) ، فهل أنت متصف بهذه الصفات ؟ إن شاء الله ، لكن لا أجزم بأني متصف بها ، أجزم بأن عندي أصل الإيمان هذا لا شك عندي فيه ، لكن أجزم بأني قائم بجميع المأمورات وترك المنهيات هذا أمر لا يمكن ، فأنا أستثني ملاحظاً هذا المعنى ، ما هو المعنى ؟ أن

الإيمان المطلق يتضمن فعل جميع المأمورات وترك جميع المنهيات ، وهذا شيء لا أجزم بالقيام به ، فأنا أستثني لهذا السبب ، فصار الاستثناء ملاحظاً فيه أن الإيمان المطلق يستلزم فعل المأمورات وترك المنهيات ، وهذا أمر لا يجزم به الإنسان من نفسه ، فهو يستثني لهذا السبب ، فأنا أقول إن شاء الله لأني لا أجزم أني قمت بكل واجب وتركت كل محرم ، لا أجزم بذلك ، فأقول إن شاء الله .أهـ

* * *

وهذا لا يجزم به الإنسان من نفسه ، ولو جزم لكان قد زكى نفسه ،

الشرح

لو قال أنا أجزم بأني فاعل لكل المأمورات تارك لكل المحظورات فهذا تزكية للنفس ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ (النجم :٣٢)أهـ .

* * *

وشهد لها بأنه من المتقين الأبرار ، وكان ينبغي على هذا أن يشهد لنفسه بأنه من أهل الجنة ، وهذه لوازم ممتنعة .

الشرح

ممتنعة شرعاً لو أنك قلت أنا مؤمن ـ بدون إن شاء الله ـ وقصدت الإيمان المطلق المستلزم لفعل المأمورات وترك المحظورات لكنت قد شهدت لنفسك بأنك من أهل الجنة ، لأن من كان هذا وصفه فلا بد أن يكون من أهل الجنة ، وهذا حرام لا يجوز للإنسان أن يقول إنه من أهل الجنة ، لو قال لك قائل : أنت من أهل الجنة ؟ فقلت : نعم وجزمت فإن هذا لا يجوز ، تقول إن شاء الله ، أرجو ، كذلك الذي يراد به فعل المأمورات وترك المحظورات لا أحد يجزم به ، فهذا مأخذ السلف في الاستثناء

في الإيمان ، فإذا قيل لك : أنت مؤمن فقلت : نعم ، ولا قلت إن شاء الله صح ، بناءاً على أصل الإيمان ، لأن أصل الإيمان عندك معلوم جازم به ، فإذا قلت : إن شاء الله صح أيضاً ، كيف ذلك ؟ باعتبار أنك تريد أن الإيمان عند الاطلاق يتضمن فعل المأمورات وترك المحظورات وهذا شيء لا أجزم به ، فأقول إن شاء الله لهذا الغرض ، أما على قول بعض الكلابية الذين يقولون : تقول إن شاء الله لأنك لا تدري ماذا تموت عليه فهذا ليس بصحيح ، لأن الإنسان إنما يخبر عن نفسه الآن أما المستقبل فالله به عليم .أهـ

* * *

القول الثالث - التفصيل ، فإن كان الاستثناء صادراً عن شك في وجود أصل الإيمان فهذا مُحرّم ، بل كفر ؛

الشرح

إذا قال أنا مؤمن إن شاء الله وهو يريد بهذا الاستثناء أصل الإيمان ، يعني أني متردد هل معي أصل الإيمان أم لا ؟ فأقول إن شاء الله إني مؤمن ، هذا ليس حراما فقط ، حرام بل كفر ، لأنه ينافي الإيمان الذي هو الجزم واليقين .أهـ

* * *

لأن الإيمان جزم ، والشك يُنافيه ، وإن كان صادراً عن خوف تزكية النفس والشهادة لها بتحقيق الإيمان قولاً وعملاً واعتقاداً ، فهذا واجب خوفاً من هذا المحذور ،

الشرح

إذا كان الاستثناء عند قول إن شاء الله لئلا أزكي نفسي ولئلا أشهد لها بأنها من

المتقين الأبرار ، فالاستثناء هنا واجب ، لأن تزكية النفس حرام ، وما أوقع في الحرام فاجتنابه واجب .أهـ

* * *

وإن كان المقصود من الاستثناء التبرك بذكر المشيئة ، أو بيان التعليل ، وأن ما قام بقلبه من الإيمان بمشيئة الله ، فهذا جائز .

الشرح

وهذا فيما يظهر لي غالب ما يقع من الناس ، أنه إذا قيل عنه مؤمن قال : إن شاء الله يريد بذلك التبرك وتحقيق ذلك بمشيئة الله ، وبناءً عليه فيكون ما يقع من العامة من الاستثناء جائزاً ، لأنه لو سألت أي واحد من الناس العامة ، عندما تقول إن شاء الله هل أنت في شك ؟ يقول لا والله لست في شك ، لكن أريد التبرك بذكر المشيئة ، فهذا لا بأس به ، يعني إن شئت فقل إن شاء الله وإن شئت فلا تقل ، ويدلك على أن إن شاء الله فيها شيء من التردد أنك لو قلت لصاحبك : أنت ستأتي إلينا الليلة ؟ قال : إن شاء الله ، هل ترى أنه أعطاك وعداً محققاً ؟ لا ، ولهذا بعض الناس يقول له لا تقل إن شاء الله ، قل سآتي ، أما إن شاء الله فليست جوابا ، لكن هو يقول إن شاء الله لأنه لا يدري هل يوجد ما نع أو لا يوجد ، أما أنا بنيتي إني جازم لكن قد يوجد مانع .أهـ

* * *

والتعليق بالمشيئة على هذا الوجه - أعني بيان التعليل - لا ينافي تحقق المعلق ، فإنه قد ورد التعليق على هذا الوجه في الأمور المحققة . كقوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُون﴾ (الفتح : ٢٧) .

الشرح

دخولهم البيت الحرام ثابت ومحقق ، والذي جعله محققاً أن الله وعد به : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ (الفتح :٢٧) .

وأكده بالقسم واللام والنون فهو لا بد أن يقع ، ومع ذلك قال إن شاء الله ، مع أن الذي قال إن شاء الله هو الله تعالى ، لكن ليبين أن دخولهم إياه مرتبط بمشيئة الله ، ولهذا لما قال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ وهو يحاوره في الشروط التي جرت بينه وبين المشركين قال يارسول الله : «ألست تحدثنا بأننا نأتي البيت ونطوف به قال : بلى أحدثك بهذا لكن هل قلت لك أنك تدخله العام؟ قال : لا قال : فإنك آتيه ومطوف به»[1] لأن الله قال : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الفتح :٢٧) لكن ليست هذه السنة ، وفيه دليل على أن عمر رضي الله عنه سيبقى حتى يدخل البيت ويطوف به ، فهو شهادة له بأنه لن يموت حتى يتحقق له ما وعد الله .أهـ

* * *

وبهذا عرف أنه لا يصح إطلاق الحكم على الاستثناء ، بل لا بد من التفصيل السابق . والله أعلم ، وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

حرر في ٨ من ذي القعدة سنة ١٣٨٠هـ والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

المؤلف

(٧٣) البخاري (٢٧٣١) كتاب الشروط / باب الشروط في الجهاد ، من حديث المسور بن مخرمة .

المصادر والمراجع

الكتاب	المؤلف	الناشر
إرواء الغليل	الألباني	المكتب الإسلامي
إجتماع الجيوش الإسلامية	ابن القين	كتبة المؤيد
الإبانة	ابن بطة	دار الراية
الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان	ابن بلبان	مؤسسة الرسالة .
الأسماء والصفات	البيهقي	مكتبة السوادي .
الإصابة	ابن حجر	دار الكتب العلمية .
التمهيد	ابن عبدالبر	تحقيق سعيد أحمد أعراب .
الجامع لسيرة شيخ الإسلام	محمد عزيز وعلي العمران	دار علم الفوائد .
السلسلة الصحيحة	الألباني	مكتبة المعارف .
السنة	الخلال	دار الراية .
السنة	عبد الله بن أحمد بن حنبل	دار ابن القيم .
السنة	ابن أبي عاصم	المكتب الإسلامي
السنن الكبرى	البيهقي	مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية
الصواعق المرسلة	القيم	دار العاصمة .
المستدرك	الحاكم	دار الباز .
المسودة في أصول الفقه	ابن تيمية	دار الفضيلة .

تابع المصادر والمراجع

المشكاة	التبريزي	المكتب الإسلامي
المعجم الكبير	الطبراني	طبع في العراق .
الموطأ	الإمام مالك	دار النفائس .
تاريخ دمشق	ابن عساكر	دار الفكر .
تذكرة الحفاظ	الذهبي	دار إحياء التراث العربي .
تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتعلم	ابن جماعة	دار المعالي .
تفسير ابن أبي حاتم	أبوحاتم الرازي	مكتبة نزار الباز .
تفسير القرآن العظيم	ابن كثير	جمعية إحياء التراث الإسلامي
جامع البيان	الطبري	دار التربية والتراث
حلية الأولياء	أبونعيم الأصفهاني	مطبعة السعادة بمصر
درء تعارض العقل والنقل	ابن تيمية	مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة	صلاح الدين مقبول أحمد	طبعة مجمع البحوث العلمية الإسلامية .
سير أعلام النبلاء	الذهبي	مؤسسة الرسالة .
شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة	اللالكائي	دار طيبة .
شرح العقيدة الطحاوية	ابن أبي العز الحنفي	المكتب الإسلامي
شرح صحيح مسلم	النووي	دار المنار .

تابع المصادر والمراجع

صحيح الجامع الصغير	السيوطي	المكتب الإسلامي
صحيح سنن أبي داود	الألباني	مكتب التربية العربي لدول الخليج
صحيح سنن ابن ماجه	الألباني	مكتب التربية العربي لدول الخليج
صحيح سنن الترمذي	الألباني	مكتب التربية العربي لدول الخليج
صحيح سنن النسائي	الألباني	مكتب التربية العربي لدول الخليج
ضعيف الجامع الصغير	السيوطي	المكتب الإسلامي
طبقات الشافعية	السبكي	دار إحياء الكتب العربية .
فتح الباري شرح صحيح البخاري	البخاري	دار الفكر .
مجمع الزوائد	الهيثمي	مؤسسة المعارف .
مجموع الفتاوى	ابن تيمية	الرئاسة العامة لشؤون الحرمين
مختصر الصواعق المرسلة	ابن القيم	دار الباز .
مختصر العلو	الذهبي	المكتب الإسلامي
مسند الإمام أحمد	الإمام أحمد	المكتب الإسلامي

الفهرس

الصفحة

الباب الأول

الباب الثاني

الباب الثالث

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

الباب الثامن

الباب التاسع

الباب العاشر

الباب الخامس عشر

الباب السادس عشر

الباب السابع عشر

الباب الثامن عشر

الباب التاسع عشر

الباب العشرون